



## البصرة

في خمس وعشرين رحلةً أجنبيّة

نصوص الرحلات

٩٥٦,٧٣٣

ظ. ٢٨٨ الظالمي، حامد

البصرة في خمس وعشرين رحلة أجنبية  
حامد الظالمي، البصرة، ديوان محافظة البصرة، ٢٠٢١.  
٨٨١ ص.، ٢٤ سم

١. العراق - تاريخ، ٢. البصرة - تاريخ

٠٩٠ م. أ. العنوان.

٢٠٢١ / ٤٠١٥

المكتبة الوطنية / الفهرسة أثناء النشر

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٤٠١٥) لسنة ٢٠٢١

برعاية  
محافظة البصرة



◇ جميع الحقوق محفوظة باستثناء اقتباس فقرات قصيرة لغرض النقد أو المراجعة، فإنه لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو تخزينه في نظام الاسترجاع أو نقله بأي طريقة من دون الحصول على إذن مسبق من الناشر.

◇ All rights reserved. Except for the quotation of short passages for purposes of criticism or review, no part of this publication may be reproduced, stored in retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, without written permission of the publisher.

الطبعة الأولى  
2021

# البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّةً

نصوص الرحلات

الجزء الثاني

جمعها وقدم لها:

د. حامد ناصر الظالميّ

جامعة البصرة - كليّة التربية للعلوم الإنسانيّة



2021



## رحلات الأب بارثيلمي كاريه

في العراق والخليج العربي وبادية الشام (١٦٦٩-١٦٧٤)

### الفصل الثالث: رحلة في خليج فارس إلى البصرة سنة (١٦٦٩)

الجمعة، ٣٠ آب / أغسطس، ١٦٦٩: بعد أن استعدت السفينة التي ستقلنا إلى البصرة للإبحار، أبحرتُ مع وكيل شركتنا السيد «فروت»، وغادرنا من ميناء «بندر عباس» بإتجاه مصب «شط العرب»<sup>(١)</sup> الذي يقع في أقصى شمال «الخليج الفارسي». وفي أثناء إبحارنا في مياه «الخليج الفارسي» كان معنا السيد «لابيل»، وهو وكيلٌ آخرٌ لشركتنا، سبق له أن غادر ميناء «بندر عباس» متوجّهاً إلى ميناء «كنج» عبر البر، لإرشاد سفينة شركتنا الموجودة هناك. وكانت لديه خبرةٌ لا بأس بها في التفاوض مع بلدان الشرق بمهارةٍ عالية، لكن بُنيته النحيلة وعدم قدرته على تحمّل الحر القائلط والرحلات المُضنية في هذه البلاد الحارة أتعبه كثيراً. فحينما وصلَ إلى ميناء «كنج» كان

---

(١) يستخدم الرحّالة تعبير «نهر الفرات» للإشارة إلى «شط العرب»، وسنذكر في الترجمة الاسم الصحيح، لأنه سيذكر «نهر الفرات» لاحقاً في رحلته من البصرة إلى حلب، وفي رحلته الثانية أيضاً.

٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

مُتعباً ومُرهباً بسبب المرض، فتوفي في «سورات» بعد بضعة أشهر من عودته. ومع ذلك، لم يترك وراءه شيئاً في ميناء «كنج» عندما عاد إلى «بندر عباس»، ومعه السيد «جيتو» الذي زوّده بالمال وبكل ما يلزم لرحلته البريّة إلى فرنسا.

يقول السيد «جيتو»: «بعد أن هيأنا كُلَّ مستلزمات الوكالة التجارية لشركتنا واصلتُ طريقي إلى العاصمة الفارسية أصفهان بلا تأخير، ومنها أكملتُ رحلتي براً حتى فرنسا». وبعد أن قَصَّ مغامرته للوزير والسادة أعضاء المقر العام للشركة عاد إلى مقره في مدينة «سومار» ليتولّى وظيفةً رفيعةً المستوى، أبدى فيها كفاءةً لا بأس بها<sup>(١)</sup>. ولكن لديّ قصةٌ أخرى سأحدثكم فيها عن جميع جزر وموانئ «الخليج الفارسي»، لن أتحدّث عنها هنا.

كان إبحارنا من «بندر عباس» حتى «شط العرب» مُريحاً جداً، إذ وصلناه بمساعدة تيار المدّ خلال يومين، حتى وصلنا مقابل مدينة البصرة التي تبعد عنه نحو ستين فرسخاً. والأرض هنا مستويةٌ ومنبسطة، وبدت لي أجمل بقاع الشرق وأكثرها سحراً. ويمكن لهذا النهر الجميل العريض العميق [=شط العرب] أن يحمل أكبر السفن الشرقية المحمّلة بالتوابل والبضائع الباهظة الثمن حتى هذه المدينة المشهورة، البصرة.

---

(١) أشار بليسو كاريه (Blésois Carre) إلى ذلك بعد عودته من فرنسا إلى «سومار جيتو».

## الدخول إلى شط العرب

عند دخولنا الشط، ارتفع منسوب المياه وغَمَرَ البرَّ لمسافة ثمانين فرسخاً، فتزحزحت السفن نحو بساتين مלאى بأشجار مثمرة تنتشر على ضفتيه. وما يضيفي على هذه الأشجار فتنةً طوال السنة، أنها مُغطّاةٌ بأوراق الأزهار والأثمار التي زادت منظرها ورائحتها سحراً. وغالباً ما كُنّا نرى هذه الأشجار مُزدانةً بالليمون، البرتقال، الرمان، الزيتون، الفستق، اللوز، الخوخ، المشمش، التفاح والكمثرى ... إلخ.

ويقوم العرب، وهم السكان الأصليون للبلاد، بزراعة الكروم وغيرها من الأشجار المثمرة الكبيرة اللذيذة جداً، وكلها تُسقى عبر قنوات صغيرة تفصل البساتين عن القرى المحاذية لضفاف الشط.

وبسبب شدة الحر طوال السنة، تتييس الأشجار والشجيرات الصغيرة التي ذكرتها (١)، فيقوم الأهالي بزراعتها بين غابات النخيل الباسق المحمّل بالتمر العالي جداً، الذي تشكل سعفاته الكبيرة العريضة ظلاً لجميع الأشجار المثمرة وتقيها أشعة الشمس المحرقة. وبها أن جميع الأشجار والنخيل كانت مُثمرةً ومُتّجّةً للتمر، فإنَّ عائدات الوالي من الأشجار والنخيل المُطل على النهر وحدها تبلغ مليون [إيكو] (٢).

---

(١) كانت تلك البساتين تتييس سنوياً.

(٢) لم يذكر الرحالة بعد كلمة «مليون» اسم العملة، والأغلب أنه يقصد «إيكو»، والإيكو الواحد يعادل قرشاً واحداً أو ثلاث ليرات.

٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

دعانا الشاهبندر، نحن وملاحى سفيتنا، للإقامة في منزله المريح في المدينة حين تفرغ بضاعتنا. ولكن بعد أن تشاورنا مع وكيلنا بشأن عَرْضِهِ، شكرناه وأبلغناه أننا نريد ضمان وضع تجارتنا قبل أن ننزل بضائعنا إلى البر، فقد كُنَّا لا نريد أن نُزَجَّ أنفسنا في مسألة قبل أن نعرف الوضع الحقيقي للمدينة، وأحوالها الداخلية وأحوال مخيمات العرب فيها، لئلا تحدث بعض المفاجآت ويدهمنا الوقت، فلا نتمكّن من الإبحار ثانيةً إن أنزلنا بضاعتنا.

ومع ذلك، ولكي نتأكد، نزلتُ في مساء اليوم ذاته إلى البر مع وكيل شركتنا السيد «فروت»، وهو رجلٌ ذكيٌّ ويفهم التجارة جيداً، وذهبنا للإقامة في دير للأباء الكراملة حتى نستطلع الأوضاع هناك. وسرعان ما علمنا أن أحوال العرب ليست على ما يُرام؛ إذ جاء بعض المسيحيين من أصدقاء كراملة الدير وأبلغوهم بوجود إشاعة قوية في المدينة تفيد أن أتراك القسطنطينية عادوا بجيشٍ عرمرم لإنقاذ موقع حامية «القرنة»<sup>(١)</sup>، الذي استولى عليه العرب، بعد أن علموا أن الأهالي والتجار يعتزمون مغادرة منازلهم وتجارهم كما فعلوا قبل مرتين أو ثلاث مرات. وعند المساء عدنا لننام في السفينة لكي لا نسمح للملاحين بالنزول إلى البر.

[السبت، ٣١ آب] في اليوم التالي نزلنا إلى المدينة أيضاً لزيارة حاكمها العربي، قريبٌ «يحيى باشا»، كما جرت العادة في بلدان الشرق. فحينما يقوم أحد بزيارة أحد

---

(١) القرنة موقع ستراتيحي يقع على بعد (٧٠) كم شمالي البصرة عند نقطة إلتقاء نهري دجلة والفرات.



[ ١٣ ] رحلات الأب بارثيلمي كاريه ..... ٧

الحكام أو إحدى الشخصيات المهمة، عليه أن يُقدِّم هديةً له. وبعد أن استقبلنا بطريقة وديّة وأكد حماية يحيى باشا ورعايته لنا، أخبرنا أنه أرسل إليه مَنْ يبلغه بخبر وصولنا إلى البصرة.

كان السيد «فروت» مُهتماً جداً بمصالح شركتنا، فأعجبه الترحيب والمُجاملات التي أمطرنا بها الحاكم العربي في هذه الزيارة، والذي لم يقبل هديتنا إلا بصعوبة. ولكن بما أنني خِرتُ تفكير العرب وأساليهم منذ مدة طويلة، فقد أخبرتُ وكيلنا أننا سنرى القصد من وراء كرم هؤلاء العرب قريباً؛ فهُم لا يُقدِّمون أي شيء ما لم يكن وراءه هدف. فمن غير المألوف أن يأتي هذا الشاهبندر بنفسه بعد عودتنا إلى سفينتنا ما لم يكن في جعبته شيء. فبخلاف نيّته (أنه جاءنا يعرض خدماته)، فقد جاء ليرى معدّاتنا وأسلحتنا وذخيرتنا الحربية على ظهر سفينتنا، ليتمكّن، بطريقةٍ أو بأخرى، من الحصول على بعض القطع لإيصالها إلى مركزهم في القرنة للقيام بأخر محاولة لطرده الأتراك ومنعهم من السيطرة على هذا الموقع الذي يحمي الممر المائي لنهري دجلة والفرات، ليتمكّنوا من إيقاف الحشود التركية عند هذا المكان.

### عرب البصرة يطلبون المساعدة من سفينة حربية فرنسية ضد الأتراك

الأحد، الأول من أيلول / سبتمبر: في هذا اليوم نزلنا إلى البر وذهبنا إلى الآباء الكراملة كالمعتاد، فجاءنا الشاهبندر ونائب الوالي والضابط الأول للكمرك لمناقشة الشروط التجارية للشركة التي نزمع تأسيسها هنا، ولمناقشة أمور أخرى أيضاً. فوجدنا أن هؤلاء المسؤولين العرب لطفاء وكرماء للغاية، إذ وافقوا على جميع مطالبنا،

٨ ..... البصرة في خمس وعشرين رحلةً أجنبيّة

حتى أنهم منحونا امتيازات كبيرةً جداً لم يحصل عليها أي أوروبي منذ مدة طويلة. وانتهت اتفاقية المباحثات الخاصّة بشركتنا بحصولنا على كل المكاسب التي نتمنّاها من العرب. وقبل أن نفارقهم طلبوا منا عقد جلسة خاصّة في مكان لا يضمّ سوى نفر قليل. فانسحب جميع الحاضرين ولم يبقَ سوى الرئيس الأعلى لدير الآباء الكراملة الأب المَبَجَّل «سيشيرين»، ووكيل شركتنا السيد «فروت»، وأنا. وحينما خلا الجو كشفوا لنا أسرار شؤونهم التجارية. وفي البداية رحّبوا بنا بشدة وأخبرونا أن أميرهم يحيى باشا، الذي كان على رأس القوات التي تحاصر القرنة، أرسلهم للترحيب بنا وتمنّى لنا التقدم والإزدهار في عملنا، وأكد لنا أننا نستطيع الاعتماد على ثقته ونفوذه في جميع شؤوننا. وبعد أن أخبرونا أن أميرهم منهمكٌ جداً بشؤون البلاد، أكدوا أنه يأمل أن نبادله الكرم باستتجار أو بيع مدفعين من مدافع سفينتنا ليسيّطرها على موقع القرنة، ويصبح السيد المطلق على جميع البلاد دون خشيةٍ من الأعداء؛ إذ سيتمكن بهذا الموقع الحصين من إغلاق هذا الممر تماماً أمام الجيوش التركية التي لا تستطيع المجيء من نهر دجلة إلاّ عبر هذا المصب الذي تحرسه قلعة القرنة.

كان الأب الكرملّي إسبانياً من إقليم أراغون، وهو يَتَمَتَّع بتقديرٍ كبير بين هؤلاء العرب، وتمكّن بذكائه الحاد من إدارة الدير في البصرة بسلامٍ منذ سنوات، وهو يرغب كثيراً أن نوافق على طلب هؤلاء العرب، ويفضّل سيّطرتهم على سيطرة الأتراك، القُساة جداً تجاه المسيحيين، فضلاً عن أن معاناة كنائسنا الكاثوليكية ستكون أقل في ظل العرب. لكن هذا الأب لم يكن مُهْتَمّاً إلاّ بمصالحه وبالمحافظة على الدير، ويريد إقناعنا أن الموافقة على مطالب العرب بشأن المدفعين والذخيرة الحربية لمساعدة أميرهم

يحيى باشا عملٌ جيد.

كان الوكيل التجاري الفرنسي (السيد فروت) الذي قدّم الهدية يحمل وجهة نظر مشابهة، وكان يريد إعطاء العرب ما يتمنون، باستثناء هذين المدفعين، ولكن كانت لديه أوامر من المدير العام، السيد «كارون»، بعدم القيام بأي شيء دون استشارتي وموافقتي. وعندما سألوني عن الموضوع أجبتهم دون مراوغة أننا لا يمكن أن نوافق على مقترحهم لأنه قد يلحق ضرراً جسيماً بأمّتنا وبالتجارة التي نريد أن نؤسس شركتنا على أساسها في هذا الموقع من البصرة، في وقتٍ بدأ فيه عملنا ينتشر في الشرق، وأفهمتهم أن المدافع والأسلحة والذخيرة الحربية التي وضعها رئيس شركتنا على ظهر السفينة هي للدفاع عن أنفسنا ضد قراصنة البحر الذين يريدون مهاجمتنا ليس إلّا، ولا يُسمح لنا بالمتاجرة بهذه الأشياء أو بيعها مُطلقاً في الممالك الأجنبية التي تُرسل سفن الشركة إليها، ولا حتى البضائع الأخرى التي تركتها الشركة بعهدتنا لبيعها أو المتاجرة بها إلّا بموافقتي. من جهة أخرى، قلتُ لهم أننا ذاهبون بصفة أصدقاء للأتراك وللعرب على حد سواء، ولا يمكن أن نعطي السلاح لأحدهما دون الآخر فيكون ضدنا، فضلاً عن أن شركتنا ستفقد كل تجارتها في ما لو عاد الأتراك وأصبحوا أسياد البصرة مجدداً. حينها سوف يمنعونا من المتاجرة هناك لو علموا أننا أعطينا الأسلحة إلى هؤلاء العرب لمقاتلتهم. فمن الأفضل لنا أن نُشعر العرب أننا لا نستطيع قبول طلبهم، عندها سينصرفون ببعض الحزن.

بعد ذلك، عندما تناقضتُ مع وكيلنا على انفراد، أفهمته النتائج والأضرار

١٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

الكبيرة التي قد تحدث لتجارتنا في حال موافقتنا على تزويد هؤلاء العرب بالسلاح والذخيرة ضد الأتراك الذين هم على وشك دخول البصرة، ومن ثم سنعطي العثمانيين كل الحق برفض الإمتيازات التجارية التي منحوها للدول الأوروبية الأخرى. ولزيادة الأمان من مفاجآت العرب، نصحته بعدم السماح لرجال سفينتنا بالنزول إلى البر مطلقاً، وأن يذهب هو وبعض الضباط لقضاء بعض الأمور الضرورية في المدينة، شريطة أن يعودوا للنوم في السفينة حتى يكونوا مستعدين للإبحار في حال حدوث أية مفاجآت، وعدم السماح لأي ضابط أو جندي عربي بالصعود إلى السفينة إطلاقاً حتى ولو بذريعة الواجب أو الزيارة، لئلا يباغتوننا ويحصلوا بالقوة على ما لم يحصلوا عليه باللين والهدايا. وهكذا حسمنا الموضوع.

وحينما نزلنا إلى البر ذهبنا للإقامة عند الآباء الكراملة، وقد رحب بنا الشاهبندر العربي وحاول إقناعنا بقبول السكن الذي أعدّه لتفريغ بضاعتنا. ولكن بعد أن علمنا أن أوضاع العرب سيئة في البصرة، لم نجازف بإنزال أي شيء من سفننا، ولا سيما حينما شاهدنا الكثير من التجار الأغنياء الذين جاءوا يبحثون عنا خفيةً في أثناء المساء لنستقبلهم في سفينتنا مع بضائعهم وثرواتهم، وهذا ما أكد لنا زحف الجيش التركي القادم من النهر وظهر على مشارف البصرة. فصرفنا النظر عن إنزال بضائعنا واكتفينا بتحميل سفننا بالكنوز والثروات التي أحضرها الآباء الكراملة خفيةً في المساء، إذ أننا سنغادر بسفننا وقواربنا الكبيرة ليلاً مع بعض التجار الأثرياء ممن لا يحملون سوى الأموال والجواهر والأحجار الكريمة والحلي الخفيفة، دون أن نكدس السفينة بمن لديه بضائع ضخمة. وقمنا بهذه العملية ليلاً حتى لا نُثير ريبة العرب في البصرة،

فيضايقونا لو علموا بمغادرة هؤلاء التجار.

في خِصَمِ الفوضى والقلق الشديد الذي بدأ يتواتر في مدينة البصرة، حصل حادثٌ أفادنا، وهو أن العرب توقفوا عن إقلاقنا ومعارضتنا، وبدأوا يلاطفونا كثيراً أينما نجدوننا. فدائماً ما كُنَّا نزر آباءهم وأصدقاءهم الجرحى في معسكراتهم، الذين كانوا يُنقلون إلى مخيمهم، إذ لا يُوجد بينهم أطباء جراحون ولا أدوية أو مراهم كالتي لدينا. وما زادنا شهرةً واحتراماً بأعينهم ما قمنا به تجاه قائد جيشهم، شقيق الأمير يحيى باشا. فحينما أراد شن آخر هجوم على موقع القرنة أُصيب بجرح من اطلاقتي بندقية، واحدة في رقبته، والأخرى اخترقت جسده، فتمَّ إخلاؤه من ساحة المعركة ونُقل إلى البصرة وظلَّ ينزف لمدة ثلاثة أيام. وبعد أن استُدعي جراحونا لمعالجته رافقتُ رئيس الجراحين في سفينتنا السيد «أوجير»، وهو بارعٌ في مهنته، فاعتنى به عنايةً فائقةً حتى أُنقذ حياته. وسرعان ما بدأنا نعاني في التخلص من جموع المعوقين العرب، الذين تمَّ إحضارهم إلينا وهم يصرخون ويتوسلون بشكلٍ يثير العطف. وغالباً ما كُنَّا نضطر للتوقف لإعطائهم بعض الأدوية لتخلص من مضايقاتهم.

### العرب يعذبون الأتراك

حينما خاب أمل عرب البصرة في مهاجمة موقع القرنة، بدأوا يَشْتَوْن في كل يوم ملحمةً مأساويةً قاسيةً ضد جميع الأتراك، فبإيادهم في معسكراتهم في القرنة ويقتادوهم إلى البصرة ليقتلوهم. وذات يوم شاهدنا عملية قتل جماعية ضد عدد كبير منهم بطريقة قاسية جداً جعلتنا نرتجف من ذكراها؛ إذ تمَّ عرض بعضهم عراً تماماً

١٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

على مرأى الأولاد والنساء وعامة الناس الغاضبين، وسُلخت جلودهم وتمّ تقطيعهم أحياءً، بينما عُرِضت أجساد البعض الآخر عاريةً لحرارة الشمس اللافحة والذباب، وسُحِل آخرون في الشوارع، وقطعت أيدي وأرجل البعض الآخر أحياءً، ورُميت للكلاب على قارعة الطريق، وخُزق آخرون وعُرِضوا عُراةً فوق أسيرةٍ معرّضة لحرارة الشمس الشديدة، حتى تمزّقت أجسادهم ونحوّلت إلى أشلاء، وتركوا على هذه الحال يُعانون أقسى ألوان العذاب، ودُفنت أجساد آخرين حتى رقابهم في الساحات والطرق العامة، وبقيت رؤوسهم حيةً مثار عبث واستهزاء الناس.

### الرحالة ينقذ ستة أتراك

وذات صباح، حينما كنتُ عائداً مع الجراح الخاص بنا من الأمير العربي، شاهدنا ثلاثة أتراك مدفونين أحياء في الفناء المقابل لقصره، فعدنا إليه وقلنا له أننا لا يمكن أن نأتي بعد الآن إلى منزله لنعطيه الدواء، لأننا لا نريد أن نرى هذا التنكيل الجسدي الذي رأيناه أمام باب قصره، وطلبنا منه أن يترك هؤلاء وثلاثة آخرين كانوا يُسحلون، فوافق على طلبنا. وبعد أن أطلقنا سراحهم أرسلناهم إلى سفينتنا لنجعلهم ضمن بحارتنا، إذ كُنّا بحاجة إليهم في سفينتنا. ومن بين هؤلاء الستة كان أربعة متأثرين جداً بمعروفنا بإنقاذ حياتهم، فاعتنقوا المسيحية على يدي بعد أن كانوا مرتدين، وتمّ تعميدهم على ظهر سفينتنا.

ولم يكد يمرُّ علينا يوم دون أن نشاهد مدينة البصرة مليئةً بالمشاهد المحزنة المؤلمة، التي جعلت الناس في كآبة وحزن ورعب شديد لا يعلمون كيف سينتهي. وكنا نرى

[ ١٣ ] رحلات الأب بارثيلمي كاريه ..... ١٣

عصابات الجنود تأتي وتذهب في الشوارع أحياناً، فاضطر الحرفيون إلى إغلاق دكاكينهم. وأحياناً كُنّا نشاهد عامة الناس، نساءً وأطفالاً، يتدافعون على غير هدى، حتى سادت الفوضى كل مكان، دون أن نعرف ما العمل، لأننا لم نعرف حقيقة الوضع في معسكر الأمير العربي، وكانت تلك سياسة الوالي (١)؛ فقد سيطر على الطرق وأغلق جميع الجهات، حتى لا يسمح بمرور أي شخص قد ينقل أخبار إقتراب الجيش التركي. ولم يكن هناك من يعرف الأخبار سوى حاكم المدينة والمسؤولون في البصرة، الذين يقومون بحراسة قصر الأمير جيداً ليل نهار، حيث حريمه وخزائنه، وبحراسة أبواب المدينة، مما جعل الناس في حيرة من أمرهم ولا يعرفون ما يقررون.

### محاصرة العرب للقرنة وهروب يحيى باشا

[الخميس، ٥ أيلول / سبتمبر] وأخيراً، لاحت رايات القوات التركية على بُعد يوم واحد شمالي القرنة، فبدأ العرب المحاصرون منذ خمسة أشهر بالتفرق جماعات جماعات. وقد شقَّ الفُرسان الأتراك طريقهم نحو السهول، ونزل آخرون إلى النهر للإستيلاء على القوارب والسفن. وعند الساعة التاسعة مساءً خيم ظلامٌ شديدٌ، فعدنا إلى سفينتنا وتفاجأنا لرؤية الشاطيء مغطىً بالقوارب والسفن والطوافات وغيرها من المعدات الخشبية، كُلُّها مُحمَّلة بالجنود بلا ضجة ولا أنوار. وقد دخل معظمهم القناة المؤدية إلى البصرة، واتجه آخرون نحو الشاطيء خفيةً.

---

(١) كانت سياسة الوالي تقضي بإغلاق جميع الطرق تماماً.

١٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

ولم تكن القوات التي سارت في جنح الظلام والسكون إلّا نذير شؤم، ونعتقد أنها متجهةٌ لمباغطة المدينة وتدميرها، وهو الأمر ذاته الذي يخطط له الوالي لو سنحت له الفرصة. ولكن بناءً على أخبار مؤكدة، فبعد أن لاحت رايات الأتراك شمالي القرنة، فإنه تسلل إلى قصره في البصرة تحت جنح الظلام، وتوجه إلى السراي، حيث حريمه وكنوزه والمقربون إليه، ونقلهم على ظهر القوارب والسفن، وقادهم جميعاً على بُعد خمسة فراسخ جنوبي البصرة إلى قلعة «الحفار»، حيث خيوله وجماله وكل ما يلزم لهروب. وبعد أن اختفى تسلل إلى بلاد فارس، التي عومل فيها باستصغار، وظلّ يعاني لمدة سنة كاملة من الإقامة بين العرب في هذا الجانب من «الخليج الفارسي» دون أن يعرف أين يلجأ ليجد الأمان.

وفي البلاط الفارسي لم يرحب به أحد، وكان موضع احتقار الجميع، لأنّه استخدم الخيانة مع حميه وسلّم البصرة إلى الأتراك. وكان الفرس يشعرون بالغيرة الشديدة من هذا العدو الوقح الذي سيكون قريباً جداً من الحدود الفارسية في حال استيلائه على هذا الموقع. كما لم يتمكّن من اللجوء إلى بلاط كبير المغول، لأنّ نفوذ حميه «حسين باشا» قد يطاله هناك، فيتعرض للعقاب بسبب خيائته. وفي ما بعد ترك البصرة ولجأ إلى بلاط «أورنزيب».

أخيراً أبحر إلى ميناء «كنج» في ساحل «الخليج الفارسي» بواسطة الأسطول البرتغالي المتّجه إلى غوا. وعندما مرّ [البرتغاليون] بسواحل الهند الشرقية لجأ إلى الأمير «شيفاجي» الذي كان، لسنوات عدّة، مصدر رعب للمماليك المجاورة التابعة لكبير



المغول، لقيامه بسلب ونهب الكثير من المدن الكبيرة والأقاليم التي حاصرها من كل الجهات بجيوشه.

ولكي لا نبتعد عن موضوعنا سنترك هذا الأمير العربي في جيش «شيفاجي» ونعود إلى البصرة لنرى ما حدث بعد هروب يحيى باشا الذي اختفى كما ذكرت في ليلة الخامس من أيلول / سبتمبر (١٦٦٩) دون أن يعرف ما حلّ بالمدينة<sup>(١)</sup>.

في اليوم التالي [الجمعة، ٦ أيلول / سبتمبر]، ذهبت بعض النسوة لتناول طعامهم، كالمعتاد، في قصر الوالي، وكنَّ يحملن زهوراً وفواكه لنسائه. ولكنهن تفاجأن حينما لم يجدن رجالهن ولا الحرس. فهرعن إلى منزل الحاكم وهن بحالة رعب وحيرة. وحينما لم يجدن سوى بضعة جنود عمَّهن الهلع والفرع، فأخذن يصرخن ويركضن في الشوارع بطريقة رهيبة، وبدأن بتمزيق ملابسهن وشعورهن وحليهن. فاسترعى صراخهن ونحيبهن إنتباه الآخرين. وبعد قليل عمَّ الرعبُ المدينة، وعلا الصُراخ ونحيب الرجال والنساء والأطفال المثير للشفقة، وهرع الأهالي إلى قصر الوالي ومنزل الحاكم ومنزل الشاهبندر وإلى البيوت الأخرى لضباط المدينة، فلم يجدوا سوى الجدران والصالات والغرف الخالية المهجورة والحزن والصراخ واليأس الذي تفاقم بطريقة مأساوية، وأصيبت المدينة المسكينة بحالة ذهول. وشوهد الجنود يجوبون

---

(١) أوجز «ستيفن هيمسلي لونكريك»، ولا سيما في الصفحتين (١٤٨-١٤٩) الحصار الفاشل للقرنة وخسارة يحيى باشا البصرة أمام القوات العثمانية. أربعة قرون من تأريخ العراق الحديث، ترجمة: جعفر خياط، ط٦، بغداد، ١٩٨٦، ص ١٤٨-١٤٩.

١٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

المدينة، ويدخلون إلى البيوت والأسلحة بأيديهم، فيجدونها مفتوحةً ويستولون على أثاثها ويبحثون عن الكنوز المخبأة للتجار الأغنياء. ومن جهة أخرى، كُنّا نرى الرجال يلوذون بالفرار، تاركين خلفهم زوجاتهم محبطات في الشوارع ووسط الساحات، يتبعهن ويحيط بهن أطفالهن الذين كانوا يبكون بكاءً مُراً.

هذا هو المشهد الذي رأيناه طوال هذا اليوم في مدينة البصرة، إذ لم يكن أحد يفكر بأمواله أو بثرواته أو حتى بمنزله، فلم يكن همُّ الأهالي سوى إنقاذ أنفسهم. وشاهدنا حشداً كبيراً من التجار يهرعون إلى دير الآباء الكراملة وطلبوا منا السماح بالصعود إلى سفينتنا، ولكننا رفضنا لأننا أركبنا الكثيرين منهم في الأيام السابقة. وبعد أن شاهدنا الدهول يعمُّ المدينة كان علينا أن نأخذ معنا كل آباء الدير الكراملة مع كثير من العوائل المسيحية التي عانينا صعوبةً في نقلها على ظهر سفينتنا بسبب الضجة المفزعة التي حدثت في كل جانب. وفي أثناء مرورنا كُنّا نرى نساءً مسكينات يستوقفننا في كل دقيقة ويلقن بنا أنفسهن على أقدامنا، ووجوههن مלאى بالدموع يتوسلن أن نقتضهن، فاضطررنا أن نسدّ آذاننا لتخلص من إلحاحهن، لأننا كُنّا نقود الأسر المسيحية التي تبعتنا بكثير من الرعب بعد مشاهدتها القوات التركية تجوب أرجاء المدينة.

لكن كل ما رأيناه في هذه المدينة من حزنٍ ورعبٍ طوال اليوم قليلٌ مقارنةً بما رأيناه في آخر النهار أسفل نهر البصرة الصغير. فحينما دخل جميع الهاربين إليه وجدوا سعة شط العرب وسرعته تزرع الرعب والهلع في نفوس أشجع الشجعان. ومع ذلك، هرعوا للعبور إلى الضفة الأخرى (أي إلى الجانب الفارسي)، لينجوا بأنفسهم.

### تأثيرات الخوف المفرعة

هناك شاهدنا أموراً محزنةً، فمن لم تكن لديهم القدرة أو الوسيلة في الحصول على سفينة أو قارب صنعوا طوافات من الجذوع والألواح الخشبية، لينقلوا عوائلهم، إذ يمكن للماء حمل أثاثهم والقليل من الأمتعة. فمن لديه الوقت الكافي لصناعة هذه القوارب يستطيع عبور النهر الواسع بأمان. ولكن بعضها كان يتفكك ويغرق بسبب الأعداد الغفيرة من الناس الموجودين عليها. وأكثر ما أثار حزننا عامة الناس ممن لم يحصلوا على قارب أو وسيلة لعبور هذا النهر السريع. وكُنَّا نشاهد رجالاً يعبرون حاملين نساءهم على ظهورهم، وأولادهم مربوطون على جوانبهم وهم يسبحون على حزمة صغيرة من الخشب. أما من لم يستطع نقل هذا الحمل فكانت سرعة التيار تجرفه إلى الضفة الأخرى. وشاهدنا آخرين يستخدمون مواشيهم بعد أن يربطوا بذيوها حُزماً من الحصير والقصب وقطع الخشب وأشياء مشابهة أخرى، فيضعون نساءهم وأطفالهم عليها لتجرها ذبول الأبقار والجواميس والخيول وغيرها من الدواب. وبهذا أصبح النهر مُغطىً تماماً بهذا النوع من وسائل النقل، وتحوَّل الخوف إلى رعبٍ شديد.

وعند حلول الليل رأينا من سفينتنا هذه المشاهد المُحزنة، وكانت المأساة تتعاضم مع تزايد عتمة الليل. فهناك من لم يتمكن من المَجئ واللحاق بالآخرين فيغرق، وهناك من يحاول سحبه فيغرق معه، بعد أن يُطلق صرخات وأنات مؤثرة تجعل صفتي النهر ترتعد خوفاً.

وأخيراً، بعد أن عانينا ما عانينا في نقل المسيحيين بسفننا، رفعنا المراسي في

١٨ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

منتصف الليل وانطلقنا ببطء مع تيار النهر الذي دفعنا بعيداً عن أنظار ومصاب جميع هؤلاء المساكين البائسين العائمين حولنا مع صرخاتهم ونحيبهم الذي ملأ قلوبنا حزناً.

وحينما ارتفع منسوب مياه شط العرب رسونا على بُعد فرسخين جنوبي البصرة، بالقرب من جزيرتين صغيرتين في وسط الشط هما «أمستردام» و«مدل بروج»<sup>(١)</sup>، وهما الجزيرتان اللتان صادفناهما عند صعودنا إلى مصب شط العرب. ولا يزيد طول كليهما عن ربع فرسخ، وكلتاهما مليئتان بالنخيل العالي وبالكثير من الأشجار المثمرة الأخرى. وتكثر فيهما الثمار اللذيذة والكثير من البطيخ الأصفر والخيار والبطيخ الأحمر [الرقّي] والخضار والأعشاب والبقول المكسوة بخيوط الكتان الناعمة جداً. وهكذا كانت الضفاف الأخرى لشط العرب.

### قلعة الحفّار

في اليوم التالي [السبت، ٧ أيلول / سبتمبر]، رفعنا أشرعتنا للإبحار وخرجنا بأقصى سرعة من هذا النهر. وبعد أن قطعنا أربعة فراسخ بصعوبة بالغة، عصفت بنا رياحٌ غربيةٌ عاتيةٌ معاكسةٌ مصحوبةٌ بأعاصير وزوابعٍ مخيفةٍ أجبرتنا على التوقف على

---

(١) جزيرتان عند مصب شط العرب في البصرة تسميان «قيان» و«چادر». وقد ذكرهما تيفينو. انظر: رحلات جان دي تيفينو في الأناضول والعراق والخليج العربي (١٦٦٤-١٦٦٥)، ترجمة: أنيس عبد الخالق محمود، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠١٣، ص ١٣٠، ١٣٤، ١٣٦، ١٣٧.

بُعد ستة فراسخ جنوبي البصرة، أمام قلعة «الحفار».

بُنيت قلعة «الحفار» هذه في عهد «حسين باشا»، أقوى أمير عربي في البصرة، لحماية ممر شط العرب، الذي يَنْفَرَعُ إلى ثلاثة فروع: فالوسط هو المجرى الطبيعي، يتجه نحو الشرق ويصب في «الخليج الفارسي»؛ والممتد بإتجاه الشمال الشرقي وتقع قلعة «الحفار» عند مصبه يتجه لیتلاشي عند سفوح الجبال العالية على السواحل الفارسية، بعد أن يروي مساحاتٍ كبيرةً من الحقول الشاسعة؛ أما الفرع الآخر الذي يقع مصبه في الجهة المقابلة لقلعة «الحفار»، فيمتد نحو الجنوب ويتجه لیسقي السواحل العربية، ويتلاشى بالقرب من جزيرة «البحرين» في «الخليج الفارسي» الشهيرة جداً بالصيد الوفير لأجمل اللآلئ الشرقية.

استمدت هذه القلعة تسميتها من مفردة عربية تعني «المعبر»، إذ يتّم دفع الرسوم الكمركية في أثناء الدخول والخروج منها (١). وقد بناها عرب البصرة لإجبار القوارب والسفن الكبيرة الأخرى التي تتردد إلى الشط على دفع رسوم المرور، لكن الأتراك هدموها في سنة (١٦٦٨) عند استيلائهم على البصرة أول مرة، فدمروا القلعة لاعتقادهم أنها عديمة الفائدة، كما هدموا المتاريس وأزالوا منها بعض قطع المدفعية

(١) مع أن كاريه أوضح لاحقاً (صفحة ٦٤٩ من المخطوط الأصلي) أنها تعني مكاناً لجباية الضريبة، لكن يفهم من سياق النص أن المقصود بها «الجزر»، استناداً إلى أن الكلمة المقصودة (Casser)، وكتبت الكلمة بصيغة (Caffard)، وحرف (f) هنا هو (s). وقد لُحِقَ بالكلمة حرف (d) كما في بعض الكلمات الأخرى التي ستمر بنا لاحقاً. ويؤيد سياق النص هذا الرأي ويوضحه أكثر.

٢٠ ..... البصرة في خمسين وعشرين رحلةً أجنبيّة

والذخائر الحربية ونقلوها إلى مكانٍ آخر يبعد ستة فراسخ شمالي البصرة، عند القرنة، وهي موقع بالغ الأهمية بسبب وقوع نقطة إلتقاء نهري دجلة والفرات في هذا المكان، الذي يحمي مدينة البصرة، وهو بوابة الأمان لحماية بغداد (١)، وغيرها من المناطق التركية.

### الحزن يخيّم على أهالي البصرة

شاهدنا الحزن يخيّم على أهالي البصرة الذين لجأوا إلى «الحفّار»، في خضم الاضطرابات، ليواصلوا طريقهم، فذهب قسم منهم نحو السواحل الفارسية، وذهب القسم الآخر بإتجاه شبه الجزيرة العربية.

[الأحد، ٨ أيلول / سبتمبر]، بعد عاصفةٍ استمرّت أربع وعشرين ساعةً متواصلة، صفا الجو وشرعنا بالإبحار. وخلال يوم واحد وصلنا إلى مصب شط العرب. وعند إنبلاج الفجر دخلنا «الخليج الفارسي»، فاندھشنا لرؤية جثث أعداد كبيرة من الرجال والنساء والأطفال، بعضهم عارٍ تماماً والبعض الآخر بملابسهم، طافيةً فوق أمواج البحر، نتيجة العاصفة السابقة. وحينما رأيناها تصورنا في بادئ الأمر أن البحر ابتلع بعض السفن بسبب عاصفة يوم أمس. ولكننا تأكّدتنا أكثر حينما لاح لنا مشهدٌ آخر في البحر. فقد شاهدنا ما يشبه حوتاً كبيراً من بعيد، راكداً على سطح الماء، فوجّهنا سفينتنا شمالاً لتتعرّف على حقيقته. وحينما اقتربنا منه أكثر وجدنا

---

(١) وَرَدَتْ فِي النَّصِّ الْأَصْلِيِّ بِصِيغَةِ «بَابِل».

[ ١٣ ] رحلات الأب بارثيلمي كاريه ..... ٢١

سفينة كبيرة مقلوبةً وعليها عددٌ كبيرٌ من الأشخاص العُراة يُلوّحون لنا بأيديهم؛ فأرسلنا قارباً لإنقاذهم لثلاثيتلعمهم البحر، واقتدناهم إلى سفينتنا، فوجدناهم في حالة وهن شديد. وما أن وصلوا إلى سطح السفينة حتى سقطوا من شدة الإعياء، وكانوا عشرة رجال وستة نساء اعتنى بهم جرّاحونا. وخلال بضعة ساعات استعادوا وعيهم بعد أن أفرغوا ما في جوفهم وتناولوا شراباً مُنعشاً. بعد ذلك، قمنا بتغطيتهم ببعض الملابس وأخذناهم إلى الحجرة الكبيرة في سفينتنا، فأسرع كل منهم يخبرنا كيف حلّت بهم هذه الكارثة، وبدأوا يقصّون علينا حكاياتهم المثيرة عنها. وقالوا لنا أن حالة الفوضى والفرع التي اجتاحت البصرة خلال الأيام السابقة جعلتهم يأخذون القارب الكبير الذي كان موجوداً في المياه بسرعة، فصعد إليه نحو مئتين وعشرين شخصاً من رجال ونساء وأطفال، إلى جانب أثاثهم ومؤونهم. وقد حُمّل القارب بأكثر من طاقته. وحينما أرادوا الخروج من الشط والدخول إلى «الخليج الفارسي» باغتتهم جميعاً دوامة هنا، وبقوا على تلك الحال مدة أربع وعشرين ساعة وهم يقاومون أمواج البحر العاتية التي قلبت قاربهم وحطمته، وظلت بقاياها طافيةً فتعلّق بها عددٌ كبيرٌ كما رأيتم. بيد أن معظم الأشخاص خارت قواهم فغرقوا بعد أن فقدوا أي أمل لإنقاذهم.

وحينما انبلج الفجر، وشاهدوا سفينتنا في البحر، شجّعوا بعضهم، على أمل أن نُنقذهم، وهو ما قمنا به فعلاً.

وبينما كان هؤلاء المساكين يقصّون علينا تلك القصص المأساوية، كان بحارتنا وملاحونا يقومون بجولة بالقارب حول سفينتنا بحثاً عن الجثث الطافية لتجريدها

٢٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

من الخواتم والأساور والقلائد الثمينة جداً التي كان رجال ونساء الشرق مولعين بالتزّين بها، مقابل المعروف الذي أسداه ملاحونا لإنقاذ أرواح هؤلاء العرب المساكين، الذين شعروا بالارتياح لأننا أخذناهم بسفيتتنا من البصرة.

### النزول عند جزيرة خرج

في اليوم التالي [الإثنين، ٩ أيلول / سبتمبر]، وصلنا جزيرة «خرج» ورسونا عند الجانب الشرقي مقابل مسجدٍ يشبه هرمًا مرتفعاً جداً، يقع على ربوة تبعد ربع فرسخ عن ساحل البحر. فنزلنا هنا وقام بعض التجار المسافرين معنا ب نصب خيامهم على ساحل البحر تحت ظلال الأشجار الكثيفة الضخمة التي كانت تُستخدم لراحة المسافرين والتجار الأجانب الذين يمرون بسفنتهم من هنا. وبما أننا كُنّا غير مرتاحين بسبب الأعداد الغفيرة من الناس والكميات الكبيرة من البضائع التي أخذناها معنا من البصرة، فقد بقينا بضعة أيام في هذه الجزيرة لنستريح. وقام أباًؤنا الكراملة بإنزال المسيحيين أيضاً ونزلوا في مكان جميل منعزل محاط ببستان كبير يزهو بالأشجار المثمرة التي تضللنا في أثناء النهار وتقينا أشعة الشمس التي كانت محرقةً جداً طوال هذه السنة.

تعدُّ جزيرة «خرج» إحدى الجزر الرئيسة في «الخليج الفارسي»، وتقع في أقصى أطراف الخليج على بُعد نحو عشرة فراسخ جنوبي مصب شط العرب بإتجاه الغرب، وهي تقع في وسط الساحلين العربي والفارسي تقريباً. وإلى شمالها يقع ميناء «بندر ريق» على بُعد ستة فراسخ من الساحل الفارسي. ومن الجنوب بإتجاه الساحل العربي



تقع جزيرة «البحرين» المشهورة بصيد اللؤلؤ الجميل.

وبينما كان الكثير من الحكام الصغار المستقلين يتقاسمون «الخليج الفارسي»، كان اليهود يستحوذون على جزيرة خرج هذه، وأسسوا فيها مدناً مهمةً وبعض القلاع التي لا تزال آثارها شاخصةً للعيان حتى الآن. وهناك معبدٌ يهوديٌّ جميلٌ لا يزال هرمه مرتفعاً جداً حتى اليوم تمَّ تحويله إلى مسجد للمحمّديين. ولكن حينما احتل البرتغاليون مضيق هُرمز سيطروا على أولئك الحكام وأخضعوهم لهم. وبعد ذلك قام الشاه عباس، في سنواته الأخيرة، بطرد البرتغاليين من «الخليج الفارسي» ومن جميع تلك الجزر، فعاد إليها العرب لكنهم خضعوا هذه المرة لملك بلاد فارس. بيد أن الحروب والثورات غيّرت وحطّمت كلَّ شيء، ولم نعد نرى من هذه الجزر سوى الآثار المتبقية من جمالها القديم، وهذا ما لاحظته، إذ لا تُوجد فيها سوى قرية كبيرة تقع على شاطئٍ رائع، ولم نشاهد من آثار المدينة سوى أسوارها القديمة وأسس المنازل الرئيسة والقلاع المهدّمة. كما شاهدنا بقايا قناة كبيرة تحت الأرض<sup>(١)</sup>، مبنية من أحجار منتظمة جميلة، وهي تحترق الجزيرة كلها، وتُستخدم لنقل الماء العذب من منابع بعيدة إلى المدينة، كما تنقل «آلة مارلي»<sup>(٢)</sup> المياه إلى فرساي عبر أنابيب في قناة تحت

---

(١) لا تزال آثار تلك القلاع موجودة حتى الآن.

(٢) آلة مارلي: مجموعة معقدة من الدواليب والمضخات تدار بواسطة الخيول عبر أخاديد وقنوات تنقل مياه السين إلى حدائق فرساي لتغذي النوافير وجداول المياه. انظر: Pierre Verlet, Le

٢٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

الأرض. وهذا ما جعلنا ندرك عظمة وقدرة من حكموا هذه الجزيرة.

إن شكل جزيرة خرج يكاد يكون مستديراً، ويبلغ طولها نحو عشرة فراسخ، ومعظم تربتها صخرية، وهي مرتفعة من وسطها على هيئة قبة، وكلها مُعرّضة لحرارة الشمس التي تنشر حرائقها المتواصلة طوال السنة. ويبدو أنها كانت مغطاةً في ما سبق بغابات كبيرة تمّ اقتلاعها ولم يبقَ منها سوى الجهة المأهولة المُطلّة على جهة الشرق، إذ لم تزل تُشاهد فيها بعض البساتين الكبيرة المسيّجة بالنخيل والحدايق. ويقوم الأهالي بجني وريّ الخضار والبطيخ والخيار وأعشار الباقلاء بالماء الذي يتمّ سحبه بصعوبة من الآبار القريبة من الميناء المخصص لإيواء السفن والقوارب، التي تتردد باستمرار في أثناء المرور بالبصرة.

ولدى القوم هنا الكثير من الخراف والجداء وغيرها من المواشي التي تعتاش على الحقول، ولديهم الكثير من الدواجن أيضاً. وهم يزرعون الرز والشعير وغيره من الحبوب والبقول التي تعدّ غذاءهم الاعتيادي. ولديهم في الحقول أيضاً الكثير من الغزلان والأرانب وطيور الحجل، وأنواعاً كثيرةً من السلاحف والسّمّان والحمام وطرائد أخرى يتسلّون بصيدها كثيراً.

لم تكن الأسماك متوافرة في ساحل الجزيرة، إلّا أن المحار والصدف يكثر فيها، إذ يتمّ العثور على اللؤلؤ الذي يقدرّون قيمته في بلاد الشرق وأوروبا. وتُمارس عملية صيد اللؤلؤ لمدة ستة أشهر من السنة في كثير من جزر «الخليج الفارسي». فلولا صيد اللؤلؤ لأصبحت جزيرة خرج قليلة الأهمية، فهي تجهّز آسيا وأوروبا. ويعتقد الخبراء

جميعاً بعدم وجود ما يضاوي جمال لؤلؤ سواحل جزيرة خرج.

### صيد اللؤلؤ

يبدأ صيد اللؤلؤ في شهر آب / أغسطس ويستمر لمدة ستة أشهر. وحينما يكون الموسم ملائماً والبحر هادئاً يتشارك عرب جميع الجزر في توفير مبلغ من المال يدفعونه للحكام ليسمحوا لهم بالصيد، فهناك العديد من التجار، يعمل لحساب كل منهم عشرون أو ثلاثون قارباً.

ومن اللآفت للإنتباه لرؤية الطريقة التي يجازف بها هؤلاء بحياتهم في أثناء الغطس في أعماق المياه بحثاً عن اللؤلؤ الذي يتقاضون ثمناً باهظاً عنه. وقد استمتعنا بمشاهدة هذه العملية مرات عدة، وأريد أن أرويها أرضاءً لمن يُودون معرفة تفاصيلها<sup>(١)</sup>.

إن القوارب المُستخدمة في عملية الصيد هذه هي أصغر أنواع السفن الموجودة، وعلى ظهر كل قارب ثلاثة أشخاص، إثنان لقيادتها، والثالث هو الغطّاس الذي يتحمل جميع المخاطر، وله الحصة الأكبر من الربح. وعندما يصلون إلى المياه التي يتراوح عمقها ما بين (١٠-١٢) ذراعاً بحرياً<sup>(٢)</sup>، يقومون برمي المرساة ويبدأون

---

(١) يقول كاريه عندما يتحدث عن الفقراء: «لا أريد أن أشوه خيال القارئ بلمحات مزعجة».

(٢) الذراع البحري ذراعان.

عملهم<sup>(١)</sup>.

وها هي طريقة عملهم: بعد أن يخلع الغطّاس ملابسه بالكامل، يُعلّق في رقبتَه سلةً صغيرةً لوضع المحار، ويمرر تحت ذراعيه حتى وسط جسده حبلاً طويلاً مساوياً لعمق البحر. ثمّ يجلس على حجر زنته خمسون رطلاً، مربوط بحبل آخر بالطول ذاته، فيمسكه بقوة بكلتا يديه، ولا يتركه إطلاقاً عندما يقذف الحجر بقوة شديدة بسبب ثقله. ولكي يوقف تنفسه عبر الأنف يستخدم ما يشبه العظمة لغلاق أنفه. وحينما يستعد للغوص يقوم الرجلان الآخران بدفع الحجر الذي يجلس عليه إلى البحر، وبلحظة يسحبه الحجر معه إلى الأعماق. فيقوم رفيقاه بسحب الحجر ويتركون الغطّاس في الماء يلتقط الأصداف القريبة منه. فيضع في السلة كل ما يصادفه دون تمييز، فليس لديه الوقت الكافي للاختيار، ولعدم وجود أي علامة مميزة لتلك المحارات المليئة باللالء. وعندما يشعر بحاجته إلى التنفس يقوم بجرّ الحبل، إشارة للموجودين في القارب، لسحبه من الماء، ليصعد نحو الأعلى في وضع يمكن أن نتخيله. وبعد أن يتنفس قليلاً ويستعيد قوته ببعض الأغذية يغطس إلى الأعماق مجدداً، ويظل ينزل ويصعد طوال النهار، مما يتطلّب منه قوةً كبيرةً لتحمل هذا المجهود الذي يجعل أقوى الرجال يفقدون صبرهم في الحال. ومع ذلك، كُنّا نشاهد شيوخاً كبار معتادين على ممارسة هذه الحرفة المرهقة جداً. إلا أن أعداد الموجودين منهم هناك

---

(١) راجع عملية صيد اللؤلؤ في: رحلات جان دي تيفينو ...، ص ١٥٨-١٦٠.

[ ١٣ ] رحلات الأب بارثيلمي كاريه ..... ٢٧

كانت قليلة، فضلاً عن أن رؤية منظر غرق هؤلاء الغطّاسين، الذين يجازفون بحياتهم، شيء مألوف.

إن مسألة العثور على كمية قليلة أو كثيرة من اللآلئ في المحار مرهونة بالصدفة، بيد أنهم يؤكدون دوماً أن جهدهم لن يذهب سدىً في حال عثورهم على محارة يتجاوز ثمنها الخطر الذي تسببه. ولأننا كُنّا موجودين على ساحل البحر، فقد حمل إلينا الصيادون كميةً كبيرةً من اللآلئ للحصول على بعض النقود. وقد وجدنا داخل بعض الأسماك بعض حبيبات اللؤلؤ؛ فعن طريق الصدفة وجدنا ثلاث أو أربع من هذه المحارات داخل سمكة اصطدناها لتأكلها، فوجدنا بداخلها لؤلؤةً كبيرةً كان لها بريقٌ وجمالٌ أحاذ أدهشتنا كثيراً.

وشاهدنا على الجزيرة تجاراً أرمن جاءوا للمتاجرة باللؤلؤ، وحينما شاهدوا المحار الذي عثرنا فيه على هذه اللآلئ بالصدفة أعطونا خمسين إيكو مقابل الحصول على ست من هذه المحارات، فأعطيناهم إياها. وكانت لديهم معدات خاصة لاستخراج اللؤلؤ الموجود داخل الأصداف بكل براعة.

ومع أن صيادي اللؤلؤ يحصلون على كميات كبيرة من الأصداف، فإن هذا لا يعني وجود لآلئ فيها جميعاً، فهذا النوع من الصيد أشبه بضربة الحظ، فهناك الكثير من البطاقات التي لا يحالفها الحظ، لا سيما وأن أشياء كثيرة تُوجد داخل تلك القواقع، ففي بعضها حيوان المحار اللذيذ، وفي أخرى حبيبات اللؤلؤ وهي في بداية تكوينها، وفي ثالثة لآلئ متكاملة، لكنها ليست بالحجم والمنظر اللذين يكسبانهما ثمناً

٢٨ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

باهظاً. ووجدنا لآلئ كبيرةً وجميلةً أخرى أيضاً يستخدم التجار معدات خاصّة لاستخراجها من القوقعة بكل دقة. وشعرنا بمتعة كبيرة في أثناء قيامنا بجمع المحار من مختلف أحجام القواقع، إلا أن جميعها كانت جميلةً ومتناسقة تماماً، ويمكن أن تزيّن أجمل الخزائن المستخدمة في حفظ هذه الأشياء الطبيعيّة.

### وصول الجيش التركي إلى البصرة سنة (١٦٦٩)

بعد أن قضينا بضعة أيام في جزيرة خرج ورأينا فيها هذه الأشياء المثيرة، قرنا الذهاب إلى الجانب الفارسي لنقل جميع هؤلاء التجار والمسافرين من البصرة، ولتبيع البضائع التي كانت سفينتنا تحملها. فأبحرنا جميعاً حتى وصلنا إلى ميناء «بندر ريق» الذي يضمّ مدينةً مهمّةً جداً على الساحل الفارسي.

وبعد أن أنزلنا جميع المسافرين الذين أتوا معنا من البصرة، وبينما كُنّا نجول على ساحل «الخليج الفارسي»، علمنا أن القوات التركية وصلت إلى «قلعة القرنة» بعد أيام قليلة من مغادرتنا البصرة. وبعد أن علم والي بغداد، الذي كان قائد الجيش العثماني، بالدمار الذي حلّ بالبصرة والهزيمة المؤلمة لأهاليها، أرسل جواويشه (١) فوراً، وكانوا يحملون رسائل سلام لطمأنة الأهالي والتجار في المدينة وفي الأماكن المجاورة وحثّهم على العودة إلى منازلهم بكل أمان واطمئنان لاستعادة ممتلكاتهم وثروتهم، مؤكداً لهم أن الأتراك لم يأتوا بصفة أعداء بهدف سلب الممتلكات والثروات إطلاقاً، أو بهدف

---

(١) الجاوش: وزير أو مبعوث تركي. ووزير خارجية تركيا الآن اسمه جاويش أوغلو.

طردهم من أراضيهم، وإنما بصفة أصدقاء وحماة لهم من طغيان الأمراء العرب. أدهش هذا الخبر أهالي البصرة كثيراً، لأنهم كانوا يخشون عاقبة ممارساتهم القاسية ضد الأتراك، بعكس توقعاتهم في قيام هذا الجيش القوي بتدمير مدينتهم بالكامل. لكن الوالي التركي قدّر هذا الأمر بطريقة مختلفة بعيدة جداً عن الإنتقام من هؤلاء العرب؛ فقد أولاهم كل رعايته، وطلب منهم العودة إلى ديارهم ونشر عساكره في كل مكان لكي يستتب الأمن والنظام والدفاع عن العائدين إلى البصرة، ووعدهم أنهم لن يتعرّضوا لأية معاملة سيئة.

وكانت هذه سياسةً حكيمةً لها فوائد كبيرة للأتراك، لأنهم كانوا يخشون أن يفقدوا في هذه السنة عائدات السفن الهندية والأجنبية الأخرى التي تجوب جميع جهات سواحل «الخليج الفارسي»، إذ كانوا على علم بما ستؤول إليه الثورات. ولهذا السبب اضطر القائد التركي لإرسال القوارب بحراً والسعاة براً إلى جميع موانئ «الخليج الفارسي» والسواحل العربية لإقناع التجار بالعودة إلى البصرة مع سفنهم وبضائعهم، وأن يمارسوا تجارتهم الاعتيادية بكل أمان، مؤكداً لهم أن الأتراك لم يأتوا بصفة رجال حرب مطلقاً، وإنما بصفة تجار مسلمين لشراء البضائع من الشرق، ولإعادة التجارة إلى سابق عهدها.

وعندما وصلَ المبعوث التركي إلى ميناء «بندر ريق» حاملاً الرسائل المعتمدة من القائد التركي، عاد بعض كبار التجار اللاجئيين وهم في حالة من الخوف والاضطراب. وعندما توجّه المبعوث إلى كبار التجار أوضح لهم كل الأمور لحثهم على

٣٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

العودة إلى البصرة مع ثرواتهم وبضائعهم، حتى أقنعهم بالعودة. وما طمأنهم أكثر أنهم شاهدوا السلحدار وضباط الكمارك العرب الآخرين في البصرة جميعاً مدعويين عبر رسائل خاصّة كتبها القائد التركي لهم، طمأنهم وحثهم فيها على العودة إلى أعمالهم كما كانوا في عهد الأمراء العرب.

وحينما استلم الشاهبندر، الذي كان لاجئاً في ميناء «بندر ريق» هو وجميع أفراد عائلته، هذه التأكيدات من الوالي التركي، دعاني مع التجار للمجيء إلى مخيمه للتباحث معنا بشأن القضايا التي نرغب في التباحث بشأنها.

يتمتع هذا الشاهبندر العربي بشخصية قوية ونفوذ كبير، وحينما وصلنا إلى البصرة ولينا دعوة الزيارة استقبلنا بمتهى الإحترام. وعندما انفردنا به قال لنا أن من المفيد أن يستمع إلى رأينا ونصيحتنا بشأن عروض الأتراك العملية، التي دعوه فيها للعودة إلى البصرة.

وكان السيد «فروت» تاجراً ودبلوماسياً فرنسياً معتدلاً، وكان سياسياً يريد أن يكسب هذا العربي القوي، لأنه كان يريد أن يبيع ويتاجر بالبضائع الموجودة على ظهر سفينتنا. وبعد أن مدحه وأثنى عليه قال له أنه سيتشرف بعودته إلى البصرة، وأن الأتراك استدعوه لينعم بحمايتهم ونصائحهم، وذلك بهدف إقامة التجارة هناك، ولإقناع الأهالي والتجار الذين يثقون بسلوكه وأمانته بالعودة مجدداً. ويبدو أن المكاسب التي عُرِضت عليه أغرته، لكنه لم يقرر العودة إلى البصرة بعد.

وقد لاحظ الشاهبندر أنني ابتسمتُ ابتساماً لم يعرف مغزاها، وطلب مني أن



أقول رأيي بصراحة، فأجبتُه أنني مندهشٌ جداً من شيخٍ محترم ضليعٍ من معالجة جميع الأمور مثل حضرتك يريد أن يذهب بكل سهولة إلى الفخ الذي نصبه له الأتراك. فبعد أن تتوطد التجارة ويأتي التجار من البصرة سيقومون بتجريدك من كنوزك وثروراتك الطائلة التي جمعتها طوال حياتك بمنتهى السهولة. وهذا الأمر لا يُعقل، فمن دون سياسة المصالح هذه لا يرغب الأتراك أن يشاركهم العرب في الحصول على الأموال المهمة مثل أموال الكمارك في بلاد الشرق أبداً. فتأمل الشاهبندر ما قلته له، ولا سيما حينما نَبَّهته بالطبيعة العنيفة والمراوغة والمتغترسة للأتراك وخطورة الوثوق بهم، واحتمال أن يتكرَّر المصير ذاته معه، لأنَّ تكديس الكنوز والأموال غالباً ما يؤدي بأقوى الأقوياء وأكثرهم رفعةً إلى هاوية الذل. فهل يتوقع خلاف ذلك؟

وخلال ستين سنةً كان قد كدَّس الملايين من وظيفته المحترمة. ألم يكن بإمكانه الذهاب إلى بلاط الملك الفارسي مع جنوده، أو إلى الهند، ليقضي السنوات القليلة المتبقية من عمره بأمان واحترام؟ أخيراً، ماذا كان يأمل أكثر من الراحة والاطمئنان؟ فلديه قصرٌ كبيرٌ وعددٌ هائلٌ من العبيد وإسطبل جميل ولآلئ كثيرة وأحجار كريمة وكمية كبيرة من الذهب والفضة، ومع كل هذا لم يكن راضياً. وكان يعتقد أن الأتراك سيسمحون له أن يجني محصول البصرة براحة وهناء بكل بساطة. لقد سحرته هذه الأفكار الخيالية، فغادر بندر ريق مع كل أفراد عائلته متوجهاً إلى البصرة، فاستقبله الوالي التركي بكل حفاوة وسمح له بممارسة كافة أعماله السابقة، وبالتالي فإنه حقق للأتراك مطلبهم.

٣٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

ويعلم الأتراك أن تجار المدينة والأجانب الذين يتاجرون مع الشاهبندر سيعودون إلى البصرة حالما يبدأ بممارسة عمله، لأنّ هذا الخبر سينتشر على طوال سواحل «الخليج الفارسي» بين جميع التجار الذين أبحروا معنا إلى ميناء بندر ريق، وسوف يأتون ويطلبون منا أن نعيدهم إلى البصرة مع بضائعهم، وسنوافق على طلبهم بملء إرادتنا، لأننا نقدّر الفوائد الكبيرة لعودتهم، ولنصرّف بضائع سفننا.

وبما أني أكثر المهتمين، على إمتداد هذه السواحل، بشؤون شركتنا بتكليف من السيد «كارون» عندما غادرنا «سورات»، فإن هذه الأمور كانت تشغلني كثيراً، ولكنني كنت مهتماً أكثر برصد طبائع الناس وعاداتهم، والحصول على آلاف المعلومات عن الحياة الحقيقية المهمة أكثر من كل ذهب الشرق وفضته. لكن قبل أن نعود إلى البصرة سأتحديث عن أهمية هذا الموقع والثورات التي حدثت فيه خلال السنين الأخيرة.

### ثورة البصرة

ظَلَّت البصرة خاضعةً للعرب منذ تأسيسها، بيد أن الملك الفارسي والسلطان الأعظم كانا يخططان للإستيلاء عليها بالحيلة أو بالقوة، وقد اتخذوا كل ما يلزم من أجل ذلك.

تقع البصرة على شط العرب، وهي مدينةٌ مهمّةٌ للتجارة الشرقية، وقد يحقق منها هذان الحاكمان مكاسب كبيرةً. ومع أن الولاية التي تحمل الاسم ذاته واسعة، إلا أن الذكاء الشديد لأهلها وحده هو الذي جعلها من أكبر ولايات الشرق.

تَوَلَّى «حسين باشا» حكم البصرة بشكل مستقل، ولم يتبع أي سلطة، وحافظ عليها من المؤامرات وتدخل الجيوش التركية والفارسية مدةً طويلة. ويتمتع هذا الرجل بمؤهلات فذة، فقد وُلد للحكم، شجاع، لكن شجاعته أقل من قسوته، وقراراته متشددة. ولكنه في النهاية يخضع للأتراك الذين استغلوا ضعف الفُرس واستولوا على المدينة.

ولم يكن «سليمان الثالث» في سن تؤهله لحكم الآخرين قبل أن يعتلي عرش بلاد فارس، وكان بحاجة للإرشاد والتوجيه كغيره من الملوك الفُرس (١). وبينما كانت غريزته تدفعه نحو المملذات التي كان منغمساً فيها، كانت الحروب الطويلة والتهديدات قد أنهكت بلاد فارس من كل ناحية، وكان التتار والمغول يجرون إستعدادات كبيرة. ومع أن أي أحد لا يعلم أين ستكون الضربة، لكن هدفهم الإستيلاء على بلاد فارس. ولأن هذه الأعباء جرت دفعةً واحدة، لم يكن بمقدور الأمير سليمان مواجهة هؤلاء الأعداء، ولم يكن بوسعه القيام بأي شيء إزاء البصرة، لكونها بعيدة جداً ولا يريد أن يشغل نفسه بها أو أن ينهمك بالحرب.

وقد انتهز الأتراك، الحريصون على توسيع غزواتهم دوماً، هذه الفرصة للهجوم على البصرة، وسرّهم إلا ينافسهم الفُرس عليها. ولأنهم يلجأون إلى القوة دائماً، فقد أرسلوا المبعوثين إلى جميع ولاية سوريا والولايات المجاورة، ولا سيما بغداد، بأخذ

---

(١) كان «صفي ميرزا»، الذي اتخذ اسم «صفي الثاني» أولاً ثم «سليمان» لاحقاً، يبلغ من العمر (١٩) سنة عندما أخلف أباه «عباس الثاني» في تشرين الثاني / نوفمبر سنة (١٦٦٦).

٣٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

خيرة قواتهم للتوجه إلى البصرة بتاريخ محدد، وأوكلت مهمة قيادة الجيوش إلى والي بغداد، وهو المعروف بالشهامة والكفاءة العالية، وإن كان بخيلاً.

جاءت هذه القوة الهائلة عبر نهري دجلة والفرات اللذين غطّتهما السفن والقوارب وهي تحمل إنذاراً إلى كل أهالي المدينة والأقضية التابعة لها. وحينما وجد أهالي البصرة أن الأتراك يحاصرونهم من كل جهة شعروا بالفرع، لا سيما بعد أن علموا بقسوتهم ضد المسيحيين في جزيرة «كاندي». ولذلك، لم يفكروا بشن حرب جديدة (١).

لم يكن في مقر «حسين باشا» سوى عدد قليل من الجنود، أما عامة الناس فقد رفضوا الإلتحاق بالجيوش لانشغالهم بأعمالهم ولم يعيروه أي اهتمام، وكانوا يريدون الاستسلام قبل أن يحاصروهم الأتراك. وقد نبّه البعض إلى وجود من يفكر بخيانتته ويريد تسليم بوابة المدينة إلى الأعداء، وكان عليه أن يختار بين أمرين: إما أن يواجه الجيش العثماني أو أن يستسلم له. ففضّل مصلحته، وأجزل الهدايا ليقنع القائد التركي (والي بغداد) بالوقوف إلى جانبه. فتمّ الإتفاق على سحب القوات العثمانية، وأن تظل البصرة تحت نفوذه، على أن يدفع جزيّة قدرها أربعمئة ألف إيكو سنوياً للسلطان الأعظم. وبعد أن وقّع المعاهدة، أرسلها «حسين باشا» إلى الباب العالي لإقرارها،

---

(١) استمر الحصار الذي فرضه الأتراك العثمانيون على جزيرة كاندي «كريت الحالية» من سنة (١٦٤٨) حتى سنة (١٦٦٩)، واستولوا على الموقع البندقي الذي خضع مع الجزيرة بأكملها للنفوذ العثماني.

[ ١٣ ] رحلات الأب بارثيلمي كاريه ..... ٣٥

واختار للتفاوض بشأنها «يحيى باشا»، وهو رجلٌ ثريٌّ ماكر، تزوج ابنة الباشا قبل مدة قصيرة، وهي أميرةٌ قويةٌ الشخصية تضحى بكل شيء من أجل كبريائها. وطوال حياتها كانت تمنى الزواج من ملك، وكانت تصرّح دائماً أنها ستتزوج من ملك أو أنها ستنجب ملكاً.

عندما وصلَ هذا الأمير العربي إلى القسطنطينية، لم يجد لدى الوزراء ما كان يبحث عنه وهو أن يصبح ملكاً على حساب حميه، فانهمك بالبحث عما يدعم حجته، لا سيما أن معاهدة البصرة أبرمت ضد إرادته، وأنه يريد إخضاع البصرة للسلطان<sup>(١)</sup>، وليس إلى والي بغداد<sup>(٢)</sup>، وقد حان الوقت لتصحيح هذا الخطأ حتى تعود البصرة لسيطرة السلطان وليس لسيطرة والي بغداد. وبعد أن اختبر الوزراء نيّاته وجدوه انتهازياً ومستعداً لارتكاب أية جريمة، فأفهموه أنهم سيتركونه يعود إلى البصرة بالامتيازات التي كان يتمتع بها حموه في حال رغبته الدخول تحت حماية الأتراك، مقابل أن يدعم مخططهم في غزو البصرة. فوافق على هذا العرض بدافع كلام زوجته، وبدافع مصلحته الشخصية أيضاً.

لم يعد اجتياح البصرة سهلاً كما كان في السابق؛ فقد أدخل «حسين باشا» قطعاته إلى داخل الميدان العام، وطرّد الأوباش والمتمردين منها، وتزوّد بالعتاد، وأصلح القلعة وشاد الكثير من الحصون القوية. لكن أي شيء لا يمكن أن يصمد إزاء الخيانة

(١) السلطان محمّد الرابع، حكم ما بين (١٦٤٨-١٦٨٧).

(٢) سلطان بابل في النص.

٣٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

والخداع. فقد حزم يحيى أمره بكل براعة ومكر، مصوراً الأمور بخلاف حالها، وقال أنه يريد أن يعرض خدماته إلى «حسين باشا»، وأنه خدع السلطان الأعظم، خافياً خداعه بمظاهر الثقة والمحبة. وعلى الرغم من مهارته في إخفاء مكره عن حميه فإن الأتراك كشفوا سره.

عندما اجتمع قادة الجيوش أعلنوا بأعلى صوتهم أنهم ذاهبون إلى البصرة لخلع «حسين باشا» وتنصيب صهره في محله، فشعر «حسين باشا» بالخيبة والأسى من خيانة يحيى له، لا سيما بعد أن شعر أنه انخدع في اختيار الشخص غير المناسب ووجد مدينته محاصرةً مرة أخرى، لأنّ الناس لم يعتادوا الهجوم في الموضع ذاته مرتين، مما أدى إلى زعزعة ثقته بنفسه في اتخاذ القرارات الصعبة، فغرق في حزنه. ولذلك، عرض على الملك الفارسي تسليم البصرة له شريطة أن يتركها له ليحكمها طوال حياته، وكان جواب الفُرس غامضاً، وهو أن الأمير مهتمُّ بأمور أخرى ولا يريد أن يخوض مواجهةً ضد الأتراك. ولم يرضِ هذا الجواب حسين باشا، ففكر بالانسحاب بأسرع ما يمكن بدلاً من انتظار عذاب الأتراك بعد هذا الحصار الطويل.

من جهة أخرى، بدأت الجيوش تحركاتها، وقرر والي بغداد اكتساح البصرة. ولما علم حسين باشا أنه على رأس تلك الجيوش، أسرع بوضع أمواله وأثاثه الفاخر على ظهر الزوارق والسفن التي استأجرها من الهنود، ونقل إليها حريمه أيضاً. وكان مشهد هذا العدد الكبير من أجمل نساء الشرق دفعةً واحدةً على الماء رائعاً. بعد ذلك قام بهدم المدينة بدءاً بالحصون التي كلفه بناؤها مبالغ طائلةً، وهدم قصره وحتى

[ ١٣ ] رحلات الأب بارثليمي كاريه ..... ٣٧

المساجد المفضّلة لدى المحمّديين، ولم يترك لصهره في البصرة سوى الخطام والأنقاض. بيد أن البصرة لا تزال تتمتع بمميزات موقعها واسمها المشهور لدى تجار العالم. فأبحر هو على ظهر السفن الهندية التي أقلته إلى «سورات» ومنها عاد إلى بلاد المغول مع حريمه وأمواله لينعم بالأمان وبالثروات الطائلة التي جمعها تاركاً للآخرين مهمة الدفاع عن بلادهم وحرّيتهم ضد الأتراك.

### تنصيب يحيى باشا بدلاً من حسين باشا

في نهاية سنة (١٦٦٨) وصلت الجيوش العثمانية إلى البصرة، وتفاجأ الأتراك أنفسهم لرؤية الذعر الذي سببته جيوشهم خلال أيام قلائل. وبعد أن تمّ تنصيب يحيى بدلاً عن حسين باشا بحسب الإتفاق، أكد الأتراك على عودة التجار وألزموا العرب ببناء مدينتهم ليعيشوا حياتهم الاعتيادية تحت إمرة حاكم من بني جنسهم، وتركوا بعض الضباط الأتراك وعدة قطعات من الإنكشارية داخل الميدان العام لجباية الضرائب. وانسحب والي بغداد إلى مقر عمله بعد أن أرسل الولاة الآخرين إلى مقرات عملهم.

وهكذا تحققت أمني يحيى باشا ولم يعد يكدر حياته سوى الخيانة، فالجريمة والغدر جزءٌ من حياته. وارتاح أيضاً بإزاحة حسين باشا، وتخلّص من أي قلق في ما لو عاش قريباً منه. وكان يقف إلى جانب الباب العالي دائماً، معتقداً أن الخدمات الكبيرة التي يقدمها ستعود بالخير لكافة أرجاء الإمبراطورية التركية، دون أن يعرف ما يخبئه له الباب العالي في ما لو تنصّل من الإتفاق التي وقّعه.

٣٨ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

من جهة أخرى، فقد حاولت زوجته أن تمنعه من أن يطعم بالمزيد، ودعته إلى التركيز على ما يزيد رفعته. فدعا الأهالي لإعادة إعمار بيوتهم، والتجار الأجانب لاستئناف تجارتهم، وألغى جميع الضرائب مؤقتاً، ورفع قيمة دنائره، وتظاهر بالفضيلة التي يتصف بها أبداً ليوحي للناس أنه لا يقل شأناً عن سابقه في كل الأمور. وعندما أعاد الأمور إلى نصابها أصبح خلال وقت قصير واسع الثراء، حتى أن ثروته أثارت غيرة الأتراك الذين بدأوا يفكرون بالتخلص منه.

### الأتراك يفكرون بالتخلص من يحيى باشا

أراد السلطان الأعظم أن يكون السيد المطلق في البصرة وأن يُخضع حكومتها له، فقرر طرد هذا الأمير العربي الذي نفذ كل ما طُلب منه. فبعد أن أوْشك بناء البصرة على الانتهاء، واستؤنفت فيها التجارة، لم يبق سوى أن يعاقب [يحيى باشا] على غدره بغدرٍ مماثل، وهذا ما اتفق عليه وزراء الباب العالي الذين قرروا تنفيذ كلمة سيدهم.

وسرعان ما اكتشف يحيى باشا ما كان يُحاك ضده في القسطنطينية، وتأكد من ذلك بسبب تصرفات الأتراك الوقحة. ففي كل يوم كان يتلقى أخباراً جديدةً تحرّض الأهالي على عدم الامتثال لطاعة الحاكم، وأصبح الأتراك أسياداً وبدأوا بفرض الضرائب على البضائع بحسب أهوائهم. وبذريعة المساومة كانوا يحصلون على السلع بالسعر الذي يخلو لهم، كما استولوا على أجمل بيوت المدينة. وقد تلقى يحيى باشا تحذيرات عن سوء نيات الأتراك والدسائس التي يحكيوها ضده داخل البصرة. لكن أمراً وصله علم منه خطورة البقاء في البصرة مدة أطول.



فذات يوم ذهب جمعٌ كبيرٌ من العرب يشكون إليه استبداد الأتراك، وافتعلوا مشاجرة على أمر تافه جداً، فقتل الأتراك بعضهم بالسيوف وتعاملوا مع الآخرين بقسوة شديدة. ولما أخبرهم أنه يريد أن يصلح بينهم، وبدلاً من أن يطيعوه، حدث هيامٌ عام ووجد أنهم متأهبون للعصيان لو أجبرهم على الطاعة. ووَصَلَ الأمر بهم إلى تهديده وإحراقه في منزله ورفع الأمر إلى القسطنطينية. ولعلمه أن الأتراك لا يحترمون العرب، وأن كل البشر والثروات ملكٌ لهم، فقد أصدقاءه وقواته وهرب من المدينة نحو السهول على رأس جيشه، كما فعل حسين باشا قبله في أكثر من مناسبة.

وهكذا يمكننا أن نتصور مدى طغيان الأتراك في هذه المدينة الغنية التي أصبحوا أسيادها بعد انسحاب واليها، إذ قاموا بفرض الضرائب حتى على المواد الغذائية، ونهبوا المخازن وبيوت المواطنين عنوةً.

بعد أن فكر يحيى باشا قليلاً، قام بفرض الحصار على البصرة، وتمكن من انتزاعها بعد مصادمات عدة، فقد كان لديه عشرون ألف رجل من خيرة المقاتلين، قاموا بذبح جميع الأتراك بالسيف باستثناء أربعمئة سمح لهم، بعد مقاومة عنيفة، بالانسحاب إلى قلعة القرنة التي تبعد يوماً واحداً شمالي البصرة في شُقَّة من الأرض عند ملتقى نهري دجلة والفرات. وقد ارتكب يحيى باشا بذلك خطأً جسيماً أفقده صوابه، فقد تهيأ لمطاردتهم بعد أن ثبت مركزه في الموقع. ودائماً كان يرُدُّ هجمات الأتراك المتحصنين والمزودين بوسائل دعم الحصار، الذين كانوا يقاتلون من مكان مرتفع ضد النبال والرماح بالأسلحة النارية التي تتفوق عليها كثيراً، والتي نادراً ما تخطئ أهدافها. ومن

٤٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

السهل عليهم التحكم بأسلحتهم لأنهم كانوا يرون بوضوح أعداءهم الذين كانوا ينقلون قتلاهم وجرحاهم من خيرة قادتهم وجنودهم. وبعد أن استمر حصار القرنة مدة طويلةً، فقدّ يحيى باشا خلالها خيرة قواته، اضطر أخيراً لرفع الحصار، ثمّ للهرب كما ذكرتُ في أعلاه.

هذا ما أردت أن أوضحه عن الثورات الكبرى لموقع البصرة الذي سنأتي على ذكره لنرى ما فعله الأتراك وحاكمها أو الوالي التركي.

### العودة إلى البصرة

في نهاية شهر تشرين الأول / أكتوبر سنة (١٦٦٩) عدنا إلى البصرة مرةً أخرى. وعند وصولنا إلى النهر الصغير الذي يخترق المدينة لاحظنا على الجهة الأخرى من شط العرب أفراد الجيش التركي بمنظرهم الجميل وهم يحيطون بساحل الشط على إمتداد فرسخ واحد. كما شاهدنا آلاف الخيام بجميع الألوان. وقد رُفعت الأعلام على رأس كل سرية، وكانت أسلحتهم ودروعهم مغطاةً بسعف النخيل العالي العريض لحمايتها من أشعة الشمس المحرقة.

وعندما نزلنا إلى البر مع الآباء الكراملة ذهبنا إلى قصر الوالي التركي الذي استقبلنا باحترام كبير، وأعرب عن سعادته بنا بصفتنا أول من أعاد الكثير من الأهالي والتجار إلى المدينة، إذ سمح لهم باستعادة منازلهم وبساتينهم وممتلكاتهم السابقة، كما قام بإعادة الآباء الكراملة إلى ديرهم ومنحهم مطلق الحرية بممارسة كافة شعائر ديانتنا المسيحية، بسبب كثرة أعداد التجار المسيحيين الذين يتاجرون في هذه المدينة.

[ ١٣ ] رحلات الأب بارثيلمي كاريه ..... ٤١

في زيارتنا الأولى للوالي التركي تشاورنا معه عن الامتيازات والشؤون الأخرى التي تخص تجار شركتنا الفرنسية، وعرضنا عليه الإتفاق والأمور المتفق عليها مع العرب سابقاً. فوافق على الأشياء المنصوص عليها، وتحفظ على مادتين كان لا يريد تمريرهما مطلقاً. ولكن بعد أن قمنا بتهدئته وافق عليها لأنه كان في موقف ضعيف ولا يستطيع أن يرفض شيئاً.

كان العرب قد وافقوا على أن تدفع شركتنا نسبة قدرها (٥, ١٪) من رسوم دخول البضائع وخروجها، لكن النسبة ارتفعت إلى (٥٪) لجميع التجار الأجانب. كما تمّ تحديد نسبة قدرها (٣٪) على نقل الخيول الفارسية والعربية من البصرة، وهي الخيول التي طالما كُنّا نرغب بنقلها على سفننا دون أن ندفع عنها أي رسوم، وهو أمر يسبب خسارة لضباط الكمارك الذين يتقاضون ضريبة قدرها خمسين إيكو عن الحصان الذي يُنقل إلى الهند والممالك الشرقية الأخرى.

وهكذا اتفقنا مع الحاكم التركي، والي البصرة، واستأجرنا منزلاً كبيراً في المدينة وضعنا فيه جميع البضائع التي كانت في سفينتنا، والتي بيعت خلال وقت قصير بأسعار مناسبة. وسرعان ما قام تجارنا بتحميل سفينتنا ببضائع أخرى إلى الهند، إلى جانب الكثير من التجار الهنود والمسافرين الذين يفضلون العودة إلى ديارهم على البقاء تحت حكم وسيطرة الأتراك المعادين للهنود.

وبعد أن بقي قائد الجيش (والي بغداد) شهرين على شواطئ شط العرب، وبعد أن رأى أن كل شيء على ما يرام، وأن التجارة تسير بشكل جيد، ترك والياً تركياً

٤٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

ليحكمها، ومعه أربعة آلاف جندي تركي لحماية الموقع. وبعد أن أزال معسكره من أمام البصرة، ومرّ بالقرنة ثانيةً، ترك فيها حاميةً عسكريّةً قوية، وعاد بجيشه إلى بغداد، وصرف ولاية ديار بكر والموصّل وماردين وحلب وغيرهم من ولاية سوريا الذين جاءوا للمشاركة في حملة البصرة هذه، والتي انتهت بانتصار باهر في سنة (١٦٦٩).

### واردات البصرة

لم يكن ذلك بالشيء القليل لبلاد السلطان الأعظم، لأنّ البصرة تعدّ المفتاح والميناء الرئيس الذي تمرّ منه جميع أنواع التوابل والأحجار الكريمة وبضائع الهند الشرقية الثمينة براً إلى كل من سوريا وتركيا وأوروبا، ناهيك عن واردات الرسوم على النخيل والأشجار المثمرة الأخرى التي تزيّن ضفة شط العرب وتحيط بها. وتشكل غابةً تمتد على مسافة تبلغ نحو ستين فرسخاً. أقول أن عائد الإيجار السنوي لهذه الأشجار يبلغ مليون [إيكو] إلى والي البصرة. ولا نستغرب أيضاً أن قائد الجيش، خلال شهرين من الفوضى والدماء الذي عمّ المدينة، حمل معه أربعمئة ألف إيكو أيضاً مكافأةً على جهده في هذه الحملة الظافرة، كما حصل على مساحات واسعة من الأراضي تمتد لمسافة ثلاثمئة فرسخ.

بعد مغادرة الجيش التركي بأيام قلائل غادرنا البصرة إلى «بندر عباس»، وهو ميناء رئيس يقع على الساحل الفارسي، لالتحاق بسفينة أخرى لشركتنا بقيت هناك للتفاوض بشأن بضاعتها. وغادرنا بسفن هندية أخرى عائدة إلى «سورات» حيث المقر الرئيس لشركتنا.

[ ١٣ ] رحلات الأب بارثيلمي كاريه ..... ٤٣

غادرنا «الخليج الفارسي» في نهاية سنة (١٦٦٩). ومن حسن حظنا أننا قطعنا مسافة بحر الهند خلال ثلاثة أسابيع مع كثير من السفن الهندية الأخرى، ووصلنا في الوقت المناسب إلى ميناء «سورات»، ووجدنا فيه أكثر من مئة سفينة من كافة أنحاء الشرق، بعضها تفرغ بضاعتها وثوراتها، والأخرى تتهياً لرحلات أخرى.

عندما غادرنا «سورات» في بداية السنة (١)، كانت تلك المدينة الكبيرة تنعم بالاستقرار والسلام، فكان الأهالي والتجار فرحين سعداء. ولكن عند عودتنا وجدنا الأمور قد تغيّرت كلها. فقد عمّها الاضطراب وانتشرت الفوضى في شوارعها، وكانت من الأماكن العامة في حالة سيئة، وتهدمت واحترقت الكثير من قصورها وبيوتها الكبيرة، وأصاب الإفلاس الكثير من تجارها الأثرياء. حدثت كل هذه المفاجآت عند مجيء الأمير «شيفاجي» للمرة الثانية لنهب وتخريب هذه المدينة الكبيرة كما رأيتها لاحقاً.

ومع ذلك، فقد أسعدت عودة سفيتتنا المدير العام لشركتنا السيد «كارون» كثيراً، فأثنى عليّ وشكرني كثيراً بعد أن أسهمت بإعادة السفينة إلى البصرة؛ إذ أن عودتها أكسبت الشركة أكثر من مئة ألف إيكو. وكثيراً ما كان يصارحني بالأوضاع التجارية في هذه البلاد الشرقية، وقال لي أن لدى مدير عام إحدى الشركات خبرة بالتجارة في هذه البلاد الشرقية، وهو يقيم في «سورات»، فتمكّن خلال وقت قصير أن يحقق

---

(١) غادر كاريه سورات في نهاية نيسان / ابريل من سنة (١٦٦٩).

٤٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

أرباحاً طائلةً، وهو يملك الآن أربع أو خمس سفن تتاجر سنوياً من سواحل المالابار وكرومانديل وجزيرة سيلان إلى بلاد فارس والبصرة وأماكن أخرى في الشرق، إذ تحقق المتاجرة بالتوابل والبضائع الأخرى أرباحاً كبيرةً. ولذلك قرّر المدير العام لشركتنا إرسال سفينتين كبيرتين إلى البصرة أيضاً فاقترح عليّ العودة لأعدّ تقارير مفصّلة عن أوضاعنا في الخليج والبصرة وكيف تتمّ تجارتنا منذ أن تولى الأتراك الحكم هناك.

وخلال حديثي معه قال لي أيضاً أن السيد «كولبير» لا يعتمد عليه، وإنما يعتمد عليّ أنا في هذه الرحلات الكبرى إلى الشرق، لأرى مؤسساته وأتعرّف على كبار التجار فيه، وأدوّن له جميع المشاهدات في رحلتي. وبما أننا لا نستطيع أن نرفض أي طلب له، وأن ما سأفعله خدمةً للوطن، فقد قبلت ما أمرني به. وبما أنه سيرسلني في رحلات أخرى إلى بلاد فارس والبصرة، فلم أتضايق أبداً، ولا سيما أنني تعلمتُ أساسيات اللغة الفارسية، وهي اللغة السائدة في الشرق، وآمل أن أتعلّم منها أكثر في رحلتي الثانية.

### العودة إلى الخليج الفارسي والبصرة (١٦٧٠)

ما أن هدأت الرياح حتى بدأت الرحلات بالانطلاق وامتلاء ميناء «سورات» بأعداد كبيرة من السفن التجارية من جميع ممالك الشرق. وكانت الكثير منها متجهّة نحو بلاد فارس والبصرة، من بينها سفينتان كبيرتان تعودان لشركتنا الفرنسية التي حملها السيد «كارون» بالبضائع الهندية، وكان مسروراً جداً بالأرباح الكبيرة التي

حققتها له هذه الرحلات من عودة السفينتين العائدين لنا، إذ أرسلني لأستفسر عن كل الأشياء لتحقيق مكسب محترم يُرضيه.

على هذا الأساس، اختارني المدير العام للعودة إلى بلاد فارس والبصرة، وعقدنا اجتماعات خاصّة كثيرةً عن هذه الرحلات. فزوّدته بمعلوماتٍ ضرورية ومهمة جداً لتوطيد النشاطات التجارية لشركتنا في بلاد فارس والبصرة. وأجاب عن استفساراتي قائلاً أننا في مرحلة التأسيس وأن عملنا لم يزدهر بعدُ للقيام بالأشياء التي عرضتها. لذا فهو ينتظر أن يرسل السيد «كولبير» من فرنسا الموظفين والسفن لتنفيذ ما اقترحه عليه.

وبما أنني كنتُ موضع ثقة هذا المدير وقريباً منه جداً، فقد أبلغته أنني حينما كنتُ في بلاد فارس وعلمتُ أن السيد «كولبير» أرسى الركائز الأولى لشركتنا الفرنسية، اخترتُ تفكير الفُرس، ودرستُ أساليبهم التجارية، وأوضاعنا هناك، فوجدتُ أن إرسال سفن للتجارة في بلاد فارس غير مناسب، ويمكن الإكتفاء برحلة واحدة إلى البصرة، وأكدتُ له أننا سنحصل على مكاسب، كما يريد، لو عادت سفننا إليها. فقمنا بتأسيس وكالتنا التجارية فيها لتتجنب المضايقات المُحتملة لو أرسلنا سفننا للمتاجرة في بلاد فارس، التي تتفصّل دائماً عن الجهة التي نتاجر معها وطريقة تجارتنا معها. ولم يُرد السيد «كارون» تصديقي، وعارض تلك القرارات بقوة، وقال لي أن من الضروري أن تتوقف سفننا عند السواحل الفارسية لتمارس بعض العمليات التجارية، وأن يُبقي فيها بضائعه. فقد علم من خلال الخبرة أن عودته ستكون مهمةً.

٤٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةٍ أجنبية

وسرعان ما تابعنا رحلتنا إلى البصرة. ومع ذلك، أردتُ أن يعرف هذا المدير أنني مُحقِّق في الاعتراض على قراره بإرسال التجارة إلى «الخليج الفارسي» فوراً، وشرحتُ له ما يأتي:

كان الفرنسيون آخر أوروبيين يؤسسون تجارةً في مملكة بلاد فارس القوية، تدفعهم في ذلك المعاملة الطيبة للشاه عباس الثاني والد ملك بلاد فارس الحالي، الذي حينما رأى بعض الفرنسيين المتميزين الذين كانوا يترددون على بلاطه استخدمهم عنده بكل احترام ومنح دولتهم امتيازات كثيرةً تقديراً للمنفعة التي سيعود بها تأسيس الشركة الفرنسية للتجارة على بلاده. وقد سردتُ قصة الطريقة التي استقبل بها الفرنسيين عند تأسيس الشركة في بلاد فارس كاملةً للسيد «كارون»، كما أوضحتُ في أعلاه<sup>(١)</sup>. وقد حرصتُ دائماً على ألا يرسل السيد «كارون» أيًا من سفننا في هذه السنة إلى بلاد فارس لأنَّ شركتنا لا تستطيع حالياً تلبية ما نريده منها.

ومع ذلك، لم يستجب السيد «كارون» لمحاولاتي، وتهيأت السفن للإبحار في شهر آذار / مارس سنة (١٦٧٠)<sup>(٢)</sup>، فأبحرنا من ميناء «سورات» مع عشرين سفينة أخرى ذهبت للتجارة أيضاً عبر بحار «الخليج الفارسي»، وخلال ثلاثة أسابيع وصلنا

---

(١) راجع صفحة (٧٦) من النص الفرنسي.

(٢) بحسب كتاب المفاوضات الفرنسي في الشرق، غادر الأسطول في شهر كانون الثاني / يناير سنة

(١٦٧٠). انظر: Le Francois negociant en Orient, p. 11; in: Paris, Bibliothèque de l'

Arsenal, Ms only, in: Barthélemy Carré, Le Courier du Roi en Orient, Relation de deux voyages en Perse et en Inde 1668-1674, Présenté et annoté Par: Dirk Van der Cruysse, Fayard, Paris, 2005, p. 1155.



إلى «بندر عباس»، لكن ضباط الميناء لم يرحبوا بنا.

والفرس شعبٌ مخلص، ذكي، شريف، ومُتَحَضَّر، ولا يتعاملون مع الناس بسوء نيّة. وكان رئيس الكمارك الشاهبندر رجلاً قوياً، انتهازياً، يتفاخر بشرفه وتحضره. وبعد أن علم أن سفينتنا القادمة من «سورات» قد عادت دون أن تقدم الهدايا للبلاط الفارسي، أو إلى أية شخصية محترمة، أو لضباط حاكم المملكة، طلب منا أن نُنزل بضاعة شركتنا على الأرض ونقلها إلى الكمرك ليقوم بفرض الرسوم عليها كونها بضاعةً أجنبيةً وغير معروفة.

لم يكن وكيل شركتنا، الذي تركناه السنة الماضية في وكالتنا ببندر عباس، يملك الذكاء الكافي ليتولّى هذا المنصب، فوقع في موقف محرج جداً، ولكنه خرج منه عند وصول أحد الفرنسيين من عاصمة بلاد فارس أصفهان، وتوجّه من ميناء «بندر عباس»<sup>(١)</sup> إلى «سورات» للبحث عن رؤساء شركتنا وإطلاعهم على ما جرى في البلاط الفارسي في موضوع تأسيس شركتنا في بلاد فارس. وكان اسم هذا الفرنسي السيد «لوي دو لاتوال»<sup>(٢)</sup>، الذي حقّق ثروات كبيرةً في أثناء إقامته سنوات عدة في

---

(١) كان رئيس الوكالة الفرنسية في ميناء بندر عباس هو السيد «بيرو».

(٢) «لوي - غوليروم لاتوال» (Lois - Guilherm de l' Estoile)، ابن جوهرى استقر في بلاد فارس، وتوسع نفوذه في أصفهان. وكان يتحدث الفارسية بطلاقة. عمل مترجماً لخمسة فرنسيين ثمّ إرساهم إلى البلاط الفارسي في أواسط سنة (١٦٦٠)، ودخل في خدمة الشركة الملكية الفرنسية للهند الشرقية.

٤٨ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

أصفهان. وحينما اغتنى تزوج من امرأة مسيحية أرمنية، وعاش في بلاد فارس، واشتهر في البلاط الفارسي كثيراً، وبين أغنياء التجار في هذه المملكة. وعندما وصل جاء وأقام معنا في وكالة شركتنا، وكان يعمل معنا بكل إخلاص.

وبما أن قضية بضاعتنا الموجودة في الكمر ك كانت مهمة، فقد ذهبتُ مع السيد «دو لاتوال» إلى الشاهبندر، وبيننا له كل الأسباب لتقنعه أن الفرنسيين لم يتمكنوا من تحميل كل البضائع التي اتفقوا عليها، وقلنا له أن أي شيء لا ينقصنا من «سورات» سوى المراكب والهدايا التي نتظرها من فرنسا. وبعد أن هدأ قليلاً وحصل على بعض الهدايا أعاد البضاعة التي كانت في الكمر ك. وقد أفادنا السيد «دو لاتوال» في ترويح بضاعتنا كثيراً، بعد أن بقي في وكالتنا لبضعة أيام ينتظر عودة سفننا ليذهب معنا إلى «سورات». وبعد أن بقينا لبضعة أيام في «بندر عباس» رفعنا أشرعتنا لنكمل رحلتنا إلى البصرة، وكان معنا عددٌ كبيرٌ من السفن التجارية الهندية.

### الوصول إلى البصرة (١٦٧٠)

عندما وصلنا إلى البصرة وجدنا أمور البلد قد تغيّرت تماماً عما كانت عليه حينما تركناه في السنة السابقة؛ إذ جاء الأتراك إليها من بغداد ومن أماكن أخرى بأعداد هائلة، وكلهم تجار، وكانوا يسيطرون على الأسواق العامة، وكانت أسواق الحبوب تحت تصرفهم، فكانوا يبيعون السلع في الأماكن العامة، واستولوا على أماكن بيع اللحوم، وكانوا يتاجرون بجميع السلع حتى الأعشاب والخضار والألبان والفاكهة بعد أن انتزعوها من أيدي الفقراء العرب الذين أتوا بها من الريف.

لكن ذلك لا يساوي شيئاً مقارنةً بطغيان الوالي التركي ومضايقاته، ولا سيما تجاه التجار، فهو يفرض عليهم مبالغ باهظةً جداً، مما يجعلهم يفضلون الانسحاب وترك المدينة ومنازلهم وممتلكاتهم، على النهب والسجن بعد أن يدفعوا هذه الضرائب المُجحفَة التي تُفرض عليهم من يوم لآخر، حتى أن أهالي البصرة الأصليين وتجارها، الذين يُخطب ودّهم الجميع، شعروا بقسوة استعباد العثمانيين وعبوديتهم. وقد صدّق هذا الشاهبندر العربي الثري المحترم، الذي رأيته في بندر ريق، الوعود الزائفة لهؤلاء الطغاة ولاحظ في الحال ما تنبأت به، وندم كثيراً لأنّه لم يتبع نصائحي. وما أن انتهى موسم السفن حتى سُجن هو وضباطه وحُجزت أملاكه، وبيعت نساء قصره وعبيده في مزاد أمام قصر الوالي. وإلى جانب الطبيعة المتهورة والظالمة للأترك، يبدو أن هذا الوالي كان مجبراً على ممارسة هذه المضايقات ليحافظ على نفسه بعد أن علم أن الوزراء أرسلوا مبعوثاً من القسطنطينية ليطالبوه بمبلغ ستمئة إيكو للسلطان الأعظم، عرفاناً بمكافأته بولاية البصرة. ولم تكن هناك أية مشكلة أمام هذا الوالي في توفير هذا المبلغ، إذ كان يستطيع تدبيره من خلال المضايقات ومن خلال الدهاء المُشبع بالحماس والورع الشديد للدين المحمّدي أيضاً.

### السياسة الدنيئة للأترك في ابتزاز الأموال الطائلة من السكان

فكّر الوالي بتسيير قافلة من البصرة إلى مكة لأداء الحج، وهي تحمل «خِلعة محمد»، وهي هدايا من الأموال والجواهر والأثاث ترسل من عدة أماكن من البلاد

٥٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

العربية لتزيين وصيانة المسجد الذي يضمُّ ضريحَ النبي محمد (١).

وبعد أن شاهد الأعداد الكبيرة من السفن، وكثرة التجار الأجانب القادمين من الهند وغيرها من بلدان الشرق، ومعظمهم من أتباع دين محمد، أعلن أنه قرّر -لكي يحظى بشفاعة محمد، وبوصفه أول العثمانيين الذين استلموا مقاليد الحكم في هذه الولاية الجميلة من بلاد العرب التي غزتها جيوش سيده السلطان الأعظم حديثاً- إرسال كسوة فاخرة إلى الحرم المكي في هذه السنة، وأنه على إستعداد لاستقبال جميع المسلمين، سواء كانوا أجنب أم مواطنين بمن يريدون أداء فريضة الحج المقدسة، مع هداياهم وهباتهم في قصر الوالي أو لدى أمناء سر القصر لتسجيل أسمائهم؛ إذ يسود إعتقاد لدى المحمّديين أنهم لن يكونوا من الناجين [يوم القيامة] ما لم يؤدوا فريضة الحج في حياتهم، أو إن لم يرسلوا الهدايا الثمينة في الأقل. ولذلك توافدت أعدادٌ هائلةٌ من هؤلاء الحجاج المتحمسين لعقيدهم وهم يترაკضون من كل مكان نحو قصر الوالي، وكلّ منهم يجود بما لديه من مال وأحجار كريمة وأقمشة وبضائع وأشياء أخرى، كلٌ بحسب طاقته وقدرته. وحينما أصبح عدد التجار كافياً، صدرت الأوامر بالإستعداد للرحيل مع القافلة في اليوم والوقت المحددين لذلك.

بعد أن جمع الوالي مبالغ ضخمةً من هذه العبادة المُفتعلة، حدّد يوم رحيل القافلة إستعداداً لأداء هذا الحج المقدّس. ويتمُّ الاحتفال الرائع الذي يجري في البصرة على

---

(١) لم يدفن الرسول محمد ﷺ في مكة وإنما في المدينة، فقد توفي في حزيران / يونيو سنة (٦٣٢ م).

النحو التالي: عند الصباح الباكر يتجمع جميع الضباط الذين يتولون قيادة القافلة المقدّسة مع الأولياء [كذا] وشيوخ القصر ورؤساء عوائل الحجاج، في قصر الوالي التركي، ويخرجون عند الساعة العاشرة بروعة وإجلال. وكان جميع أفراد قصر الوالي وحاميات مدينة البصرة، من فرسان ومشاة، يحملون بنادقهم في الميدان العام أمام قصر الوالي، وبدأ عرضهم العسكري بنسق جميل. وكل مجموعة تحت راية معينة مع الجواويز الذين كانوا على خيولهم في صفوف، وهم ينادون بصوت عال، ويضربون بشكل متواتر على طبول صغيرة يحملونها فوق قرابيس السروج<sup>(١)</sup> لإعلان بدء السير. وترى خلفهم الأولياء وأئمة المساجد، وهذا الإيقاع يثير الحزن والكآبة.

ووسط هذا الحشد الموسيقي يسير جملٌ مثقلٌ بالأحمال، يحمل على سنامه مظلةً كبيرةً مغطاةً بقطعة كبيرة من الحرير الأخضر ومطرزة بالذهب وبالكثير من الشعارات المكتوبة بحروفٍ عربيةٍ مُطرّزة بالذهب، وهي تغطي الكنز الذي أرسله الوالي إلى مكة. وحول هذا الجمل ستة جمالٍ أخرى مُحمّلة بالقماش الفاخر والأثاث البديع لتأثيث الحرم المكي المقدّس أيضاً<sup>(٢)</sup>. وترى حول الجمل أعداداً كبيرةً من الحجاج

---

(١) القربوس: حُتُو السرج، أي قسمه المقوّس المرتفع من أمام المقعد ومن مؤخره. وجمعه «قرابيس».

(٢) إن ما يجعل عبارة «ردة محمّد» المذكورة في بداية هذه الفقرة أدق هي الأقمشة النفيسة التي تزين الكعبة الشريفة في مكة، التي تمثل «الكسوة»، وهي شرشف من الحرير الأسود المطرز يغطي الكعبة ويتم تجديده كل سنة في موسم الحج. ونورّد هنا موجزاً من كتاب «جوزيف بتز»، وهو شاب إنكليزي أسره الجزائريون سنة (١٦٧٨)، واعتنق الإسلام، إذ أدى فريضة الحج إلى مكة

وشيوخ المساجد وهم يستعرضون الأشياء المخصصة لتزيين ضريح نبيهم. وخلف

سنة (١٦٨٥): «في كل سنة يتم تجديد كسوة بيت الله [الكعبة] في القاهرة الكبرى بناءً على أمر السلطان الأعظم. وعندما تتهيأ القافلة للرحيل إلى مكة تُحمل الستارة على جملين لا يكلفان بأي عمل طوال السنة. وبعد أن تُرسل من مصر بكثير من البهجة يتم استقبالها في مكة بفرح غامر، ويكي كثير من الناس فرحاً، فيقوم بعضهم بتقيل الجملين اللذين يحملان الكسوة، ويتمنون للموكب سلامة الوصول، ويمدون أيديهم إلى الكسوة. وبعد ملامستها يمسحون وجوههم، ويواصلون عملهم على هذا الحال تعبيراً عن شدة ورعهم إزاء الكسوة الجديدة...». (ذكر ميشيل وولف في كتابه المعنون ألف طريق إلى مكة الصادر سنة (١٩٩٧) ص ١١٧-١١٨، أن هذه الشهادة تبدو قريبة جداً لما لاحظته كاريه قبل خمس عشرة سنةً عند مجيئه إلى البصرة.

انظر: Pitts, Joseph' A True Faithful Account of the Religion and Manners of the Mohammetans, London, 1704; Michael Wolfe (ed.), One Thousand Road to Mecca: Ten Centuries of Trav-ersers Writing about the Muslim Pilgrims, New York, 1997, pp. 117-118;

وذكرت مذكرة بعنوان «مذكرة عن مدينة حلب»، نشرها اليسوعيون دون توقيع أو تأريخ ضمن رسائل نادرة بعنوان (Lettres édifiantes et curieuses)، رحيل القافلة من حلب إلى مكة بالتفصيل، ونقرأ فيها: «ظهرت الظلة التي ستقدم لضريح محمدٍ محمولاً على ثلاثة جمال مغطاة بريش أخضر ومزينةً بالفضة، وتتكون من قطيفة قرمزية حمراء مُطرّزة بالذهب وبأحجارٍ كريمة من جميع الألوان». انظر: Memoires du Levant, Toulouse, 1810, p. 277;

وفي رحلته إلى الشرق وصف «شارل بارديو» موكب الكسوة من القاهرة إلى مكة قائلاً: «في الخامس والعشرين من آب / أغسطس تجري في ساحة الرميلة احتفالات عرض السجاجيد المخصّصة لمكة بموكبٍ مهيب جداً [...]». ويأتي بعد ذلك الجمل المعبر مغطىً بالأقمشة النفيسة، ورأسه مزين بالكثير من الدمقس الأخضر والذهبي متنداً في كل خطوة حاملاً على ظهره السجادة إلى الكعبة بسموٍ [...]». بعدئذ يأتي مسلمون آخرون يحملون سجاجيد ملفوفةً للمسجد، ثمّ هدايا أخرى، وأخيراً علمٌ كبيرٌ أخضر اللون مُطرّز بالذهب».

[ ١٣ ] رحلات الأب بارثليمي كاريه ..... ٥٣

هذه الجموع يسير موكب الفرسان وحملة الطبول والموسيقى والمزامير الخاصة بالوالي، وهم يطلقون أصواتاً رائعةً ومتناغمةً وأقل كآبةً من موسيقى الشيوخ والملاي المشابهة لصخب محفل السبت والسحرة والمشعوذين، الذين كانت ملامحهم تعكس حزنهم.

وبما أن هذا الاحتفال مُقدَّسٌ جداً لدى المسلمين، فلا يمكن تصور عدد من جاءوا من جميع الأماكن المجاورة للبصرة، لا يعيقهم شيء عن الذهاب إلى قصر الوالي، وكلٌ منهم يحمل هداياه ليسجل اسمه ويحظى بشرف المشاركة بالمغفرة في هذا الحج المُقدَّس. وكانت الشوارع مكتظةً بالناس، حتى أن الجواويز كانوا يعانون بشدة من المحافظة على نسق السير في صفوف. وكانت جميع سطوح المنازل ممتلئةً بالنسوة المحجبات اللاتي سُمح لهن بالخروج من القصر لمشاهدة هذا الاحتفال المُقدَّس بحسب اعتقادهن. وكانت الفرحة تغمر قلوبهن، وكنّ يزغردن فرحاً بشكل مفرغ من أعلى بيوتهن بأصوات تشق عنان: «لى لى لى لى لى لى»، تعبيراً عن فرحتهن. ويجهدن بالسير راجلات بعيداً عن المجموعات الموسيقية.

وكان بعضهم يحمل في يده طبلًا يشبه طبول «الباسيك»، وآخرون يحملون دفوفاً صغيرةً وآلات موسيقية تسبب ضوضاءً شديدةً تتناغم مع أناشيدهم الجنائزية لرؤية موكب الجمل والهدايا المُخصَّصة لهذا الحج المُقدَّس.

وبين هذا الحشد أعجبني منظر تسارع الصبية الصغار لِلَمَسِ الهدايا المُرسلة، وكل واحد منهم يريد الإقتراب ليلمسها بأطراف أسابعه. ورأيتهم يتدافعون بهوس، حتى أنهم يجرحون أجسادهم ليسعدوا بلمس هذه الأشياء الثمينة المُقدَّسة التي تزين

٥٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

الضريح المقدّس لنبئهم.

وبهذه الطريقة تخرج هذه الأشياء من قصر الوالي، فيُطاف بها في الشارع الرئيسي للمدينة لتزيد من شدة حماسة الناس وورعهم. وبعدها يتمُّ إيداعها في منزل رئيس القافلة الذي يخرج في اليوم التالي بكل هذه الأحمال ويذهب ليخيم خارج المدينة إستعداداً للرحيل.

إن المبالغ النقدية والثروات التي دفعها هؤلاء الحجاج إلى حكام المناطق التي تغادر منها القوافل الذاهبة إلى مكة أمر لا يُصدّق. فقد أُجبر الحجاج على دفع الرسوم، وعلى كل منهم تقديم مصاريف الرحلة والهدايا إلى الضريح المقدّس. وبعد أن يستحوذ الوالي أو الحاكم على كل هذه الأشياء يأخذ قسمًا منها ويرسل البقية بموكب ضخم ومشرف. وبهذه الطريقة يخذ المسلمون الذين يعدُّ الحج ركنًا من أركان عقيدتهم، والذين يتصورون أنهم لن يحصلوا الخلاص إن لم يؤدوا فريضة الحج أو يرسلوا أحدًا لأدائها نيابةً عنهم، الذين تصل أعدادهم إلى أعداد غفيرة في كل سنة من جميع الأنحاء، وهم يحملون كنوزهم وثرواتهم الهائلة إلى مكة، والتي ما أن تصل حتى تعود إلى خزائن السلطان الأعظم عبر قناة أخرى.

ولدى السلطان الأعظم حكام ماهرون ومخلصون يهتمون جيداً باستلام جميع الهدايا الثمينة سنويًا من بلاد البربر ودمشق والقاهرة الكبرى وفاس ومراكش، ومن بلاد المغول والممالك الأخرى في الشرق، وفي آسيا، التي تذهب منها كل هذه القوافل إلى مكة. أما قافلة السلطان الأعظم، التي تنطلق من القسطنطينية، فأتذكر أنها وقعت



في سنة (١٦٧٢)، في أثناء المرور بالصحراء العربية، في قبضة أحد الأمراء العرب، الذي كان تحت إمرته خمسة وعشرون ألف رجل، وكان يجوب الأراضي العربية كُلِّها للسطو على القوافل، ولا سيما القوافل التركية. ففي تلك السنة نهب جميع قوافل القسطنطينية الكبيرة العائدة من مكة بالكامل<sup>(١)</sup>. ولما اقتادوني إلى خيمة هذا الأمير العربي، وبعد أن رحّب بي وتناقشت معه طويلاً، دعاني لرؤية أكثر من ألفي جمل محمّل بثروات وكنوز انتزعها من قافلة مكة المقدّسة.

### عقيدة الفُرس وعقيدة الأتراك

مع أن معظم العرب محمّديون فإنهم لا يتبعون عقيدة الأتراك وإنما يتبعون عقيدة الفُرس الذين يتبعون شيعة علي، صهر محمّد، ويتمسكون بمذهب خاص يختلف عن مذهب الأتراك كلياً<sup>(٢)</sup>، حتى أنهم مختلفون في كثير من الأشياء، مما ولّد حقداً كبيراً وكرهاً شديداً بينهم. كما أن الفُرس يذهبون أيضاً لأداء فريضة الحج، ويحملون هداياهم وهباتهم إلى ضريح صهر محمّد الموجود في ضواحي بغداد<sup>(٣)</sup>، ويحظى

(١) هنا خطأ في التاريخ، فقد كان كاريه يعتقد أن ما حدث له كان في الرابع من حزيران / يونيو سنة (١٦٧٤) عندما استقبله في الخيمة قاطع الطريق وأمير اللصوص «محمّد الشديد» المخيم مع عشرة آلاف رجل في بادية سوريا (انظر الرحلة الثانية). وهذه الأخطاء في تحديد التواريخ شائعة لدى كاريه. انظر المثال الآخر في (الفصل السادس، ص ٥)، فقد كتب (١٦٧٢) بدلاً من (١٦٧٣). النسخة الفرنسية المحقّقة سنة (٢٠٠٥).

(٢) هذا يعني أن الرحالة يعدُّ الأتراك يمثلون «السنة» والفرس يمثلون «الشيعة».

(٣) يقع ضريح الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في مدينة النجف على بعد (١٥٠) كم

٥٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

بالقدسية لدى جميع المسلمين الذين يتبعون مذهبه. فقابلتُ مجموعةً تتراوح ما بين ستمئة إلى ثمانمئة شخص معهم نسوتهم وأطفالهم وخدمهم، حاملين معهم كل ما هو ثمين، لتزيين وتجميل المسجد الرائع لنيهم علي [كذا]، الذي لا يقل قدسيةً عن القدسية التي يوليها العثمانيون لمحمّد (١).

وأريد إطلاعكم (٢) أن هذه الأديان المُزيّفة التي يدعو لها أمراء آسيا والشرق ليست سوى سياسات وحيل بارعة باسم الدين لزيادة ثرواتهم وتجريد الناس من أموالهم وممتلكاتهم. وهذا ما رأيته عند والي البصرة؛ فبهذه الحيلة تمكّن، خلال وقتٍ قصير، من إشباع جشعه وأن يتفادى غضب وزراء الباب العالي الذي أرسلوا له خِلعاً (٣) الملايين التي وصلت البصرة قبيل الاحتفال بقافلة مكة.

وحيثما علم والي البصرة بإقتراب مبعوث القسطنطينية أخرج أهله والإنكشارية وكبار التجار، وحتى التجار الأجانب، الأكثر عدداً والأفضل حمايةً، لأنهم سيحملون من مكة جميع المبالغ والثروات الكبيرة إلى خزائن السلطان الأعظم. وبعد أن رحب المبعوث بكل أدب، اصطحبه إلى قصره، فقدم له المبعوث الخِلعَةَ باحتفالٍ مهيب،

---

جنوبي بغداد.

(١) عندما عاد كاريه من رحلته الأولى قاطعاً المسافة ما بين أصفهان وبغداد، إلتقى بكثيرٍ من قوافل

الفرس الذاهبة والعائدة من النجف وإليها.

(٢) هذه إشارة تدل على أن الرحالة يُدَوّن تقريراً إلى كولبير.

(٣) الخِلعَةُ: رداء أو معطف من القماش النفيس يرسله السلطان إلى من يؤدي خدمات جليلة أو إلى

السفير الذي يريد تكريمه.

[ ١٣ ] رحلات الأب بارثيلمي كاريه ..... ٥٧

وكانت عباءة أو فروة أرسلها له السلطان الأعظم تكريماً له ودلالةً على سروره باختياره لإدارة حكومة البصرة. وبعد هذا الاحتفال جنى المبعوث أولى ثمار رحلته، وهي هدية بمبلغ عشرين ألف إيكو مع كثير من قطع الأقمشة الحريرية الثمينة جداً لتخفيف عناء هذه الرحلة الطويلة الشاقة عنه.

وبعد عدة أيام خرجوا للتنزه على الخيول في ريف جميل يبعد فرسخاً واحداً خارج المدينة، يتبعهم الفرسان والمشاة الأتراك الذين قاموا باستعراض عسكري ومارسوا لعبة رمي الرمح على ظهور الخيول، وأخذوه للتنزه فوق شط العرب لرؤية جماله وخصوبة أراضيه، واصطحبوه إلى البساتين، فجلس على أسرة من الورود وسط الرياحين وأنغام الموسيقى، واستمتع بالولائم والمسرات، ثم اصطحبوه لزيارة السفن الهندية الراسية على الشاطيء؛ إذ استقبله التجار بقذائف المدفعية احتفاءً به. وبعد أن رتب كل أموره حمل الهدايا الثمينة والمبالغ الكبيرة التي جاء لأجلها وعاد راضياً جداً عن رحلته.

ولكن وا حسرتاه؛ سبحان مُغيّر الأحوال. ففي أثناء وجود هذا المبعوث لم نشهد إلا الكرم وتجمع الفرسان والمتعة وهتافات الفرح في البصرة، ولكن بعد ذلك بأيام قلائل شهدنا أشياء مناقضة تماماً ووجهاً مختلفاً كلياً؛ إذ شاهدنا في هذه المدينة البائسة أموراً تدعو إلى البؤس والبكاء والعطف.

فالأتراك، كما أخبرتكم سابقاً، يتدافعون نحو المكاسب بهياج عظيم، وعندما أصبحت هذه المدينة تحت سيطرتهم هرعوا إليها بسرعة، من ضواحي بغداد ومن

٥٨ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

كافة أنحاء سوريا وبلدان الشرق أيضاً التي انتشرت العدوى في كثير من مناطقها، حتى أنهم نقلوا معهم الأمراض المعدية إلى مدينة البصرة الكبيرة بطريقة سريعة وشديدة. وسرعان ما انتشر مشهد القتل والوهن في كافة أرجائها بسبب الحمى البوابية (\*) التي شملت الجميع، أتراكاً وعرباً وهنوداً وفرنجة. وسرعان ما رأينا الدمار الهائل الذي حلّ بالأهالي. ففي أقل من ستة أسابيع بلغ عدد القتلى أكثر من ستين ألف شخص، حتى أن المقابر لم تعد تتسع لجثث من يموتون يومياً، فاضطر الأهالي لحفر حفرة كبيرة على ضفاف شط العرب لنقل جثث الموتى إليها بواسطة السفن.

وصلنا قبل أن يتفشى الوباء في المدينة. ولحسن الحظ كُنّا على ظهر سفيتنا التي رست وسط النهر، وكنا نأمل أن تحفظنا من هذا الوباء الشامل. وبما أننا كُنّا مضطرين للإتصال مع تجار المدينة باستمرار، إذ تُوجد فيها وكالة لتجارنا، فلا يمكننا أن نجنب أنفسنا هذا البلاء. وكانت السفن الهندية خاليةً من البشر تقريباً، وفقد الإنكليز والهولنديون ضباطهم وجميع طاقم سفنهم تقريباً، وفُجعنا نحن الفرنسيين بإثنين من رؤساء تجار شركتنا، وهما السيد «فروت» و«لاييل»، اللذان داهمهما الوباء مع خمسين آخرين ما بين ملاح وبحّار. وفي خضم هذه المآسي، أثار فقراء المسيحيين في المدينة مشاعري. فقد وجدوا أنفسهم فجأةً محرومين من عزاء القساوسة والكهنة ومواعظهم

---

(\*) ليس الحمّة البوابية بل الطاعون.

بتضحيات كنيستنا في المصائب الكبيرة.

وكان الآباء الكراملة، الممتلئون حماسةً وحباً بالتخفيف عن آلام الناس، أول من أصيبوا بالوباء، لأن كنيستهم كانت ملاذاً لفقراء المسيحيين. وكان رئيسهم الأعلى الأب المَبَجَّل «سيفيرين» أول من لقي حتفه، وتبعه إثنان من رفاقه، ثم الأب الزائر العام، المَبَجَّل دون «هيرونيموس اليسوعي»، وكان رجل دين كرملياً من جنوا، عُرف بشدة التقوى حينما جاء لزيارة أديرة المبشرين في البلدان الشرقية التي مررنا بها في رحلتنا من الهند حتى مدينة البصرة، التي كان ينوي العودة منها براً إلى أوروبا.

وبقي دير الكراملة دون أي شماس لإدارة الطقوس الدينية ومساعدة الفقراء المسيحيين. وكان على ظهر سفينتنا راهبٌ من «الكانارين»<sup>(١)</sup>، وكان مبعوثاً من روما بعد أن قضى عشرين سنةً في «كلية نشر الإيمان الجديد»<sup>(٢)</sup>، وعُيِّن أسقفًا بدلاً من عمه أسقف «بيشوليم» في سواحل مالابار بالقرب من غوا. وسأحدث عنه بإسهاب في رحلاتي التالية في أثناء زيارتي له<sup>(٣)</sup>. وكان هذا الأسقف متألماً جداً وهو يرى الكنيسة والإرسالية الكرملية في البصرة من دون قس أو كاهن. فتحدّثت معه طويلاً عن

---

(١) كانارين (Canarin): سكان ساحل كونكان الواقع بين دامون وغوا. ويذكر تافرنيه أن جميع القضايا في غوا تمر عن طريق الكانارين الذين هم أكثر الناس خداعاً ومهارة. انظر: Jean Baptiste Tavernier, Voyages en Turkey, en Perse et en Inde, second partie, Paris, 1679, p. 117.

(٢) أسسها أوربان الثامن سنة (١٦٢٧)، بناءً على مقترح مجمع الأساقفة الخيري لنشر الإيمان الجديد الذي تأسس سنة (١٦٢٢).

(٣) هذه الإشارة من النسخة الفرنسية للرحلة.

٦٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

معلوماتنا بأنّ الوالي التركي يريد أن يستولي على الإرسالية ويهدم الكنيسة، وأخبرته أننا، لكي نُنقذ الكنيسة والإرسالية منه، قررنا إرسال أحدنا إلى المدينة ليقوم في الإرسالية الكرملية ليؤدي الشعائر المقدّسة ويساعد المسيحيين على البقاء فيها.

### الرحالة ينقذ كنيسة الكراملة في البصرة

... لكننا رأينا انزعاج الأسقف في النزول إلى البر بسبب استمرار الوباء، فبقي على ظهر السفينة للسهر على مساعدة المرضى المسيحيين، في حين غادرتُ أنا السفينة لأقيم في الإرسالية الكرملية. ولحسن الحظ، كانا أمانا نحو شهرين للبقاء في البصرة لإنجاز أعمالنا التجارية؛ فانتهزتُ هذا الوقت لأبقى في هذه الكنيسة أمارس الطقوس لهؤلاء المسيحيين، ولأمنع الأتراك من الإستيلاء على إرساليتهم، وهذا ما اضطرني إلى أن أرسل السعاة بسرعة عبر البر إلى عاصمة بلاد فارس أصفهان، وإلى مقر الكراملة في شيراز، إذ وصلتني منهم أجوبة عبر الأب الموقر «إنج»<sup>(١)</sup>، وهو كرمليٌّ فرنسيٌّ يعمل في شيراز، فوَّضني وطلب مني إلّا أترك إرساليتهم أبداً لحين وصول المبعوثين الكرمليين اللذين وصلا في الوقت المناسب قبل رحيلنا. وقد فرح جميع المسيحيين

---

(١) هو تولويزان أنج الكرملية من أتباع كنيسة القديس يوسف في إرسالية شيراز، ثمّ في البصرة، ومؤلف كتاب: (Pharmacopoeia de la Persica et du gazophylacium linguae Persarum). وهو قاموسٌ فارسيٌّ فيه تعليقات باللغات الإيطالية والفرنسية واللاتينية. انظر الطبعة الأخيرة بعنوان: Souvenirs de la Perse Safavide et autres lieux de l' Orient, par Michael

الفقراء، إذ كانوا سيفقدون كنيستهم في ما لو استولى الأتراك عليها.

هكذا كان حال البصرة حينما غادرتها في نهاية سنة (١٦٧٠)، كنتُ محظوظاً بالخروج سالمًا بعد أن أصابني المرض مرتين أو ثلاث مرات، وهو المرض الذي أنقص عدد أفراد طاقم سفيتتنا. وبينما كُنَّا نتهيأ للرحيل اضطررنا لاصطحاب بعض الفقراء المسيحيين والعرب من أهالي المنطقة لمساعدتنا في قيادة سفيتتنا، وفعل الهنود والإنكليز والهولنديون مثلما فعلنا.

وفي نهاية شهر تشرين الأول / أكتوبر، غادرنا البصرة وقطعنا كل هذه المسافة في البحر الفارسي خلال وقتٍ قصير، وتوقفنا في «بندر عباس» لبضعة أيام لنأخذ بضائعنا من مكتب شركتنا، فوجدنا هناك «لوي دو لاتوال»، الذي ركب معنا ليذهب إلى «سورات» وإلتحق برؤساء شركتنا ليستفسر عمّا حدث في بلاد فارس بشأن تأسيس شركتنا في هذه المملكة. وقد أفرحت عودتنا إلى «سورات» السيد «كارون» كثيراً بسبب كثرة الأرباح التي حققتها سفن شركتنا.

مضت ثلاث سنوات على بدء المفاوضات المكثفة لتأسيس الكثير من المكاتب لشركتنا في عدة مناطق في الشرق. وذات يوم، وبينما كُنَّا نتحدث على انفراد مع السيد «دو لاتوال» عند السيد «كارون» لمناقشة مشاريع شركتنا، أبلغنا أنه قلقٌ جداً وقد نفذ صبره لعدم استلامه أي خبر من فرنسا بعد أن وعده السيد «كولبير» بإرسال مساعدات كبيرة لمساندته في إنجاز مشاريعه. وقال لنا أنه أرسل ثلاث سفنٍ مُحمّلة بالبضائع الثمينة إلى فرنسا ليثبت لهم أن شركتنا بدأت تزدهر في الشرق. وفي غمرة

٦٢ ..... البصرة في خمسين وعشرين رحلةً أجنبيّة

قلقه، قرّر إرسال سفينة أخرى إلى فرنسا تحمل أخباراً تفيد أن أوضاع شركتنا على ما يرام، وطلب إرسال المزيد من السفن والأشخاص والمبالغ لتحسين وضعها أكثر. وبينما كان غارقاً في حيرته (إذ تنقصه خبرة الإبحار لمثل هذه المسافات الطويلة)، لأنّ السفن التي أرسلها تأخرت واستغرقت مدةً طويلةً في رحلاتها، ولكي يشعر بالأمان أكثر، قرّر إرسال مبعوث ماهر إلى السادة المسؤولين [في فرنسا] عبر البر بأسرع وقت، لمتابعة اهتمامهم بالشركة ومشاريعهم المقبلة في بلدان الشرق. وهذا يتطلب رجلاً عارفاً ببلدان الشرق والتجار والمؤسسات التجارية التي أقمناها نحن الفرنسيون هناك قبل مدة قصيرة. والأهم من ذلك أن يكون شجاعاً وقوياً ليقوم بهذه الرحلة عن البر. وعليه أن يجوب البحار وأن يجتاز مملكة فارس الشاسعة كلها، والسهول المحرقة لبلاد ما بين النهرين وكلدّة وبابل والبادية العربية وسوريا وتركيا وبلاد البرابرة الأخرى غير المعروفة لدى الفرنسيين.

وبما أنني كنتُ مُقيماً عند هذا الدير، الذي جنّثُ معه من فرنسا، وأطلعني على كل الأماكن التي أنشأ فيها وكالات لشركتنا، فقد كانت ثقته بي عاليةً جداً، وقلما يفعل ذلك مع غيري (١). فذات يوم فتح معي موضوعاً خاصاً، وشكالي من عدم وصول أي أخبار من فرنسا، وأبدى استغرابه الشديد لأنّ السيدين «كولبير» و«بيرير» (٢)

---

(١) يكرر كاريه في مختلف كتاباته أن «كارون» كان يثق به وكان يطلعه على كل المشاريع.

(٢) السيد «بيرير» (Berryer)، هو المدير المالي السابق للكاردينال «مازارين»، ثمّ ضابط الارتباط ما بين «كولبير» ومدراء الشركة الملكية.



- العضوان الفاعلان الوحيدان في شركتنا الفرنسية - أكدا له أن المساعدات والسفن والرجال سترسل خلال ستة أشهر، ولكنه لم يرَ حتى الآن أي بارقة أمل منذ أربع سنوات. عندها صرّح أنه لا يُوجد مَنْ هو أقرب أو أكثر ثقةً مني وأخبرني أنه قرّر إرسال مبعوث إلى فرنسا عبر البر. وكان يعلم بعلاقتي الوثيقة بالسيد «كولبير»، الذي أرسلني إلى هذه البلاد الشرقية، فطلب مني أن أقوم بهذه الرحلة، وأكد لي أنني سأقدم بذلك خدمةً جليلاً للملك ولرفع شأن شركتنا الفرنسية الجديدة. وقال أيضاً لي أنه سيرسلني إلى كلِّ من «ماسوليباتام»<sup>(١)</sup> و«تيلشيري» و«راجبار»، إذ أسّس مكاتب لشركتنا على ساحل مالابار للتجارة بالتوابل في كل من بلاد فارس والبصرة، وفي ماسوليباتام، وفي أماكن أخرى من بلاد الشرق، التي لديّ معرفة بكبار التجار الموجودين فيها. وقد اختارني للذهاب إلى فرنسا لأقدم تقريراً دقيقاً إلى الوزير الذي أرسلني إلى هذه البلاد<sup>(٢)</sup> لأستعلم عن هذه الأمور بعد أن شاهدتُ كل هذه المؤسسات.

بناءً على ما اقترحه عليّ السيد «كارون»، أبلغته بموافقتي على القيام بهذه الرحلة

---

(١) تقع ماسوليباتام (Masulipatam): على ساحل كورومانديل. من المُحتمل أن كاريه زار هذا الموقع في أثناء رحلته الأولى، لأنّ الوكالة التجارية الفرنسية في ماسوليباتام لم تتأسس إلّا في كانون الأول / ديسمبر سنة (١٦٦٩) عندما أراد الدخول إلى سورات في أثناء جولته الأولى في الخليج العربي والبصرة.

(٢) المقصود هنا «كولبير».

٦٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

ما دامت تخدم صاحب الجلالة. وبعد أن اتفقنا على سرية هذا الموضوع، هيأتُ كل ما يلزم للرحلة. ولكي أعبّر «البحر الهندي» إلى «بندر عباس»، الميناء الرئيس لبلاد فارس، وجدتُ، لحسن الحظ، إحدى السفن الإنكليزية في «سورات» تتهيأ لعبور «الخليج الفارسي»، إذ لم يكن السيد «كارون» يريد أن يرسل سفن الشركة إليه للأسباب التي أوضحته في أعلاه، وكان يفضّل انتظار وصول السفن والرجال إليه من فرنسا لإنجاز أعمالنا في بلاد فارس.

## الوصول إلى القرنة

كانت الرياح مؤاتيةً، فأفادتنا في التعجيل من سرعتنا، كما أنها ساعدت في تهويتنا لأننا كُنّا نعاني من الحر القاطئ كثيراً. وعند منتصف النهار مررنا حول قرية أخرى تدعى «مقرون»<sup>(١)</sup>، فتجمع كل العرب تحت النخيل الذي كان يحيط بالقرية، ونزل

---

(١) ثمة خلاف بشأن الاسم المقصود، فقد ذكر السير تشارلس فاوست تعقيباً عن الموقع ردّ عليه الأستاذ يعقوب سر كيس بنفي احتمال كون الموقع المذكور «المجر». فقد ذكر فاوست: «مگرون: ظهرت في خارطة بلاد فارس للجغرافي الفرنسي «دوليل» سنة (١٧٢٤)، وأعيد نشرها في خارطة أنتوني شيرلي بحسب التوثيق أدناه والخارطة المُثبتة في نهاية الفصل.

De lilsle's Carte de Perse, made in 1724, (a section of which is reproduced: p. 146 in: Sir Anthony Sherley of the Broadway Travelers series);

باسم «مجر» (magrou)، وتقع بين العشار والقرنة. وربما تكون هي ذاتها المجر (magar) التي ذكرها تافرنبيه. إنظر: رحلته، ص ٦٨؛ 68 Sir Arnold Wilson, Persian Gulf,

إلى هنا ينتهي تعليق السير فاوست على هذا الموقع، في حين كان ردّ الأستاذ سر كيس كما يأتي: «هذه القرية لا يمكن أن تكون «المجر»، التي ذكر تافرنبيه أنها المكان الذي غادر منه إلى

بعضهم إلى النهر معتقدا أننا سننزل إلى اليابسة، ولكننا مضينا دون توقف. وخلال ما تبقى من النهار كانت المنعطفات المستمرة للنهر مرهقة جداً، فاستغرقتنا في الالتفاف حول قرية كبيرة تدعى «عطلان»<sup>(١)</sup> أربع ساعات، قبل أن نصلها. ثم أصبح النهر سريعاً جداً. وعند الساعة السادسة تخطينا قارباً كبيراً مليئاً بالجنود، بإمرة تركي يحمل شارة، كان يأخذهم إلى البصرة. فقمنا بزيارته على ظهر القارب، حيث تناولنا طعاما

«المنصورية» على نهر الفرات، ومن هناك إلى القرنة. وإذا كانت مقرون (Maqron) هي المجر، فإن تافرنبيه قد مرّ عبر «العزير» (وبالنتيجة كان سيذكر مقرون) لكي يصل إلى القرنة، وإنه لم يذهب إلى المنصورية من أجل أن يذهب إلى القرنة. يضاف إلى ذلك أن الرحالة لم يذكر «العزير»، لذا لا يمكن أن يكون قد اقترب من مقرون، التي هي ليست بعيدة جداً عن شمالي قرية القرنة. فضلاً عن ذلك، فإن المحرر نفسه يجدد مقرون بين العزير والقرنة في خارطة بلاد فارس، التي رسمها «دو ليل» سنة (١٧٢٤): أنظر أيضاً:

Claudius James Rich, Narrative of Residence in Kurdistan, vol. ii, London, 1836, p. 374.  
إذ يقول في هذا الكتاب: «أبو مكرون»، مزار تحيطه قرية «زكية». ويذكر جهاننا (وهو كتاب جغرافي باللغة التركية القديمة) أنها تقع إلى الجنوب من العزير (ص ٤٥٥). وتوفي مؤلف هذا الكتاب، حاجي خليفة، في سنة (١٠٦٩ هـ / ١٦٥٦ م)، وتمّ طبع الكتاب في استانبول سنة ١١٤٥ هـ / ١٧٣٦ م). انتهى تعقيب سركيس هنا.

Jacob N. Serkis, "The Travels of the Abbé Carré", Iraq Times, 22 / 5 / 1950.  
(١) «عطلان؟» (Etlan): (Etelent)، هذا الموقع غير واضح لنا. ويظهر أيضاً في خارطة بلاد فارس للجغرافي «دو ليل»، الذي أشير إليه في الهامش السابق، وهو موقع فوق القرنة مباشرة. وتفترض خارطة الجنرال چيسيني (رقم ١٠) الملحقه بكتابه أنها قد تكون «الخرابة» (Karābah)، المحاطة كلّها تقريباً بمجرى النهر. وفي خارطة المسح الهندية، رقم ٣ إم (طبعة كلكتا، ١٩٤٠)، المشار إليها في أعلاه، فإن القرية ذاتها تظهر باسم «خرابة» (Hirabah). أنظر:

F. R. Chesney, Expedition for the Survey of the Rivers Euphrates and Tigris, 1835-1837, (2 vols. And maps), London, 1850.

٦٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

شهيماً على الطريقة التركية. ولدى عودتنا إلى دانقنا اجتزنا هذا القارب بسرعة كبيرة، حتى وصلنا عند منتصف الليل إلى «القرنة»، تلك المدينة الجميلة ذات الحصن الكبير، الذي يقع على لسان أرض منخفضة، بإتجاه الجنوب. وهنا يلتقي نهر دجلة والفرات، فيفقد الأول اسمه، لأنّ مياهه تتحد مع مياه «شط العرب»<sup>(١)</sup>، الذي يبعد ستين فرسخاً جنوباً، بإتجاه «الخليج الفارسي»<sup>(٢)</sup>.

## في البصرة

إن المرور في «القرنة» مهم جداً، لأنّ البصرة وبغداد، وكل المدن الواقعة على هذين النهرين تعتمد عليها لتوفير الأمان. ولذلك اضطر الأتراك للاحتفاظ بحامية قوية هنا. وطوال خمسة أشهر من سنة (١٦٦٩)، فرضوا حصاراً بجيش يجيى باشا الذي كان يملك قوة قوامها عشرون ألف عربياً، ولكنه لم يتمكّن من فعل شيء، فاضطر للتخلي عن البصرة وترك كل هذه المنطقة الجميلة تحت النير التركي. وقد ذكرت هذا بشكل كامل في صحيفة رحلتي الأولى، لأنني كنت في البصرة حينما هزم الأتراك العرب منها<sup>(٣)</sup>. وبعد أن دخل دانقنا الميناء نزلنا اليابسة وقادنا رفيقي التركي

---

(١) لا بد من التذكير دائماً أنّ الرخالة يستخدم تعبير «نهر الفرات» بدلاً من شط العرب.

(٢) طبقاً للدليل الملاحى للخليج فإن المسافة المذكور تبلغ (١١١) ميلاً. ولم يعد نهر الفرات يتحد الآن بنهر دجلة عند القرنة، وإنما عند «گرمه علي» بالقرب من البصرة. أنظر:

Persian Gulf Pilot, Comprising the Persian Gulf, the Gulf of Omán, and the Makrán Coast, Washington, 1920, p. 239.

(٣) وَرَدَ في النص الإنكليزي بصيغة (Aya Pasha)، وهو «يجيى باشا» الذي أسهب كاريه الحديث عنه

[ ١٣ ] رحلات الأب بارثيلمي كاريه ..... ٦٧

إلى الحصن، فاستقبلنا الأغا التركي وضباط الحامية الآخرون بأعلى مظاهر الكرم والالطف، وسَمَح لي بالمرور بصفتي أكفأ الأطباء في آسيا كما كان يعتقد.

الأحد، ١٠ تموز / يوليو: عند الفجر ركبنا الدائق ودخلنا «شط العرب»، لأنَّ نهر دجلة يفقد اسمه هنا. وعند الساعة الثامنة نزلنا اليابسة، لأنَّ المد المرتفع أجبر تيار الشط. وعندما أصبح في أعلى منسوب له واصلنا رحلتنا عبره بسهولة، بمساعدة تيار المد والجزر. وعند منتصف النهار مررنا بين بضعة جزرٍ ساحرة مُغطَّاة بالخيل وبعض أشجار الفاكهة الأخرى. وكانت هذه الجزر مأهولة وخصيبة جداً ووافرة بالحبوب والتمور والأعشاب وكل أنواع الفاكهة. وبما أننا لم نكن نبعد عن البصرة سوى أربعة فراسخ، فقد أغرانا جمال هذه الأماكن ورائحتها العطرة بالبقاء قليلاً لشراء بعض الفواكه التي ملأنا بها دائقنا. ثم واصلنا طريقنا لنصل البصرة عند الساعة الرابعة عصراً.

عند نزلنا اصطحبت رفيقي التركي إلى أحد موظفي الوالي، الذي استقبلنا بحرارة كبيرة. وعندما علم الشاهبندر<sup>(١)</sup> بوصولي وأنني طيبٌ ممتازٌ، أرسل إلى قاري

---

في رحلته الأولى التي زار البصرة خلالها. وأشار لونكريك في صفحات متفرقة من كتابه (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث)، ولا سيما الصفحتين (١٤٨-١٤٩) إلى الحصار الفاشل للقرنة وخسارته البصرة أمام القوات العثمانية.

(١) ذكر محرر النسخة الإنكليزية لرحلات كاريه، السير تشارلس فاوست، أن المعنى الحرفي لكلمة «الشاهبندر»، الواردة في النص الفرنسي الأصلي بصيغة (Chabandard)، هو «ملك السماء» (King of the Heaven) وهو سيد ميناء ورئيس جامعي ضرائب الكمرك، مع وظائف أوسع أحياناً.

٦٨ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

بعض الموظفين الذين أخذوا كل أمتعتي وأسلحتي إلى بيته، وأعد وليمة لي لأمكث عنده. وبعد أن تناولت الطعام مع رفيقي التركي، غادرته وذهبت إلى دير الآباء الكراملة. ويا لفرحتي، فقد وجدتُ أن حالته أفضل مما شاهدته قبل ثلاث سنوات، حينما كان في حالة خراب وهجران بسبب وفاة ثلاثة آباء كنت قد رأيتهم يموتون أمام عيني. أما الآن فمظهره مختلف تماماً، إذ وجدت أن الأب الأعلى الإيطالي، المُبجَّل «هيرونيموس اليسوعي»<sup>(١)</sup>، مع أبوين فرنسيين آخرين، صنعوا الأعاجيب، وبمساعدة خاصّة من السماء أعادوا تأسيس ديرهم، كما لو أنهم مبعوثون حواريون لا هدف لهم سوى مجد الرب وشرف كنيسة المقدّسة وخلاص النفوس. لهذا الهدف كانوا يعملون، بتفانٍ رائع، كما يأمرهم مذهبهم وتعاليمهم المسيحية وطقوسهم الدينية، التي تُنشرُ يومياً بين عدد كبير من المنشقين المسيحيين واليعاقبة والنساطرة

---

أنظر: W. H. Moreland, J. R. A. S., 1920, pp. 517 seq.

والمعاني الأخيرة للكلمة غير معروفة، لكن «ملك السماء» غريب.

(١) هيرونيموس اليسوعي (Heronimos of Jesus): يمكن توثيق روايات كاريه الخاصة بالآباء الكراملة في البصرة من العرض الزمني الذي كتبه الأب اغاثانجيلوس (Agathangelus) وسواه، التي ترجمها وحررها السير «هيرمان غولانسز» (Sir Hermann Gollancz)، مطبعة جامعة أوكسفورد، (١٩٢٧). وكان اسم الأب الأعلى الذي وَرَدَ هناك (ص ٣٣٢-٣٣٦) بصيغة: "R. P. F. Hieronimus", i. e. Jerome "of Jesus Mary" and "Professus of the Province of Poland";

الذي وصل في الثالث من شباط / فبراير (١٦٧١)، وكان كاهناً حتى (١١) كانون الثاني / يناير سنة (١٦٧٤).

والمارونيين والأرمن وغيرهم، ممن ملأوا هذه الأرض. ولكن فوق ذلك كله فإن أسلوب معيشتهم ومثل التقوى والفضيلة التي تتجلى في كل تصرفاتهم، منحت قيمة عظيمة لأعمالهم الخيرية. وإلى جانب ذلك، ولكونهم الفرنجة الدائمين الوحيدون في البصرة، فإنهم يساعدون، من صميم القلب، شعوبهم الأوروبية التي تتاجر في الشرق عن طريق إرسال الرسائل والبرقيات من أوروبا إلى الهند، وهم يفهمون تماماً أساليب وطرائق الأتراك والعرب الذين يستخدمونهم لكل تلك الأمور والخدمات المطلوبة من المسافرين والتجار الفرنجة في تلك الأنحاء.

### الآباء الكراملة في البصرة

بعد أن دعاني هؤلاء الآباء الطيبون إلى منزلهم أبلغتهم أن أمتعتي يجب أن تنقل من القارب إلى إرساليتهم التبشيرية، وعلمت في ما بعد أن الشاهبندر أخذ كل شيء إلى مكانه، فاضطرت إلى التوجه إلى هناك، معتقداً أنه كان يريد تفتيش حاجياتي لفرض ضريبة الكمارك عليها. وكنت مندهشاً جداً، حينها وصلت إلى منزل الشاهبندر ووجدت غرفة مُعدّة لي، وفيها السجاجيد وكل أمتعتي، فطلبتُ أن استريح حين عودته. وكان [الشاهبندر] قد أصدر أوامراً بتلبية جميع مطالبتي عند وصولي، راغباً مني البقاء معه. ولعدم معرفتي كيفية التخلص من هؤلاء الأتراك، الذين لم يسمحوا لي بنقل أي من حاجياتي، عدت إلى الآباء الكراملة لأخبرهم بالضيافة التي تم استقبالها. وكان الأب الأعلى، الذي كان موضع احترام الأتراك والعرب على حدٍ سواء، ويعرف لغتهم وعاداتهم جيداً، قد جاء معي إلى منزل الشاهبندر، الذي عاد للتو.

٧٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

فشكره الأب على حسن ضيافته، ولكنه قال عني أنني لست الشخص الذي يستطيع التكيف مع أسلوب معيشتهم، وأنني أريد البقاء مع الآباء، الذين هم من أبناء بلدي. فسلمني كل أمتعتي وسمح لي بالذهاب، شريطة أن أذهب لرؤيته كل يوم، وأن أزور أفراد أسرته الذين كانوا بحاجة إلى الأدوية. بعد ذلك غادرت مع الأب الطيب إلى ديره، الذي أخذت إليه كل حاجياتي الصغيرة.

### محدثات مع مبعوث من بلاد فارس

الإثنين، ١١ تموز / يوليو: وَصَلَ «الشاطر»، أي «الساعي» بالفارسية<sup>(١)</sup>، إلى دير الآباء الكراملة في الصباح حاملاً برقيات من الهند عبر بلاد فارس إلى مدراء شركة الهند الشرقية في فرنسا. وبلا أي تاخير، أرسل الآباء ساعياً عربياً لنقل هذه الرسائل عبر الطريق الصحراوي إلى حلب. وكان هذا المبعوث موظفاً في شركتنا وتابعاً لوكالتنا في «بندر عباس» ببلاد فارس، فسألته على انفراد عن وضعنا في بلاد فارس، وفي ما إذا كانت هناك أية سفن أو قوارب أو وسائل نقل في «بندر عباس» مُتجهّة إلى الهند. فأجاب الفارسي أن شؤون شركتنا في بلاد فارس كانت، في كثير من الأحوال، على الحال ذاتها عندما غادرتها قبل سنتين - أي بحال سيئة. فالوكيل نفسه لا يزال

---

(١) في النص الإنكليزي وَرَدَتْ بصيغة (shatter)، وفي المخطوط الفرنسي بصيغة (chatter)، وهي كلمة «شاطر» بالعربية، وتستخدم بالفارسية بمعنى «المراسل»، أو «الساعي»، أو «العداء»، وأخيراً «المبعوث». ويسميهم جون فراير «شوتر» (shotters). أنظر: John Fryer, Anew



هناك، وهو السيد «فروت»، وهو تاجر ثانوي للشركة مع رجل دين واحد. وقد ذهب هذان، لعدم وجود ما يفعلانه في «بندر عباس»، إلى «شيراز» لقضاء موسم الحر هناك. وقال أيضاً أن الفرنسيين في بلاد فارس لا يعتمد عليهم كثيراً الآن بسبب عدم إرسالهم أي مدير إلى الهند منذ خمس سنوات، ولا أي شخص مسؤول إلى بلاد فارس للتفاوض بشأن تنظيم شؤونهم، كما فعلت الدول الأوروبية الأخرى. ومع أن الفرنسيين أقامو تجارة لا بأس بها منذ مدة طويلة مع بلاد فارس وتمتعوا بكافة أنواع الإمتيازات، فقد تشكى من عدم إرسال أي مسؤول إلى بلاط الملك وكبار الوزراء في المملكة لتأدية الإحترام، وهي مسألة تركت حساسية شديدة لدى الفُرس.

أما ما يخص وسيلته للوصول إلى الهند، فقد ذكر لي أن هناك بعض التجار من «كامباي» و«السند» وساحل الهند، وفي «بندر عباس»، لكنهم لن يبحروا إلى هناك إلا في وقت متأخر، لأنهم مضطرون لانتظار السلع التجارية والتجار الذين جاءوا من أصفهان وشيراز وغيرها من المدن الفارسية في أشهر تشرين الأول / أكتوبر وتشرين الثاني / نوفمبر وكانون الأول / ديسمبر. وقد أثارت كل هذه الأخبار شديد غضبي وجعلتني قلقاً للغاية - نظراً لعدم وجود أحد من الشركة في «بندر عباس» أستطيع أن أتشاور معه بشأن أسرع الطرق للوصول إلى الهند. فنصحني الآباء في البصرة بالذهاب إلى بلاد فارس، لأنني سأجد في شيراز وكلاء شركتنا. ولكن، بعد أن تأملت ظروفني، رأيت أنني لا أستطيع تحقيق أي مصلحة في وضعي الحالي - بل على العكس قد أتأخر لمدة شهر أو شهرين. على هذا الأساس، كنت متردداً بشأن خوض مثل هذه الرحلة الطويلة والخطرة في هذا الموسم المُفرط الحر في جبال بلاد فارس.

٧٢ ..... البصرة في خمسين وعشرين رحلةً أجنبيّة

وبينما كنتُ في خضمّ حالة القلق والحيرة هذه، تضرّعتُ إلى الرب والعذراء المقدّسة، اللذين دائماً كانا يساعداًني وينقذاًني في كثير من المشكلات المستعصية، وسرعان ما خلّصاني من هذه المشكلة الصغيرة الحالية.

### سماع أخبار عن أسطول برتغالي في ميناء كنج

الثلاثاء، ١٢ تموز / يوليو: وَصَلَ الآن مركبٌ شراعي موري [= إسلامي] صغير إلى البصرة قادماً من «كامباي»، مُحمّلاً بالبضائع من الهند. وقد حمّل لنا أنباء مفادها أنه حينما كان يمر بميناء «كنج»<sup>(١)</sup>، وهو ميناء في بلاد فارس يبعد ثلاثة أيام عن «بندر عباس»، صادف أسطولاً برتغالياً قادماً من «غوا». وقد سبّبت لي هذه الأنباء سعادة غامرة، لأنّ هذا أفضل وأسرع الطرق التي أستطيع الوصول بها إلى الهند. فقررت في الحال أن أتوجه إلى ميناء «كنج» بأسرع ما يمكن. ولكن أكثر ما كان يضايقني إيجاد الوسائل للوصول إلى هناك، فهي ليست سهلة الحصول في الموسم الحالي، حينما تغادر القوارب أو السفن من البصرة إلى سواحل بلاد فارس.

---

(١) تبعد كنج نحو أربعة أميال إلى الشرق من «النجة»، وتقع على خط الطول (٢٦) درجة و(٣٣) دقيقة شمالاً، و(٥٤) درجة و(٥٣) دقيقة شرقاً. وكانت في أواسط القرن العشرين قرية صيد. ولكن بعد خسارة هرمز في سنة (١٦٢٢) احتفظ فيها البرتغاليون بمحطة تجارية مهمة حتى نهاية القرن السابع عشر. أنظر: Wilson, The Persian Gulf, pp. 154-156.

في تلك المرحلة دأب الأسطول البرتغالي على زيارة غوا في كل سنة للمطالبة بنصف حصة كمارك الميناء الذي انتزعه الشاه منهم.

والرحلة عن طريق البر طويلة وخطرة جداً بسبب الممرات الجبلية؛ فالحرارة هناك قوية جداً حتى أن أهالي البلد لا يطيقون العيش هناك. فليس أمامي سوى سلوك الطريق البحري على إمتداد «الخليج الفارسي». وكنت أمل أن أجد قارباً يشرع بهذه الرحلة بأي ثمن، ولكن ذلك لم يكن بالأمر الهين، لأن كل السفن القادمة من الهند وبلاد فارس وغيرها من الأماكن تنتظر في البصرة في هذا الموسم ولن تغادر إلا في شهري تشرين الأول / أكتوبر وتشرين الثاني / نوفمبر. ولم يكن بإمكانني الانتظار طويلاً جداً. فأرسل الآباء الكراملة، حال رؤيتهم نفاذ صبري للمغادرة، في طلب بعض العرب ممن يعرفونهم وأصدروا أوامر لهم بالذهاب إلى كل القرى والقنوات الصغيرة المنتشرة على إمتداد النهر للبحث عن أي زورق يمكن أن يقوم بالرحلة إلى ميناء «كنج». ومَرَّ يومان دون أي جواب من هؤلاء العرب، إذ لاقوا صعوبة في العثور على ما كانوا ينشدون، لأنهم كانوا منشغلين جميعاً في جمع محاصيل الذرة والأعشاب والفواكه.

### اتخاذ القرار بالذهاب عن طريق البحر إلى ميناء كنج

الأربعاء، ١٣ تموز / يوليو: زرت مدينة البصرة، فوجدتها قد تَعَيَّرت كثيراً منذ أن رأيتها خلال سبتي (١٦٦٩) و(١٦٧٠). إذ كانت التجارة فيها أقل مما كانت عليه في السابق، وقد هجرها معظم سكانها بسبب عمليات الابتزاز والنهب التي يقوم بها الأتراك. وقد سبب ذلك أيضاً انتفاضات قام بها العرب الذين ما عادوا هادئين مسالمين.

٧٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

من جانبٍ آخر، أرسل الهولنديون، قبل سنة، وكيلين تجارين لشركتهم الهندية في البصرة، لا من أجل التجارة بقدر إرسال الرسائل والطرود من الهند إلى أوروبا وبالعكس. كما أنهم كانوا يريدون أن يكونوا قادرين على اعتراض الطرود البريدية ومراسلات الدول الأوروبية بشكل أفضل. وهم مواظبون على مراقبة دقيقة وأذكياء جداً في هذا، ويستخدمون المال بحرية لاعتراض السعاة الذين يأتون ويذهبون إلى الفرنجة. وكانوا مُتلهفين جداً لمعرفة مَنْ أكون وإلى أين وصلت. وغالباً ما كانوا يترددون على الآباء لهذا الغرض، ولكنني بقيت بعيداً عن الأنظار، لأنَّ أحدهم (إلتقيتُ به مسبقاً في بلاد فارس) كان يعرفني (١). وقد أخبرهم الآباء الكراملة أنني برتغالي جئتُ من بلاد فارس للبحث عن وسائل للوصول إلى بغداد. وكان هؤلاء الهولنديون قلقين جداً عند عدم وصول السفن من الهند، كما كانوا ينتظرون بنفاذ صبر حاد الطرود البريدية المتوقع وصولها من أوروبا.

الخميس، ١٤ تموز / يوليو: عاد العرب الذين ذهبوا للبحث عن قارب في منتصف النهار، وأخبرونا أنهم، بعد أن بذلوا كل التحريات المطلوبة، تمكنوا من العثور على قاربٍ واحد فقط، كان هشاً جداً وسيء التجهيز للقيام بهذه الرحلة الطويلة. ولكن نفاذ صبري كان كبيراً جداً للذهاب، بحيث تجاوزت كل العقبات

---

(١) يشير كاريه هنا إلى السير «ريبار»، الذي سافر معه من بندر ريق إلى البصرة سنة (١٦٧٤)، والذي كان قد إلتقى به في زيارته الأولى لبلاد فارس، (إنظر: الجزء الثالث، الفصل الخامس من النسخة الإنكليزية).

التي تحدثوا عنها. فطلبتُ من صاحب القارب المجيء إلى البعثة التبشيرية، حيث اتفقنا على السعر، وهو مئة ايكو، شريطة أن أكون صاحب السفينة، وأن لا يتم تحميل أية بضاعة أو مسافرين آخرين على ظهرها، غير طاقم السفينة.

ولدى تدوين هذا الإتفاق، دفعتُ له نصف المبلغ مقدماً وأعطيته وثيقةً تنصُّ على أن أدفع له النصف الآخر عند الوصول إلى ميناء «كنج». وتمَّ عقد الإتفاق بيننا، وطلب مني يومين لجلفظة القارب وتهيئته لهذه الرحلة. وفي أثناء ذلك قمتُ بتجهيز أمتعتي وهيأتُ كل ما أحتاج.

### مغادرة البصرة في قارب صغير

الأحد، ١٧ تموز / يوليو: غادرتُ البصرة عند منتصف النهار. وبعد ساعتين من الإبحار الشاق ضربنا إعصاراً عنيفاً جداً من الإتجاه الشمالي الغربي اقتلع الصاري مرتين. فاعتقدنا أننا سننتهي في وسط «شط العرب»، لأننا لم نتمكن من الوصول إلى أي ضفة، لأنَّ صوارينا وبحاريننا وحبال الأشرعة وحبال الصواري كُلُّها تدلَّت في الماء. أما نحن فقد اكتسحنا التيار وأوشكنا على أن نفقد أي أمل في إنقاذ أنفسنا، حتى مررنا بالقرب من قناة أو فرع صغير لنهر يدعى «بهمشير»<sup>(١)</sup>، قُدنا إليه قاربنا

---

(١) ربما تكون هذه القناة قريبةً من المحمّرة، حيث يتحد نهر الكارون مع نهر الفرات. لذلك، فإن كلمة (Bongouayre) الواردة في المخطوط الفرنسي هي تحريف لبهمشير، وهو اسم قناة ترتبط بنهر الكارون بالقرب من المحمّرة. ووَرَدَتْ في خارطة جيسيني باسم نهر «بهمشير». أنظر:

٧٦ ..... البصرة في خمسين وعشرين رحلةً أجنبيةً

بمساعدة المدّ. وقضينا النهار بإعادة تثبيت صوارينا وتعشيق مسنناتنا مجدداً. فاضطررنا لقضاء الليل هناك، حيناً كُنّا ننتظر انقضاء العاصفة.

الإثنين، ١٨ تموز / يوليو: بعد أن تحسّن الجو أبحرنا مجدداً وأبحرنا مع التيار ببطء، ولم نتجرأ على نشر الأشرعة بسبب العواصف المفاجئة التي كانت تهبّ في كل مكان وزمان. وعند منتصف النهار كُنّا مقابل «الحفّار»<sup>(١)</sup>، وهي قلعةٌ قديمةٌ تقع عند فرع «شط العرب» على الجانب الفارسي. وكان هناك بعض الأتراك، فضلاً عن ثلاث سفن من الهند كانت تتقدم في شط العرب إلى البصرة بمساعدة تيار المدّ. وواصلنا إبحارنا لما تبقى من النهار والليل بأكمله قبل أن نصل إلى مصب شط العرب، الذي وصلناه فجر اليوم التالي. بعد ذلك انطلقنا في أعالي البحار حتى جزيرة «خرج». وكنتُ مضطراً إلى مسك ذراع الدفة والعمل كملاح لأبتعد عن أعالي البحر. وأراد رفاقي العرب الإبحار -كعادتهم دائماً- على مقربة من اليابسة. وكنا سنخسر وقتاً

---

(١) وردت في النص الإنكليزي بصيغة (Haffard)، وهي شبيهة بقناة الحفار القريبة من المحمّرة. والحرف (d) زائد هنا كما مرّ بنا في كلمة «شاهبندر» لدى كاريه. ويتحدّث الرحّالة تيفينو عن وجود «قلعتين مربعتين، في طرف كل منهما برجٌ»، تسميان «كوت الحفار» (كلمة كوت تعني الحصن، راجع: رحلات جان دي تيفينو، ص ١٣٦. وتظهر خارطة جيسيني (رقم ١٢) «قلعة حدّا» (Hiddah Castle) على الجانب الفارسي للنهر، على بعد نحو ثلاثة أميال من المحمّرة. وتبدو هذه ذاتها باسم «الهارثة» التي ذكرها الرحّالة الاسكتلندي ابراهام بارسونز. انظر ترجمتنا: رحلة ابراهام بارسونز من حلب إلى الخليج العربي (١٧٧٤-١٧٧٥)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠١٣، ص ١٤٩.

كثيراً في ما لو اتبعنا الخط الساحلي.

## ثانياً: طريق الإياب سنة (١٦٧٤)

### الوصول إلى البصرة

الإثنين، ١٦ نيسان / أبريل [١٧٦٤] <sup>(١)</sup>: صادفنا عند مصب «شط العرب» أسطولاً لعرب «نخيلو»، قوامه نحو (٧٥٠) قارباً قادماً من البصرة محملاً بالتمور التي تشكّل الغذاء الرئيس لسكان السواحل الفارسية. وبما أن المدّ والرياح الخفيفة كانا مؤاتيين، فقد دخلنا قنوات الشط ووجدنا فيها ستين قارباً عربياً للأسطول ذاته رفعت مراسيها وأتت لاستطلاعنا. ولدى رؤيتهم لذلك، استسلم صاحب القارب وبحارته للخسارة وكادوا أن يموتوا رعباً، إذ ظنوا أن هؤلاء العرب سينهبون سفيتهم ويستولون عليها حينما علموا أننا جئنا من «بندر ريق» بذخيرة لأعداهم. ولكننا طمأناهم.

ولكي نشجّعهم على العمل اخترقنا الأسطول العربي بشكل مستقيم. وعندما شاهدوا خمسة أو ستة رجال يعتمرون قبعات يعودون للسير «ريبلار»، ويحملون بنادق وغيرها من الأسلحة النارية، تجنبوا إهانتنا وسلّموا علينا بأدب، فأنقذنا بذلك سفينة صاحبنا المسكين، ولكنه بقي لمدة يومين يتعافى من الهلع.

---

(١) وَرَدَ فِي النَّصِّ يَوْمَ الْأَحَدِ، وَالصَّحِيحُ أَنْ تَأْرِيخَ ١٦ نَيْسَانَ / أَيْرَيْلِ سَنَةِ (١٦٧٤)، هُوَ يَوْمَ إِثْنَيْنِ.

٧٨ ..... البصرة في خمسين وعشرين رحلةً أجنبيّة

الأربعاء، ١٨ نيسان / أبريل: وصلنا إلى البصرة في نحو الساعة الرابعة عصراً. وبعد أن نزلنا إلى اليايسة قمّت بزيارة رفيقي الهولندي في منزله، لأشكره على جميله وصحبته الطيبة. بعد ذلك توجهتُ إلى الآباء الكراملة، فرحّب بي القسّان الفرنسيان اللذان كانا يديران هذه البعثة التبشيرية بمنتهى الورع (١). وفي المساء دعاني السير «ريبار» لتناول العشاء معه، فلم أتمكن من رفض دعوته. وخلال العشاء كرر عرض خدماته قائلاً أن صداقتنا يجب أن لا تتصدع على الرغم من حالة الحرب بين بلدنا، نظراً لأننا صديقان حقيقيان ومخلصان جداً. ثمّ طلب مني جداً أن أزوره متى ما شئت طوال مدة إقامتي في البصرة، ودعاني لمشاهدة الوكالة التجارية، التي كان جزءٌ منها مخرباً، جراء تعرضها للتدمير بسبب الأمطار الأخيرة التي كانت مصحوبةً بعواصف هوجاء، وكان قد تلقى أوامر من رئيسه في «بندر عباس» لإعادة بنائها بثمانمئة إيكو، ولكن بناءها يكلف ألفي إيكو بأقل تقدير، فقرر إلّا يفعل شيئاً بهذا الموضوع حتى يتلقى إجابات على رسائله إلى رئيسه في «بندر عباس»، صاحب الوكالة (٢). وعموماً،

---

(١) كان هذان القسّان الكرمليان كل من الأب «توسانوس اليسوعي» (Tussanus of Jesus) والأب «اغاثانجيلوس» من أتباع القديسة تيريزا، مؤلف حوليات الاستيطان الكرملّي في البصرة. أما الأب «هيرونيموس اليسوعي» الذي التقى به كاريه في زيارته السابقة، فقد غادر إلى بلاد فارس في ٢٣ شباط / فبراير (١٦٧٤).

(٢) يؤكّد «فالتين» لكاريه أن الوكالة التجارية الهولندية في البصرة كانت وكالة تابعة. وفي الصفحتين (٢٤٨-٢٤٩) يُقدّم أسماء رؤساء الوكالة التجارية في بندر عباس، لذا لم يظهر اسم «ريبار». إنظر: F. Valentijn, Oud en Nieuw Oost-Indien, (5 vols.), Dort and Amsterdam,



فقد أوضح لهم أنهم دقيقون جداً في كل نفقاتهم، ولو تجاوزوا أوامر رئيسهم بأدنى درجة فلن يتهاون في حسابهم، وهو قرارٌ يسري في شركتهم بشكل مدهش.

ولأن هذا الهولندي صديق عظيم لي، فلم يتردد في القول أن الحرب مع فرنسا قد تسبب دماراً لهم، مع أنهم أقوىاء جداً في الهند. وكان هذا بسبب كونهم ينفقون ممتلكاتهم الشخصية المنقولة في الإبقاء على أسطول كبير لحماية ممتلكاتهم في جزر الهند ولقاومة أعدائهم، إلى جانب كون تجارتهم كانت تضمحل، وأنهم كانوا يخشون من وصول الأسطول الفرنسي من أوروبا أيضاً لأنهم لو ضربوا مرة واحدة، فلن يتمكنوا من التعافي مجدداً، لأنهم لن يتلقوا أي مساعدة من أوروبا. وهذا ما جعلهم يعتقدون أن الأمور كانت تجري بشكل سيء في بلدهم.

#### اتخاذ القرار بالتوجه عبر النهر إلى بغداد

في الأيام اللاحقة كنتُ أعمل بشكلٍ متواصل للبحث عن أسرع الطرق للوصول إلى بغداد، وكنتُ عازماً على الذهاب عن طريق البر، لأنَّ أقصر طريق لا يستغرق سوى إثني عشر أو خمسة عشر يوماً على ظهر الحصان، مع دليل تركي أو عربي. ولكنني علمت أن ذلك مستحيل تماماً، بسبب العرب الذين كانوا يثورون في كل مكان، وأغلقوا كل الطرق لمنع الأتراك من المجيء أو الذهاب، بسبب أبناء

٨٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

الانتصارات الكبيرة التي حققها البولنديون على الأتراك<sup>(١)</sup>. ولذلك، فرض الأخيرون ضرائب كبيرة من الجنود والأموال على الجميع وأرسلوها إلى القسطنطينية وإلى سرادق السيد الأعظم أيضاً. وبهذا نجحوا في تخريب كل التجارة والأراضي الواقعة تحت سيطرتهم عن طريق الضرائب المتعسّفة في كافة أنحاء البلاد. على هذا الأساس، ولأنني غير قادر على الذهاب عبر الطريق البريّ الإعتيادي إلى بغداد، كان عليّ البقاء للذهاب عن طريق النهر، وهو طريق أطول بكثير، لأنّ على القوارب أن تصعد النهر عكس التيار. فوجدتُ بعض التجار الأتراك يقومون بتحميل دائق كبير ببضائع غنية لنقلها إلى بغداد. فاتفقتُ على أن أسافر معهم على أمل أن يغادروا قريباً. ومع ذلك، نفذ صبري أخيراً لأنهم كانوا يتعمّدون التأخير في الانطلاق، وأن مركبهم كان كبيراً وثقيلاً جداً، حتى أنه قد يستغرق أكثر من شهرين للوصول إلى بغداد، فتركتهم وقررتُ أن استأجر بمفردي قارباً أصغر قد يقلّني إلى هناك في غضون عشرين يوماً.

### استئجار دائق الرحلة

الخميس، ٢٦ نيسان / أبريل: ذهبتُ لمقابلة شاهبندر البصرة الذي استقبلني بحفاوة بالغة لكونه صديقاً للفرنسيين. ومن خلال الهدايا التي قدمتها له جعلته يفعل

---

(١) يشير هنا إلى هزيمة الأتراك العثمانيين في كارلوفتز في (١١) تشرين الثاني / نوفمبر سنة (١٦٧٣) على يد القوات البولندية التي كانت تحت إمرة «سوبيسكي» (Sobieski)، الذي تمّ انتخابه، في مايس / مايو (١٦٧٤)، ملكاً على بولندا. أنظر: Cambridge Modern History, vol. v, p. 354.

[ ١٣ ] رحلات الأب بارثوليمي كاريه ..... ٨١

ما أريد. وحينما سمع أنني أريد استئجار دانق يعود لتركي من بغداد، يقلني إلى تلك المدينة، استدعى صاحبه، واتفق معه على ثمن الرحلة، ودون مكاتبةً بذلك، وقّعها الأخير وختم عليها، وتمّ التعاقد على أن لا يحمل المالك «علي باشا»، مسافرين آخرين سواي أنا وخدمي، من دون موافقتي. وكان هذا شرطاً ضرورياً لمنعه من ملء قاربه بعددٍ غير محددٍ من الأتراك، سواءً قبل الانطلاق أو في أثناء الرحلة، التي ستكون لمصلحته. ولكن بوجودهم لا أشعر بحرية أو راحة خلال الرحلة. ومع ذلك، وعلى الرغم من هذا التدبير الاحترازي، وجدت نفسي محاطاً بعددٍ لا بأس به من هؤلاء العثمانيين.

الجمعة، ٢٧ نيسان / أبريل: في اليوم التالي، عندما كنتُ أهيمُ بتحميل حاجياتي ومؤني إلى الدانق، صُغقت بوجود عدد كبير من الأتراك، وهم يتوسّلون العبور في قاربي بدعوى أن لديهم عملٌ مُستعجلٌ في بغداد، وأنهم لن يستطيعوا العثور على وسيلة سفر أخرى إلاّ معي. وقد أكدوا لي أنهم لن يأخذوا معهم بضائع، وإنما أسلحتهم وطعامهم فقط. لذا، وبما أنه كان من المُستحسن أن يرافقني أناس آخرون إلى جانب خدمي، ومن أجل أن يحموني من أية اعتداءات أو هجمات قد يقوم بها العرب الذين كانوا يغزون الطريق النهري باستمرار، فقد سمحت لثمانية منهم، عن طيب خاطر، بالعبور بدانقي، الذي كان جاهزاً مساءً ذلك اليوم للانطلاق بموافقتي.

### الرحلة من البصرة إلى حلب

السبت، ٢٨ نيسان / أبريل: بعد أن صلّيتُ في الكنيسة الكرملية، ذهبتُ لتوديع

٨٢ ..... البصرة في خمسين وعشرين رحلةً أجنبيةً

السير «ريبلار» الذي رافقني مع الآباء الكراملة وبعض التجار الإيطاليين الذين كانت تجمعني بهم علاقة طيبة، إلى مصب نهر البصرة الصغير<sup>(١)</sup>، حيث وجدتُ دانقي جاهزاً للانطلاق. وبقيتُ لمدة نصف ساعة مع هذه المجموعة المحترمة في ظلال بساتين من أشجار ارتحنا فيه على ضفاف هذا النهر الجميل، شط العرب. فدعوتهم إلى وجبة طعامٍ خفيفةٍ مقابل جميلهم ولطفهم معي، ثمَّ استقلَّيتُ الدانق الذي غادر البصرة بهدوء، مدفوعاً برياح هادئةٍ وبمدِّ التيار الذي أوصلنا إلى منتصف الطريق للقرنة في ذلك اليوم. وخلال الليل مكثنا بالقرب من مسجد لشيخٍ عربي، يبعد عن ضفاف النهر نحو ستة فراسخ شمال غربي مدينة البصرة<sup>(٢)</sup>، وقد شيَّد وسط بستان كبير للنخيل فوق ضريح شيخٍ عربي قوي نافذ كان يحكم المنطقة قبل أن يسيطر الأتراك عليها.

الأحد، ٢٩ نيسان / أبريل: عند منتصف النهار وصلنا حصن القرية التركي ودخلنا الميناء لمناقشة ضريبة المرور مع الشاهبندر الذي تصوَّر أنه سيحصل على فائدةٍ كبيرة حينما سمَّع أن الدانق مستأجرٌ من إفرنجي. فأرسل في الحال إثنين أو ثلاثة من إمعاته، الذين نزلوا، وسط دعر المسافرين الأتراك المساكين، إلى دانقي حاملين

---

(١) قارن ما ذكره إليكساندر هاملتن عن وجود «مُهرٍ صغير في البصرة يغسل أسوارها على الجانب الغربي، ويصبُّ في نهر الفرات». وهو يُسمَّى الآن «جدول العشار».

Alexander Hamilton, A New Account of East Indies, vol. ii, 2nd ed. London, 1739, p. 51.

(٢) قد يكون هذا «ضريح الشيخ علي»، الواقع في منتصف الطريق تقريباً بين البصرة والقرنة، والذي يظهر في خارطة جيسني، (رقم ١٠).

أسلحتهم بأيديهم متوقعين الخروج بغنيمة دسمة لهم جميعاً. فأقسموا بمحمّد إلّا يغادر أي منا القارب حتى يتمّ نفتيش أعرق جزء من مخبأ القارب بحثاً عن البضائع التي جلبناها معنا. وبينما كانوا يجرسون قاربنا طلب هؤلاء المتعجرفون التبغ من أحدنا وفنجان قهوة من الآخر<sup>(١)</sup>. وحينها عاد صاحب الدائق، الذي ذهب إلى الشاطيء لتسريع مهمتنا، وجدني غاضباً ومضطرباً جداً، فأبلغني أن الشاهبندر لن يسمح لي بالمغادرة، ما لم أقدم له هديةً قيمتها مئة إيكو، ولكنني لم أندشش، لأنني أعرف الأساليب التركية. فسألته ببرود عن اسم الآغا التركي الذي كان أمر القرنة، فأجاب أنه «محمّد آغا». وكان هذا هو الرجل نفسه الذي التقيتُ به هنا في رحلتي الأخيرة قبل سنتين، والذي عاملني بكثير من اللطف والكرم. فأخذتُ معي خادماً واحداً فقط وتركتُ الآخرين للإعتناء بأمّعتي، ونزلتُ اليايسة وتوجّهتُ نحو منزل الآغا مباشرةً، بعد أن أخطرتُه أن إفرنجياً يود التحدث معه، فسَمَح لي بدخول ديوانه في الحال، ووجدته جالساً لوحده مع خادمين إيطاليين مُرتدين صغيرين كانا يقومان بتهويته لطرد الذباب عنه بتحريك قليل من الهواء بالمرابح المصنوعة من القصب. فحَيَّته بالفارسية التي يفهمها وأخبرته أنني «الحكيم» [= الطبيب] الفرنسي الذي سبق أن أعطيته بعض الأدوية قبل سنتين عندما كنتُ في طريقي من بغداد لزيارة والي البصرة. فعرفني وفرح لعودتي فرحاً كبيراً، وسأل في ما إذا كنتُ أريد منه أية خدمة، فأجبتُه أن الوالي استدعاني والشاهبندر لن يسمح لي بمغادرة المكان للعودة إلى بغداد.

(١) وَرَدَ فِي الْمَخْطُوطِ الْأَصْلِيِّ بِصِيغَةِ (finjan=finjanes)، وَوَضَحَ أَنَّهَا كَلِمَةُ «فَنجَان» الْعَرَبِيَّةِ.

٨٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

فأرسل في الحال أحد ضباطه إلى الشاهبندر، مع أوامر للسماح أن أغادر بسلام، مُحذراً الضابط من مضايقتي ولو بأدنى قدر، والسماح لي بالمغادرة متى ما شئت. وبعد أن مكثتُ نصف ساعة معه وأجاب كافة طلباتي، أرسل أحد ضباطه معي لأعطيه مزيداً من الأدوية وزجاجة الخمر التي طلبها مني.

### التغلب على المشكّلة في القرنة

ومع ذلك، قبل عودتي إلى دانقي، رغبتُ أن أذهب إلى الشاهبندر لأخذ رخصتي بالمغادرة لأستطيع المغادرة بالسرعة الممكنة. فوجدته في ديوانه، الذي كان بالقرب من ضفة النهر عند دائرة الكمارك الواقعة على مفصل النهرين، دجلة والفرات. فاستقبلني في البداية ببرود شديد لأنّه كان غاضباً من ذهابي إلى آغا المدينة بدلاً من مراجعته مباشرة. ومع أنه تلقى أوامر بالسماح لي بالمغادرة متى ما شئت، إلّا أنه أخبرني أنه يروم تفتيش البضائع في قاربي، فأجبتُ أنني راضٍ تماماً، ولو وجد أي شيء غير ما مُثبت في جواز سفري من شاهبندر البصرة، فلن أطلب به أبداً. وبها أنه لم يكن يثق بضباطه بتنفيذ هذه المهمة، فقد أراد تفتيش القارب بنفسه، ورافقته أنا إلى هناك، فلم يجد سوى صندوقاً كنتُ أحفظ فيه أوراقِي وملابسي وبعض العقاقير الطبية مع صندوقين من الخمر والبراندي، فأخذ بملاطفتي ومعانقتي. وبعد أن ترك ضباطه يnehون تفتيش أمتعة المسافرين الأتراك، أخذني إلى منزله. وهناك أوصلني إلى غرفةٍ داخلية خاصّة، وأراني إثنتين من زوجاته كُنَّ مريضات، فضلاً عن أربعة أو خمسة من خدمه الصغار. فلم أتمكّن من تفادي إعطائهم بعض الأدوية، مع توجيهاتٍ طويلة بشأن الغذاء

وكيفية استعمالهم لأدويتهم والأعشاب الطبية والعطرية التي أرسلتهم لجمعها من الخارج. وقد تمّ تدوين ذلك كله، واضطرتُّ لقضاء ما تبقى من النهار لأعلم هؤلاء الأتراك صنعة الطب، كما لو أنني أفضل الأطباء. وكل ما تلقيتُه من مكافأة لقاء ذلك، جواز سفر مجاني لقاربي ولأمتعتي، واحترام وصدّاقة كل الأتراك هنا. فتمنّوا لي السعادة والعودة السريعة إلى هنا، لأنهم كلهم كانوا يتصورون أنني مررتُ ببلدهم هذا الذي نسيه الربُّ من أجل صحة ومداواة المرضى لا لشيء آخر.

وقبل أن أغادر، كان صاحب القارب التركي يقوم بتحريات عن حالة النهر، وعلم أن فرع نهر دجلة الذي أتيتُ عن طريقه في رحلتي الأولى، خطرٌ بسبب وجود عدد كبير من العرب على الطريق. فقرّرَ الذهاب بسرعة إلى شمالي شط العرب، فهناك فرعٌ آخر لدجلة أكثر أمناً وأقل استخداماً، كما أنه أسهل للملاحة، مثل الفرع الأول.

### مغادرة القرنة إلى شط الحي

الإثنين، ٣٠ نيسان / أبريل: غادرنا القرنة صباحاً وعدنا إلى نهر الفرات مُجدّداً، فأبحرنا فيه بيسر صعوداً طوال اليوم، وأحرزنا تقدماً جيداً بمساعدة الرياح المؤاتية والتيار القوي. وعند منتصف النهار نزلنا عند «فتحية»<sup>(١)</sup>، وهي بلدة عربية صغيرة لا بأس بها تقع على ضفاف النهر الذي يسقي هذه المنطقة من خلال عدد من التيارات الصغيرة التي تفصل بساتين الفواكه والحدائق. وهذه البساتين والحدائق مُضلّلة بأنواع

---

(١) ورَدَ هذا الموقع بصيغة (Feitie) في خارطة بلاد فارس؛ De l'Isle's Carte de Perse, 1724.

٨٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

كثيرة من الأشجار المثمرة التي يقصدها سكان هذه البقعة الجميلة العرب. وهناك أيضاً آغا تركي وبعض الإنكشارية كانوا يجمعون ضرائب والي البصرة، وقد عاملوني بكثير من اللطف خلال الساعات القليلة التي بقي رفاقي في المركب لإنجاز أعمالهم. وغادرنا في نحو الساعة الثالثة وواصلنا سيرنا حتى الساعة التاسعة ليلاً، حينما أرسينا دانقناً بالقرب من الشاطئ، وقضينا الوقت المتبقي تحت الحراسة والمراقبة المستمرة لئلا يباغتتنا الجنودُ العرب الذين يتسلّلون بين الغابات والأحراش إلى الضفاف ليلاً، وغالباً ما يستولون على قوارب التجار المتقدّمة أعلى النهر.



## القرن الثامن عشر الميلادي

- ١٤ - رحلة كارستن نيبور سنة ١٧٦٥ م
- ١٥ - رحلة ابراهام بارسونز سنة ١٧٧٥ م
- ١٦ - رحلة الأب دومينيكو سيستيني سنة ١٧٨١
- ١٧ - رحلة تايل ١٧٨٩ - ١٧٩٠ م
- ١٨ - رحلة الفرنسييس أوليفيه سنة ١٧٩٤ م



## رحلة كارستن نيبور سنة ١٧٦٥م

### الرحلة من الخرج إلى البصرة

في ٣١ تموز / يوليو، غادرتُ الخرجُ عند المساء، وبلغت مصب شط العرب بين الأول والثاني من آب / أغسطس. يُطلق العربُ هذا الاسم على النهر الكبير الممتد من القرنة، حيث يندمج الفرات، ودجلة إلى الخليج الفارسي. ولا يزال العرب يطلقون على المنطقة الواقعة فوق القرنة، اسم الفرات الأول والجل الأخير، المذكورين في الكتاب المقدس. ينقسم شط العرب، قرب البصرة، إلى عدّة روافد (\*).

والملاحظ أنّ الجزر المحيطة بهذا النهر، تقع على مستوى منخفض جداً. مما يتعدّد بالتالي على الأشخاص القادمين بحراً رؤية مصبات الشط، شأنها في ذلك شأن مصبات النيل، وحده الرافد الغربي المعروف بشور حالتا، يُستعمل أحياناً للملاحة، فغالباً ما نجد أمام المصبّ رصيفاً عالياً، يتعدّد على السفن الكبيرة اجتيازه، خلال

---

(\* يُسمى إريان هذا النهر سيتتو، رانيس بينما لا يطلق عليها بعض اليونانيون، اسم باسيغريس، تجدون في اللوحة XL الخريطة التي رسمتها استناداً لما شاهدته، ولروايات بعض سكان البصرة، وأظنُّ أنها تعطي القارئ فكرةً عن مصب هذا النهر.

٩٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

ارتفاع نسبة المياه أو عند اكتمال القمر (\*\*\*) تحدّ النهر من الجهتين بساتين النخيل والقري الصغيرة والمنازل المتناثرة هنا وهناك، أما أكثر القرى تميّزاً فهي قرية حسان ابن الحنفية، حيث دُفِنَ المدعو حسان، شقيق الأمير محمد، ويُقال أنها ابنا علي وحفيدا محمد. وأظنُّ أنّ المكان الذي دُفِنَ فيه حسان، كان مُعطى بالمياه قبل ١١٠٠ عام تقريباً، فالشاطيء منخفض جداً في بعض الأماكن، إلى حدّ أنّ السكان اضطروا لبناء السدود كي يحموا بساتينهم من الفيضانات. ونشاهد في كافة الأنحاء، قنوات محفورة في الأرض تُنقل بواسطتها المياه إلى بساتين النخيل، حاملةً معها كميةً كبيرة من التراب. دُمِرَت قري جزيرة محرزي منذ بضعة سنوات، حين استولى عليها سليمان، شيخ قبيلة كعب، ونشاهد بالتالي انقاض قرية تُعرَف بسراي، غير أنّ أحد التجار الأوروبين في البصرة أكّد لي أنها انقاض البصرة، التي بناها الخلفية عمر. والجدير ذكره أنّ بعض الرحّالة يُسمّون في مؤلفاتهم، البصرة القديمة سراي، ولكن مدينة البصرة التي بُنيت في عهد الخلفية عمر تقع في مكانٍ آخر. تتألف انقاض جزيرة محرزي من أسوار من الصلصال مما يثبت أنها ليست بقديمة.

لم أستطع أن أدون على خارطة اللوحة XI أسماء كلّ القري الواقعة على ضفاف شط العرب، من الخليج الفارسي إلى البصرة، فمعظمها صغيرٌ للغاية ولا يستحق أن يوليه عالم الجغرافيا اهتماماً. في مُطلق الأحوال، سأتلو عليكم فيما يلي أسماء القري

---

(\*\*) استناداً إلى تقرير البحارة، يبدأ المد هنا، عند ظهور القمر في الأفق، مما يعني أنه عند اكتمال القمر، يبلغ المد ذروته ظهراً أو عند منتصف الليل.

كُلُّهَا، رغم أن بعضها قد يبدو للقارىء غريباً بعض الشيء، والجدير ذكره أن هذه القرى تخضع لحكومة البصرة. رغم أنها لا تقع كُُلُّهَا بمحاذاة النهر.

نَجِدُ في الجهة الغربية لشط العرب، إقليم دولسر [الأدق: الدواسر]، الذي يضم جوبيده [الأدق: جوبيده]، وكوة ابن خلف، وكوة خليفة، وكوة غانم، وتليها قُرى سيحان، وزين، وقاووس، وكليسيا، وشمرة، ومُطوَعَه صغيرة، ومُطوَعَه كبيرة، وسلم علي، وحسينات، وبلد جان [بلجان]، وعاميه، وأبو بقيع، وعبادة، وباب كَنَكِي، وباب العريضة، وباب الطويل، وباب الدباغ، وأبو الخصب، وغبيّه، ونهر خور [الأدق: نهر خوز]، وأبو مغيرة، وسبليات [الأدق: السبليات]، ونهر حبابه، والبلد، ويهودي، وحنجة وكوة ابن فايز وعلي أحمد ابن كوة، وكوة ابن الكومرلي، جزيرة علي، وبلد ابن سبيع، وباب النجدي، وبلد ويوسفان، وحمدان، وكرية، وبلد السيد، وبلد مخزم [الأدق: بلد مخزم]، وبلد ياس، ومهيگران [الأدق: مهيگران]، وفَجَّة مِصْلِح، وأبو سلال وعويسيان، وصراجي [الأدق: السراجي]، وميتان، وبراصغية [الأدق: براضغيه]، وأم النعاج، ومناوي.

ونجد على جزيرة محرزي، قري منوحي، خضر، ابادان وباردة، وكوب بن اسماعيل، وصوينج الكبيرة، وصوينج الصغير، وحويش، وكوة ابن بلبول، وراس الخده، ومحرزي، ونهر الشيخ، وكوة عامر، وكوة المفتي، وكوة عيسى وكوة المُلَّا وجزيرة المَحَلَّة.

تقع القرى التالية على الضفة الشرقية للنهر، وتخضع لحكومة البصرة، عبد،

٩٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

سابلة، حفّار، قلعة المحرزي، قلعة الحفّار، كوة شيخ يعقوب، معمورية، دربن، أبو جذيع، خيني، ثمار، حمرانات، دعجي [الأدق: دعيجي]، كوة الزناد، جزيرة البارين [الأدق: البوارين]، كوة، الجوع، تنومه، شريعة، كردلان، وكوب الجلابة، ونهر يوسف، وجباسي، وكوت انجانة، وريان، وحُوطة، وشتيان [كتيان]، ونجاجي، وحامله، ومغارة، وحلاف، وأم الزيت، وشلهة، ومصطفاوية، ورميلية، وأم التوت، وكوة الدرجة، وخلط، وسويب، ومرفأ حفيظة، وشاملي.

### ملاحظات حول بوصلّة الشرقيين

أَكَّدَ لنا الرّحالة الآخرون أنّ العرب لا يستعملون اسماً آخرَ للبوصلة، غير أنّ العرب، الذين لم يشاهدوا هذه الآلة إلا صدفة على إحدى السفن، لا يعرفونها جيداً. علماً أنّ علماءهم لا يستطيعون الإستغناء عنها أبداً، فخلال الصلاة يديرون وجههم صوب الكعبة، مما يقتضي عليهم أن يتأكدوا من موقع مكة، قبل بناء المساجد، لتحديد المكان الذي يجب أن تُبنى فيه القبلة. كان أحد علماء القاهرة يستعمل لهذه الغاية، أبرةً مُمغنطة تُعرّف بالمغناطيس، غير أنّ الشيخ المذكور لم يسمع قط، بمسألة انحراف الأبرة أو تبدّل وجهتها سنوياً، فضلاً عن ذلك، سمعتُ العرب يُسمّون البوصلة، ديرة أو بيت الأبر. بينما سكان الخليج الفارسي يُسمّونها قبله نما، أو راش نعمة. ففي هذه البلاد يُسمّى السكان أقطار العالم استناداً إلى ظهور بعض النجوم أو غروبها، الشمال، «با» الجنوب «زيل» الشرق «متلا» الغرب مريب الشمالي شمالي شرقي متلا حسن. الشمالي شمالي غربي مريب حسن، شرقي متلا - نعش، الشمالي - غربي - نعش مريب

نعش، الشرقي - شمالي - شرقي متلا شمالي، الغربي - شمالي - غربي، مريب سماك، الشرقي جنوبي شرقي متلا عقرب، الجنوبي غربي، مريب عقرب (\*). رغم التسميات التي تستعملها الأمم الأخرى لخطوط البوصلة لا تثير اهتمام القراء كلهم، إلا أنني سأتلو عليكم تلك التي يستعملها الهنود والأتراك وسكان ماليزيا، والسياميين.

يطلق الأتراك على الجهة الشمالية اسم يلدز والجنوبية قبلة، والشرقية كوندوغروسي والغربية باطي، والشمالية -، شرقية فورياز. والجنوبية غربية كششلمة، والجنوبية شرقية لودوس والشمالية غربية قاريل.

يطلق الهنود على البوصلة اسم هوكة Hokke ويُسمونها إلى ٣٢ خط أو شان Chan، قطر الواحد منها ١١ / ٥٢ / ١، ولها ١٧ اسماً علماً أن خطوط الجهة الغربية من خط الطول الأساسي تحمل الأسماء نفسها كخطوط الجهة الشرقية منه.

من الجهة الغربية		من الجهة الشرقية	
دورو	الشمال	دورد	الشمال
دورام	الشمال غربي	دورام	الشمالي / الشرقي
ساتيسار	الشمالي الشمالي غربي	ساتيفارا	الشمالي / شمالي شرقي
اوتيني	الشمالي غربي الشمالي	اوتيني	الشمالي / شرقي

(\* النعش، هو عبارة عن مجموعة نجوم الدب الكبير، سماك، والعقرب وزير.

بو ايس	الشمالي غربي	بو - ايس	الشمالي / شرقي
غوسغير	الشمالي غربي غربي	غوسغير	الشمالي / شرقي شرقي
شترا	الغربي شمالي غربي	شترا	الشرقي شمالي شرقي
كاتيفارا	الغربي شمالي	كاتيسار	الشرقي شمالي
أون	الغربي سارا	أون	الشرقي سارا
حاران	الغربي جنوبي	حاران	الشرقي جنوبي
لودا	الغربي جنوبي غربي	لودا	الشرقي جنوبي شرقي
دوجيت هول	الجنوبي غربي غربي	دوجيت هول	الجنوبي شرقي شرقي
كاغرا	الجنوبي غربي	كاغرا	الجنوبي شرقي
توران	الجنوبي غربي جنوبي	توران	الجنوبي شرقي جنوبي
تشوكي	الجنوبي غربي جنوبي	تشوكي	الجنوبي جنوبي شرقي
آغاس	الجنوبي غربي	آغاس	الجنوبي شرقي
تام	الجنوبي	تام	الجنوب

أعطاني بُرتغالي في بومباي، بوصلّة سكان ماليزيا وسيام، كان هذا الأخير قد



عَمَلٌ في خدمة الأوروبيين والهنود كَرَبَّانِ سَفْنِ، كما وأنه خَدَمَ في جيش إمام عُمان،  
بعبارةٍ أخرى بدا لي إنساناً جَوَّالاً بكلِّ معنى الكلمة، ولكنه كان يُحسِن استعمال  
البوصلة ويعرف الكثير عنها.

فاستناداً لمعلوماته، وضع السياميون ثمانية خطوط على بوصلتهم. يُسمونها  
استناداً للرياح التي تهب في هذه الأقطار، الشمال، واو، الشمال - الشرقي أوترا،  
الشرق، تيبا نود، الجنوب - شرقي تاب هاو، الجنوب سلاتان، الجنوب - غرب،  
بريتا، الغرب، تبان توك، الشمال - غرب، برات لوان، أما سكان ماليزيا، فلا  
يستعملون إلا ثمانية أسماء لهذه الخطوط، الشمال أوتارا، الشمال - شرق تيمور لافاد،  
الشرق تيمور، الجنوب شرق سلاتان دجا، الجنوب، سلاتان، الجنوب غرب برادجا،  
الغرب باراد، والشمال غرب بارا غير أن بوصلتهم تضم ٣٢ خطأ، يَحْمَلُ كُلُّ واحدٍ  
منها تسميةً طويلةً جداً في لغتهم، مثلاً، من الشمال إلى الشرق، اوتارا دي كانان يارون  
بندي، من الشمال إلى الشمال شرق، اوتارا دو كانان يارون بانجان، ومن الشمال شرق  
إلى الشمال تيمور لافاد يارون دو كوري يارون باندي (\*) ...

حاول بعض الرحّالة اقناعنا أنّ العرب البدو يستعينون بالبوصلات خلال  
رحلاتهم في الصحراء، غير أنّني لم أجد ما يُثبت ذلك. فحين رأوني أحملها سألوني عن  
سبب استعمالها له. فأجبتهم أنها ساعة تُحدّد موقع القبلة، أي مدينة مكة، ولهذا السبب،

---

(\*) تعني كلمة كيانات في لغتهم، الجهة اليمنى، وكيري الجهة اليسرى ويارون، الربع.

٩٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

كانوا يقصدون منزلي للاستعلام عن وجهة القبلة كلّما أرادوا الصلاة. والجدير ذكره أنّ هؤلاء العرب، يتنقلون دوماً في الصحراء ويعرفون الطرقات جيداً، ويستعينون ليلاً بالنجوم، فلهذا السبب لا يحتاجون للبوصلّة أبداً.

### ملاحظات حول البصرة

تقع مدينة البصرة على ارتفاع ٣٠°، ٣٠ من القطب، على الجهة الغربية لشط العرب، واستناداً للخارطة التي رسمتها يبلغ طول سورها حوالي الميل تقريباً، وتكثر فيها بساتين النخيل وحقول القمح، التي تزيد من نقاط التشابه بينها وبين مدينة بابل القديمة. والجدير ذكره أنّ هذه المنطقة لا تضم صخوراً منقوشة، إلا تلك التي نشاهدها فوق عتبة الجوامع، فمعظم الأبنية مصنوعة من الخشب الثمين الذي يُنقل من المناطق الأخرى، تُغطّي الحجارة بعض الأسوار بينما استعمل الصلصال لبناء المنازل وسور المدينة الكبيرة؛ مما يعني أنّ انقاض هذه المدينة، لن توازي انقاض مدينة بابل أهمية.

يبلغ عرض الشط في هذه المنطقة، حوالي ربع فرسخ؛ تكثر في البصرة القنوات الصغيرة، المتفرّعة من النهر الكبير، والتي تُساعد على الحفاظ على نظافة المدينة، غير أنني لم أدخل مدينةً أكثر قذاراً من هذه، إذ يستعمل معظم الناس المياه الملوثة في مطابخهم، كما وأنهم ينظفون بها شوارعهم غير المرصوفة.

تضم المدينة خمسة أبواب (١) درواسة أو باب الرباط (٢) درواسة بغداد (٣) درواسة الزبير (٤) درواسة الصراجي (٥) درواسة المجموعة. ونُشاهد في المدينة مسجداً له

منارتين، وثمانية آخرين لكل واحد منها منارة واحدة، وهي تُعرف بالجوامع، ويُقال إن هذه المدينة تضم ٤٠ مسجداً صغيراً. ولكنني أخالها أقرب إلى المصلى منها إلى الجامع.

لما كانت البصرة مدينة حديثة، سأتلو عليكم في ما يلي أسماء أحيائها كافة، خاصة وإننا قد لا نحظى أبداً بترجمة وافية لوصف هذه المنطقة، مع الإشارة إلى تسمياتها القديمة، مناخ، مشارق [المشراق]، دنانيك، ابن عيد، عبايه، ميدان العبيد، الدوغ، أم البلايل، أم البزازين، شيخ بادي، شيخ قنبر، شيخ جوهر، أم الطنوق، قبله [القبلة]، شيخ عمر، مدبغة، نهر النبات [البنات]، شيخ حبيب، جسر اللوح، مكول، معدان، محمد تحته، حمام كوت، محلة القاضي، محلة العرصة، محلة سيد رمضان، محلة الأفغان، حكاه [الحكاكة]، حداده، خليلية، شريباتية، محلة اليهود، محلة مرجانة، حسن داده، كواز، بستان قصب، كوارخين، محلة عز الدين، محلة خان زكار، القطانة، سيف [السيف]، حوش الباشا، جسر الغربان، المجموعة، مقبرة، صمغونية، محمد جواد، عروة، غمقة، بحارنه، جسر العبيد، بلد السياس، الدوغ، حلل، مقام، محلة الجديدة، نظرآن، صبغة [الصبخة]، معصرة [المعصرة]، الخضر، محلة الساعي، مناوي، بديهة [بريهة]، عباس، حصير جيه، فرسي صيمر، خضراوية، فتالة، كوث الكرمل، جسر الحوز، محصنة [المحصنة]، خشابه.

لم تعرف البصرة الإزدهار إلا في عهد المدعو سياب، الذي كان نبيلاً من البلاد، استلم دفة الحكم من الأتراك، وكان هذا الأخير، يشجع الأجانب على الإقامة في هذه المدينة، وتأسيس مشاريع تجارية فيها، خاصة وأن موقعها مؤاتٍ للغاية. استلم ابنه

علي باشا الحكم من بعده، ليخلفه فيما بعد حسين باشا، ابن علي باشا (\*). وكانوا جميعاً يعتبرون البصرة، والقري التابعة لها، مُلكاً لهم. فَحوَّلَ علي «القرنة» إلى مكانٍ يلتقي فيه الفرات ودجلة [غير صحيح]، وإلى حدودِ حصينة، عَزَّزها حسين ببناء سورٍ ثانٍ لها. وَوسَّعَ هذا الأخير مدينة البصرة، إذ بلغ السور الذي بناه نهر شط العرب، رغم بُعد المدينة عنه، وساهم بالتالي في رفع عدد بساتين الفاكهة وحقول القمح. كما وأتته حَصَنَ قرية مناوي، واستولى على القصر وأقام فيه. علاوةً على ذلك، بنى جامعاً في البصرة، ومنحَ المسيحيين حرية ممارسة دينهم، حتى يُغريهم بالبقاء في هذه المدينة، والمساهمة في ازدهار التبادلات التجارية فيها. فَعَظُمَ شأن حسين باشا بعد أن وَضَعَ يده على قري عديدة كانت تابعة لحاكم بغداد، وبعد أن صد الأتراك الذين حاولوا مرةً اقتحام البصرة، ولما تَعَدَّرَ عليه اخضاع الباشوات المجاورين لنفوذه، أرسلَ أحدَ أفراد عائلته إلى القسطنطينية، حاملاً هدايا ثمينة للسلطان، فَوَعَدَهُ بأنَّ يدفع له سنوياً، مبلغاً من المال، شرط أن يُسلِّمه دَفَّةَ الحكم، فوافق السلطان على إرسال جيشٍ صغيرٍ لمساعدته على بسط نفوذه، عِلماً أنها الطريقة الأسهل لضم البصرة لاحقاً إلى امبراطوريته. وبدلاً من أن يقف سكان البصرة والقري المجاورة إلى جانب حسين باشا، أرتأوا الإلتفاف حول عدوه الجديد.

أدرك أنَّ قواه العسكرية قد ضَعُفَت، وَوَجَدَ نَفْسَهُ مُرَغَمًا على الإنغلاق على نفسه

---

(\* تَعَرَّفَ بيار دولا فالي وتاثيرنيه على هذين الباشاوين الأخيرين.

في مَقَرِّه؛ وبعد أن تضاعفت قوةُ عدوه في المدينة، فَصَلَ الإنسحاب إلى مناوي، ومنها إلى بلاد فارس، وبعد مرور بضعة سنوات، احتلَّ الفرسُ البصرة، ولكنهم ما لبثوا أن طُرِدوا منها على يد الأتراك، ومنذ ذلك الحين والسلطان يُعَيِّن باشا من باشاواته حاكماً على المدينة. ولكن حسان باشا، والد أحمد باشا الشهير، استغلَّ القبائل العربية الكبيرة لمهاجمة الباشاوات الجُدُد في الطريق وقتلهم أو إرغامهم على العودة إلى حلب.

وبعد أن رَفَضَ الجميع تَسَلَّمَ هذه المهمة. عَرَضَ حسان باشا دفع الضريبة العادية، لضم هذه المنطقة إلى بغداد وخضوعها لنفوذها (\*).

خلال الفترة التي كان السلطان يرسلُ فيها الباشاوات من القسطنطينية إلى البصرة، كان يُعَيِّن فيها رُبَاناً من الأعيان، على رأس ٥٠ أو ٦٠ سفينة حربية، يمنع وصول سُفن القراصنة إلى الفرات ودجلة والخليج العربي برّمته. وفي سبيل إعالة هذا الأسطول خُصِّصَتْ له إيرادات المناطق الكبيرة في بغداد والبصرة. وبعد أن بَسَطَ باشا بغداد نفوذه، وَضَعَ يده على إيرادات المناطق المُخَصَّصة للرُبَان. فَمَنَحَ السلطان الباشا حرية تسهيل الأعمال التجارية بحراً. وَعَيَّنَ الرُبَانَ موظِّفاً عنده، فَعَيَّنَه حاكماً على مناوي وأوقف سُفنه الحربية على الشاطيء مُعطيّاً الأمر لقادتها بإطلاق نيران مدافعهم على الحاكم، إن مرَّ في مركبه، غيرَ أنَّ هذه السُفن ليست صُلبه البناء، عِلماً أنَّها مَطْلِيَّة بالزفت الذي يُستورَد من مدينة هيت Het الواقعة على ضفاف الفرات على بُعد بضعة

---

(\* ) في نيسان / أبريل ١٧٧٦، تَسَلَّمَ كريم خان حاكم بلاد فارس، زمام السلطة في البصرة، بعد أن حاصرها لمدةٍ طويلة.

١٠٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

أيام شمالي الحلة. إنّ السفن الصغيرة، التي تنتقل بين بغداد والحلّة والبصرة، ليست أكثر صلابة، وأنّ الزفت يتلاءم مع المياه الحلوة، ولكن يُقال أنه يذوب في المياه المالحة، ولهذا السبب لن تخاطر سفن الرّبان الحربية بالإبحار في الخليج الفارسي. ورغم تكاثر عمليات القرصنة في الفرات ودجلة، قلّمَا يُوليهما الرّبان إهتماماً (\*)، غير أنه يستدعي الضابط الأعلى، والدفتردار والآجال، وشيخ البندر والقاضي، إلى الديوان، ليعالج المسائل الطارئة.

الدفتردار هو أمين الحزّنة، ويخضع في المدن الأخرى لأوامر السلطان مباشرةً. أما في البصرة، فهو مجرد موظف في خدمة باشا بغداد. يُعين سلطان القسطنطينية القاضي أو يُقيله من منصبه، ليختار بديلاً عنه، ويُقال إنّ معظم القضاة يشتركون شهاداتهم (أو فرمان) من غيرهم ويقتبسون اسمه أيضاً. لهذا السبب لا يسعنا القول إنّ رجلاً نزيهاً شغل يوماً هذا المنصب، وفي انتظار تعيين قاضٍ جديد، يحلُّ نائبه محلّه، علماً أنّ هذا الأخير يُجيد العربية ويعرف البلاد جيداً، فالقاضي الآتي من القسطنطينية لا يُحسن إلاّ التركية بينما سكان البصرة لا يتكلّمون إلاّ العربية.

---

(\*) يستعمل سكان البصرة سلالاً مستديرة، تُعرَف بالقُفّة، ويطلونها من الخارج بالزفت، وهي سهلة الاستعمال، خاصّة في المياه القليلة العمق، علماً أنها لا تعرض كثيراً، [لا أعرف ماذا يقصد] وتدور بسهولة، غير مريحة بالنسبة للأشخاص الذين لم يعتادوا السفر في هذه السلال، وبما أنّ البحار الذي يدفعها، لا يستطيع أن يمنعها من الدوران في وسط النهر، تختلف سفن البصرة عن السفن الحربية، من حيث بنائها، وهي تُستعمل لنقل البضائع من البصرة إلى بغداد والحلّة.

يعرف نُبلاء البلاد بالأجلاء، أما أكثرهم إجلالاً فكان في تلك الحقبة الشيخ درويش القوسي، من سلالة عالمٍ شهير، يُدعى قوس، بنى جامعاً جميلاً في هذه المدينة. ينتمي المفتي الحنفي إلى هذه الطبقة من النبلاء، ويُقال إنَّ هذا المنصب لا يشغله إلاَّ العلماء. غير أنَّ ذلك ليس ضرورياً، إذ قد يَحُلُّ محله نائباً أو وكيلاً. من ناحيةٍ أخرى تخضع لسلطة نقيب الشرفاء، أو رئيس خلفاء محمد كلهم، المقيمين في هذه المنطقة. لسنواتٍ خلت، اختار سليمان باشا أحد الأعيان، كمفتٍ شافعي، فَخَّصَ له رئيس الأجل، المدعو سعيد درويش ابن سعيد طالب، الذي كان أجداده يرافقون قديماً القوافل إلى حلب، وهو يشغل اليوم منصب قائد للقوافل. علماً إنه الأكثر شهرةً بين الشيوخ. الذين تَمُرُّ قوافلهم في هذه المنطقة ويدفعون الجزية له.

يَتَمَتَّعُ الأجلُّ بامتيازاتٍ كثيرة، علاوة عن أخذ الحاكم بنصائحهم قبل إقدامه على أيِّ عملٍ كان. فهم لا يدفعون شيئاً من أرباح أرضهم، خلافاً للرعايا الآخرين الذين يُرغمون على دفع الجزى على بساتين البلح، مع العلم أنها تُشكِّل مصدرَ ثروتهم. ويَحُقُّ لهم أيضاً معاقبة الفلاحين، رغم أنهم ليسوا عبيداً عندهم. يخضع رجال الدين، ومن بينهم ناظر المدرسة والناسخ، لسلطة المفتي القضائية، كما يخضع الأسياد والشرفاء لسلطة نقيب الشرفاء القضائية، وهما يملكان سجوناً خاصةً بهما، يُرْجَان فيها الرعايا الذين يخالفون القانون. وعندما يبيني أحد الأعيان جامعاً، تحتفظ ذريته بحق إدارة هذا الجامع وصيانته، مع إعلام الحاكم بذلك. وتعيَّن رجال الدين في الجامع، لكن ما أن تفنى عائلة باني المسجد، أو يُطالب أحدهم بحقه في هذا المُلْك،

١٠٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

حتى يتسلّم المفتي الايرادات والمصاريف ويتحوّل بالتالي إلى متولٍ. قال لي مُعلم اللغة، الذي كان ناسخاً أيضاً، إنّ مَنْ يُقدّم التقارير ومَنْ يراجعها من بعده، يجنّيان أموالاً طائلة إذ يتقاسمان جزءاً من الأرباح. سمعتُ المتمولين يشتكون من هذا الأمر في مدنٍ تركية أخرى، حيث الجوامع تهدّمت جزئياً، إذ من الصعب صيانة الجوامع إن لم تتلقَ دوماً مساعداتٍ إضافية.

يتمتّع الإنكشاريون في البصرة كما في المُدن التركية الأخرى، بامتيازاتٍ كثيرة، منها عدم معاقبتهم أو حبسهم عند اقترافهم الجرائم، كبار ضباطهم يلازمون القُرنة برفقة قادتهم، بينما يُعيّن صغار الضباط في فرقهم، عناصر مُنحلة، ممّن يمارسون اللصوصية وغيرها من الأعمال المُخلّة بالأمن، والتي تُسيء للحاكم ولرعاياه من الطبقة الكادحة. علاوةً على ذلك، لا يتخلّى المتطوع عن عمله، ويتقاضى راتباً شهرياً، ومبلغاً آخر إضافياً لسهره على الأمن العام. غير أنني لا أخال الإنكشاري يُغالي إلى هذا الحد إلا في غياب باشا بغداد. وعند وفاة سليمان باشا، لم يستطع الحاكم منع الإنكشاريين، من مهاجمة منازل المسيحيين، والمسلمين الذين لم يطلبوا الحماية منهم. وغالباً ما يشتم أعضاء إحدى الفرق، المسلمين أو أتباع الديانات الأخرى، الذي طلبوا الحماية من فرقةٍ أخرى، وأدّى ذلك إلى نشوب خلافٍ بين الإنكشاريين، واندلاع معاركٍ حادةٍ بينهم.

وغالباً ما كان يسقط في اليوم الواحد من ٨ إلى ١٢ قتيلًا، من بينهم أشخاصٌ لا علاقة لهم اطلاقاً بالإنكشاريين. وحثّ هذا الأمرُ الناس على الإنخراط في فرقهم،



[ ١٤ ] رحلة كارستن نيور ..... ١٠٣

تفادياً لوقوعهم ضحية سخط هؤلاء الخثالة. ولهذا السبب، عرف مسلمو البصرة، جميعاً بالإنكشاريين (\*).

ولما كان الأجل والإنكشاريون يَتَمَتَّعون بامتيازاتٍ كثيرة، يُحَيَّلُ إلينا أن الحاكم لا يَتَمَتَّعُ بصلاحياتٍ عالية، لكن إن كان نبيهاً استطاع الحفاظ على نفوذه.

غالباً ما يُشْنُ الأعيانُ الحرب على بعضهم البعض، فينهبون القرى التابعة لنفوذ واحد منهم الآخر، إن أراد الحاكم أن يدحر أحدَ معارضيه، إما علناً في الديوان أو في أي مكانٍ آخر، يصبر عليه حتى يغالي في تصرفاته. ولكن الأتراك يُعْظَمُونَ شأنَ أخطاء الأثرياء أكثر من الجرائم التي قد يرتكبها الفقراء. فيشنقون الفاعل ويصادرون جزءاً من أمواله.

ولا يسع ذوو المشنوق إلا التذمّر سراً من طغيان الأتراك. فقد قدّم الحاج يوسف أموالاً طائلة لعلي باشا، الذي منحه في المقابل الحق في ابتزاز مبالغٍ كبيرة من التجار الآخرين، والإدعاء أنها لحساب الآخر. فأُقِيلَ عندئذٍ حاكمُ بغداد أحمد كخيا وعُيِّنَ مكانه حاكمٌ آخر. ولكنه ما لبث أن أُعيدَ إلى منصبه، حيث بذلَ قُصارى جهده لكسب صداقة الرجل الذي تَسَبَّبَ في الماضي في إقالته. ولكن يوسف لم يضع فيه ثقته، وفَصَّلَ أن يُعيِّنَ مرافقين خاصين، لإغاثته عندما تدعو الحاجة. غير أنه اضطر في أحد الأيام

---

(\* عُرِفُوا أيضاً بالبينكجارين، ولكن لفظة Janits مُقتبسة سهلة الحفظ. ولهذا السبب استُعملت أيضاً عبارة Mosquée. فالمسلمون يُسمّون معابدهم الصغيرة مساجد، والكبيرة منها جوامع.

١٠٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

للتعامل مع التفنكشي باشا (أو قائد فيلق من المشاة) الذي كان يكن له صداقة عميقة. فأعطاه هذا الأخير الأمر الصادر بشنقه. فتمَّ إعدامه في الحال، ورُميت جثته هذا التاجر الذي نال حظوة لدى الباشا، وتمتَّع بحماية رجال الدين له، خاصّة بعد أن حجَّ إلى مكة في مزبلة [لا أعرف معناها] واستطاع أحمد باشا كخيا جمع الإثباتات ضد الحاج يوسف وتبرير تصرفاته للشعب، أما علي باشا، فكان يشعر بسرورٍ عظيم، خاصّة وأنه استعاد المئتي ألف قرش التي كان يدينُ بها للحاج يوسف، فضلاً عن استيلائه على جزءٍ كبيرٍ من أموال هذا المسكين.

ابتزَّ الحاكم نفسه مبلغاً كبيراً من المال، من تاجرٍ أرمني، لإقدامه على خطوةٍ نالت إعجاب حُكّام أوروبا كلهم. وإليكم ما جرى: بنى الأرمني على حسابه جسراً من الحجارة، فوق إحدى القنوات المجاورة للمدينة، ورَمَمَ الطريق العام، الذي كان يتعدَّر سلوكه في الشتاء نظراً لإهمال الحكومة له. وكان قد طلبَ مُسبقاً الإذن من الحكومة، ولما لم يتلقَ فرماناً، دفع ثمناً غالياً ثمن تصرفاته. ففي تركيا، غالباً ما يُجبر الأشخاص الذين يشيدون أصرحةً جميلة، على إقراض الحكومة مبلغاً من المال دون أن تعيده لهم لاحقاً. فلا عَجَبَ إذن إن لم يظهر الأثرياء من الأتراك كرمًا بالغاً. من جهةٍ أخرى، يَتَميَّز جهاز الشرطة في البصرة بفعالية: فرغم أن أكوام القمح لا تُغطَّى بالحصائر في السوق، لم نسمع أبداً عن عملية سرقة من أي نوعٍ كانت.

من الصعب الحصول على رقمٍ مُحدِّد لعدد السكان في بلاد الشرق، خاصّة وأنهم لا يضعون فيها لوائح بالولادات والوفيات. فإن حاولنا الإستعلام عن الموضوع من

السكان، أجابوا أن عددهم يبلغ الملايين. غير أن عدد السكان ليس كبيراً جداً، كما يسري الاعتقاد في أوروبا، تضم البصرة حوالي ٧٠ محلة أو حي. بعضها يضم ٣٠٠ أو ٤٠٠ منزلاً. وبعضها الآخر ١٠ أو ٢٠ منزلاً أما المحال الأخرى، فتضم بساتين نخيل ومقابر كبيرة. أكد لي سكان المدينة، أن كل محلة تضم حوالي ١٠٠ منزل فإن حسبنا أن كل منزل يحوي سبعة أشخاص، بلغ عدد السكان الإجمالي أكثر من ٥٠ ألفاً. لكن إن حاولنا إحصاء السكان لما تجاوز عددهم الأربعين ألفاً. يعتبر المذهب السني المذهب المهيمن في هذه المدينة. وخلال الحرب الأهلية في بلاد فارس، وصل عدد كبير من أهل الشيعة إلى المدينة، ولما كان السنة يكرهون هؤلاء الآخرين شديد الكره، عرف معظم الشيعة بالسنة. ويبدو أن مسلمي هذه المنطقة لا يدققون كثيراً في مسألة الواجبات الدينية. ولا يتوانى الأثرياء عن الصلاة خمس مرات في النهار، كي لا تتهمهم الحكومة بإهمال دينهم، إن لم تجد تهمة أخرى توجهها إليهم. والجدير ذكره أنه قلماً يهملها أمر ممارسة الفقير واجباته الدينية أو إهمالها لها. من بين مسيحي الشرق كلهم، تُعد رعية الأرمن الأكثر عدداً، علماً أن معظم أفرادها أتوا إلى هنا من بلاد فارس. أما عدد الصابئة فضئيل جداً، ولا أحد يعيرهم اهتماماً. أعطاني أحد الحدادين نسخة عن أبجديتهم بينهم (\*) نجد في البصرة أيضاً عائلات بانيانية وهندية. ومن بين

---

(\*) في كتاب وصف رحلات غربية الصادر من باريس، نجد أبجدية الكلدانيين والصابئة أو مسيحيي القديس يوحنا، التي لا تختلف عن تلك التي نقلتها. أما نسخة كامير، فمختلفة تماماً وبعيدة تماماً عن الصحة.

١٠٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

الأمم الأوروبية كلها، يُمارسُ الإنكليز تجارة الجوخ الأوروبي، والنسيج البنغالي والأقمشة على أنواعها من سورات. يُقيم في هذه المدينة مستشارٌ إنكليزي من بومباي، يرافقه عددٌ من رجال الدين، أما المستشار الفرنسي فقد رَحَلَ عنها بعد أن تَوَقَّفت حكومته عن إرسال أجرٍ محترم له. والجدير ذكره أن الهولنديين لم يقيموا أبداً في هذه المدينة، علماً أن التُّجَّارَ يجلبون التوابل والعقاقير من خارج. نجد في البصرة عدداً كبيراً من الإيطاليين، الذين يمارسون الأعمال التجارية عبر حلب بإتجاه البندقية وليفورن. فضلاً عن كاهنين كاثوليكين رومانين، بنا كنيسةً صغيرة، شبيهة بتلك التي شُيِّدت في ظل حكومة حسين باشا، والتي إنهارت كلياً.

تمتد الصحراء الكبيرة من سفح أسوار البصرة، وتمتاز تربة هذه البقعة بخصوبتها شأنها شأن التربة التي تُغطي ضفتي النهر، حيث تكثر بساتين النخيل، وحقول الأرز. ولا ينقص في هذه البقعة، سوى قنوات المياه، التي نشاهد مثلاً عنها جنوبي غربي المدينة. لثلاثين أو أربعين سنة خلت، كانت تقع في هذه المنطقة قرية كبيرة، لم يتبقَ منها اليوم إلا صرحاً صغيراً يعلو ضريح ولي مسلم ويغطي المنطقة الممتدة إلى الزبير، الملح الذي يُستعمل في الأكل، خاصّة في البقع التي بُنيت فيها سدودٌ صغيرة، لجمع مياه الأمطار وتبخيرها.

### موقع مدينة البصرة القديمة

تقع مدينة البصرة القديمة، التي اشتهرت في ظل حكم الخلفاء الأولين، على بُعد ميلين جنوبي غربي المدينة، التي تحمل اليوم هذا الاسم، وفي منطقة رملية شاسعة،

[ ١٤ ] رحلة كارستن نييور ..... ١٠٧

ونجد ههنا بقايا سور من أسوار المدينة، يبلغ محيطه فرسخين، فضلاً عن أسوار جامعي علي البرمكي وسفران [لا أعرف ماذا يقصد]، وأضرحة الحسن البصري الشهير، والزبير، وابن علوان وطلحة، وابن عبيد، وغيرهم من الحكماء الذين دفنوا في البصرة.

يكره أهل الشيعة هؤلاء العرب الشهيرين، لأنهم خرقوا عهد الوفاء مع إمامهم الكبير، وحاربوه من أجل عائشة. أما أهل السنة، فيكنون لهم كل احترام، لأنهم تطوعوا كضباط في جيش محمد، وندموا كثيراً، قبل وفاتهم، لمقاومتهم علي، صهر محمد، والخلفاء الذين جاؤوا من بعده. تعلوا أضرحة هؤلاء العرب منازل حجرية شبيهة بتلك التي تعلو أضرحة الأولياء الآخرين، ويُقال إن الفرس دمروا هذه المنازل، زمن الهجرة (١١٥٦) هـ، حين حاصر نادر شاه مدينة البصرة التي نعرفها اليوم ولكن أهل السنة أعادوا بناءها بعد انسحاب العدو من المدينة. ومما لا شك فيه أن العجائب التالية، حصلت فيما بعد، استناداً لكلام رجل دين مسلم من الزبير، أضع رجل حمارة خلال سفره من البصرة الجديدة إلى البصرة القديمة، فشكا همه لبعض العمال قرب ضريح طلحة، علماً إنه جاب الصحراء كلها دون أن يتمكن من العثور على حماره. فحزنوا لأمره. وراحوا يشاركونه الصلاة، والدعاء، حتى يعيد الولي له حماره. عندئذ، رأوه آتياً صوبهم بعجلة، وكان أحدهم يلحق به حاملاً سوطاً في يده. إنهارت القبة الجديدة، التي بُنيت فوق ضريح الحسن البصري، للمرة الثانية. فظهر أثر ذلك الولي

١٠٨ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

لأحدهم في الحلم وأكد له أنه لا يريد قبة فوق ضريحه، بل بُرجاً صغيراً، على أن يُوضع رأسه قرب الجدار، حتى يتمكّن الناس من الدوران حول الضريح\*. دُفِنَ الزبير قرب جامع جميل تعلوه مئذنةٌ. وأكد لي إمام هذا الجامع، الذي أخبرني هذه القصص كلها، أن الزبير رَدَّ عليه مرّةً التحية. فسألت الشيوخ الآخرين، أن رد عليهم الأولياء السلام، فأجابوني بتواضع وخشوع. إنهم خطأة ولا يستحقّون هذه النعمة. وأراني الإمام الشجرة التي فقد تحتها الزبير حياته، استناداً لتأريخ العرب. وعلى مقربةٍ من هذه المدينة القديمة نجد ضريح المدعو عبد الله بن عباس، الذي كان والده بواب محمّد (\*).

لما كان المسلمون يُفضّلون أن يُدفنوا قرب أوليائهم، تُنقل جثث الموتى من البصرة الجديدة إلى البصرة القديمة. كانت المدينة مُهدّمة كلياً، إلى أن أُعيد بناء بعض المنازل قرب ضريح الزبير، منذ ٣٠ أو ٤٠ سنة، ومنذ ذلك الوقت عُرِفَت البصرة القديمة بالزبير منذ ثمانين أو عشر سنوات، تمركز في هذه المدينة عددٌ كبير من السنة، الذين طُردوا من نجد على يد عبد الوهاب [يقصد محمد بن عبد الوهاب] مؤسس إحدى الديانات الجديدة، ولهذا السبب تُعدّ الزبير مدينة صغيرة، خاصّة بعد أن بُني فيها مسجد جديد علاوة عن ذلك الذي تحدّثتُ عنه آنفاً.

لم استطع أن أعرف في الزبير متى دُمّرت البصرة القديمة وفي أي ظرف. يقول

---

(\* ) نشاهد قرب هذا الضريح، قبة تعلو قبر المدعو محمد بن سيرين الذي يُجلّه المسلمون كثيراً.

(\* ) هذا من الخلط المستشري عبر الكتاب (الانتشار).

الإمام الذي تحدّثُ عنه أعلاه، إنّ عاصفةً قويةً إقتلعت المنازلَ والجوامعَ، فأعاد السكان بناء البصرة الجديدة. لكن يبدو لي أن انحطاط هذه المدينة كان ثمرة سوء حُكم المسلمين، الذي دفع بسكان بلاد الكلدان إلى النزوح منها. نشاهد في البصرة القديمة، مجرى نهرٍ جاف، أو قناةٌ مجوّفة، يُسمّيها العرب جاري زاد أو حاثازاد. كانت مياه هذا النهر تنبع من بلدة هيت Het، التي تقع على بُعد ستة أيام شمالي الحلة، ومن الفرات في الكوفة، ليصبَّ على بعد ثلاثة أميال في خليج غورابديلا. يقول العرب إنّ ضفتي القناة كانتا مُحدّتين بالأشجار، وأنّ مياهها ساهمت في تحويل هذه الأرض إلى بقعةٍ خصبة. ولكن مياه القناة جفّت منذ عدة سنوات، وتحوّل هذا البلد الخصب إلى أرضٍ قاحلة لا يقطن فيها إلّا العرب البدو. فلا عجب إذن، أن ينزح أهل البصرة عنها، عندما جفّت مياه النهر، كما وأنّ سكان القرى المجاورة انتقلوا إلى ضفاف الفرات، حيث المياه غزيرة جداً (\*\*).

---

(\*\*) مما لا شك فيه أن قناة جاري زاد هي نهر بالاكوباس اليوناني، الذي اجتازه الإسكندر الكبير ليصل إلى بابل، قبل وفاته بوقتٍ قصير، وقد أتى آريان على ذكر هذا الأمر في كتابه السابع. كم يسرني أن يجتمع اهالي هذا البلد ليحفروا قناةً طولها يوازي مسيرة عدة أيام، كي تحوّل هذه الصحراء إلى أرض خصبة. ومما لا شك فيه أن عدد سكانه كان مُرتفعاً جداً، إذ لا يُعقل حفر نهر بالاكوباس. قبل إنتهاء إعمار بلاد ما بين النهرين. عند وصول المسلمين إلى هذه المنطقة، كان النهر في حالةٍ جيدة، خاصة وأن مدينتي الكوفة والبصرة الشهيرتين كانتا تقعان على ضفافه، ولما دُمرتا منذ عدة قرون، أظن أن حكومتيها قد أهملتا الإعتناء بهما، كانت مياه الفرات تصبُّ في بحر باهر، عبر نهر بالاكوباس. ونجد بين السواوة والحلّة مستنقعات كثيرة تغرقها مياه الفرات؛ ويبدو أن الاسكندر قد سلّك هذا الدرب في طريق العودة. كان الناس إذن يخلطون

١١٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

استناداً إلى تاريخ كربلاء، وقعت المعركة الشهيرة بين علي وعائشة، على مقربةٍ من البصرة، ولكن سكان الزبير، لم يُجددوا ساحةَ المعركة بدقة. رغم أنهم يدعون أنها وقعت في وادي سعيد سبان. بين البصرة وجبل سنام، حيث نجد قرية كوبيدة، التي يُسمّيها العرب اليوم خُريبة.

تتميّز البصرة بتنوع أجناس التمر التي تنمو فيها. ويُقسّمها العرب إلى نوعين (•) نوع بارد، مفيد للصحة ونوع حار مضر بها. وهذا يعني أن النوع البارد طعمه لذيق رغم أنّ سعره مرتفعٌ بعض الشيء، بينما النوع الحار، متوفرٌ بكمياتٍ كبيرة، ويُشكّل غذاء الطبقة الفقيرة الأساسي. أما التمر الحنطاوي [الخنطاوي] فهو الأفضل بين كافة الأنواع، إذ لا يضر أبداً بالمعدة، حتى وأن تناولنا كميةً كبيرة منه.

---

بين نهر الفرات والبالاكوباس، ونجد سواعد عدة تمرّ في وسط البحر الأبيض المتوسط القديم، قرأت في مذكرات إنكليزي سافر من حلب إلى البصرة، أنه شاهد على بعد ٤٤ فرسخاً جنوبي شرقي هيت، قرية مهجورة تماماً، يبلغ ارتفاع أسوارها ٥٠ قدماً وسماكتها ٤٠. أما الجهات الأربع، فيبلغ طول كلّ منها ٧٠٠ قدم. علّمت لاحقاً أن العرب يطلقون على هذه القرية المهجورة اسم الخصر، وانها تقع على بعد عشرة فراسخ من مشهد علي، وأن أهلها نزحوا عنها بسبب افتقارها إلى المياه. ولما كانت تبعد كثيراً عن القرى والمدن المحيطة بها، لم يستطع أحد نقل حجارتها واستعمالها في تشييد الأبنية الجديدة، كما حصل في البصرة والكوفة. يبدو أن بليتيوس وغيره من المؤلفين قد أسموا نهر بالاكوباس الفرات.

(•) سمعتهم في بغداد يتحدثون عن التمر الشفتاوي والزهدي، وأصابع العروس، والدقل، والإبراهيمي والبديري والأواري، والسعدي، والبربان [البرين]، وكوفي الشمسي، وأم فائل ومراسا، والمكاري.



أما التمر الزاهدي [الزهدي]، الذي يُعد من أشد أنواع التمر في البصرة، فهو يُرمى للمواشي أو يُصنع منه شراباً مُسكرًا. وحدهم الفقراء الذين لا يستطيعون تأمين طعام أفضل، يتناولون هذا النوع من التمر، غير أن سكان بغداد لا يحتقرون هذا النوع من التمر، لأنه ينمو بكثرة في أرضهم، وأذكر من أنواع التمر الأخرى التي تنمو في هذه المنطقة، الحلاوي والاستعمران والشكر [الشكري]، والجوزي، والدبري والخصاب، والخضراوي والأشرصي والبريم، والمكتوم (بعضه أحمر وبعضه أصفر) والقنطار، الأواوي، تمر بنت السبع، الخنزي، أصابع العروس، الدقل (بعضه أحمر وبعضه أصفر)، الجوزي الأشكر، الشيص، المعضاد، البمكي، القصب، الإبراهيمي. يُستعمل هذا التمر لصنع الدبس، الذي يأكله العرب مع الخبز، والجدير ذكره أنّ الحلاوي هو الأفضل لصنع هذا الشراب المسكر. أما لب التمر فيرمى للماشية. وقد قرأتُ في أحد الكتب أنّ عرب البصرة، يزرعون في الأرض لبّ التمر بشكلٍ هرمي، ولا أظن أن أحداً يلجأ اليوم إلى هذه الطريقة لزراعة الأشجار. تكثر في هذه المنطقة بساتين الفاكهة، علماً أنها تُعاني من نقصٍ في الخشب.

في الفصل الحار، ترتفع الحرارة في هذه المنطقة ارتفاعاً شديداً، حتى أن البعض يقعون أرضاً في الشارع من شدة الحر، كما وأنّ الهواء ليس مُنعشاً نظراً للمستنقعات التي تُحيط بالمكان، والأفذار المتناثرة في المدينة نفسها. خلال شهر آب / أغسطس، هبّت الرياح الجنوبية الشرقية لمدة خمسة أو ستة أيام بينما استمرّت الرياح الشمالية أو الشمالية الغربية خلال الأيام الأخرى، إذ يتأثر الجسم البشري بالحر عند هبوب الرياح الجنوبية الشرقية. لأنه يتصبّب حينها عرقاً. أما في النصف الأخير من شهر تشرين

١١٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

الأول / أكتوبر، فكانت الرياح شديدة التقلُّب، ففي السابع من تشرين الأول / أكتوبر، ظهرت بعض الغيوم، التي تكاثرت في ٢٧ منه، حاملةً معها فصل الشتاء.

تُقيم قبيلة كعب العربية، التي تحدّثتُ عنها في وصف شبه الجزيرة العربية شرقي شط العرب، وتتولّى زمام الأمور في المنطقة، ولا يُقيم أفرادها في الحِيم، كما يفعل عرب الصحراء بل في مدنٍ وقرى، شأنهم شأن عرب شرقي الخليج الفارسي، كان الشيخ سليمان الحاكم الحالي للمنطقة، سيداً على مقاطعةٍ صغيرة، تخضع لنفوذ بلاد فارس، لكن خلال الحرب الأهلية، استطاع أن يضع يده على مقاطعاتٍ صغيرة أخرى. وبعد أن اجتاحت منطقة البصرة، تابع تقدّمه بإتجاه الشط ليبلغ منطقة دواس، على الجهة الغربية للنهر؛ بعبارة أخرى، استطاع بسطَ نفوذه على إقليم فارسي شاسع، وعلى جُزر ومصبّات شط العرب، التي كانت خاضعة في السابق لحكومة البصرة. ولكنه لم يدفع شيئاً لكريم خان لأنّه كان يُقيم في منطقةٍ بعيدة جداً عنه. ولما طالبه هذا الأخير بدفع الجزية، إدعى أنه لا يملك مالاً، لأنّ الأتراك، يَبْتزُّونه؛ ولما طالبه باشا بغداد بالمال، تذرّم أيضاً من الفُرس: فقد كان يرشو أعيان مدينة البصرة، حتى يَغضُّوا الطرفَ عن استيلائه على القرى، الواحدة تلو الأخرى. من جهته، رَفَضَ الحاكم شن الحرب على سليمان، خاصّة وأن هذا يدفع له مبالغ طائلة، ولا أخاله قد يدفع قرشاً واحداً للحاكم الجديد إن لم يُسلِّم له بعض القرى أو يعلن الحرب عليه.

شن باشاوات بغداد حملةً عليه، فارتأى دفع الجزى وإعلان نفسه تابعاً للأتراك أو رشوة الشيوخ العرب، وإلهاء الباشا. واتخذُ قبان (مدينةً صغيرة على الساعد الشرقي

للسط) مَقْرَأً له، وبني سَدًّا عَالِيًّا عَلَى السَاعِدِ الْآخِرِ، لِتَحْوِيلِ مِيَاهِ النَّهْرِ وَجَعَلَهَا صَالِحَةً لِلْمَلَاحَةِ. الْعَامَ ١٧٦٥، كَانَ يَمْلِكُ عَشْرَ سَفَنٍ حَرَبِيَّةٍ وَ ٧٠ مَرْكَبًا صَغِيرًا لِلْإِسْتِيرَادِ وَالتَّصْدِيرِ. فِي الْمَقَابِلِ، كَانَ نَفُوذَ حَاكِمِ الْبَصْرَةِ يَتَقَلَّصُ مِنْ سَنَةٍ إِلَى أُخْرَى؛ وَخِلَالَ إِقَامَتِي فِي تِلْكَ الْمَنْطِقَةِ، كَانَ عَاجِزًا عَنِ مَوَاجَهَةِ هَذَا الشَّيْخِ الصَّغِيرِ.

قَرَّرَ كَرِيمُ خَانَ الذَّهَابِ بِنَفْسِهِ لِحُلْبِ جَزِيرَةِ الشَّيْخِ سَلِيمَانَ، فَدَخَلَ تِلْكَ السَّنَةَ، عَلَى رَأْسِ جَيْشٍ كَبِيرٍ، إِلَى مَنَاطِقِ نَفُوذِهِ، دُونَ أَنْ يُحَقِّقَ أَيَّ انْتِصَارٍ يُذَكِّرُ، عَلَى غَرَارِ قَائِدِهِ الْأَمِيرِ كَنْيِخْ خَانَ، خِلَالَ مَوَاجَهَتِهِ مِيرَ مَهْنَا. كَانَ سَلِيمَانُ يَتَنَقَّلُ مِنْ جَزِيرَةٍ إِلَى أُخْرَى، عَلَى مَتْنِ سَفِينَةٍ مُخْلِفًا وَرَاءَهُ مُدْنًا وَقُرَى خَالِيَةً كُلِّيًّا. وَكَانَ مِنَ الصَّعْبِ عَلَى كَرِيمِ خَانَ الْوَصُولَ إِلَى الْجَزْرِ، وَبَعْدَ أَنْ بَدَّلَ جَهْدًا كَبِيرًا، تَمَكَّنَ مِنَ الْوَصُولِ إِلَى إِحْدَاهَا وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ هَجَرَهَا سَلِيمَانَ. وَفِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ انْسَحَبَ إِلَى غَرْبِي شَطْرِ الْعَرَبِ، فِي ظِلِّ حُكُومَةِ الْبَصْرَةِ.

أَبْلَغَ كَرِيمُ خَانَ حُكُومَةَ هَذِهِ الْمَدِينَةِ أَنَّهُ مِنَ الْأَفْضَلِ لَهَا مَدِّيدَ الْعَوْنِ لَهُ، وَالْقَضَاءَ عَلَى قَوَاتِ الشَّيْخِ سَلِيمَانَ. فَوَعَدَهُ الْحَاكِمُ بِتَلْبِيَةِ طَلْبِهِ، رَغْمَ أَنَّهُ كَانَ يَحْتَجُّ دَوْمًا بِانْتِظَارِهِ وَصُولِ السُّفُنِ وَالْجِيُوشِ مِنْ بَغْدَادِ. مِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ سَلِيمَانَ نَجَّحَ فِي اسْتِمَالَةِ حُكُومَةِ الْبَصْرَةِ وَرَشْوَتِهَا؛ أَوْ لَعَلَّهَا كَانَتْ تَفْتَقِرُ لِلْمَالِ اللَّازِمِ لِشَنْ الْحَرْبِ عَلَيْهِ. وَلَمَّا لَاحِظَ الْفُرْسُ أَنَّ الْأَتْرَاكَ لَا يَسْعَوْنَ لِمُسَاعَدَتِهِ، سَحَبُوا جِيُوشَهُمْ، تَارِكِينَ لِلْعَرَبِ عَنَاءَ اسْتِرْجَاعِ مَنَاطِقِهِمْ.

بَعْدَ أَنْ أَقْدَمَ كَرِيمُ خَانَ هَذِهِ السَّنَةَ عَلَى طَرْدِ مَتَمَرِدِينَ مِنْ مَنَاطِقِ نَفُوذِهِمْ سَمَّحَ

١١٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

لهما بالعودة إليها. علماً أنها في حالة يرثى لها، إذ نَزَحَ عنها أهلها. وتوقّفت الأعمال التجارية فيها. وبعد أن ترك كريم خان حاميةً من الجُند في مدن الشيخ سليمان، اضطرّ لتزويدها بالمؤن والذخائر اللازمة لمتابعة هذه الحرب المُستديمة والتي لن ينجي منها شيئاً. ولا شك أن سليمان دَفَعَ مبلغاً كبيراً للفرس، حتى لا يلحقوا به ضرراً لا يُعوّض.

### حربٌ بين أهل البصرة والعرب

ادعى الأتراك أنهم قادرون على استعادة الأراضي التي سلبها منهم الشيخ سليمان، وعلى تدمير جيوشه كلها، فَشَنُّوا عليه هجوماً بالإتفاق مع كريم خان؛ ولكن عقائدهم الدينية، تفرض عليهم تقديم العون للعربي المضطهد، وإيوائه هو وجيوشه، في أرضهم. ولكن سليمان رفض الإنسحاب من أراضي البصرة، وَفَضَّلَ أن ينتظر جني التمر، فأصدر باشا بغداد الأمر لسكان البصرة، بإعلان الحرب على هذا العربي الخائن، والإستيلاء على مناطق نفوذه. كان الحاكم يملك فوجاً من الخدم، وفوجين من المشاة (براتولي وتافنشكي)، ولكنه إرتأى أن يُجند مجموعةً أخرى من الرجال، قبل بدء المعارك؛ بعبارةٍ أخرى جمع الحاكم أربعة أو خمسة آلاف رجل، ليُهاجم سليمان المُقيم في دواسر، الواقعة غربي شط العرب، برفقة ١٤ أو ١٨ رجلاً.

عند خروجهم من المدينة، كان الجُند يظهرون شجاعةً بالغة، ولكنهم بذلوا جهداً بالغاً ليقطعوا عشرة أميال أو إثني عشر ميلاً، علماً أن الحاكم كان يبعد عن جيوشه حوالي الفُرسخين. وكان اسطول القائد باشا، يتألّف من عشرِ سفنٍ حربية، ومراكب

صغيرة أخرى لنقل الجنود والمؤمن. وكان الأتراك يعتمدون على مركب تجاري إنكليزي، أعارها لهم المستشار الحالي، وعلى سفينتين حربيتين يقودهما ربانان إنكليزيان. حطت الفرق الأمامية رحالها على الضفة الغربية لشط العرب، قبالة الرأس الشمالي لجزيرة محرزي، وألقت بعض سفن الأسطول مراسيها على شواطئ الجزيرة نفسها، علماً أنّ سفن العدو الحربية كانت راسية قرب رأس الجزيرة المذكورة. كان الحاكم قد نصب خيامه على بُعد فرسخين من المدينة، بينما ألقى القائد باشا المرساة على مقربة منه. لما كان الأتراك يفتخرون بأسطولهم البحري وفرق المشاة التابعة لهم، ناموا في الليلة الأولى ملء جفونهم، ولكن عندما دقت الساعة منتصف الليلة، تسللت سفن سليمان إلى وسط أسطول القائد باشا فاستيقظ الأتراك مذعورين، وغادروا سفنهم بسرعة البرق. استنفرت قوى الحاكم في المخيم، دون أن تُتاح لها فرصة الإستعداد للمواجهة، إذ انسحبت سفن سليمان، وأخذت معها المراكب الحربية الثلاث. في اليوم التالي اجتازت هذه السفن الأسطول التركي، ونهبت القرى المجاورة للبصرة، واستولت على بعض المراكب الصغيرة، ولكن سليمان كان يتردّد في الذهاب بعيداً في حربه مع البصريين، فعقد اتفاقاً معهم بأن يدفع لهم مبلغاً كبيراً من المال، وعادت على أثره الجيوش إلى البصرة، بعد مرور ١٨ أو ٢٠ يوماً على رحيلها عنها.

استناداً إلى سياسة الوكيل الإنكليزي، لن يُسيء الشيخ سليمان الظن بأهل أمته، علماً أنه أعار البصريين إحدى سفنه، وأرسل لهم عدداً من رجاله ليقودوا مراكبهم الصغيرة.

وفي المقابل، يقول سليمان إنّ الإنكليز والأتراك هدّدوا سلامته وحاولوا شنّ هجوم عليه، وأنه تصالح مع الأتراك وليس مع الإنكليز، الذين لم يأتِ على ذكرهم في الإتفاق الذي وقّعه معهم. أرسل الوكيل يَحْتَهُ الصغيرَ من الخرج إلى الشيخ سليمان، دون أن يتعرّض له رجال سليمان، ولكن في منتصف شهر تموز / يوليو، وصلت سفينةٌ من مدراس إلى الشط، وشاهد الرُّبانَ مراكبَ صغيرةً كثيرةً تجتاز النهر ولم يخطر في باله أنها تابعة للعدو. لاحظ رجال سليمان أنّ الإنكليز ليسوا مستعدين للمواجهة، فهجموا على السفينة ووضعوا يدهم عليها. قبل أن يتمكّن الرُّبان من مغادرة حجرته (\*). كانت السفينة الإنكليزية، التي رافقت اليخت من الخرج قد بلغت مصبَ النهر، وصادف رجال الشيخ سليمان، الذين أرادوا نقل السفينة إلى مرفأ قبان على الساعد الشرقي، أما اليخت الذي يسبق السفينة، فاستولوا عليه أيضاً. ولما شاهد الربان الثالث هذين المركبين الإنكليزيين مصحوبين بالسفن الحربية، خَطَرَ له إنها وقعا في الأسر، ففَضَّلَ العودة إلى الخليج الفارسي، حيث يستطيع التحكّم بمركبه بصورةٍ أفضل، ولكن لسوء حظّه وقع على الرصيف الذي يطل على المصب فانتظر العرب فترةً طويلة حتى ينخفض مستوى المياه، وينقَضُوا على السفينة، ويسجنوا البحّارة، وينقلوا الأسطول كُله إلى قبان. لم يتوقّع الوكيل الإنكليزي أن يُقدّم سليمان على هذا التصرف. فأجرى مفاوضاتٍ طويلة لإستعادة هذه السفن، وفي نهاية المطاف وضع نصّ إتفاق رَفَضَ سليمان التوقيع عليه، إلّا بعد موافقة حكومة بومباي عليه.

---

(\* ) وحدهم الضباط كانوا من الأوربيين أما البحارة فهم من الهنود.

وفي هذه الأثناء أرسل ربابنة السفن إلى البصرة، بعد مضي ثلاثة أسابيع على احتجازهم، أما البحارة فأطلق سراحهم لاحقاً.

يروى الإنكليز قصصاً عديدة تثبت جهل العرب للعادات والتقاليد الأوروبية، ومنها القصة التالية: لاحظ ضابطٌ من ضباط سليمان أن أحد الربابنة ينظر إلى ساعته. فطلب منه أن يريه هذه الآلة الغريبة، ولما لاحظ أن شيئاً ما يتحرك في داخلها، وضعها في دلو ماء ليغرق هذا الحيوان. وبعد أن أدرك أن الساعة لا تزال تعمل، رماها أرضاً. فراحت تتفكك قطعها كلها، فخاف العربي منها ورماها في الماء.

بعد ظهر ٢٤ آب / أغسطس، شاهدنا ثماني سفنٍ حربية تابعة للشيخ سليمان، تجتاز النهر. فوضعت المدينة في حالة تأهب. ولما كان الحاكم يخشى أن يُرسي العرب السفن الحربية أمام منزل القائد باشا، أو أن ينزلوا جيوشهم في المدينة، انتقل ليلاً برفقة رجاله إلى مناوي. في اليوم التالي، علمنا أن رجال سليمان نهبوا قريتين صغيرتين، تابعتين لشيخ قبيلة المتفق، وأضرموا النار فيها؛ كان هؤلاء العرب يُقيمون حالياً بين البصرة وعرجة، وهم يدفعون حالياً الجزية لباشا بغداد، ويعيشون بسلام مع البصريين. أظهر عبد الله، شيخ القبيلة الحالي، استياءه من تصرف سليمان، واستعد للإنقضاض على بلاده. فدعى الحاكم للمشاركة في حملته هذه، وقبل أن يصله رد الحكومة التركية، تمركزت جيوشه أمام المدينة، وكان بعض العرب يعبرون النهر في زوارق صغيرة، برفقة نساءهم وأولادهم، بينما يمر البعض الآخر أمام المدينة على ظهور الجمال، حاملين أكياساً فارغة، ومُتوجّهين نحو بستان النخيل الواقع على

الطرف الجنوبي، من البصرة.

عاد سليمان برفقة سفنه الحربية إلى المدينة، بينما تراجع الحاكم، إلى مناوي، ولكن سليمان لم يكن ينوي إنزال جيوشه حيث يتوقّع أن يلقي معارضةً، فبدأ يجمع التمر من القرى المجاورة، إلى أن بلغ أقصى الجنوب؛ في المقابل، كان عرب قبيلة المنتفق يجمعون التمر من الجنوب إلى الشمال، في البصرة. في ١٠ تشرين الأول / أكتوبر، تابع عرب قبيلة كعب الطريق، بينما عاد عرب المنتفق إلى ديارهم، فلاحق بهم البصريون، ليجمعوا التمر الذي تركه جيرانهم. فبدأ لنا وواضحاً أن الشيخين عبد الله وسليمان قد اتفقا، بين بعضهما، على جمع تمر الرعايا الأتراك، رغم أنّ عرب قبيلة المنتفق أرادوا أن يثبتوا صداقتهم للبصريين، وكان يصل يوماً إلى المدينة أناس يتحدّثون عن المناوشات التي وَقَعَتْ بينهم وبين عرب كعب، لمنعهم من نهب بساتين النخيل، حتى أن الشيخ عبد الله أرسل إلى الحاكم رأسين كان سكان البلدة يفتخران بهما كثيراً [يفتخرون]. لم يتجرأ أهل المدينة على التعبير عن رأيهم في الحرب، فهم يعتقدون أنّ العرب اقتطعوا رأسي رجلين مريضين. في هذه الأثناء، كانت الحكومة التركية راضية كل الرضى عن النجاح الذي حُقِّق، لأنها كانت تحشى أن تهاجمها قبيلة المنتفق من جهةٍ وقبيلة كعب من جهةٍ أخرى. في نهاية الأمر تقاتل عربيٌّ من المنتفق مع جندي من جنود الحاكم وأرداه قتيلاً، فأبى السكان أن يقبلوا بهذه الإهانة في عقر دارهم، فَتَجَمَّعت الفرق العسكرية كافة، وتعاونت في ما بينها لطرد العرب من المدينة.

يدفع الأوربيون الذين يمارسون التجارة في البصرة ثلاثة بالمئة من رسم المرور



على البضائع التي يستوردونها من الهند، أما تجار الدول الشرقية فيدفعون ٧٠ بالمئة علاوة عن الضرائب التي يدفعونها لضباط الجمرك على بضائعهم. وهذا يعني أنّ الحكومة خسرت الكثير من المال نظراً لعدم وصول هاتين السفينتين القادمتين من الهند، فبذلت قصارى جهدها لإرغام سليمان على إعادتهما لها. فَتَقَدَّمَ سيّد من أعيان بغداد، قَبَضَ منذ بضعة أشهر ٦٠٠ ريال من سليمان ليتوسّط له أمام الباشا، ليلعب دور السفير. فَوَصَلَ إلى البصرة في أواسط شهر تشرين الأول / أكتوبر، وتابع رحلته دون توقف باتجاه قبان. لكن سليمان ادّعى عدم معرفته به. ولما ذكره السيد بالخدمة التي أداها له، وبالمبلغ الذي قبضه منه، رَفَضَ العباة الثمينة التي أرسلها له الباشا، تعبيراً عن سلامة نيته. وقال إنّ العباة تليق بالشيخ العربي أكثر من الخادم التركي، خاصّة وإن كان مُرسلها شخصٌ يعمل في خدمة السلطان. بعبارة أخرى، كان استقبال سليمان للسيد سيئاً للغاية؛ إلى حد أن هذا الأخير اضطرَّ للعودة على الفور إلى البصرة. وفي ٢٦ تشرين الأول / أكتوبر وَصَلَ سفير آخر للباشا، ويُدعى عبد الله بك، وهو عربي الأصل، كريم النسب، يعمل في خدمة باشا بغداد، ويُجِبُّه العرب أجمعون. في بداية الأمر، بعث رسولاً إلى قبان ليُعلم سليمان بوصوله، وفي ٢٨ منه، إنطلق برفقة الشيخ درويش، أحد أعيان مدينة البصرة، فاستقبلهما الشيخ سليمان بكُلِّ حفاوةٍ، دون أن ينالا منه أكثر من الإطراء.

لما كان الباشا قد عَظَّمَ من شأن سليمان، بإرساله ضابطين كريمي النسب لمقابلته، طَلَبَ من مستشاره الخاص أن يرافقهما إلى بغداد على أمل أن يتفاوض مع سيدهم للتوصّل إلى إتفاق. وأظنُّ أن هذا الأمر يُعد إهانة كبيرة للباشا الذي يحكم بلداً يفوق

١٢٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

كافة الممالك الأوروبية مساحةً، هذه هي نقاط ضعف الحكومة التركية في المقاطعات  
النائية.

عمَّ الحزنُ البصرة هذه السنة، ففي فصل الخريف كانت تستقبل عادة حوالي ٥٠  
مركباً من مرافئ عُمان كافة، مُحَمَّلة كلها بالبُن من المخا والحديدة. وأرغمت السفن  
الأولى على دفع رسوم مرور باهظة للشيخ سليمان، كي يَسْمَح لها بمتابعة رحلتها إلى  
البصرة، كما وأنها أرغمت على شراء التمر في طريق العودة. وعندما بلغ خبر الأحداث  
التي وقعت على شط العرب مسامع سكان مسقط، أفرغت المراكب الصغيرة البُن،  
الذي حُمِّل في سفينةٍ حربية تابعة لإسطول الإمام. ورغم أنها تمكّنت من الوصول  
بسلام إلى بوشهر، لم تجرؤ على المضي في رحلتها. في السنة التالية، علّمت أن السفينة  
تمكّنت من الوصول بسلام إلى بوشهر، لم تجرؤ على المضي في رحلتها. وفي السنة التالية،  
علّمت أن السفينة المذكورة أفرغت حمولتها كلّها في أحد مخازن الخرج، لتقع بعدها  
أسيرةً مير مهنا.

### الطرق المؤدية من البصرة إلى حلب عبر الصحراء

إن أقصر طريق من البصرة إلى حلب تمر في الصحراء، غير أننا نصادف في الطريق  
قبائل عربية كثيرة، تدّعي كلّ منها السيادة، والحق في المطالبة بهدايا من الرحالة؛ لهذا  
السبب لا يجتاز أحد هذه الطريق إلا برفقة قافلة كبيرة. وخلال إقامتي في البصرة،  
كانت الأعمال التجارية ضعيفة للغاية، وعدد التجار الذين يسافرون في القوافل ضئيلاً  
للعناية. لذلك اضطررتُ لسلوك طريقٍ آخر. ولما أتيتُ لي فرصة التعرف على بدوي

قطع عدة مرات الصحراء من البصرة إلى حلب، سأذكر لكم المناطق الواقعة على هذه الطريق، كما سمعتها منه.

يبدأ الطريق بمنطقة زبير، كويده شكره، الخفة، القصير (قصر متداع) وادي أبو المريس عيون صيد، وهي عبارة عن بركة بنتها زوجة أحد الخلفاء، الغضاري، جرتمي، القايم أو الألتلة، رهامة، في جوار مشهد علي، الطقطقانة، أو الحباضة، الحسين، الأخيضر (حصن قديمٌ تحدّثُ عنه سابقاً) رأس العين، تمبل، الكبسة، عقلة، حوران، تغب الجاموس، المانغي، الرتقة، البردان، رشبأ، (حصن قديم على الفرات) جب غنم، الحمض، جبل بشير، العزمة، الطيبه، (دُمِرَت القرية التي تحمل هذا الاسم منذ ٢٠ أو ٣٠ سنة)، قصر الشوان، قاع، أبو الفياض، عنز الروثة، صهاريج، جبل شبيبة، لحاس، حقلة عين سفيرة، أو عين ذهب، حلب (\*).

وإذا كان هذا الطريق محفوظاً بالمخاطر سَلَكَتُ القوافل طريقاً مختلفاً، على أن تتزوّد بكمية كافية من المياه، فتعبر بعد مغادرتها البصرة، الزبير، وكويده، وشكرة، والخفة، والكوس، وسلمان والأثلة، وقطري، والبذي، وحجرة، محبوز والقعر،

---

(\* ) نشاهد هذه الطريق على خارطة السيد كارميشال، وفي الجزء الثاني من كتاب «رحلات» لايف، وهي تضم ايسابر (بدلاً من الزبير) وكبيدة (كويده) وشاغارا (شكرة) وكانغا (الحقنة) بطن قصار (بطن قطار) عبدة موريس (أبو المريس) جرسم (جرتمي) ركمة (رحمة) تكدغانا (التكتغان) القادر (الشادر) عويل راسلين (رأس العين) تامل (تامل) كباس (قباس) أغلت حوران (أكلة حوران) توباك جاموس (تبع جاموس) مانوفال (المني) جبل غارن (جب غانم) جبل بشير لهوس (لاهاس) هاغلا (حقلة) عن ذهب (عين ذهب).

١٢٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

وصواب، والصرايم، والصخه، وبير قديم، وأبو الفياض والحمام، وجبل الأحص، وحقلة، وسفيرة، وحلب، في طريقها من بغداد إلى حلب، تعبر القوافل في عقرقوق [عقرقوف]، والهيس، والفوجة [الفلوجة]، والوحلة، وأم الروس، صبنديج، هيت، المعميرة، عين الأرنب، وعقلة حوران.

مما لا شكّ فيه أن الرحلة في الصحراء ليست مزعجة أو مخوفة بالمخاطر، خاصّة إن كان السلام يسود بين القبائل العربية، أو بينها وبين الأتراك، وإن كان قائد القافلة رجلاً شريفاً، وإن كان المسافر يفهم لغة البلاد، ويجذب طريقة عيش الشرقيين. لاحظ القارئ، في الصفحات السابقة، أنّ الحروب تنشب بسرعة في هذه البلاد، وتنتهي أحياناً بالسرعة نفسها. فحين نغادر إحدى المدن، يخطر لنا أن رحلتنا آمنة تماماً، وغالباً ما نصادف في منتصف الطريق أعداء على خلاف مع الشيوخ المقيمين في الجوار أو مع الباشاوات الأتراك، ويتوجّب حينها على قائد القافلة أن يتفق مع العرب بطريقة ملائمة حتى نمر بسلام. مما لا شكّ فيه أن أكثر الرحلات أماناً هي تلك التي نقوم بها مع عرب بني كلب، الذين ينقلون كل سنة عدداً كبيراً من الجمال إلى حلب، بهدف بيعها. كما وأنّ السفر برفقة قوافل التجار، التي يترأسها أحد أعيان البصرة، ليس محفوفاً بالمخاطر، فهذا الأخير سافر كثيراً في صباه، وتعرّف على شيوخ القبائل كافة، مما ساعده على تأمين الحماية الكاملة للمسافرين. أما القوافل التي يقودها أحد الأتراك، وخاصّة تلك التي تذهب من بغداد إلى دمشق وإلى مكة فهي مكلفة وشديدة الخطورة. وغالباً ما يبيع الباشا منصب قائد القافلة إلى الشخص الذي يدفع أكثر، ففي تلك السنة، دفع أحدهم ٤٠ ألف ريال لتسلم قيادة قافلة حجاج بلاد فارس، الذين يبغون

السفر من بغداد إلى دمشق بعد مرور ثلاثة أسابيع، ودفع شخص آخر عشرة آلاف ريال، وحظي بالمنصب المذكور. يتوجب على هذا الشخص أن يجند عدداً كبيراً من الرجال، وتقديم الهدايا للقبائل العربية، التي يصادفها في طريقه، أما المسافرون، فيشاركون في هذه الأعباء، علاوةً عن دفعهم مبلغاً محترماً لقائد القافلة. ويروى أنّ بعض قادة القوافل، يتفقون مع العرب ليهاجموا القافلة وينهبوها. وأكد لي كبار التجار أنّ قادة القوافل الأتراك يتسبّبون في معظم الأحيان بتعرض القوافل للنهب، على يد العرب، وقد أعطيتُ مثلاً على هذه الأعمال في كتاب وصف شبه الجزيرة العربية. وأخبرني شخصٌ سافر في قافلةٍ مماثلة، أنّ التجار أُجبروا على دفع مبلغ كبير من المال، قبل إنطلاق القافلة، وتعهد القائد في المقابل، بأن يوصلهم إلى وجهتهم بسلام. غير أنّه شاهد بعض العرب من بعيد، وأسرع للقائهم مع عددٍ من رجاله في هذه الأثناء، كان يجدر بنا الإنتظار دون أن يتجرأ أحدٌ على إطلاق النار على العرب، رغم أنهم كانوا يقتربون من القافلة ويهددون بنهبها. دامت المناقشات بين القائد والشيخ وقتاً طويلاً، فكانا يتبادلان التهديد بحمل السلاح، وكافة أنواع الشتائم وفي نهاية المطاف، توصّلا إلى إتفاق فيما بينهما، وأجبرَ قائد القافلة كُلاًّ مسافرٍ على دفع مبلغ من المال للمتابعة الرحلة. والجدير ذكره أن الرحلة في الصحراء شديدة الخطورة على أهل الشيعة، إذ تُفرض عليهم ضريبة أكبر من أهل السنة، ويسيء الملحدون معاملتهم إلى أقصى حد.

أتى بعض المسافرين على ذكر مركز الحمام الذي كان يُستعمل قديماً في البلاد

الشرقية (\*). وهي تكثر في مدنٍ مختلفة، ولكن من الصعب أن نُصدّق أننا نستطيع إرسال الحمام إلى كافة المناطق شأنها شأن أي رسولٍ آخر؛ ولما كانت هذه المنطقة تفتقر إلى مراكز بريد مُحدّدة. دَرَبَ التجار الحمام لإبلاغ عائلاتهم بعودتهم سالمين من سفرهم. قابلت في البصرة تاجراً من بغداد، اعتاد على استعمال مراكز الحمام هذه في رحلاته كافة. فقد ترعرع الحمام في منزله واعتاد على تناول طعامه في مكانٍ محدد، كما وأنه كان يتنقل على حريته، من مكانٍ إلى آخر ويتعرّف على المناطق المجاورة. في رحلته الأولى. اصطحبه معه إلى الحِلّة، وفي الثانية إلى ملمم، وفي الثالثة إلى أرج، وأخيراً إلى البصرة، حيث أرسله إلى منزله بعد أن علّق رسالةً صغيرةً بقوائمه. والجدير ذكره أن الحمام الذي يترك صغاره في المنزل يعود مباشرةً إليه. ويزعم أن أفضل نوع حمام هو البغدادي، ولكنني لا أشك أن الحمام الأوروبي أهلٌ للتدرب على هذه المهمة. وقد قيل لي أن أحد الإيطاليين كان يستعملها ليعرف الأرقام التي استعملها مواطنوه في اليانصيب. وما لا شكّ فيه أننا لا نحتاج مُطلقاً لهذا النوع من الحمام، لأننا نستطيع بعث الرسائل إلى أية بقعة في الأرض، وبأقل كلفةٍ ممكنة.

يقول الكسندر هاملتون (\*\*\*) إنه تكثر في منطقة البصرة شرقي وغربي الفرات، الغربان السوداء والبيضاء التي تتدافع وتتقاتل. وقد شاهدتُ بأم عيني غرباناً سوداء ورمادية على ضفتي النهر، ولكن العرب لا يعتقدون أبداً أن الغربان السوداء

(\*) رحلات بيترو ديل فالي، الجزء الأول، ٢٨٤ غابريال نتونيتا، جغرافية السودان، ص ٢٩.

(\*\*) وصفٌ جديد للهند الشرقية، الجزء الأول ص ٧٨.

والبيضاء قد اتخذت من الفرات حداً لها.

## الرحلة من البصرة إلى الملوم ومشهد علي، ومشهد الحسين، والرحلة،

### وبغداد

للإنتقال من البصرة إلى بغداد، هناك طريقان، الأول عبر دجلة والثاني عبر الفرات، ولا يستخدم المسافرون الطريق الأول عادةً، لطول المسافة بسبب تعرجات النهر الكثيرة، في حين أنّ الفرات لا تعرجات فيه، فضلاً عن أننا نصل على هذا النهر حتى الحِلَّة، ومنها ينتقل المسافر مباشرةً إلى بغداد براً، مما يجعل، الدرب أقصر، ونجد على الفرات محطات أو منازل، فحين يودّ المسافر أن يرتاح يُظهِر إذن الحاكم الذي يحمله، ويمكنه أن يتفق مع أناس في محطات مختلفة ليسحبوا مركبه، بأسعار معقولة، فيصل إلى الحِلَّة بهذه الطريقة في عشرة أيام على الأكثر.

ويجب أن يتمتع المسافر بصحة جيدة ليقوم برحلة كهذه في الشتاء، وبما أن قُطَاع الطرق يكثر على هذا الدرب، لا يستخدم هذه المحطات إلا رجال الحكومة الذين لا يتجرأ العربُّ على المساس بهم، فضلاً عن أناس على عَجَلَةٍ من أمرهم ولا يحملون معهم سوى حاجاتهم الضرورية. أما أنا فانتظرتُ وصولَ مركبٍ صغيرٍ ينقل بضائع إلى الحِلَّة واستأجرت المقصورة لنفسِي وغرفةً صغيرةً لخادمي.

حين صعدتُ على متن المركب، وجدتُ في الغرفة المذكورة، ضابطاً من الإنكشاريين يعاني سكرات الموت ويريد الوصول إلى الحِلَّة، وهي رفقَةٌ لم أكن أتمنّاها في رحلتي، سيبا وأني لا أعرف المرض الذي يعاني منه. لكن صاحب المركب كان قد

١٢٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

قَبَضَ ماله سلفاً، وأقنع خادمي، وهو مسلم من البصرة، بالتنازل عن مكانه والبقاء على سطح المركب، وكى لا أكون أقل إنسانية تجاه هذا البائس من المسلمين الذين كانوا ليكرهوني لو طردته، سررتُ لقرار خادمي وقررتُ أن أُسلمَ أمري للقدر.

كانت الرحلة شاقّة بالنسبة لجاري المريض، وبما أني اعتدت العيش بين العرب، لم أستأ من القرار الذي اتخذته بشأن السفر على متن هذا المركب (\*). استغرقت الرحلة ٢١ يوماً أي من ٢٨ تشرين الأول / أكتوبر إلى ١٩ كانون الأول / ديسمبر حيث وصلنا للموم وغادرت المركب، وهي رحلٌ طويلة لكنها أتاحت لي فرصة القيام بدراساتٍ فلكية عدة، ساعدني خلالها المسافرون الآخرون، إذ تَحَلَّقُوا حولي بشياهم الطويلة لرد الهواء حين كُنْتُ أضع ساعتَي الشمسية على الشاطيء.

سَجَّلْتُ ارتفاع القطب في أماكن عدة مرَّرتُ بها وهي:

في البصرة كما أوردت سابقاً ٣٠°٣٠'

في الأول من كانون الأول / ديسمبر قرب المنصوري ٥٢°٣٠'

في الثاني من كانون الثاني / يناير في أبادا ٥٥°٣٠'

في الرابع من كانون الثاني / يناير في كعد ٥٨°٣٠'

---

(\*) إذا أراد أحدٌ ما معرفة المصاعب التي يتعرَّض لها الأوروبي في هذه المناطق، عليه قراءة الجزء الثاني من رحلات إيف إلى الهند وبلاد فارس، عانيتُ من مصاعبٍ ومشاكل عدة أثناء هذه الرحلة، لكنني تَمَكَّنْتُ من تَجَنُّب العديد من العقبات التي تَحَدَّث عنها إيف. لأنني اعتدتُ السفر مع المسلمين.



في السادس منه في أرجة ٥٩ °٣٠

في ١٢ كانون الثاني / يناير في غريم ٦٧ °٣١

في ١٦ كانون الثاني / يناير قرب السماوة ٦٩ °٣١

في ١٨ كانون الثاني / يناير في منطقة أبو حروق (Abu Haruk) ٢٨ °٣١

في ١٩ كانون الثاني / يناير قرب للموم ٤٣ °٣١

ثم في الحلة ٢٨ °٣٢

وبما أنّ الفرات لا يجري في هذه المنطقة مباشرة من الشمال إلى الجنوب إنما من الغرب إلى الشرق، يصعب تحديد طول المسافة، لا سيما حين نساfer بعكس التيار حيث يدفعنا الجزر غالباً إلى الأمام، والمدُّ أو الرياح المعاكسة إلى الخلف (\*). زد على ذلك أننا اضطررنا إلى سحب المركب لأنّ منسوب المياه منخفضٌ للغاية فلمسنا القاع، فلم يرَ البحارة المساكين بُدّاً من النزول إلى المياه والعمل جاهدين لتخليص المركب. وفي إحدى المناطق التابعة لقبيلة بني الحكم (Hackkem)، وضع السكان سداً لتحويل المياه لريّ مزروعاتهم، فلم نجد سوى ممراً ضيقاً للغاية يعظم فيه التيار فأمضينا نصف نهار حتى تمكّنا من المرور بمركبنا. ولم أتمكّن من تحديد المسافة بدقة إلاّ استناداً إلى المحطّات

---

(\*) نجد على الفرات مدّاً وجزراً حتى أرجة أي على مسافة ١٤ ميلاً بعد القرنة (Kone)، وعلى بُعد حوالي ٢٨ إلى ٣٠ ميلاً من الخليج الفارسي، لكن لا نلاحظ وجود مد وجزر على دجلة بعد أسر (Oser) وهي قرية تحمل اسم إسراء (Esra)، ويزور فيها اليهود اليوم قبراً للتبرّك [المقصود العزير وليس إسراء].

١٢٨ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

التي نجد فيها أناساً يستحبون المراكب وهي ١٢ محطة من البصرة إلى القرنة (Korne)، و٧ من القرنة إلى المنصوري، و١٢ من المنصوري إلى كعد، و٢ من كعد إلى العرجا، و١٤ من العرجا إلى السماوة، و١٨ من السماوة إلى الملو، و٧ من الملو إلى الديوانية، و١٤ من الديوانية (Diwanie) إلى الحِلَّة، واستناداً إلى ملاحظاتي، تبعد المحطة عن الأخرى دقيقتين ونصف إلى ٣ دقائق أي حوالي ٣ / ٤ الميل، وانطلاقاً من هذا ومن تسجيلي لإرتفاع القطب، وضعت خرائط خط السير عليها مجرى الفرات من الحِلَّة وحتى الخليج الفارسي.

نجد بين البصرة وبغداد العديد من القبائل العربية، تدفع كُلُّها ضرائب للبasha، أما أولها فقبيلة المنتفق (Montefik) التي ذكرتها سابقاً في وصفي لشبه الجزيرة العربية. وبما أن القرى والمدن الصغيرة الواقعة إلى غرب شط العرب والفرات من البصرة وحتى العرجا ملك لها فضلاً عن تلك الواقعة إلى شرق هذا النهر إنطلاقاً من القرنة في الشمال، تُقيم القبيلةُ لأشهرٍ في نهر عنتر، وتهيم في الصحراء مع قطعانها قسماً كبيراً من السنة، حيث تعيش في الخيام كغيرها من البدو. وغالباً ما جعلت هذه القبيلة الدرب على الفرات وفي الصحراء غير آمن، حتى أنها حاصرت بغداد أحياناً، لكنها تنسحب إلى عمق الصحراء حيث لا يتجرأون على ملاحظتها ما أن تعلم أن البasha أرسل الجيش لمقاتلتها.

ولم يعاقبوا يوماً وعاقبهم سليمان كخيا (Kichja) الذي أصبحَ فيما بعد باشا بغداد، والذي اعتاد هو وعمّه أحمد باشا الشهرير اصطيداء العرب، إذا صحَّ التعبير، أي أنها

يهاجمان القبائل بغتةً. لذا كانت الطُّرقات آمنة أثناء حكمهما. أَسَرَ أحمد باشا يوماً الشيخ سعدون أخ الشيخ عبد الله، الحاكم الحالي، لكنه عاد وأطلق سراحه مع تنبيهه بوجوب دفع الضرائب والإبتعاد عن المشاكل. وبعد فترةٍ وجيزة، ثارَ ثانية، فأرسل أحمد عندها صُهرَه سليمان كخيا لقتاله مع بعض الرجال، فَشَنَّ هذا الأخير هجوماً مُفاجئاً عليه وأَسَرَه. ولا زالَ العرب يمدحون العنقوان الذي أظهره شيخهم في هذا الموقف، إذ دافع عن نفسه طويلاً برمحِهِ ثم بسيفه وبعدها بالدبوس (سلاح يشبه المطرقة يحملها العرب في سراجهم) وأخيراً بلجام جواده وركابه، لكن من دون جدوى. وكان سليمان قد تَلَقَّى الأمر بإعادة سعدون أسيراً إلى بغداد، وبصفته مُتَّصِراً طالب المغلوب ببعض الإحترام والخضوع، لكن العربي الأبي، المولود حُرّاً رَفَضَ الخضوع، وأحصى سلاله أسلافه وسألَ الكخيا كيف يمكن لشخصٍ مثله لا يعرف أباه (أنه جيورجي، بيع في صباه كعبد)، أن يطلب من نبيلٍ عربي أن يبذل نفسه؟ وأغضب هذا الكلام سليمان فَقَطَعَ رأس الشيخ وأرسله للباشا كدليلٍ انتصاره، ورأى المشايخ الآخرون أن من الفطنة الخضوع له. وفي يومٍ من الأيام، قصد حوالي ١٨ شيخاً من هذه القبيلة الباشا ظناً منهم أنهم تصالحوا معه، ورأى هذا الأخير أن الفرصة لن تتكرَّر فأمَرَ بقطع رؤوسهم جميعاً<sup>(\*)</sup>، وهكذا ضعف نفوذ قبيلة المتنفق ولم تتجرأ حتى اليوم على العصيان. ويُقال إنَّ أحمد باشا الذي يُقدَّر القيمة الشخصية حتى

---

(\*) كما غَدَرَ باليزيديين المُقيمين في جبل سنجار، إذ أقنع شيوخ الجبل المهمين بزيارته وطلب العفو عن عمليات النهب التي قاموا بها، لكن ما أن وصلوا إلى خيمته حتى أمر بقطع رؤوسهم.

١٣٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

لأعدائه، غَضِبَ من تصرف صهره، لكن غالبية الأتراك تعتبر حملة سليمان هذه دليلاً على شجاعتهم في حين أن العرب ينظرون إليها كعملٍ جبانٍ ووحشي.

وتسيطر قبيلة بنو لام على دجلة، وتسبب متاعبَ عدة لباشاوات بغداد. حين أضحى أحمد باشا على بغداد للمرة الأولى، شنّ حملات عدة على هؤلاء العرب، لكنه لم يتمكّن من إلقاء القبض عليهم، لكثرة جواسيسهم في المدينة فما أن يعلموا بأنّ الجيش سيخرج حتى يتراجعوا إلى مناطق نائية. وعندما وصلَ إلى الحكم للمرة الثانية، ضرب ورجاله الخيام أمام المدينة، وقام بتحضيراتٍ كثيرة كما لو أنه يستعد لدخول المدينة في أبهى حلّة، وبقيَ عرب بني لام، الذين علموا بالأمر، آمنين، ظناً منهم أنه لن يهاجمهم طالما لم يسيئوا إليه أولاً أو أنه سيدخل المدينة أولاً، لكنه رفع الخيام في الليل وهاجمهم بسرعةٍ حتى أنهم لم يعرفوا بمخططه. وكسب في هذا الهجوم عدة غنائم من إبلٍ وحياد وأبقار وخراف، وقطع رؤوس المشايخ فأضعف القبيلة التي لم تعد تفكر بالعصيان.

ويلجم الباشاوات العرب المقيمين في مناطق حكمهم بهذه الوسائل، ويمكننا أن نتصوّر بسهولة أن البدو في الصحراء لا يهتمون قطّ بحكم السلطان والباشاوات.

ويُطلَق على المنتفق وبني لام والقبائل العربية الحقيقية الأخرى اسم أهل البعر (Ahhl el baar) أو البدو، ويعملون في تربية الجمال وتدريبها، ويقىمون معظم الوقت في الخيام ويتركون أمر الزراعة للفلاحين، ويأتي السادة العرب في أوقاتٍ مُعيّنة من السنة لجمع الضرائب مُستخدمين العنف والقسوة أحياناً. وتُسمّى قبيلة كعب المقيمة على مصب النهر أي على شط العرب وغيرها من القبائل التي تُقيم دائماً في القرى

والمدن، العرب الحضري.

ونصادف عرباً آخرين، يعملون في تربية الجياد والأبقار والجواميس، فضلاً عن الزراعة وينقلون أكواخهم الحقيبة من مكانٍ إلى آخر كما يفعل البدو مع خيامهم، ويُطلَق على هؤلاء اسم المدعان (Moadan). وتُقيم في شرق الفرات قبيلتان من هذه القبائل، وهما بني حاكم (Beni Hakem) وخزعل وتتبعان المذهب الشيعي. أما القبيلة الأولى فصغيرة العدد ولا تسبب مشاكل للأتراك، لكن قبيلة خزعل التي يقيم شيخها في الملو، فتتصرف أحياناً بفظاظٍ وتسبب المتاعب للباشاوات، وقد هزمت قوات علي باشا منذ سنوات، حين قتلت الباشا نفسه أمسى أبناؤها متغطرسين، فمنعوا أيَّ مركبٍ من المرور على الفرات قبل أن يدفع جزية. وقبيل وصولي، لقن عمر باشا هذه القبيلة درساً حيث قَطَعَ رؤوس مشايخها، وعَيَّنَ شيخاً جديداً حاكماً لها، لكن الحاكم السابق الفار واسمه حمود، عاد بعد انسحاب الأتراك، وبما أن الباشا لم يشأ القيام بحملةٍ أخرى، سَلَّمَه الحكم من جديد. ولا يتجرأ هؤلاء العرب حالياً على إيقاف المراكب، لكن الأتراك الذي يبحرون على الفرات يضطرون إلى سماع الشيعة ينعوتهم بالملحدين، ويعلنون كرههم للخلفاء الثلاثة الأوائل أي أبي بكر وعمر وعثمان.

إن ضِفَّة الفرات منخفضة جداً في المناطق الخاضعة لقبيلة خزعل، لا سيما في المنطقة المسماة أم الخنزير حيث يكثر الأسل وبالتالي الخنازير البرية، ولا بُد أن للنهر

١٣٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

سواعد عدة إذ لا يتعدّى عرضه أحياناً ٤٠ إلى ٥٠ قدماً (\*).

ونجد في شمال المناطق التابعة لهذه القبيلة، مرسىً كبيراً يُسمّى حسكة، يحكمه آغا تابع لباشا بغداد يقيم في ديوانه، ويعتبر أكبر مرسى.

في نقطة حكم الباشا، يملك هذا الأغا فرقةً كبيرة من الخيالة تساعد على السيطرة على العرب، لكننا لاحظنا أنفاً أن هؤلاء لا يكثرثون به أحياناً.

أما أهم المناطق التي نصادفها بين البصرة و الملوم فهي:

- مناوي، محل إقامة الباشا النقيب، وهي في البصرة. ويُعتَبَر هذا المكان مُميّزاً بالنسبة للمسافرين إذ يضطرون إلى دفع ضريبةً للباشا. وفي الجهة الأخرى لشط العرب وقُباله مناوي، نجد قلعةً مُهدّمةً كلياً وتُعرَف باسم كردلان.
- دير، قرية كبيرة جنوب الشط، وعلى بعد يومٍ من البصرة. ونجد هنا تلالاً كبيرة هي عبارة عن بقايا مدينة شَيّدها البرتغاليون استناداً إلى رأي رفاق رحلتي، لكن لم يبقَ من الأبنية القديمة سوى منارة جميلة وهي الوحيدة التي نصادفها بين البصرة والحلّة (باستثناء القرنة).
- سويب، تقع إلى شمال الشط وعلى نهر يَنبَع في حويزة. وتدل الآثار الكبيرة على أنّ مدينةً كبيرة كانت تقوم في هذا المكان فيما مضى. إن النهر الذي يصب

---

(\* ) يبدو أنه المكان الذي مرّ به الإسكندر عائداً حين قام برحلة من بابل إلى بالاكوباس (Pallacopas) قبيل وفاته.

في الشط عند نهر حاسر (Haser) هو نهر حواسبيس (Choas pes) الذي ذكره علماء الجغرافيا القدامى.

- القرنة، تقع عند ملتقى دجلة والفرات، وهي مدينة سيئة البناء، يُحيط بها من جهة اليابسة سورٌ مزدوج من الآجر، وهو بناءٌ حديث، إذ علمت في البصرة إنَّ الباشا علي والباشا حسين شَيداه لصدِّ الأتراك والفرس.

- ونجد هنا خمس فرق من الإنكشاريين، أما التجارة في المدينة فمحدودة بالرغم من موقعها الجيد، لكن السفن التي تمرُّ بها، تضطر إلى التوقف لتدفع ضريبة للإنكشاريين. ولم أتمكن من قياس ارتفاع القطب في هذه القلعة، إذ سلَّمتُ ضابطاً رفيع الشأن رسالة التوصية، فأظهر الكثير من اللياقة ودعاني إلى العشاء في منزله فلم أرفض دعوته. وحين علم بأني أريد التوجُّه إلى الضفة عند الثانية عشرة لقياس ارتفاع الهاجرة، اضطرتُّ إلى جلب ساعتِي الشمسية، التي أريته إيَّها لإسعاده، لكنه لم ينفك يطلب مني أن أسمح له بالنظر عبر المنظار المُقرب، وتكاثرت الطلبات فأصبح عملي من دون جدوى.

- نهر عنتر وهو محل إقامة شيخ قبيلة المنتفق كما أشرتُ سابقاً، وتدفع له السفن ضريبة في تحته (Tachte) حيث لا نجد سوى المنزل الذي يُقيم فيه ضباط الجمارك. ومنذ سنتين، كانت المراكب الصغيرة المحمَّلة بالتمر تُدفعُ مُسلمين (نصف روية) أما اليوم فتدفع ٥ روبيات.

- المنصورية وهي قريةٌ كبيرة، تُدفع رسوم المرور فيها لأغا إنكشاريّي القرنة، لكن المركب القادم من البصرة في القرنة يكتفي بإبراز الوصل. وفي قرية كوت أو كوت مُعَمَّر تُدفع الرسوم للباشا النقيب في البصرة. أما في العرجة فتدفع لآل صالح إحدى أبرز عائلات قبيلة المنتفق. وكان هناك مركز لدفع الرسوم في غرام، لكن منذ أن فرغ المكان من سكانه، تجمّع الرسوم في السماوة لأغا الحسكة وبالتالي للأتراك، لكن شيخ قبيلة خزعل يقبض هذه الرسوم حالياً.

- وصادفتُ في جمارك العرجة والسماوة شيوخاً وقحين، وإن جاؤوا بأنفسهم لرؤيتي، ولم يهتموا بجواز المرور الذي زوّدني به مُتسلّم البصرة، كما استأثروا حين أردتُ إظهار فرمان السلطان الذي أحمله، فإرتأيت أن أرضيهم بأي وسيلةٍ كانت، فإنّ تشاجر مسيحي مع أناس من هذا النوع، وقال كلمةً ما اعتبروها إهانةً لهم، يجبرونه أحياناً على دفع عشرة أضعاف ما يتوجّب عليه، فضلاً عن أنهم يسخرون منه. وتُبنى المنازل في السماوة من الطين المُجفّف في الهواء الطلق وهي بالتالي سيئةُ البناء، لكنها تبدو قصوراً مقارنةً مع أكواخ الفلاحين في هذه المنطقة. ومنذُ سنوات، مات معظم سكان المدينة بسبب الطاعون الذي نفّس بينهم. وتكثر النمرور والأسود وبنات آوى في الصحراء قُرب هذا المكان، كما نجد فيها الكثير من الملح.

وُصادف الكثيرَ من القُرى على ضفتي شط العرب وعلى ضفتي الفرات، من



القرنة ومن العرجة، وبعيداً عن النهر، بقيت هذه الأرض الخصبة غير مزروعة، لقلّة السكان والأقنية فيها، وتقوم القرى بعيداً بعض الشيء عن النهر، وهي سيئة العمران مما يدل على أن المشايخ لا يتركون للسكان ما يكفيهم، وقد بُنيت المنازل والأكواخ من الأسل، باختصار، لم أر أكواخاً بحقارة تلك الموجودة في هذه المنطقة التي أنعمت عليها الطبيعة بالخصب، والتي ذاع صيتها واكتظت بالسكان فيما مضى. أما الأراضي الممتدة بين العرجة والسماوة وغير مزروعة أيضاً. تُدعى المنطقة على ضفتي الفرات الجزيرة، ولعلّ السبب يعود إلى كثرة الأقنية الموجودة والتي جعلت من البلاد فيما مضى مجموعة من الجزر.

ويتميز سكان قرى الفرات بمهارتهم في السباحة كسكان ضفاف النيل، كما يُعرف عنهم أنهم لصوُّص بارعون، أما البحارة فمهملون، كما في مصر، ولا يجرسون أثناء الليل، لذا يستغلُّ اللصوُّص الفرصة، ويصعدون على متن المركب ليلاً، فإن وجدوا الركاب نياماً جمعوا ما يجدون على ظهر المركب وقفزوا بها طالته أيديهم في الماء.



## رحلة أبراهام بارسونز ١٧٧٥

### القرنة

منذ الساعة العاشرة صباحاً [من يوم الخميس ١٠ / ١١ / ١٧٧٥] كانت جهة ما بين النهرين قد تغيّرت نحو الأحسن كثيراً، فلم نعد نشاهد المزيد من الأهوار والمستنقعات وإنما أرضاً ناعمةً جميلةً مزروعةً جيداً، تنتشر فيها الكثير من القرى المأهولة بالسكان. وعند الساعة الخامسة بعد الظهر وصلنا إلى «القرنة»، وهي مدينةٌ كبيرةٌ تقع عند آخر نقطة لبلاد ما بين النهرين، فتكون على ضفاف كلا النهرين، الفرات ودجلة. وهي النقطة التي تقابل «النهر العربي العظيم»<sup>(١)</sup> (الذي يُسمّى بهذا الاسم نتيجة إتحادهما عند هذه النقطة). وعلى هذه النقطة تمّ بناء دار الكمارك، إذ صدرت إلينا أوامر بالإسراع من حركة مركبنا.

وهذا الموقع جميلٌ جداً، ويعتقد الأتراك حق الإعتقاد أن هذه المنطقة هي المكان الذي كان يعيش فيه والدانا. وكانت مقدمة مركبنا في نهر دجلة، بينما كانت مؤخرته في نهر الفرات، ووسطه في النهر العظيم، حيث يلتقي النهران، لأنّ طول المسافة التي زدنا

---

(١) لا شك أن الرحالة يقصد شط العرب.

١٣٨ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةٍ أجنبيّة

فيها من سرعة المركب كان (٤٥) قدماً فقط، وطول مركبنا ثمانى أقدام.

كانت جميع الأراضي التي قطعناها حتى الآن تُسمّى «بلاد كلدة». ولكن الأرض المقابلة لهذه النقطة تُسمّى «شبه الجزيرة العربية». لذا، فإن مُقدّمة مركبنا تبدو بإتجاه بلاد فارس، ومؤخرته بإتجاه شبه الجزيرة العربية، وأحد جوانبه يلامس ضفاف الحدود القصيّة لبلاد ما بين النهرين، التي مرّنا منها وإليها عبر لوح خشبي من الحافة العليا لجانب مركبنا.

وتبعد القرنة عن الحِلّة نحو (١٨٠) فرسخاً إنكليزياً. ومن خليج البصرة إلى مصب هذا النهر العظيم في الخليج الفارسي نحو أربعين فرسخاً، كما يُقال. ولا بد من الإشارة إلى عدم وجود أية مساكن على شاطئ ما بين النهرين على طول هذا الطريق، بدءاً من الحلة، ولا أية مساكن تركية على شاطئ بلاد كلدة. ويبلغ عرض «النهر العظيم» عند نقطة القرنة هذه نحو ميل واحد.

في هذا المكان جرت العادة على تأدية طقس؛ إذ يقوم أحد البحّارة على مُقدّمة المركب بسحب ماء من نهر دجلة، ويُقدّمه للربّان والمسافرين في أكواب. ثمّ يقوم بحارّ آخر من مؤخرة المركب بسحب الماء، فيُقدّمه كما فعل سابقه، ولكن هذا الماء من نهر الفرات. ثمّ يقوم بحارّ ثالث بسحب ماء من جانب وسط المركب، حيث يلتقي النهران؛ ويشرب الجميع من هذه الأكواب الثلاثة، وكأنها بُدعة. ثمّ يوضع لوحان، ويضع كل شخص هدية. وبهذه الطريقة جمع رفاقنا الفقراء (الذين بذلوا جهداً كبيراً في سحب القارب والتجديف حتى الآن)، (٨٥) قرشاً تركياً، أي ما يعادل عشرة

باونات وإثني عَشَرَ شلناً وستة بنسات، فأخذوها وهم في غاية الإمتنان. وهم يستحقونها بجدارة، لأنهم تعبوا كما لم يكدح أحدٌ من قبل، وهذا أمر يدعو للسرور.

وجميع الأشجار والأعشاب هنا خضراء، ولا يبدو أن هناك مكاناً في الأرض أجمل من موقع القرنة هذا؛ فليس من الغريب أن يعتقد الأتراك أنها كانت الجنة، لأنني أنا تصوّرت ذلك، مقارنةً مع كل الأماكن التي رأيتها لحد الآن. فأمامها «النهر العظيم» دون أدنى تعرُّج، ويمتد إلى مد البصر، ويغسل نهرًا دجلة والفرات ضفافها، وتلوح بلاد فارس وشبه الجزيرة العربية لأكثر من ثلاثين ميلاً عنها، وكلاهما يزهو بجمال الطبيعة حتى في هذا الفصل المتأخر من السنة، مباركان بجوٍ لا يمكن أن يكون أنقى منه، مثل أجواء بلاد آشور وكلدّة وما بين النهرين، التي قضيتُ فيها حتى الآن سبعة أشهر، بعد أن تجوّلت على طول تلك المناطق الثلاث بأسرها تقريباً.

أما من ناحية المون، فلا تُوجد أماكن تضاهي هذا المكان إلا القليل، سواءً في الجودة أو رخص الأسعار. فالجانب الفارسي من هذا النهر، الذي هو على مرمى البصر الآن، فيه وفرة من الأشجار أكثر من جانب شبه الجزيرة العربية، ولكن لا تشاهد فيه أية قرية، بينما رأينا الكثير من القرى في جانب شبه الجزيرة العربية، نحو العمق كثيراً. والسبب في ذلك كما علمت هو أنهم يخشون بناء القرى بالقرب من ضفة النهر (باستثناء الأماكن القريبة من القلعة)، لئلا يقوم الفرس بنهبها ليلاً، فنادرًا ما يكون العرب والفرس هناك في وفاق.

الجمعة، ١١ تشرين الثاني / نوفمبر: عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل

١٤٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

غادرنا القرنة، وكان مستوى الماء حينها مرتفعاً. وقيل لي إن المدّ هنا يطفح إلى مستوى (٥, ٨) قدم حينها يكون القمر بدرًا وعندما يتغيّر. ولاحظتُ أن الماء قد طَفَحَ إلى مستوى (٥, ٤) أقدام عمودياً، وعمر القمر الآن ستة أيام. وكانت الرياح حتى طلوع النهار مُعتدلةً، ثم بدأت تهدأ، فذهبنا إلى شاطيء جهة شبه الجزيرة العربية، وفَقَرَ الرجال بالحبال، وبدأوا بالسير عكس اتجاه التيار. ولأنّ الماء كان قد فاض للتو، لم تتجاوز سرعتنا الميّلين في الساعة، إلى الساعة العاشرة صباحاً حينها بدأ الرجال -بعد أن هبّت رياح مُعتدلة- بالتوقف ولف الشراع. وعند منتصف النهار بدأ الجزر. وعليه، بما أن الرياح وتيار الماء كانا في صالحنا، بدأنا نسير الآن بما لا يقل عن ثمانية أميال في الساعة.

## الوصول إلى البصرة

عند الساعة السادسة مساءً وصلنا إلى مصب خليج البصرة، الذي تبعد عنه الوكالة التجارية الإنكليزية في المدينة -التي تمّ إيصالنا إليها- ثلاثة أميال. وهناك استقبلنا وكيل الشركة السيد «هنري مور» المُبجّل، بمنتهى اللطف.

وفي النهر، بالقرب من خليج البصرة، شاهدتُ طرادات أو سُفنًا حربيّة تابعة لشركة الهند الشرقية، وهي كل من «ريفينج»، وهي فرقاطة مُزوّدة بـ(٢٦) مدفعاً، والطرّاد «إيجل»، وعلى متنه (١٦) مدفعاً، وأخيراً الطرّاد «سكسس»، فضلاً عن سفينتين أُخريين تحمل كل منهما (١٤) مدفعاً، تمّ تشييدهما في بومبي لصالح باشا بغداد، ويقودهما ضابطٌ صفٍ بحري يعمل موظفاً في الشركة، وعلى متنها عددٌ قليل

[ ١٥ ] رحلة أبراهام بارسونز ..... ١٤١

من البحارة الإنكليز. أما البقية فهم طاقم من الأتراك، لكنهم يحملون الرايات البريطانية. وشاهدتُ هنا أيضاً سفينتين تجاريتين إنكليزيتين من البنغال، وبضعة مراكب تعود لمسقط وأجزاء أخرى من الخليج الفارسي.

ومن الحلة إلى القرنة لا يرتبط نهراً الفرات ودجلة بأي مجرى، وليست هناك أي قناة تربط بينهما، وإنما يستمران منفصلين من منبعها حتى يتحدا عند القرنة، كما أوضحْتُ في أعلاه. وهذا يتناقض مع ما رسمه جغرافيونا في خرائطهم، ومع ما يؤكده مدونو التأريخ القديم؛ إذ لا يبدو أن لديهم أية معلومات دقيقة عن ذينك النهرين العظيمين، أو عن المُنْدن التي تقع على ضفتيها. ويبلغ طول [يقصد عرض] هذا النهر، الذي يُسمّى الآن «النهر العربي العظيم»، أكثر من نصف ميل من هذا المكان، الواقع ما بين شبه الجزيرة العربية والشاطئ الفارسي، أي من خليج البصرة إلى بلاد فارس.

## وصف مدينة البصرة؛ الضرائب التي تُدفع هناك؛ التجارة المستوردة إليها والمصدرة منها

### موقع البصرة

تقع مدينة البصرة على أرض منبسطة تبعد نحو ثلاثة أميال عن ضفاف النهر العظيم لشبه الجزيرة العربية، الذي يجري منه خليجٌ صغير داخل المدينة، وهو صالحٌ لملاحة سفن تبلغ حمولتها في أعالي البحار ما بين (٥٠-٦٠) طناً. وهي تقع على خط عرض (٣٠) درجة و(٤٥) دقيقة شمالاً، وخط طول (٤٧) درجة شرقي لندن، وتبعد نحو مئة ميل من الخليج الفارسي الذي يصبُّ فيه النهر، ونحو تسعين ميلاً عن القرنة،

أقصى نقطة في بلاد ما بين النهرين، حيث يتحد نهرًا دجلة والفرات.

وبسبب موقعها الملائم أصبحت محلاً لتجارة عظيمة، لأنّ التجار يستطيعون هنا شراء مُنتجات معظم أجزاء الهند وبلاد فارس وشبه الجزيرة العربية؛ إذ تقوم سفن تلك البلدان بنقل حمولاتها الثمينة من منشأها، أو من مصانعها، إلى هذا الميناء.

ونتيجةً لهذه المزايا يتوافد إلى هنا الكثير من التجار الأرمن واليهود، فضلاً عن الأتراك والمسيحيين، مواطنين وأجانب، ممّن يشترون على أساس العمولة، أو على حسابهم الشخصي بالمُضاربة والتقدير، ثم يعيدون البيع مرةً ثانيةً للتجار الأجانب الذي يأتون إلى هنا في أوقات معلومة للشراء. وغالباً ما يستخدم هؤلاء التجار الجيكيينات (١) الذهبية أو الفضية التركية أو الفارسية أو البندقية، ولكن التجار

---

(١) جيكين بالإيطالية: عملةٌ ذهبية تزن (٥, ٣) غرام من الذهب الخالص، كانت تُسك في جمهورية البندقية منذ سنة (١٢٤٨). وكانت تُسمّى دوكة (Ducat) في أول الأمر، نسبةً إلى كلمة دوق (Doge=دوق) البندقية، الذي كانت صورته عليها، وكانت تُسمّى (زينجينو) أيضاً، ثم أصبح اسمها (زكة=Zecca) منذ سنة (١٥٤٣)، حينما بدأت البندقية بسك عملةٍ فضية تُدعى (دوكة) أيضاً. وهذه الكلمة أي (Zecca) مشتقة من كلمة (سكة=Sikka) العربية التي تعني قطعة النقد المعدنية أو عملية سك تلك القطعة. وباللغة الفرنسية أصبحت هذه الكلمة البندقية تُلفظ بصيغة سكن (Sequin) بتخفيف الواو (سكين) أو (چيكين) بالجم الفارسية، ودخلت إلى اللغة الإنكليزية بهذه الصيغة. وكانت هذه العملة البندقية متداولة على نطاقٍ واسع في الدول المطلّة على البحر المتوسط، وفي منطقة الخليج العربي كذلك. فحينما ظهرت عملة السكين (زيجين) البندقية أول الأمر، سرعان ما قلّدتها الإمبراطورية البيزنطية بعملةٍ ماثلة باسم باسيلكون (Basilkon). وفي سنة (١٤٧٨) أخذت الدولة العثمانية تستخدم عملةً باسم سكين أيضاً. وفي



[ ١٥ ] رحلة أبراهام بارسونز ..... ١٤٣

القادمين من حلب يجلبون للبائع بضائع أوروبية (ولا سيما من البندقية)، ثم يعودون ببضائع ثمينة من شبه الجزيرة العربية وبلاد فارس. وكُلُّها تُنقل من البصرة إلى حلب، سواءً بالطريق المباشر عبر قوافل الجِمال، أو إلى بغداد عن طريق النهر أولاً، ومنها إلى حلب عن طريق الجِمال.

ومن بغداد تُرسل السلع التجارية إلى كل من سмирنا والقسطنطينية. ولكن معظم الأدوية تُرسل إلى الإسكندرونة، ومن هناك يتم شحنها إلى كل من لندن والبندقية وأمستردام ومرسيليا وليغورن، باستثناء البضائع التي تحملها القوافل من البصرة إلى حلب مباشرةً، بعد أن تُستهلك كمية قليلة منها في البصرة. أما البقية، وهي كميات هائلة، فتذهب إلى بغداد أولاً، ومنها إلى دمشق فالقسطنطينية (عن طريق أرضروم) وطرابزون في البحر الأسود، باستثناء ما يُستهلك في بغداد وتوابعها.

وباشا بغداد يتأكد دائماً من استلام الرسوم الكمركية مرّتين عن كل البضائع المرسلة من البصرة مقابل نسبة قدرها (٣٪) من الأوروبيين (الفرنجة) ونسبة (٨٪) من جميع الأتراك، أو الرعايا الأتراك أو الفُرس أو غيرهم من الآسيويين؛ إذ تُدفع

---

سنة (١٥٣٥) فعلت مالطا الشيء نفسه. وكلا العُمَلتين العثمانية والمالطية كانتا من الذهب. وفي ما بعد أصبح استخدام هذه العُملة سائداً لتزيين أزياء النساء، ولا سيما القُبعات ووشاح الوجه، وعلى الصدر ومنطقة الحَصر أيضاً دلالة على ثراء العائلة حينها انتشرت ظاهرة الملابس المزركشة. وهكذا اتسع مفهوم السكين ليشمل ذلك الطراز الخاص من الملابس أيضاً بعد أن كان يعني تلك العملة فقط. للتفاصيل انظر: The [Online] Dictionary of Coin

.Denominations

١٤٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

الضريبة الأولى في البصرة والأخرى في بغداد. ويتمّ تقدير قيمة هذه السلع بما تساويه من قيمة عند وصولها إلى أي مكان، باستثناء البضائع التي تنقلها القافلة من البصرة إلى حلب مباشرةً، التي لا بُدّ أن تدفع ضريبتين، واحدة عند الوصول والأخرى (وتُسمّى ضريبة بغداد) قبيل مغادرة القافلة. ولا يمكن لأية قافلة أن تغادر من البصرة إلى حلب دون تصريح من باشا بغداد، لكي يأخذ نسبته البالغة (٦٪) من الفرنجة، و(١٦٪) من سواهم، ونصف هذه الضريبة على ما تمّ استهلاكه من بضائع في البصرة.

ويحيط المدينة سورٌ وخذقٌ عميقٌ وواسع، ولها أربع بوابات وميناء للسفن. والأسوار مبنيةٌ من الطين، ويبلغ عرضها ما بين (٢٠-٢٥) قدماً، وفيها متاريس أمامية عالية ذات فتحات صغيرة للبنادق والسهام (فالعرب ماهرون برمي السهام). ولا تحيط هذه الأسوار المدينة من جهة اليابسة فحسب، وإنما من جوانب الرافد أيضاً الذي يبدأ من مسافةٍ بعيدة، حيث تنتهي الأسوار من كلا الجانبين. وكل طرف يحميه حصنٌ وبوابة تبعد عن المدينة ثلاثة أميال. وتنتشر في المسافة الممتدة بين البوابة والمدينة عدة آلاف من النخيل وغيرها من الأشجار المتداخلة مع الزرع في التربة. ويبلغ محيط الأسوار نحو (١٢) ميلاً. ومع أن نصف ما بداخل الأسوار غير مبني، إلا أن المدينة كبيرة، وكانت مُكتظةً بالسكان قبل طاعون سنة (١٧٧٣). والبوابتان الرئيستان كبيرتان، وهما على جهة اليابسة، وتُدعى الأولى «بوابة بغداد»، والثانية «بوابة الزبير»؛ ولا يحمي الخندق أياً منهما، فهو يبعد عن كل جانبٍ كثيراً. وحينما يمتلئ الخندق يغمر الماء أساس الأسوار، المبنى من الآجر المفخور؛ حينها يُسمح للماء بالدخول إلى الخندق

عند فيضان خليج البصرة، فتحبسه بوابات الفيضان.

وهناك ثمانية متاريس نُصِبَتْ على كُلِّ منها ثمانية مدافع نُحاسية زينة كل إطلاقة منها إثنا عشر رطلاً، إلى جانب خمسين مدفعاً نُحاسياً زينة كل إطلاقة منها ما بين (٦-٩) أرتال، وتحملها عربات نُصبت حول الأسوار. لكن هذه المدافع بدت وكأنها غير صالحة للإستخدام، ولكن حينما وصلت أنباء إقتراب الحصار الفارسي على المدينة، همَّ «المُتسلِّم» بإصلاحها بكل حماسة وأمر بتزويدها بالكثير من القذائف والبارود الذي يتمُّ تصنيعه في المدينة؛ فهناك كمياتٌ كبيرة من الملح الصخري في المنطقة المجاورة، فلا يستوردون البارود أبداً، وإنما يُجهِّزون الأماكن الأخرى به. وتقتصر التحصينات على كل جانب من جوانب مصب الرافد على هذه المتاريس الثمانية. وإلى جانب ذلك هناك بطرية مُكوَّنة من (١٢) مدفعاً نحاسياً مُوزَّعة على مقرات القائد العسكري التابع للباشا، وتبعد أكثر بقليل من مئة ياردة جنوبي مصب الرافد.

### المساجد والبيوت

والمساجد والبيوت [في البصرة] مبنيةٌ من الآجر المفخور، مثل مساجد بغداد وبيوتها، ولكنها ليست فخمةً جداً. لكن بيوت الأعيان والتُّجار كبيرةٌ ومريجةٌ، وتحتوي على طابقٍ واحد يعلو الطابق الأرضي، الذي يتكوَّن من قاعةٍ كبيرة مقابلة للباب، وعلى جانبيها مخازن ومستودعات لحزن البضائع. وفي أثناء فصل الشتاء تُستخدم هذه القاعة كَمَمَر أو شيء من هذا القبيل، ولكنها في الصيف تكون أهم جزء في البيت، حيث تلتئم العائلة لتناول العشاء، لأنهم لا يستخدمون السرايب مثل أهل

١٤٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

بغداد، وذلك لوجود الماء على عمق ست [ستة] أقدام في جميع أنحاء المدينة.

### الطقس في البصرة

الجو حار جداً خلال أربعة أشهر من السنة، حتى إنه يفوق حرَّ جو بغداد. وغالباً ما يقف مقياس درجة الحرارة بين (١١٢-١١٦) درجة فهرنهايت<sup>(١)</sup>، مع أنه يكون بارداً جداً في شهري كانون الثاني / يناير وشباط / فبراير، فيحلو للناس أن يجلسوا بالقرب من نارٍ هادئة.

والحمى شائعة جداً في الأشهر الحارة، لأنَّ الهواء يكون مُشبعاً بالروائح الكريهة المنبعثة من المياه الراكدة ومن الطين في الخندق، وهي لا تجف أبداً، وكذلك من المُستنقعات. وحينها ينقضي تيار المدّ ويدفأ الجو يبعث رافد البصرة رائحةً نِتنةً كريهةً.

### الوكالة التجارية الإنكليزية في البصرة

لدى شركة الهند وكالة تجارية في البصرة، وهي بناية كبيرة ومُريحة تقع على ضفة الرافد [يقصد العشار]، وتبعد عن مصبه ثلاثة أميال بالتهام والكمال، حيث تقوم سفنٌ، حمولة كل منها ثمانون طناً، بتفريغ وتحميل البضائع عند بوابة الوكالة. وعلى الجانب المقابل للشط حديقة جميلة عائدة للوكالة، وعلى بعد خمسة أميال من بوابة بغداد يقع منزل وكيل الشركة، وهو منزل ريفي بسيط، في مكان يدعى «المعقل»<sup>(٢)</sup>،

---

(١) يساوي (٤٤, ٤) و(٤٦, ٦) درجة مئوية.

(٢) كتبها الرخالة بصيغة «المرجل» (Margil)، وهي المعقل.

[ ١٥ ] رحلة أبراهام بارسونز ..... ١٤٧

ومنظره جميل عند الدخول إلى النهر العظيم [يقصد شط العرب] والخروج منه، فلا يبعد عن ضفافه سوى نصف ميل تقريباً.

وكل البضائع التي تجلبها سفن إنكليزية تدفع ضريبةً ومكساً<sup>(١)</sup> قيمته (٦٪) لشركة الهند الشرقية. وهذه الضريبة تتجاوز الضريبة التي تُدفع إلى باشا بغداد. وبما أن جميع البضائع الهندية تأتي على سفن إنكليزية فإنها تدرُّ في السنة مَبْلِعاً صَخِماً.

وغالبا ما تأتي قهوة [ميناء] مُحَا عبر سفن عربية تعود لمسقط، وكذلك معظم اللبان والأدوية الأخرى في شبه الجزيرة العربية. لكن يحدث أحيانا أن تقوم سفينة إنكليزية بنقل حمولة من القهوة من مُحَا إلى البصرة. أما البضائع الفارسية فدائماً تأتي عبر سفن فارسية.

وإلى جانب ما سبق ذكره من تجارة عظيمة لهذه المدينة، فإن معظم اللؤلؤ المُسْتَخْرَج من مصائد المحار في جزر البحرين سنوياً، في موسم محدد، يأتي إلى المنطقة عبر وكلاء البصرة، وينقل إليها مباشرة. ولذلك، فإن جميع البضائع الثمينة تُشترى من هناك ومن المُسْتَوَرَدَ ذاته.

### المُون والأغذية في البصرة

المُون في البصرة من الأنواع الجيدة جداً، وأسعارها معقولة، ولا سيما لحم البقر

---

(١) استخدم الرحالة هنا مفردة (Consulage) التي تعني ضريبة أو مكساً يَدْفَعُهُ التُّجَّارُ من أجل حماية تجارتهم عن طريق قنصل في مكان أجنبي. Webster, 1913.

١٤٨ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

ولحم الضأن والزُبدة، إلى جانب لحوم الجمال -والصغار منها تحديداً- التي يُفضّلها العرب (وهم غالبية السكان).

وتنتشر الجمال بأعداد كثيرة جداً في هذه المناطق، بحيث يتم إرسال بضعة آلاف منها إلى حلب وغيرها من أجزاء تركيا (دون أية حمولة) للبيع سنوياً. أما المسيحيون (مثل الإنكليز وغيرهم) فهم مُولعون جداً بأسنمة ثيران البيسون، التي تنمو في أعلى الجزء الخلفي من رقابها بين عظمي الكتف. فبعضها كبيرة بحجم أسنمة الجمال. وهذه الأسنمة من مزايا الأجزاء الشرقية والجنوبية من العالم. وأول الأماكن التي شاهدها فيها في شرقي تركيا كانت في بلاد ما بين النهرين قرب بغداد. وهي شائعة جداً في أنحاء بلاد فارس والهند كافة. وعموماً فإن هذه الأسنمة تُؤكل مُملحةً، وحينما يتم قطعها فإنها تشبه ضرع البقرة السمينة كثيراً من حيث الشكل والطعم، ومن الصعوبة جداً التمييز بينها.

وهناك بعض الأصناف الجيدة من الأسماك النهريّة، ولكنها ليست وافرةً جداً. وأفضل الأنواع سمك كبير اسمه «البُنّي»، وحينما تكون ناضجةً من حيث الحجم والشكل لا تختلف عن سمكة السلمون تزن بين (١٠-١٢) باونداً.

أما التمور فهي متوافرة في هذه المدينة وضواحيها أكثر من وفرتها في أي أجزاء أخرى من العالم، وهي الغذاء الرئيس لاعداد هائلة من السكان الذين يعملون في جمعه وتعليبه ونقله إلى أي ميناء ومكان في الخليج الفارسي والهند. وليس للفقراء غذاء أفضل من التمور، فهي مادة مغذية جداً.

والمنطقة الشرقية من البصرة، لأكثر من ثلاثين ميلاً جنوبي النهر، وبضعة أميال في العمق عبارة عن غابة كاملة من النخيل، وتبلغ الضريبة عليها (التي تعود لباشا بغداد بصفته سيداً على هذه الأرض) أكثر من مئة ألف تومان سنوياً (والتومان البصري يساوي ١٥ روبية، أو ٣٧ شلناً وستة بنسات إسترلينية).

والعرق المصنوع من التمور فائق الجودة، وسعره زهيد جداً. وفي أماكن كثيرة تنتشر مطاحن لطحن نوى التمر التي يصنعون منها الزيت، وبالعجينة المتخلفة منها يُطعمون الماشية والأغنام. ويتم هذا في ساحل شبه الجزيرة العربية وفي الخليج الفارسي وفي مسقط تحديداً، إذ إن سكان هذه المناطق يجدونه غذاءً مغذياً جداً. فمن ألياف النخلة يُغطون بيوت الفقراء في المدن والقرى الصغيرة المبنية من الخشب، في حين تُنزع سعفاتها لصنع السلال والزناويل.

وثمة طريقتان لحفظ التمور في هذا البلد، قبل أن تُؤكل أو تُعرض للبيع: الأولى هي الطريقة الشائعة في مصر، وعلى الساحل البربري في البحر المتوسط، وهي أن تُجمع قبل أن يكتمل نضجها تماماً، ثم تُجفف تحت أشعة الشمس. أما الطريقة الأخرى، وهي الأكثر استخداماً، فهي أن تُترك مُعلّقة على النخلة حتى تنضج تماماً (حينما تكون ناعمةً ولونها أحمر غامق) ثم تُكبس في زناويل حتى تندمج مع بعضها لتصبح مثل العجينة أو قطعة الحلوى. حينذاك تُقدر بسعرٍ أعلى، وتصبح حلويات غالية الثمن.

### الميدان والسراي

والميدان، أو الساحة الكبرى، كبير جداً، ولا يستخدم لتدريب الخيول فحسب،

١٥٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

وإنما كسوقٍ كبيرةٍ للحبوب أيضاً حيث تُباع الحنطة وكل أنواع الحبوب والبدور بالجملة. وعلى أحد جوانب هذا الميدان يقع السراي، أو قصر الحاكم، وهو واسع جداً، لكن بناءه ليس فخماً جداً.

وفي البصرة (وفي القسطنطينية كذلك) هناك قبطان باشا، أي سيد ساحل البحر من جهة الخليج الفارسي، وهو تابع لباشا بغداد لشؤون القوات البحرية والنهرية من البصرة إلى بغداد على نهر دجلة، ومن البصرة إلى الحِلَّة على نهر الفرات. وتدفع له جميع السفن التي تتاجر من البصرة وإليها (باستثناء السفن الإنكليزية) ضريبةً عن كل طن عندما تصل وعندما تغادر، مثل كل المراكب التي تتاجر بين بغداد والحِلَّة، أو ما بينهما. وحتى قوارب الصيد تدفع له ضرائب عاليةً جداً كل شهر.

وقد بلغ عددُ سكان البصرة قبل بدء الطاعون في نيسان / أبريل (١٧٧٣) أكثر من ثلاثمئة ألف نسمة، وفي شهر أيلول / سبتمبر اللاحق، الذي تَوَقَّف فيه الطاعون كُلياً، بلغ عددهم نحو خمسين ألفاً فقط؛ والبقية (باستثناء نحو إثني عشر ألفاً فرّوا) سقطوا ضحايا لضراوته. وفي هذه المرّة انخفض عدد السكان ليتراوح ما بين (٨٠ - ٩٠) ألف نسمة، رجالاً ونساءً وأطفالاً.

ويتم تعيينُ المُتسلِّم أو الحاكم والقبطان باشا والمفتي والقاضي وآغا الإنكشارية وشيخ العرب، الذين يشكّلون حاشية المُتسلِّم كلها، بأمر من باشا بغداد، لكنه لا يستطيع استبدال أي منهم؛ فهو يُعيّن ويستبدل بناءً على رغبة الموظفين الآخرين، العسكريين والمدنيين. ولكن أوامر التعيين في المناصب الدينية للجوامع، (والكنائس)



(١) تصدر من دائرة المفتي. أما القاضي، فبصفته رئيس العدالة، فإنه يقوم بتفحص ومراقبة سلوك القضاة في المدينة والضواحي التابعة لها. ويقوم زعيم العرب (أو الشيخ) بترؤس في الدعاوى المدنية والجرائم الصغرى التي تحدث بين مواطنيه. أما الجرائم الكبرى والإعتداءات، فُتُحال إلى المُتسَلِّم ومجلسه للتحقيق فيها، لكن يحدث في بعض الأحيان أن يُحَكَّم على شخصٍ بالإعدام بأمر من المُتسَلِّم دون هذه المحاكمة.

### الزبير

وتغادر جميع القوافل المُتَّجِّهة إلى حلب عبر بوابة الزبير، التي تُشكِّل الجزء الغربي من المدينة، وسُمِّيت بهذا الاسم نسبةً إلى مدينة «الزبير» التي تقع على بُعد (١٢) ميلاً من المدينة. وحينما يستعدون للرحيل يغادرون بشكل مجموعات، كبيرة أو صغيرة. وحالما يصلون إلى الزبير، تُنزل الحمولات من الجمال ويُتَظَر وصول القافلة بأكملها. وعند وصول كل مجموعة يقوم موظف في دار الكمرك بعدّ البالات والرُّزم الأخرى، ويقارنها مع عدد وكمية البضائع في كل رُزمة دَخَلت الكمرك، ثم يقرر الضريبة المترتبة عليها، لأنّه يملك نسخةً طبق الأصل من علاماتها وأعدادها. ولو انتابه أي شك بحجم أي رزمة أو مجموعة رُزم، فتحتوي على أكثر مما هو مثبت في حسابه، فمن حَقّه فتحها وفحصها. ولو كانت شكوكه في محلّها، تُدفع عن تلك البالات ضريبةً مضاعفة، وهذه هي العقوبة كلها.

---

(١) الأوقاس من وضع صاحب الرحلة.

١٥٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

وحينما تصل القافلة بأكملها إلى الزبير، يتمُّ ترتيب البضائع على الأرض بطريقة تُسهّل عملية عدّها. وحينما يصل مدير الكمارك (الذي يتمُّ تعيينه بأمرٍ من باشا بغداد) إلى خيمته وسط مظاهر التفخيم والتعظيم، يتمُّ عدُّ الرُزم مرةً أخرى، على أمل الحصول على هدية من أصحاب البضائع، والتي جُمعت مُسبقاً من كل تاجر، (طبقاً لعدد رُزم كل تاجر في القافلة)، فتُقدّم إلى مدير الكمارك الذي يأخذها دون مبالاة، ويُسلّمها دون أن يعدّها، (إذ تكون في كيسٍ، من الذهب دائماً) إلى أحد الخدم. وفيما بعد، يُطلّع على الحساب العام لمحتويات القافلة بأكملها، التي يكون مشاركاً فيها، ويُسلّمها إلى الكروان باشي، أو شيخ القافلة، الذي تُترك له حرية المغادرة حينذاك متى شاء، ويصبح السيد المطلق. وحينما تصل إحدى القوافل إلى الزبير قادمةً من حلب، فلا بد أن تنتظر حتى يصل الموظفون لعدِّ الرُزم، ثم يرافقون القافلة إلى دار الكمارك في المدينة.

## الحصار الفارسي للبصرة؛ ظاهرة طبيعية لافتة للإنتباه؛ الصفقات في البصرة؛ تقدّم الجيش الفارسي؛ تقدم الحصار؛ مغادرة البصرة

الأحد، ١٥ كانون الثاني / يناير (١٧٧٥): اليوم وصلت أنباءً من بوشهر في بلاد فارس تفيد أن جيشاً غادر شيراز (عاصمة بلاد فارس الحالية)، يزيد على خمسين ألف رجل بقيادة صادق خان (أخو كريم خان، العاهل الحالي لبلاد فارس)، وأنه في طريقه إلى البصرة بنية احتلال المدينة. وقد سببت هذه الأنباء هلعاً عظيماً بين الأهالي.

الخميس، ٢٦ كانون الثاني / يناير: في ليلة أمس قام ثلاثمئة رجل مُسلّح تابعون

لشيخ بني كعب (وهو أمير قرصان تقع مناطق نفوذه على الجانب الفارسي من النهر، بين البصرة والخليج الفارسي) بتسلق أسوار المدينة وزحفوا نحو السوق الرئيسة، ففتحو المخازن والمحال التجارية عنوةً وعادوا مُحَمَّلِينَ بغنائم هائلة من أجود البضائع الهندية. وكان [الحرس] مهملين جداً، فلم يكونوا يراقبون سوى البوابات. والأغرب من ذلك، لم تكن هناك بوابات تؤدي إلى الأسواق أو الشوارع كما في بقية اجزاء تركيا، ولا سيما في هذا الوقت الذي يمكن أن تُسمع فيه (طبقاً للأبناء) تقارير بإقتراب أي جيش لفرض الحصار عليها. على أية حال، من المؤكَّد أن هذه الحادثة ستجعلهم أكثر حذراً في المستقبل.

الإثنين، ٦ آذار / مارس: اليوم تعرَّض ثلاثة ضباط تابعين لطرادات الشركة (وهم من مجموعة الرماة على بُعد أربعة أميال جنوبي شط البصرة، على الجانب الفارسي من النهر) إلى هجوم شنه بضعة مسلَّحين، فجرحوا جروحاً بليغةً وتُركوا ليواجهوا الموت بعد أن جُردوا من ملابسهم، وُضرب أفراد طاقمهم بوحشيةٍ وجُردوا من ملابسهم أيضاً وتمَّ الإستيلاء على قاربهم.

وبعد أن ارتاح الضباط الثلاثة إلى أن حَلَّ الظلام، تعافوا وبدأوا بالمشي، بمساعدة الطاقم، على طول ضفاف النهر المقابل لسفنهم، وطلب لهم قاربٌ، فصعد الجميع على متنه بحذر وفي حالة يُرثى لها. ويخشى الجُراحون أن تكون جراح أحدهم مُميتةً لأنَّ الرمح اخترق رتيبه.

### غيمة سوداء كبيرة تغطي البصرة

الأربعاء، ١٥ آذار / ماس: عند الساعة الرابعة عصراً، كانت الشمس لا تزال مُشرقةً، وفجأةً حَلَّ الظلام، فاستولى دُعرٌ مُخيفٌ على كل أهالي المدينة، وبدأ الناس يتدافعون إلى الأمام وإلى الخلف في الشوارع، مُتعثّرين فوق بعضهم البعض، وهم مذهولون جداً، وخرَجَ الناس في البيوت بذهول، يتساءلون في ما إذا كان هناك أي كسوف، أو أنها نهاية العالم! وفجأةً اقتربت من المدينة السحابة السوداء التي سبّبت كُلَّ هذا الظلام الدامس، وسبقها هديرٌ عالٍ لم أسمع به في أشد العواصف أبداً. تلا ذلك إعصارٌ عنيف مصحوب بغبارٍ اقتلع الناس من الشوارع. وما أسعد من عثر على مأوى، أو كان في مأوى حينها، بينما اضطر التعساء إلى الانبطاح، وتعرضوا للاختناق، فقد استمرّت العاصفة عشرين دقيقةً كاملةً، واستمر الظلام الكلي نصف ساعة. وكان الإعصار شديداً والغبار دقيقاً جداً، حتى إنه غطى جميع غرف الوكالة التجارية البريطانية، مع أننا احتطنا مُسبقاً بإغلاق الأبواب والنوافذ وإشعال القناديل حالما بدأ الظلام.

وعند الساعة الخامسة والنصف انقشعت السحابة من المدينة، وأشرقت الشمس بسرعة، ولم يعد صوت الرياح يُسمع، وتبدّد الغبار، وعاد كل شيء إلى صفائه وهدوئه من جديد؛ فذهبنا نحن الإنكليز في الوكالة التجارية جميعاً إلى الشرفة، وشاهدنا السحابة قد مرّت كلها فوق النهر متجهةً إلّا بلاد فارس، وكانت تغطي مسافة عرضها ثلاثون ميلاً عن الأرض، ولكن لا يمكن تقدير طولها؛ إذ كانت تجري في الهواء بسرعةٍ مُذهلة، إلّا أنها استغرقت نصف ساعة فقط في عبور المدينة. وجاءت من الشمال-

الغربي، وتوجّهت نحو الجنوب-الشرقي مباشرةً.

وحالما تَحَطَّت السحابةُ سفنهم، جاء ضباط طوافات الشركة إلى الشاطئ وقالوا إن الرياح كانت عنيقةً جداً، وإن الغبار كان شديد النفاذ جداً، فلم يستطع أي منهم الثبات في مقعده، وبعد أن انقشعت السحابة كان الغبار قد غَطَّى كُلَّ مكان، داخل السفينة وخارجها، أيضاً. وقد روى أكبرُ المُعمِّرين في البصرة أن مثل هذه الظاهرة لم تكن معروفةً من قبل أبداً.

### طليعة الجيش الفارسي تصل إلى مصب شط الحويزة

الخميس، ١٦ آذار / مارس: تلقينا منذ الصباح أنباءً تفيد أن طليعة الجيش الفارسي قد وَصَلَتْ إلى مصب شط الحويزة، على جهة بلاد فارس (حيث مدينة اسمها «السويب»<sup>(١)</sup>، تبعد ستين ميلاً عن البصرة، ونحو ثلاثين ميلاً عن هذا الجانب من القرنة) مقابل جيش المراقبة الذي يقوده «الشيخ عبد الله»، وهو أميرٌ عربي قوي. وكان هذا الجيش قد انتشر هنا لمدة لعرقلة نزول الفُرس على هذا الجانب من النهر، ويُقال إن منظره كان فخماً، إذ كان يضمُّ عدداً كبيراً من الخيول، وكانت خيامه منصوبةً بشكلٍ منتظم. وقد علمنا من أطراف مختلفة أن قوة طليعة الجيش الفارسي تزيد على ثلاثين ألف فارس وراجل، ومن المُتَوَقَّع أن يصل الجيش بأكمله مع المؤخّرة والمدفعية، في غضون يومين.

(١) وَرَدَتْ في النص الأصلي بصيغة (Swab).

١٥٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

وبعد منتصف النهار وَصَلَ مبعوث يحمل رسائل القائد العام الفارسي إلى كُلِّ من المُتسلِّم والوكيل الإنكليزي والشيخ درويش (زعيم العرب)، وإلى زعماء الأرمن واليهود، يطلب فيها من كُلِّ واحد منهم أن يرسل مُمثلاً عنه للتفاوض بشأن دفع دِيَّةٍ للمدينة، لكن المبعوث عاد دون جواب من أي منهم.

### مُتسلِّم البصرة يسمح للجيش الفارسي بالتسلل دون اعتراض

الجمعة، ١٧ آذار / مارس: وَصَلَتْ أنباءُ هذا اليوم مفادها أن الشيخ عبد الله قد غادر موقعه، هو وجيشه، وترك الجيش الفارسي يعبر النهر بصورة غير منتظمة.

الإثنين، ٢٠ آذار / مارس: منذ السابع من هذا الشهر حتى اليوم وَرَدَتْ أنباءٌ متكررة مفادها أن الجيش الفارسي كان يعبر النهر على مهله، عبر عواماتٍ، لعدم وجود عدو يعيقه. وقد استغرب كثيرٌ من الأهالي، لأنَّ المُتسلِّم سَمَحَ لهم بنقل جيشهم دون اعتراض. على أية حال، يبدو لي من الواضح جداً أنه لم يكن يثق كثيراً في ضباطه أو المُقربين له بعيداً عن عينيه، لئلا يَتَخَلَّوْا عنه ويلتحقوا بالعدو. فإذا كان زعيم عربي مستقل، يملك جيشاً قوامه خمسة عشر ألف رجلاً أو أكثر، كلهم من المتطوعين، قد تَرَكَ موقعه دون أن يَطلِقَ طلقةً واحدة، فما يَتَوَقَّع من مرتزقة معظمهم ماجورون ومُجَبَّرُونَ على أداء الخدمة العسكرية، ولا يملكون أي شيء في المدينة أو سواها، ويتمنون التخلص من حبسهم داخل أسوار في أقلِّ إجازة للطعام؟

لم يكن المُتسلِّم شجاعاً جداً فَحَسْب، وإنما نشطاً ويقظاً أيضاً؛ فقد كان يقضي معظم يومه تقريباً على ظهر حصانه، في حركةٍ مُستمرّة يراقب ترميم الأسوار وعربات

المدافع ونصب المدفعية. ولكن لسوء الحظ، لم يكن ضباطه يؤازرونه من صميم أعماقهم. ولا يمكن وصف التصرف المتراخي لسيدته، باشا بغداد، بأنه عديم المسؤولية وغير قابل للتفسير فحسب، وإنما بأنه تصرف لا يُغتفر أيضاً لأن أهل بغداد سرعان ما سيهجرون المدينة دون تجارة مفتوحة مع البصرة، ومع أنه لم يكتفِ بإرسال إنذار بين الحين والآخر، وكرّر النصائح والتحذيرات لإرسال النجيدات أيضاً ولكن الوعود وحدها لم تُلبَّ حتى الآن، مع أنه يستطيع إرسال جيش قوامه عشرين ألف رجل من أكفأ الرجال، من بغداد والحلّة والحسكة ويضع مدن رئيسة أخرى، قادر على سحق الجيش الفارسي المكوّن من ستين ألف رجل والانتصار عليه. فلم يعد للفرس جيش نظامي منذ آخر صراع خاضوه من أجل عرش الإمبراطورية بعد مقتل نادر شاه، أو قلي خان. أما الجيش الحالي بقيادة صادق خان فكلهم رجال قليلو الخبرة وغير مُدَرَّبين.

وعليه أن يعلم أيضاً أن حامية البصرة لا تتكوّن إلا من (١, ٥٠٠) رجل، وأنها تعتمد كلياً على قوة بحرية بسيطة في النهر، لو كانت تحت قيادة مناسبة، فستكون كافية جداً لإعاقة أية تعزيزات أو احتياطات ترسلها بلاد فارس عبر الشط. ومن دون ذلك لا يستطيع جيشهم الصمود لمدة أطول، لأن المنطقة التي هو فيها لا تستطيع تزويده بالمؤن. وحتى لو افترضنا أنها تستطيع، فإنه لا يملك قوارب لنقل تلك المؤن أو المدافع والذخائر عبر النهر، الذي يبلغ عرضه ثلاثة أرباع الميل من هنا إلى المكان الذي يعسكر فيه جيشهم الآن، لا سيما مع وجود تيار قوي يجري لأكثر من (١٦) ساعة خلال (٢٤) ساعة. فإن لم يستطيعوا توفير بضعة قوارب كبيرة (لنقل مدافعهم)، فليس ثمة

ما نخاف منه لأننا لا نزال نَتَحَكَّمُ بالملاحة في النهر.

ويوم أمس أرسلَ الوكيل أحد زوارق الباشا إلى أعلى النهر للاستطلاع، لأنَّ التقارير حتى الآن لا يمكن الاعتماد عليها. وهذا الزورق مُزَوَّدٌ بـ(٢٤) مدفعاً، ويديره إنكليز، ويقوده ملازم أول إحدى الطرّادات. وقد أرسل فيه أحد رجال الوكالة التجارية، ألا وهو السيد أبراهام.

الثلاثاء، ٢١ آذار / مارس: عند الساعة الثالثة فجراً أصابنا دُعرٌ لدى سماعنا إطلاق مدفع على النهر استمر وقتاً طويلاً، وبعد ساعةٍ وصلَ مبعوثٌ مُستعجَلٌ يحمل أنباءً غير سارة مفادها أن (١٤) من مراكب [قبيلة] كعب قد اندفعت إلى أعلى النهر، ولم تلحظها طراداتنا إلا بعد وقتٍ طويل جداً.

### تواطؤُ بني كعب مع الفُرس

إن الفُرس وبني كعب في حالة خلاف دائم، لكن الأخيرين<sup>(١)</sup>، تغاضوا عن هذا الخلاف هذه المرّة أملاً في تقاسم نهب هذه المدينة الغنيّة مع الفُرس، وقد فعلوا ذلك بشكلٍ فاعل ونجحوا فيه نجاحاً رائعاً، فهُم يمتلكون المُوْن والذخائر على ظهر السفن، ويستطيعون الآن حمل مدافعهم الثقيلة عبر النهر أيضاً إلى جانب خيامهم وحيولهم وكل ما ستسنع لهم الفرصة بحمله خلال الحصار دون أدنى مضايقة، تحت

(١) في النص الأصلي ذكر المؤلف العبارة بضمير الجميع، وقال: «إنهم»، أي الفرس وبني كعب، لكنه بالتأكيد يقصد بني كعب حصراً، لأنه سرعان ما سيتذكر الفرس.



حماية البطريات التي نصبها الفُرس على ضفاف النهر، وهي أكثر من كافية لمنع قوتنا البحرية الصغيرة من عرقلتهم ومضايقتهم.

الأربعاء، ٢٢ آذار / مارس: ذَهَبَ الوكيل على ظهر الطراد «إيجل» منذ الصباح بعد أن أُرسلت الكنوز والنفائس على ظهرها مُسبِّقاً، لأنها أأمن مكان في الوكالة التجارية في هذه المرحلة الحرجة. وبعد الظهر عاد الطراد «سكسس» وأحد زوارق الباشا من مطاردة مراكب بني كعب، بعد أن استولى على أحدها وأحرقه وألحق الضرر بالمراكب الأخرى قبل أن يصل إلى المعسكر الفارسي الذي يبعد نحو ستين ميلاً عن البصرة، عند شط الحويضة، الذي سُمي بهذا الاسم نسبةً إلى مدينة هذا الاسم تقع عند رأس الشط في بلاد فارس. أما الزورق الآخر للباشا الآخر فقد عاد هذا المساء ورسا بعد جولة تحدّد ضد البطريات الفارسية المنصوبة على ضفة النهر. وحينما اقترب الزورق من المعسكر الفارسي، مُتوجّهاً إلى أعلى النهر، تساءل الفُرس عن وجهة طاقمه، وعن سبب عدم تأديتهم التحية للقائد العام، فكانت الإجابة أنهم متوجهون إلى أعلى النهر بقليل، وأنهم كانوا سيؤدون التحية له عند عودتهم.

ويوم أمس عند عودتهم، أمر الضباط الفُرس، نيابةً عن قائدهم العام، أمر الزورق بالمجيء إلى الساحل، وبما أن لديهم بطرية لا بد من إجتيازها، فقد وعدهم بالاستجابة لمطلبهم، لكنه لم يُسلم نفسه لهم، وألبس المدعو «رايلي» ملابسه وأرسله إلى الشاطيء مع أحد خدمه العرب بصفة مترجم، وأمره باتتحال شخصيته. وفي الوقت ذاته أرسل صادق خان رهيتين من الفُرس على ظهر السفينة. ولكن رايلي ما لبث أن

١٦٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

وَصَلَ إلى الشاطيء، سواءً بالخطأ أو عمدًا، ولكن الفُرس أطلقوا النيران على الزورق من البطرية، ومن جانبها أطلقت مراكبُ بني كعب النار من الجانب العربي من النهر. حينها رَدَّ الزورق على نيرانهم، وأسفر الإشتباك عن جرح رجلين.

الخميس، ٢٣ آذار / مارس: اليوم وَصَلَ مبعوثان من القائد العام الفارسي إلى المُتسلّم. ثم قاما بزيارة الوكالة التجارية البريطانية لمُقابلة الوكيل، الذي كان حينذاك على ظهر الطراد «إيجل»، ولكنه جاء إلى الشاطيء في الحال وأهدى إلى كل منهما صديريّة وعمامةً. ثم طالباه بعشرين لكاً<sup>(١)</sup> من الروبيات لإفْتداء المدينة، وإلّا فسيفتحمها القائد العام الفارسي بهجومٍ كاسح في غضون خمسة أيام بعد أن رابط أمامها مع جيشه. لكن المبعوثين عادا للمرة الثانية دون أن يُجاب طلبهما.

---

(١) لها تعريفان. فقد وَرَدَ لدى ابن منظور: اللك أو اللكا، صبغٌ أحمر تُصَبغُ به جلود الماعز للخفاف وغيرها. وقيل: لا يُسمّى لكاً بالضم إلّا إذا طُبِّخ واستُخرج صبغته. انظر: لسان العرب، ج ١٢، ص ٣٢٣. نقلاً عن: عبد الجبار ناجي وحسين داخل البهادلي، بغداد في كتابات الرّحالة العرب والأجانب من القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر الميلادي، بيت الحكمة، بغداد، ٢٠٠٣، ص ١١٧. أما الأستاذ عباس العزاوي فقد وَرَدَتُ الكلمة عنده كوحدة وزن. فقد ذكر: أن كل مئة ألف تنكة (صفيحة) من الذهب أو الفضة تُسمّى لكاً، إلّا أنه يعبّر عن الذهب باللک الأحمر، وعن اللك الفضة باللک الأبيض. وعن وزير المغول رشيد الدين فضل الله الهمداني أن السلطان خدابنده أعطاه جائزة قدرها خمسون تومانا عن تأليفه كتاب جامع التواريخ. وعندنا مقدار معروف نسميه اللك، وقدره مئة ألف من العدد. انظر: تأريخ النقود العراقية لما بعد العهود العباسية (٦٥٦-١٣٣٥هـ / ١٢٥٨-١٩١٧م)، شركة التجارة والطباعة، بغداد، ١٩٥٨، ص ١٣٨، ١٤٠.

واليوم استفسرتُ من الوكيل في ما إذا كان هناك خطر من أسطول المراكب الفارسية الذي يحاول صعود النهر لمساعدة جيشهم، ولجلب تعزيزات جديدة من الرجال والذخيرة والمؤن الاحتياطية. فأجابني بقوله لا شك أن أسطول الفرس أكبر من أسطول بني كعب، ولكنه كان سيحاول أن يشق طريقه كما فعل أسطول بني كعب سابقاً، وأنه يأمل أن يكون ضباط البحرية يقظين جداً لمنعهم، وهم يستطيعون القيام بهذا الآن بشكل أفضل من ذي قبل، لأنَّ إثنين من زوارق الباشا المسلَّحين قد انضموا إليهم بأمر من القبطان باشا، وسيكونان تحت إمرة ضباط بحريتنا بالكامل، ومن أجل هذا رفعنا الأعلام البريطانية؛ حتى أن كلاً منها كان يحمل ثمانية مدافع، وما بين (٨٠-١٠٠) رجل، وكميةً كبيرةً من الذخيرة الحربية. فأخبرته أنني لا أشك مطلقاً بيقظة وشجاعة ضباطنا ورجالنا، إلا أنهم، بمساعدة عتمة الليل والرياح المعتدلة والمد الطافح، يمكن أن يشقوا طريقهم بخسارة بسيطة كما فعل الآخرون، وأن هذا يمكن أن يتمَّ بشكل فاعل، كما اقترحْتُ، لمنع ما حدث، عن طريق نصب جسر من القوارب الكبيرة (وفي الشط عددٌ كافٍ منها) للتقدُّم نحو شمالي خليج البصرة بقليل، بمحاذاة الشاطيء الفارسي مباشرةً، حيث يتمُّ تأمينها في ذلك الجانب بمرساةٍ كبيرة وحبلٍ غليظ أو حزمة حبال تكفي لمد السلسلة تماماً؛ ولو وافق على ذلك، فسأريه خطة كيفية تأمين القوارب أكثر، لتحقيق الهدف المنشود. ثم أريته الخطة، فوافق عليها، وفي الحال أخبر بها المتسلَّم الذي وعدَّ بتجهيز ما يمكنه من قوارب، لكل منها مرساتان أو

١٦٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

خطافان (طبقاً لرغبتى). ولحُسن الحظّ، صادف أن كان على متن الطراد «سكسس» سلسلة حديدية كبيرة طولها سبعين قامة<sup>(١)</sup>، فذهب ضباط بحريتنا للعمل دون تأخير، واعتقد أنني سأنتهي من الجسر في غضون يومين.

الجمعة، ٢٤، والسبت، ٢٥ آذار / مارس: كان ضباط بحريتنا ورجالنا نشطين جداً في تثبيت المرساة والسلسلة والحبال، وجلب القوارب إلى مراسيها الملائمة، لنصب الجسر، أو بالأحرى الحاجز، (لأنّ توفير العدد الكافي من القوارب لم يكن ممكناً لإغلاق ما يكفي وترك مسافات فارغة بين قارب وآخر، والحقيقة أن هذا لم يكن ضرورياً)، لأنّ مُقدّمة كل قارب كانت مسحوبةً تحت السلسلة، وهناك يُربط بإحكام، وعلى بعد نحو ستين قدماً يوضع قارب آخر، وهكذا عبّر النهر، سواءً تحت السلسلة أو الحبال الغليظة. وفي الوقت ذاته تُمدُّ مراسي أو حبال أخرى من مؤخّرة كل قارب، ومراسي أو حبال من مُقدّمته، لتمكينه من مقاومة التيار (سواء كان مداً أو جزراً) دون إجهاد المرساة التي تُثبّت بها السلسلة والحبال بحمولاتٍ ثقيلة. وقد قدّم رجال القبطان باشا، وبإشرافه، المساعدات اللازمة للتعجيل بتنفيذ الخطة، ولم يكفّ ضباط بحريتنا عن العمل أبداً حتى تمّ إنجازهم مساء اليوم، وسط ارتياح كُّل حريص على حماية البصرة. واقتنعنا الآن بأنّ الجيش الفارسي لا بُد أن يرحل فوراً دون تجهيز المزيد من المدافع والذخيرة الحربية والمؤن.

---

(١) القامة: وحدة مقياس لعمق المياه يساوي ست أقدام.

الأحد، ٢٦ آذار / مارس: منذ الثالث والعشرين من هذا الشهر وصلتنا تقارير مختلفة، يقول بعضها إن الفرس حَقَّقُوا تَقَدُّمًا بَطِيئًا، ويقول بعضها الآخر إن نصف جيشهم قد عَبَرَ وبدأ يُنظَّم صفوفه على هذا الجانب من النهر، لأنَّه لم يواجه أية إعاقة. وأظن أن التقرير الأخير صحيح. وأضاف التقرير أيضاً إنهم كانوا ينقلون خيولهم دائماً عندما يكون تيار النهر هادئاً، ونقلوا المدافع عبر المراكب، وأنزلوا معظمها على هذا الجانب، وكل شيء يبدو مُحْتَمَلاً. لكن ليس ثمة ما يستدعي الخوف منهم دون أن يكون لديهم تعزيزات وتجهيزات حربية ومُؤَن، ونحن لا نزال نسيطر على النهر لمنعهم من تدمير الجسر، لأنَّ جواسيسهم لا بد وأن يصلوا إلى النهر، وضباط بحريتنا يَقْظُونَ جداً لمنعهم من ذلك.

في هذا اليوم تناولنا العشاء، أنا والسيد «جرين»، على ظهر الطراد «سكسس»، ثمَّ تَوَجَّهْنَا إلى متن الطراد «إيجل»، وإلى زورقي الباشا، وإلى المركب الذي استولى عليه الطراد «إيجل». ويبلغ طول هذا الطراد (٨٤) قدماً، وعرضه (٢٤) قدماً، ويحمل عشرة مدافع، زنة القذيفة الواحدة منها ستة أرتال، ويشبه زورق الوهري اللندني<sup>(١)</sup>، ومُقدِّمته مُحزَّمة أو مُغلَّفة، وله صارٍ واحدٍ طويل فقط مائل نحو الأمام، به شراع مربع، ويحمل (٢٤) مجذافاً. وعند المساء، بدأ الطراد «سكسس» بإطلاق النار بأمرٍ من الوكيل، فاحترق، واحترق ضابطه بشكلٍ مرعب، نتيجة سوء إطلاق النار لتجريب

(١) الوهري: مركب أو زورق خفيف.

البارود، ويُحشى أنه لن يتعافى.

الإثنين، ٢٧ آذار / مارس: اليوم عاد الجندي «رايلي» من المعسكر الفارسي، ويقول إن معظم جيشهم الآن على هذا الجانب من النهر، وإن القائد العام لا يزال على الجانب الفارسي، وإنه يبلغ تحياته للوكيل، وبما أن المعسكر الفارسي كُله يعرف أن رايلي يُمثله، فقد عومل باحترام، ولدى مغادرته أُهدي إليه حِلّة شرف. ويقول إن الجيش الفارسي جرّار ويملك كمياتٍ كبيرةً جداً من الذخائر والمؤن الحربية، ولكنه لا يملك سوى القليل من المدافع الكبيرة. وقَدّم الوكيل الهدايا للأسيرين الفارسيين (اللذين تمَّ إحصارهما حينما زار رايلي والمترجم معسكرهما)، وأعادهما وهما راضيان. وهكذا رَدَّ الجميل للقائد العام الفارسي.

### الشيخ طعمة يُصمّم على مقاومة الهجوم الفارسي

وَوَرَدَ في تقارير اليوم أيضاً أن الشيخ طعمة، وهو أميرٌ عربي قوي (يسكن مع قبيلته الهائلة العدد عند حدود النهر، إلى بضعة أميال فوق المنطقة التي خِيَمَ فيها الفُرس على هذا الجانب)، وقد أبلغ المُتسلّم أنه لن يكتفٍ بقطع ضفاف النهر حالما يجد الفُرس مُصمّمين على الزحف لحصار المدينة فَحَسب، وإنما سيُعرقل أي مجموعة مُغيرة من التسلُّل إلى المنطقة بهدف التزوّد بالمؤن أيضاً. ويقول الأهالي هنا إنه يستطيع تنفيذ وعوده.

الأحد، ٢ نيسان / أبريل: وَرَدَ في تقارير اليوم أن الشيخ عبد الله (وهو الشيخ ذاته الذي تَرَكَ موقعه في ١٧ آذار / مارس)، قد عاد مع خمسة عشر ألف عربي إلى

الزبير (التي تبعد عن البصرة نحو ١٢ ميلاً)، ووعده بمساعدة المتسلم في الدفاع عن المدينة. وأنه، بدلاً من إغراق المنطقة بالماء، وصل المدينة صباحاً ومعه أسلحة وقوة من نحو ثلاثمئة رجل وفارس. وقيل إنه لا يزال هنا مع صديقه ونسيبه الشيخ درويش، زعيم عرب البصرة.

الإثنين، ٣ نيسان / أبريل: اليوم وصل نحو مئتي إنكشاري من بغداد، وأبلغونا أنهم جاءوا إلى هنا في قارين تركوهما في [قرية] عزرا<sup>(١)</sup> (على بعد بضعة أميال شمالي القرنة، على نهر دجلة)، ومن هناك ساروا نحو القرنة، ثم ركبوا قواربهم مجدداً، ونزلوا في الصحراء العربية، وساروا إلى البصرة. وكانوا يحملون رسائل من الباشا إلى المتسلم يطلب فيها منه إلا يبتس ولا يحزن، لأنه سيرسل له تعزيزات كافية لطرد الفرس قريباً جداً. ومع ذلك، وبما أن الأخيرين سيطرون على النهر من هنا حتى القرنة، فإنهم سَيتمكّنون، بسبب تفوق أعدادهم، من قطع الطريق أمام أية إمدادات، باستثناء ما وعد بها الباشا، والتي لا تُعلّق عليها آمال كبيرة، لأنه لم يرسل سوى عددٍ قليل من الرجال.

الثلاثاء، ٤ نيسان / أبريل: وصلت أنباءً من مسقط مفادها أن أربع سفن

---

(١) كتبها الرحالة بصيغة «عزرا» (Ezra)، وهي قرية العزير في منتصف الطريق تقريباً بين القرنة وقلعة صالح. ويقول عنها علي الشرقي «إنها بلدة ميسان الشهيرة ودجلتها دجلة البصرة أم البطائح». انظر مقالة: «أشهر مدن البطائح الحالية»، لغة العرب، الجزء (٩)، السنة (٥)، (١٨٧٧)، ص ٥٣٥-٥٣٩.

١٦٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

إنكليزية وصلت إلى هناك قادمةً من الهند في طريقها إلى البصرة. وعن طريق رسائل وصلت الهند عبر السفن، وصلت أنباء مفادها أن قوات شركة الهند في بومبي تمكّنت من انتزاع مدينة تانا من ماراتّاس، بهجومٍ كاسح. وفي أثناء الحصار قُتل ناظر البحرية السيد واتسون، وقُتل معه ضابطان برتبة زعيم، ونحو ثلاثين ضابطاً آخرين وعددٌ كبير من الجنود، وتم تأسيس وكالة تجارية إنكليزية هناك. وتانا هي عاصمة جزيرة تدعى «سالسيت»، وتبعد خمسة عشر ميلاً عن بومبي. والجزيرة بأكملها الآن تحت سيطرة قوات الشركة.

الأربعاء، ٥ نيسان / أبريل: اليوم أرسلَ صادق خان أحد الضباط وبضعة مرافقين للتفاوض مع زعيم العرب الشيخ درويش. وأبلغ الشيخُ والمتسلّمُ تحياتهما إلى القائد العام، وأحاطاه علماً بأنهما كانا هنا.

الخميس، ٦ نيسان / أبريل: عند الساعة السادسة صباحاً لاحت طليعة الجيش الفارسي. وفي نحو الساعة السابعة بدأنا نشاهد آلافاً مؤلّفةً من الفرسان والمشاة من شرفة الوكالة التجارية. وعند الساعة العاشرة توقّفوا وبدأوا بنصب خيامهم على بُعد نحو ثلاثة أميال عن بوابة بغداد. وعند الساعة الخامسة مساءً كانت خيامهم قد غطّت مساحةً واسعةً من الأرض، ويبدو أنهم نصبوها كلّها ليتوقفوا عن العمل هذا اليوم. وقد وصلَ معسكرهم إلى المقر الريفي للوكيل في المعقل، الذي يبعد نحو خمسة أميال عن البصرة، فبدأوا بنهب وسلب أبوابه وشبابيكه وأثاثه. وأطلق صادق خان إشاعةً أنه سيحتل المدينة في غضون خمسة أيام. وعند الساعة الثامنة صباحاً توجّه كلّ من



الوكيل والسيد أبراهام إلى الطراد «إيجل».

الجمعة، ٧ نيسان / أبريل: عند الساعة الحادية عشرة صباحاً وصلت مؤخرة الجيش الفارسي، وبدأت تُعسكر بالقرب من الطليعة بطريقةٍ بدا من خلالها المنزل الموجود في المعقل مُطوّقاً بالخيام، التي غَطَّت رقعةً من الأرض عُرضها نحو ثلاثة أميال، وطولها نحو خمسة أميال. وكان منظرهم لا بأس به، ولكننا لا نعلم، ولا حتى نستطيع، تخمين عدد أفرادهم.

### بداية الأعمال العدائية بين الفُرس والآتراك

وعند منتصف النهار تقريباً جاء أربعة فرس من المعسكر على خيول جميلة، واقتربوا من الأسوار متظاهرين بالشجاعة، ثم تقدّموا على مهلٍ وبقوا ضمن ثلاثين خطوةً منها، وألقوا نظرةً على الموجودين فوق الأسوار بثقةٍ ودون مبالاة، وكأنهم أصدقاء. وفي نحو الساعة العاشرة أو الثانية عشرة سُمِحَ للرجال بالنزول من ركن الحصن (الذي اقترب منه الفُرس)، فنزلوا. وفي اللحظة المناسبة جداً، بينما كان الفُرس يمسكون لجام خيولهم، قتلوهم كلهم. واقتادوا ثلاثة من خيولهم إلى المدينة، أما الخيول الأخرى فقد أُصِبت بعياراتٍ نارية، ولكنها لم تُقتل، فبقيت مع الرجال، ولكن أياً منها لم تُسرق. وهذه هي بداية الأعمال العدوانية العدائية بين الفُرس والآتراك.

السبت ٨ نيسان / أبريل: مرّت ليلة أمس دون أية منغصات، فالأسوار مُجهّزة بالرجال بشكلٍ جيد، والمراقبة جيدة، إذ لم يُسَمَح لأيّ قادرٍ على حمل السلاح

١٦٨ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

بالإنصراف، فكانوا جميعاً منذ الليل على الأسوار التي نُصبت بالقرب منها خيامٌ وأكوأخٌ حول المدينة بأسرها، لحمايتهم من احتمال تردي الطقس. وفي نحو الساعة التاسعة صباحاً قامت قوة استطلاع تابعة للعدو، قوامها ثلاثمئة فارس على خيولهم بالاستعراض حول الأسوار، ولكنها تَجَنَّبَتْ إطلاق نيران من المدافع. وكانت معنويات الأهالي هنا مرتفعةً، العرب والأتراك؛ فلا أحد يمشي أو يأكل أو ينام إلاّ وسيفه ودرعه بيده، فضلاً عن أن جميع الرجال كانوا يحملون بنادق ومسدسات ورماحاً أخرى.

#### عدد سكان البصرة قبل الطاعون وبعده

ويقال إن العدد الحالي لسكان البصرة يبلغ تسعين ألف رجل وإمرأة وطفل، يُفترض أن بينهم نحو خمسين ألف رجل وشاب قادرون على حمل السلاح ومن المُؤكَّد أن عدد السكان قبل الطاعون (الذي جاء من بغداد في نيسان / أبريل ١٧٧٣)، كان لا يقل عن ثلاثمئة ألف نسمة، لم يبقَ منهم، حينما تَوَقَّف الطاعون سوى خمسين ألفاً.

في نحو الساعة التاسعة صباحاً لاحَ لنا ستة عشر مركباً فارسياً تصعد النهر مع اعتدال الرياح وكانت أشرعتها مُشَرَّعة، لمهاجمة سفننا. واستمرَّت في صعود النهر حتى الساعة الثالثة بعد الظهر، حتى أصبحت على بُعد فرسخٍ واحد من طرّاداتنا. حينذاك، أرخى آملونا الحبال، وقام الطرّادان «إيجل» و«سكسس» وزورقا الباشا بمطاردتها بأشعةٍ ملفوفة، أجبرت الفرس على مغادرة المكان والتواري عن الأنظار فوراً، باستخدام الأشعة والمجاديف، لأنَّ الرياح كانت ضعيفةً. وقد ضَمَّ أسطولهم

سفينةً بصاريين تدعى «تايغر» (انتزعوها من الشركة قبل نحو ستين)، وخمسة  
مراكب كُلُّ منها تحمل عشرة مدافع، وعشرة مراكب أخرى تحمل كل منها ما بين (٦-  
٨) مدافع.

وعند الساعة الرابعة عصراً تجولنا أنا والوكيل وإثنان من موظفي الوكالة  
التجارية حول الأسوار حتى مصب الشط، ورأينا طراداتنا على بُعد فرسخين إلى  
الجنوب منا، ولكن مراكب العدو كانت على مرمى بصرنا. فإلتقينا بالمتسلم وبكثير من  
ضباطه الذين كانوا يقومون بدوريات حراسة في المكان، وبدا مسروراً من تصرف  
قوتنا البحرية الصغيرة، وأخبر الوكيل أنه لو أراد منع العدو من الإقتراب من الماء،  
فلن يخشى شيئاً، لأنه هو وأتباعه الشجعان سيمنعونهم من الإقتراب برأ، فوعده  
الوكيل بذلك. وبهذا التأكيد شعر الحاكم العجوز الطيب بالسرور والحبور، وابتهج  
المرابطون على الأسوار، واستعدوا جيداً لاستقبال العدو استقبالا حاراً.

أما الأكواخ والسقائف الكثيرة القريبة من الأسوار فقد ملأتها النسوة اللاتي جئن  
بكل أنواع المؤن والفواكه للبيع، وكنَّ يجهزن الرجال بالطعام نهراً، ويرجعن إلى  
بيوتهن ليلاً؛ فلم يكن يُسمح لأي رجل بمغادرة الأسوار سواءً أثناء النهار أو في  
الليل، ونُصبت الخيام للبعيدين عن المكان ليناموا بالقرب من الأسوار.

ومساء اليوم كُنَّا مسرورين جداً من الوكالة التجارية، على أمل أن لا تحاول  
المراكب العودة مجدداً، لأنهم عرفوا إستعداد رجال بحريتنا للبدء بالهجوم، وفكرنا  
قليلاً في سبب عدم انقراض الفرس على المدينة حتى الآن، ولكن، ويا لدهشتنا، في

نحو الساعة الثانية من صباح ...

## الهجوم الفارسي على البصرة

الأحد، ٩ نيسان / أبريل: ... تمّ إيقاظنا من النوم وأبلغنا أن الفرس أنقضّوا على الأسوار وتسلّقوها من خمسة أماكن مختلفة، مع أن الظلام كان حالكاً، فلا القمر ولا أية نجمة تُرى في السماء. إلّا أن الوكيل وكل رجال الوكالة (باستثناء الشبان الذين اضطروا للبقاء من أجلي)، نهضوا على الفور وبذلوا كل ما بوسعهم للتوجه نحو مصب الشط. وفي طريقنا كانت النسوة يلقين الطوب والأحجار علينا من سطوح منازلهم، مع أننا طلبنا منهم بالعربية أن يكفّن، وإننا إنكليز. فأجبنا: «كذابون، أنتم عجم بملايس إنكليز». ولكن بما أن الظلام حالك ولم نستطع رؤية بعضنا على بعد أربع ياردات، فقد اضطررنا للفرار من هذا النزال، وحالفنا الحظ كثيراً في النجاة دون أن تُصاب رؤوسنا بضرباتهن، مع أننا تلقّينا الكثير من تلك الضربات على أذرعنا وأكتافنا، بقيت آثارها لبضعة أيام.

ومع استمرار تقدمنا كانت حالة الهياج المزعج بين المهاجمين والمدافعين عن الأسوار مستمرةً، دون أن تتوقّف، وصاحبها إطلاق نيران البنادق والمسدسات وصليل السيوف. ولم تُطلق قذيفةٌ مدفع واحدة على أي جانب، إذ استمر الاشتباك بالأيدي لأكثر من ساعتين.

بقينا نسير نحو ساعة من الوكالة التجارية إلى مصب الشط، حيث شاهدنا مواطنينا يُجيّون الطرّاد «إيجل»، وطلبوا إرسال قارب إلى الشاطيء. من جانبنا، شاهدنا

ما بين (٢٠٠-٣٠٠) عربي على كل جانب من جانبي مصب الشط، كان بعضهم مُسلَّحاً بالبنادق، والبعض الآخر بالرماح والتروس، وبعضهم بالمسدسات والحِراب، وهؤلاء هم جنود الباشا الذي كانت مهمتهم منع العدو من دخول الشط (الذي يجري في قلب المدينة). والحق إنه هو وضباطه ورجاله كانوا يقظين وحذرين في تأدية مهمتهم ليلاً ونهاراً.

وعلى جهة اليمين من مدخل الشط شاهدنا قلعةً فيها ثمانية مدافع مُنكَّسة، وعلى الجانب المقابل ثمانية مدافع أخرى مُتَّجهة إلى الأعلى وعبر النهر. وشاهدنا على الجهة اليسرى بطريةً لأربعة مدافع تشرف على مدخل الشط. وإلى الأسفل بنحو مئة ياردة ثمة بطرية مزدوجة لإثني عشر مدفعاً في صَفَّين، تُدعى بطرية الباشا، يجاورها منزله ومنازل ضباطه ورجاله. وبالقرب منها بوابة ليخرجوا من المدينة في الوقت المناسب. وهناك بوابة أخرى بالقرب من القلعة، على الجهة اليمنى من مدخل الشط، تسمح بالدخول إلى المدينة، وعند القلعة تنتهي أسوار المدينة على ذلك الجانب. لكن كلتا البوابتين صغيرتان جداً، ويمكن تسميتها بوابتين خلفيتين.

وَصَلَ قارب الطراد «إيجل»، فصعدنا على متنه جميعاً. وطوال هذا الوقت كان الهجوم على الأسوار والدفاع عنها مُستمرّاً. وبعد وقتٍ طويل من الإبحار، حتى الرابعة والنصف فجراً، هدأ كل شيء تماماً. وحينما طلع النهار بدأنا نرى، من خلال الرجال والأعلام المرفوعة على الأسوار، أن أصدقاءنا لا يزالون صامدين، بعد أن أزاحوا العدو، كما هو مُتوقَّع، فلا يمكن أن يكون هناك أكثر تهوراً وطيشاً من محاولته

١٧٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

هذه، التي لا يمكن أن يُشجع القائد العام الفارسي على القيام بها سوى ظلام الليل الدامس وجيشه الجرّار، الذي يستطيع التضحية ببضعة مئات من رجاله، وربما كان يريد أن يتأكد من يقظة وشجاعة مُتسلّمنا كما يذكر التقرير؛ فَوَجَدَه كذلك، ولكن على حسابه.

وعند الساعة السادسة صباحاً ذَهَبْتُ إلى الشاطيء مرةً أخرى مع ثلاثة من رجال الوكالة؛ فحزمتنا مفارشنا وبعض المستلزمات الضرورية الأخرى ذات الاستخدام الفوري، وأرسلتها على متن الطراد «إيجل».

وعند الساعة الثالثة بعد الظهر تَجَوَّلْتُ وحدي في الخارج، وسمعتُ بأنَّ معظم العرب والأترك الذين إلتقيت بهم كانوا يلعنوني ويلعنون رفاقي الإنكليز، قائلين إن الوكيل الإنكليزي هو السبب الوحيد لكل مشكلاتهم الحالية. وكانت معنويات الجميع عاليةً؛ فقد أخبرني كل مَنْ إلتقيت به، مسيحياً كان أم تركياً أم يهودياً، بأنهم دافعوا دِفاعاً باسلاً ليلة أمس، في هجومٍ استمرَّ ثلاث ساعات متواصلة، قُتل فيه أكثر من ثلاثمئة فارسي كانوا يتسلَّقون السلام، إلى جانبٍ واحدٍ وعشرين سُمِحَ لهم بالتسلق أمام متاريس الأسوار فقط، فتسلَّلوا خفيةً حتى تمَّ الإيقاع بهم وأُعدِموا في الحال.

لا نستطيع تأكيد عدد القتلى بالقرب من الأسوار أو حولها، لأنَّ الفُرس قاموا بإخلائهم قبل طلوع النهار. أما في ما يخصَّ المدافعين، فقد ذكرتُ أن عدد القتلى والجرحى لم يتجاوز ثلاثين شخصاً. وبقيت رؤوس الواحد والعشرين فارسياً، الذين

سُجِبُوا مِنَ السَّلَامِ عَلَى الْأَسْوَارِ، مَكشُوفَةً طَوَالَ النَّهَارِ. وَشَاهَدْتُ إِثْنَيْ عَشَرَ مِنْهَا عَلَى بَوَابَةِ بَغْدَادِ، وَتَسَعَةً عَلَى بَوَابَةِ الزَّبِيرِ. إِنَّهُ لَمَنْظَرٌ مَثِيرٌ لِلدَّعْرِ وَالقَّرْفِ أَنْ تَرَى الْوَحْشِيَّةَ وَالْبَرْبَرِيَّةَ الَّتِي عُوْمِلَتْ بِهَا تِلْكَ الرُّؤُوسَ الْمَيْتَةَ؛ فَنَادِرًا مَا يَمُرُّ رَجُلٌ إِلَّا وَغَرَزَ رِمْحَهُ فِي تِلْكَ الْوُجُوهِ، مُسْتَحْدِمًا شَتَى صَنُوفِ السَّبَابِ وَالْإِهَانَاتِ الَّتِي لَا تَجِدُهَا إِلَّا لَدَى أَصْحَابِ الْعُقُولِ الْمُتَدَنِّيَّةِ فِي مَعَامِلَةِ عَدُوِّ مَهْزُومٍ مَغْلُوبٍ عَلَى أَمْرِهِ.

عِنْدَ السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ وَالنِّصْفِ امْتَطَيْتُنَا خَيْولَنَا، أَنَا وَأَرْبَعَةٌ مِنْ مَوْظِفِي الْوَكَالَةِ التِّجَارِيَّةِ، وَتَوَجَّهْنَا نَحْوَ بَوَابَةِ بَغْدَادِ، وَمِنْهَا إِلَى بَوَابَةِ الزَّبِيرِ، ثُمَّ بِجَانِبِ دَارِ الْقَبْطَانَ بَاشَا مَبَاشِرَةً، وَإِلَى مَصَبِ الشُّطِّ، وَكَانَ مَسَارُنَا طَوَالَ الطَّرِيقِ -الَّذِي بَلَغَ طَوَلُهُ عَشْرَةَ أَمْيَالٍ كَامِلَةً- بِالْقُرْبِ مِنَ الْأَسْوَارِ.

### مُتَسَلِّمُ الْبَصْرَةَ الشَّيْخَ عَبْدِ اللَّهِ يَلُودُ بِالْفَرَارِ

مَا إِنْ سَمِعَ الشَّيْخَ عَبْدِ اللَّهِ بِأَنَّ الْفُرْسَ شَنُّوا الْهَجُومَ، حَتَّى لَازَ بِالْفَرَارِ، تَارِكًا وَرَاءَهُ أَعْدَادًا كَبِيرَةً مِنَ الْمَاشِيَّةِ وَالْأَغْنَامِ وَالْمَاعِزِ وَكَمِيَّاتٍ كَبِيرَةً مِنَ الْحُبُوبِ. وَكَانَ مُرْتَبِكًا جَدًّا، حَتَّى أَنَّهُ تَرَكَ جَمِيعَ أَوَانِي الْمَطْبَخِ خَلْفَهُ، وَخَيْمَتَهُ مَنْصُوبَةً، وَالْحِجَالَ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ لِنَقْلِهَا، وَالَّتِي شَاهَدَهَا جُنُودُ الْاِسْتِطْلَاعِ الْفُرسِ، وَنَقَلُوهَا إِلَى الْقَائِدِ الْعَامِ الَّذِي أَرْسَلَ مَجْمُوعَةً مِنَ الْفُرسَانِ لِلْاِسْتِيْلَاءِ عَلَيْهَا كُلِّهَا قَبْلَ أَنْ يَشِيْعَ خَبْرُ فَرَارِ عَبْدِ اللَّهِ فِي الْبَصْرَةِ، مَعَ أَنَّ مَعْسَكَرَهُ لَا يَبْعُدُ عَنِ الزَّبِيرِ سِوَى إِثْنَيْ عَشَرَ مِيْلًا. وَبِهَذَا الْمَكْسَبِ حَصَلَ الْفُرسُ عَلَى إِمْدَادَاتٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْمُؤْنِ كَانَتْ سَتَكْفِي جَمِيعَ أَهَالِي الْمَدِينَةِ كُلِّهِمْ مَا لَا يَقِلُّ عَنْ شَهْرَيْنِ، وَالَّتِي، يَا لِلْخِزْيِ وَالْعَارِ، كَانَتْ تُنْقَلُ إِلَى مَعْسَكَرِ الْفُرسِ عَلَى

١٧٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةٍ أجنبيّة

مرأى الناس الذين كانوا على أسوار البصرة، وقيل إن هناك عدة آلاف من الخراف والماعز والحملان، وعدة مئات من رؤوس الماشية والجمال، وكانت الأخيرة كُلُّها مُحمَّلة بالحنطة والشعير والتبن والحيام والأكسية والمفروشات وأثاث المطبخ. لذا، فإن مجيئه إلى الزبير، بجيشه ومؤنّته، يبدو أمراً مُتفقاً عليه مُسبقاً بينه وبين القائد العام الفارسي.

وصلت هذه الأنباء إلى دار القبطان باشا، بينما كُنّا ننتظر قارباً يقلُّنا إلى الطراد «إيجل»؛ فلم يصدق الأهالي هنا، ولا سيما العرب، بالتقرير، مع أن مراسلين اثنين أقسما بنبئتهما بأنهما رأيا بأم عينيهما عملية النقل كُلُّها من الأسوار، لأنها كانا في مهمةٍ بالقرب من بوابة بغداد، وأنها أرسلت لإحاطة القبطان باشا علماً بالأمر. وأضافا قائلين إنها يعتقدان أن الحرس المرافقين وصلوا في هذا الوقت إلى المعسكر الفارسي.

وبينما كُنّا نجول بخيولنا حول الأسوار، شاهدنا منظراً مهيباً، وهو أن عدة مئات من الأعلام كانت ترفرف عليها، والبنادق والحراب والرماح مُوجَّهة نحوها، ويحيط بها الرجال إحاطةً تامّةً، حتى فاق عددهم عدد الرجال في المدينة.

### موقف الأهالي الأرمن واليهود والآباء الكراملة من الهجوم الفارسي

وعلى مسافة قليلة داخل الأسوار شاهدنا خيام الأرمن واليهود الأغنياء الذين بقوا مع خدمهم مُسلَّحين طوال الليل والنهار، وكُلُّهم مُزودون بكل المستلزمات الضرورية، لأنّ المُتسلّم منعهم من زيارة منازلهم دون إذنه. وبدا كل مَنْ على الأسوار مُندهِشاً لرؤية آباء الدير الذي تأسَّس هنا، والتابع للرهبان الكراملة المُبجلين؛ فهؤلاء



لم يكونوا فرحين فحسب، وإنما قالوا بأنهم مُصمّمون على المقاومة بأقصى قوتهم، وأنا أصدقهم حقيقةً.

وعند بوابتي بغداد والزيير رابض أكثر من خمسمئة رجل، ونحو مئتي رجل على كل معقلٍ من المعاقل الثمانية التي كان كُلُّ منها مُزوِّداً بثمانية مدافع نُحاسية، تحمل كل منها قذيفةً تتراوح زنتها بين ستة أو تسعة، أو إثني عشر رطلاً. وعند الساعة السادسة والنصف ذهبْتُ إلى الطرّاد «سكسس». والليلة هُداً كُلُّ شيء، على الشاطيء وعلى النهر على حد سواء.

الإثنين، ١٠ نيسان / أبريل: كان كل شيء هادئاً حتى الساعة التاسعة ليلاً، حينما لاحظت زوارق الباشا، الراسية قُربَ جسر القوارب على الجانب الفارسي، بعضُ الرجال على الشاطيء وهم يطلقون النار عليها، مباشرةً بعد أن شاهدنا أقرب قارب إلى الشاطيء يستعد لإطلاق النار. وبعد نصف ساعة شاهدنا قارباً آخر بالقُرب من الجسر، قادماً من قرية على الجانب الفارسي، ويستعد لإطلاق النار كذلك. فأطلق الطرّاد «سكسس» والمركبان النار عدّة مرات نحو القرية، التي ظلّت تحترق لمدة ست ساعات متواصلة. ولم يلحق احتراق القوارب أي ضرر بالجسر؛ فعندما احترقت على الماء لم تغرق لأنها كانت فارغةً، مع أن ملئها بالماء كان سيبيقي السلسلة طافيةً مع مستوى الماء، لمنع عبور أي قارب.

## جزيرة چلبي

الثلاثاء، ١١ نيسان / أبريل: لُوِحِظَ عند الفجر أن السلسلة كانت بمستوى الماء،

١٧٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

أي بين القارب الثالث والشاطيء، لأنَّ القارين الأوليين كانا يدعمان السلسلة جيداً لإعاقة الملاحه، مع أن أجزاءهما العليا احترقت.

وعند الساعة السادسة صباحاً شاهدنا أحد المراكب الفارسية على جانن جزيرة «چلبى»، فتصوّرنا أنه جاء للاستطلاع لأننا كُنّا نعرف أن الأسطول بأكمله كان يقترب، وأن الأوامر صدرت لرفع المراسي. وعند منتصف النهار رفع الطرادان «إيجل» الذي كان الوكيل والقنصل على متنه، و«سكسس» (الذي كنتُ فيه) مراسيهما، وتبعهما زورقا الباشا ومراكبه. فنزلتُ النهر عند الجُزر، حينما كانت رياحٌ معاكسةً. وفعل المركب الفارسي الشيء نفسه، وسرعان ما اختفى عن الأنظار جنوبي جزيرة «چلبى».

وعند الساعة الثالثة بعد الظهر عبرنا جزيرة «چلبى»، فشهدنا عند المرسى، وعلى مسافة نحو ثلاثة أميال جنوباً، (١٢) مركباً و(١٣) ترنكاً (علمنا يوم أمس أنها مُحمّلة بالرز وغيره من المؤن والذخائر، للجيش الفارسي). فبقينا على مسافةٍ منها، وحينما بدأنا تقترب أكثر بدأت المراكب والترنكات ترفع مراسيهما، واصطفّت المراكب في خط معركة. وعند الساعة الرابعة أطلق الأدميرال الفارسي عياراً نارياً نحو الطراد «إيجل»، فاعتبرنا ذلك إشارة للباقيين لبدء القصف المدفعي، إذ كانت جميع المدافع مُصوّبةً ضدّ كلِّ من «إيجل» و«سكسس». وعند الساعة الرابعة والنصف، وبعد أن اقترب الطراد «إيجل» منهم كثيراً ردّ على نيرانهم بمدفعه الجانبية، وأعقبه الطراد «سكسس» في ذلك.

وما إن أصبحنا ضمن مدى المدافع (كان أحد ملازمينا قد احترق خلال إخماده النار في أحد المراكب في ٢٦ آذار / مارس، وبقي يعاني من جروح خطيرة، وعملت أنا بدلاً منه)، حتى بدأ الفُرس يندفعون ضمن نطاق ضيق (وكان تيار الجزر قوياً، والرياح معاكسةً)، ويطلقون النار علينا بشكل متواصل، فَرَدَّ الطرادان «إيجل» و«سكسس» عليهم، وعلى جوانب مراكبهم. ومؤخرها، وبعد أن تلقينا ضربةً اخترقت شراع الصاري الأمامي لطرادنا، تلقينا ضربةً أخرى اخترقت صاري الراية، وضربةً ثالثةً اخترقت الدقل الإحتياطي الأوسط. ولم يعد بمقدور زورقي الباشا ومراكبه البقاء معنا، فقد ارتطم زورقاه بالأرض مرّتين. واستمر التراشق بالمدافع على كلا الجانبين بشكل سريع وقوي، لأننا لم نتمكّن من الإقتراب بما يكفي لاستخدام بنادقنا أبداً.

عند الساعة الخامسة والنصف أُصيب طرف عارضة الشراع العلوي الرئيسي بضربةٍ أطاحت به، وتقطعت الكثير من حبال الأشرعة والصواري، وأُصيبت فتحتان للمدافع في الدفة، وصُرَبَت قذيفتان الجانب الأيمن للسفينة واستقرّتا فيه، بين المدفعين الأماميين، فاحترق أكثر من نصف قطرها. وبعد ذلك مباشرةً فرّ الفُرس، وتم توبيخ البحّارة الأغبياء الكسالى، بعد أن أوثقهم بالحبال من أبحروا جيداً.

عند الساعة السادسة أصبحوا جميعاً قريبين من الشاطيء الفارسي، ورسوا بالقرب من الساحل، ورسونا نحن إلى جانبهم بالقدر الذي يَسْمَح لنا بالغوص في الماء. وفجأةً، بدأ إطلاق القذائف المدفعية بشكلٍ عنيف على بُعد إطلاقه مسدس،

١٧٨ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

معزراً ببنادقنا. واستمر القصف حتى الظلام، فتوقفنا كلانا في وقتٍ واحد، وكأنه اتفاق مشترك بيننا. ويبدو أن الفُرس حاولوا إصابة صاري طرادنا وعوارض أشرعته في هذا الاشتباك الأخير، لأنّ قذيفتهم - كما أظهر الفحص - لم تصب غطاء أي من الطرادين، وأن الصواري وعوارض الأشرعة نَجَتْ من الضرر، مع أن جبال الأشرعة والصواري تَصَرَّرت كثيراً. ومن المدهش والغريب أن أي رجل لم يُقتل أو يُجرح طوال ثلاث ساعات متواصلة من الاشتباك، سواءً على ظهر «إيجل» أو «سكسس». أما زورقا الباشا ومراكبه فلم تقترب بما يكفي لإطلاق ولو مُجَرَّد قذيفة واحدة طوال الوقت. ولم ترسو حتى تَوَقَّف إطلاق النار. بينما ألقينا نحن المرساة طوال الليل مع زورقي الباشا ومراكبه.

## المهارثة

الأربعاء، ١٢ نيسان / أبريل: شاهدنا منذ الفجر اسطولاً فارسياً عند مرسى شط «المهارثة»<sup>(١)</sup> (على بعد نحو ثلاثين ميلاً أسفل خليج البصرة)، على الجانب الفارسي من النهر، فجنح إلى الشاطيء، بالقرب منا تماماً.

عند الساعة السادسة صباحاً رفع الطراد «إيجل» مراسيه، وتبعه «سكسس» ومراكب الباشا وزورقاه، لأنّ الرياح كانت مُعتدلةً للعودة إلى البصرة. وكنتُ أمل أن نعود، ولكنني سُرعان ما أدركت العكس، لأنّ الطراد «إيجل» كان يتهيأ لمغادرة الشط

---

(١) وَرَدَتْ في النص بصيغة «المهرفة» (Harfah)، وفي الغالب يقصد «المهارثة».

[ ١٥ ] رحلة أبراهام بارسونز ..... ١٧٩

جنوباً، ومن المؤكّد أننا والآخرون سنتبعه، طبقاً لأوامر شفوية، قبل أن نرفع المرساة. أما الأسطول الفارسي فسينطلق عند فيضان المد إلى أعلى النهر دون أي اعتراض. وبالنتيجة، سيتمكّن الفرس من الإستيلاء على البصرة (لو ثابروا)، ولن يستطيعوا تحقيق ذلك طالما بقي الجسر محميّاً.

واصلنا الإبحار مع مجرى النهر، وكانت الرياح جنوبية - شرقية، والجو معتدلاً. وعند الساعة الثالثة من بعد الظهر شاهدنا ثلاثة مراكب فارسية تصعد النهر بشراع ملفوف. وحينما اقتربنا أكثر استدارت بهدوء إلى الشط بعيداً عنا. وبعد نحو ساعتين شاهدنا مراكب أخرى تصعد الشط، وحينما اقتربنا أكثر، أطلق أحدها إطلاقتين نحونا، ثم غيّر اتجاهه مع اتجاه الرياح وانحدر مع مجرى الشط، من أجل البقاء بعيداً في أثناء النهار. وعند الساعة الثامنة، بالتأكيد، ستكون تلك المراكب قريبة من الشاطئ، خارج مرمى البصر تماماً، وتلتحق ببقية اسطولها الذي كان يتكوّن آنذاك من ثمانية عشر مركباً حربيّاً وثلاثة عشر ترنكاً مسلّحاً. وفي غضون يومين آخرين (في أقصى حد) سيستطيع الجيش الفارسي نتيجةً لذلك، أن يحصل على إمدادات جديدة من المدافع والذخائر والمؤن الحربية.

### مغادرة البصرة ودخول الخليج العربي<sup>(١)</sup>. القرين

الخميس، ١٣ نيسان / أبريل: رفعنا مراسينا عند الساعة الرابعة صباحاً، وكانت

---

(١) التسمية من المترجم، فالمؤلف يستخدم تسمية الخليج الفارسي.

١٨٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

الرياح شماليةً - شرقيةً. وعند الساعة الحادية عشرة وصلنا إلى الحاجز. وعند منتصف النهار عبرناه تماماً إلى المياه العميقة، وأصبحنا في الخليج الفارسي. ويقول مرشدونا الملاحيون إن هذا الحاجز يبعد ما بين تسعين إلى أكثر من مئة ميل عن خليج البصرة، مع أن غيرهم يُقدِّرون المسافة بما لا يقل عن (١٢٠) ميلاً.

وعند الساعة الواحدة بعد الظهر تَوَقَّفَ أسطولنا حينما صدرت أوامر بإصلاح مراكب الباشا عند «القرين»<sup>(١)</sup> (وهي مدينة وميناء على الجانب العربي من الخليج، مُسْتَقَلَّةٌ عن البصرة، تبعد عن البر نحو ستين ميلاً إنكليزياً). فَقَمْنَا بتجهيز أحدها بِالْمُونِ والماء، في حين قام الطَّرَادُ «إيجل» بتجهيز المَرْكَبِ الآخر. وركب جميع الأتراك والعرب الذين كانوا على ظهر متن زورقي الباشا (وعددهم نحو مئة وثلاثين رجلاً) على ظهر هذين المَرْكَبَيْنِ، وأخذوا أماكنهم فيهما. وامتلاً الزورقان بالرجال من الطَّرَادَيْنِ «إيجل» و«سكسس»، وأبحروا معنا. ومنذ أن غادرنا شط الهارثة وانحدرنا مع مجرى النهر، كان عمق الماء لا يتجاوز قامتين، وفي بعض الأماكن أقل من ذلك. وعند الحاجز كان عمق الماء مُشَابِهاً، وكان قعره طينياً ناعماً؛ لذا فإن العواصف القوية تقذف السفن ذات الغاطس (١٥) قدماً دون أي ضرر، وفي أي وقتٍ من أوقات المد. ومع وجود رياح مُعتدلة، تذهب السفن ذات الغاطس (١٨) قدماً إلى البصرة وتأتي منها. أما بعد الحاجز فالتيارات ربيعية، وليس هناك غاطس أقل من (١٥) قدماً في

---

(١) الكويت حالياً.

أضحل جزء من النهر.

ونجبرنا مرشدنا الملاحى أن عرض مدخل النهر يبلغ ثلاثين ميلاً بالضبط، من الشاطيء الفارسى إلى الشاطيء العربى، بينهما ست قنوات، يتراوح عرض بعضها ما بين (٤-٥) أميال، وبعضها الآخر ما بين (٥-٦) أميال، وعلى الضفاف بين تلك القنوات لا يزيد أكبر عمق فيه على (٦-٨، أو ٩) أقدام عند المياه المنخفضة. ولا يزيد عرض أحد أقسام النهر على (١٢٠) قامة في أضيق جزء، أسفل خليج الهارثة بقليل؛ إذ تُوجد على الجانب العربى نقطة من البر تُدعى «أعمق نقطة للماء»، بالقرب منها نحو ثلاث قامات إضافية من الماء فوق ما هو موجود في أي قسم آخر من النهر. ومقابل هذه النقطة، في جهة بلاد فارس، هناك إلتواء أو خليج فيه مياه ذات مستوى مُنخفض جداً. في هذا اللسان الضيق يجرى تيار المدّ بضعف سرعته في الجزء الأوسع؛ فمهما بلغ الغاطس المائى لجميع السفن، فإنها تسعى للإقتراب من هذه النقطة كثيراً، لكي يدفعها رَدُّ فعل تيار المدّ القادم ضدها بقوة كبيرة، ولا سيما مع هبوب رياح خفيفة فوق النهر مباشرة، إلى الخليج الصّحل المُقابل. فأدرنا دَفَّةَ السفينة إلى أعلى الخليج من الجنوب إلى الجنوب - الشرقى. وعند الساعة الخامسة بعد الظهر قام الوكيل وموظفو الوكالة التجارية، الذين كانوا على متن الطراد «إيجل»، بزيارتنا على ظهر الطراد «سكسس».

الجمعة، ١٤ نيسان / أبريل: عند الساعة السادسة صباحاً شاهدنا إثنين من الترنكات؛ وكان قارب الطراد «إيجل» قد أرسَلَ لتعقب أحدهما، وقاربنا لتعقب الآخر، وكل منهما بجانب ترنكين. وكان هذان الترنكيان قادمين من بوشهر، في

طريقهما إلى القرين. ولكنهما تركا ليتابعا رحلتها.

عند الساعة الرابعة عصرًا انفصل الطراد «إيجل» وأحد زورقي الباشا عنّا، واتجها نحو الشرق والجنوب - الشرقي، لكي يتوجّها شمالي جزيرة خرج، وتوجّه الطراد «سكسس» مع الزورق الآخر إلى جنوبها. وكانت الرياح لهذا اليوم شمالية - شرقية.

### جزيرة خرج

السبت، ١٥ نيسان / أبريل: عند الساعة الثامنة صباحاً شاهدنا جزيرة خرج على بُعد خمسة فراسخ من الجنوب - الشرقي. وفي الوقت ذاته شاهدنا الطراد «إيجل» والزورقين على بُعد نحو أربعة فراسخ من الشمال - الشرقي. وعند الساعة العاشرة تحدّثنا مع [ركّاب] قارب قادم من بوشهر في طريقه إلى ميناء «بندر ديّلام» الفارسي، بالقرب من النهر الذي جئنا منه، فأبلغونا أن أربع سفن إنكليزية كانت راسيةً حينذاك في الطريق الداخلي لبوشهر، التي افترضنا أنها السفن ذاتها التي وصلت إلى مسقط من الهند، كما أشارت معلوماتنا.

عند منتصف النهار لاحت لنا جزيرة خرج على بُعد نحو ستة فراسخ نحو الشمال - الغربي، وبدت قمة «تل هليلة» من الجنوب الشرقي باتجاه الشرق. وهو تل عالٍ جداً، أو بالأحرى جبل، يشبه إلى حد كبير قمة جبل «تينيريف» (١): وقد علّمت

---

(١) جبل تينيريف: أكبر جبال الكناري، وأكثرها سكاناً، وأكبر جزيرة مأهولة بالسكان في إسبانيا أيضاً.



[ ١٥ ] رحلة أبراهام بارسونز ..... ١٨٣

أن بالإمكان مشاهدته على بعد ثلاثين فرسخاً، في نهارٍ صافٍ.

### مدينة بوشهر

عند الساعة الواحدة بعد الظهر شاهدنا مدينة بوشهر، ورأينا سفينتين، ومركباً وشوناً<sup>(١)</sup>، راسيين في الطريق.

عند الساعة الثالثة بعد الظهر تقدّمنا تدريجياً نحو تلك السفن والمراكب، حينها قام الطراد «دريك» (الذي كان في أعلى صاريته حبلٌ عريضٌ مُتدلّ كما في الطراد «إيجل» حينذاك بتحية «إيجل» بإطلاق ثلاثة عشرة إطلاقاً مدفع، فردّ له «إيجل» بالعدد ذاته من الإطلاقات. وكان السيد «روبرت جاردن»، أحد أعضاء المجلس في بومبي، على متن «دريك». أما السفن الثلاث الأخرى فقد كانت سفينةً من مَحَا، وسفيتين من سورات. وكانت الأولى مُحمّلة بالقهوة، والأخرى بالتوابل. وقيل إن حمولتها تساوي (١٥٠) ألف باون إسترلينياً. وكان على ظهر «دريك»، وعلى ظهر الشون (٥٥٠) بالةً من الملابس الصوفية الإنكليزية، تعود لشركة الهند. وعند الساعة الرابعة رسّونا عند طريق بوشهر.

### طاعون بغداد يجتاح البصرة

في نيسان / أبريل من سنة (١٧٧٣)، جاء الطاعون من بغداد إلى البصرة،

---

(١) الشونة: مركب شراعي بصاريين.

وَعَصَفَ بها بشدّة، فترك الوكيل وموظفو الوكالة التجارية المدينة، وركبوا على متن «دريك وتايغر»، وهما طَرَّادان تابعان للشركة، بهدف الذهاب إلى بومبي.

### تدهور العلاقة بين كريم خان الزند والإنكليز

وحينما علم العاهل الفارسي كريم خان، بمغادرتهم البصرة، ولأنَّ علاقته كانت سيئة معهم بسبب إقفال الإنكليز وكالتهم التجارية في بوشهر، التي كانت تستقطب كل التجارة الإنكليزية إلى البصرة، مما ألحق ضَرراً كبيراً بالفرس (وهو ما عزاه كله إلى الوكلاء الإنكليز)، أمرَ بعض المراكب التابعة له باستمکان الطرّادين ومباغتها. وقد تمَّ الإستيلاء على أحدهما، ويدعى «تايغر»، ويحمل ثمانية مدافع، دون أية مقاومة، لأنَّه أُخِذَ على حين غرّة، وكان على متنه السيدان «بيمونت» و«جرين»، وهما سيدان محترمان من موظفي الوكالة التجارية في البصرة حينذاك. ومع ذلك، كان الفرس متخوفين من مهاجمة الطرّاد «دريك» الذي يحمل أربعة عشر مدفعاً، والذي كان الوكيل وبقية موظفي الوكالة التجارية على متنه.

وقام الفرس باقتياد «تايغر» إلى بندر ريق، وأرسلوا مبعوثاً عاجلاً إلى كريم خان، الذي كان في شيراز، ليلغهم كيف يتصرّفون مع الرّجلين العائدين للطراد «تايغر»، فأمر بإرسال السيدين بيمونت وجرين إلى شيراز، وإبقاء البقية هنا.

ولدى وصول السيدين بيمونت وجرين إلى بندر ريق، أُخِذَا إلى منزل الحاكم، «الشيخ علي»، الذي عاملهما بلطفٍ وخصّص لهما خدماً وتجهيزات جيدة وكافية، ولكن عندما وصلَ جواب كريم خان تغيّر الأمر كثيراً، فقد اشتكيا من عدم حصولهما

على مؤنٍ كثيرة، ولا بنوعية جيدة.

### معاملة موظفي الوكالة التجارية الإنكليزية في شيراز

وفي رحلتها إلى شيراز عوملاً بشكلٍ مختلف تماماً؛ فبعد وصولهما إلى هناك أخذنا إلى البلاط الفارسي مباشرةً، وتم تعريفهما بالعاهل، الذي، في إثناء الحوار، كان يشاهد سلسلة ساعة السيد جرين مُعلّقةً خارج جيبه، فرغب برؤيتها، فقدمت له، ثم وضعها على إذنه. ولكن بدلاً من إعادتها إلى صاحبها، أعطاها لأقرب شخص في حاشيته، ليحفظها له. وكان السيد بيمونت مُطمئناً على ساعته، بل إنه لم يسأل في ما إذا كان يمتلك واحدةً أم لا. وفي ما عدا خسارة الساعة لم يفقدا أي شيءٍ آخر، وعوملاً معاملةً حسنةً من نواحٍ أخرى؛ إذ أمر الخان بأن تُصرف لهما يومياً حصةً قدرها سبع روبيات (١٧ شلناً وستة بنسات). ولأنَّ المؤن من كل الأنواع كانت جيدةً ورخيصةً، فلم يتدمرا. ثم استأجرا بيتاً، وقام الخدم بشراء المؤن وإرسالها لهما. وكان خمر شيراز ممتازاً ومعقولاً، لأنَّه مصنوع من عدة أصناف من الفواكه. ولأنَّها كانا يتمتعان بحرية التجوال متى وأينما يشاءان، فقد عاملهما الأهالي بلطفٍ واحترام، وقصياً وقتها بأفضل بكثير مما يتمَنَّى سجناء الحرب عادةً.

بعد إقامة استمرت نحو سنة في شيراز، تمَّ نقلهما إلى بوشهر؛ فأخذت الآمال تحدهما بأنَّ ينالا حريتهما قريباً، ولكنهما كانا مُحطَّين في ذلك، لأنَّ تحركاتهما كانت تحت المراقبة، مع أنَّها بقيا يتمتعان بالحصة ذاتها كما في السابق، وحرية التجول أينما يشاءان، لئلا يفران إلى البصرة بأحد القوارب الذاهبة إليها أو القادمة منها، لأنَّ زمناً

١٨٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

طويلاً كان قد مضى على وكالتنا التجارية منذ أن عادت من بومبي إلى البصرة. وأخيراً، في نهاية شهر أيلول / سبتمبر، وبعد استعطاف وتوسلات كثيرة وعود بالعودة، سمح حاكم بوشهر، الشيخ «نصّاح»، للسيد «جرين» بالتوجه إلى البصرة، لتسوية شؤونه وشؤون السيد بيمونت الخاصّة؛ إذ كان السيد بيمونت مسؤولاً عن عودة أصدقائه حالما تُنجز المهمة التي أرادها، والتي لكان قد تذرّ منها بلا شك لو لم يبدأ حصار البصرة. وبعد إنتهاء الأمور عاد قبل أن يكمل مهمته.

وصَلَ السيد «روبرت جاردن» إلى هنا في السابع من الشهر قادماً من بومبي. وفي اليوم ذاته أرسل مبعوثاً إلى شيراز يحمل برقيات من الحاكم وقنصل بومبي إلى العاهل الفارسي «كريم خان»، مع وعود لإعادة تأسيس الوكالة التجارية في بوشهر، والمطالبة بإطلاق سراح السبدين «بيمونت» و«جرين».

### الوكالة التجارية الإنكليزية في بوشهر

مضت نحو خمس سنوات منذ أن أوقفت الشركة وكالتها التجارية في بوشهر. وخلال السنتين الأخيرتين أبقت الوكالة على القليل من الأعمال التجارية، لأنَّ السُفن القادمة من الهند والمُتوجّهة إلى البصرة لم تكن تتوقف بشكلٍ مستمر في بوشهر في طريقها كما اعتادت أن تفعل. وقد عزا كريم خان هذا التغيُّر إلى وكيل الشركة في البصرة الذي كما علم كريم خان، أصدر أوامر إلى ربانته جميع السُفن القادمة من الهند إلى البصرة بعدم وضع أية بضائع على شاطئ بوشهر. ولهذا السبب كان كريم خان مُعتاضاً جداً من الإنكليز، وتُخوِّف المقيم في بوشهر حينذاك، السيد «مورلي»، أن يعامله

[ ١٥ ] رحلة أبراهام بارسونز ..... ١٨٧

الأهالي معاملة سيئة، ففرَّ ليلاً في قارب تابع لأحد طرادات الشركة. وكانت تلك الطرادات مُنتشرة في طريق بوشهر حينذاك، فنقله إلى بومبي. وتمَّ التفاوض عن كثيرٍ من المشاحنات، بتبادل رسائل بين الخان والوكيل، الذي لم يستطع أرضاء الخان، بحيث أعلن أنه سينتقم بتدمير البصرة لأنها تحتضن كل تجارة الهند مع الإنكليز (وتستثني بلده).

ومنذ سنة (١٧٧٣)، كان يعدُّ العُدَّة لوضع تهديداته موضع التنفيذ، وكان يسعى سعيًا حثيثاً لإغراق الأسواق بالسلع ليقتحم لفقراء البصريين الذين هجروا المدينة لصالح مَنْ كان واجبههم ومصالحتهم مساعدتهم بأقصى ما يستطيعون. فلو تآزروا، ما كان بإمكان قوة فارس كُفُّها انتزاع المدينة.



## رحلة صموئيل ايفرز من البصرة إلى البحر الأبيض المتوسط

سنة ١٧٧٩

### من البصرة إلى القرنة

الأربعاء، ١٠ آذار / مارس (١٧٧٩): عند الساعة الرابعة عصراً غادرنا البصرة مع أربعة سادة إنكليز في «مشحوفين» صغيرين<sup>(١)</sup>، ورافقنا مشحوف آخر يحمل كلاً من السيد «بيرفرد»، والفرنسي مسيو «بوريل دو بوغ»<sup>(٢)</sup>، وهما ينويان الإفتراق عنّا

(١) كتبها الرحّالة بصيغتها المحلية «مشحذوف»، ولكن بصورة مُحَرَّفة (Mussooks). والمشحوف واسطة لا يستغني عنها سكان الأهوار (المعدان)، يُصنَع من ألواح خشبية ومن قطع خشبية محفورة، مستوية في الوسط ومنحنية في الأطراف ومطوية من الخارج بالزفت. والمشاحيف على أنواع، منها: جلابية، وبركاشة أو داتق، وقعيدة، وطراة. عن وسائط النقل النهرية في العراق، انظر: ولفرد تيسگر، «المعدان أو سكان الأهواز»، ترجمة باقر الدجيلي، الموسم، العدد (٢٦) - ٢٧، ١٩٦٩، ص ٢٦٤ [٢٤٧-٢٨٢]؛ كاظم الدجيلي، «السفن في العراق»، لغة العرب، ج(٣)، رمضان ١٣٣٠هـ / أيلول ١٩١٢م، ص ٩٣-١٠٣.

(٢) ذكر الرحّالة الرائد جيمس كاپر أن الضابط الفرنسي مسيو بوريل دو بوغ تم إرساله إلى الهند، وأنه رجلٌ فضولي جداً. ولم نعثر على معلومات وافية عن سيرته. انظر: Ralph Griffiths, The Monthly Review, or: Literary Journal, (January-June, vol. LXX (70), London, 1784, p. 256. وعن رحلته إلى الهند عبر العراق، انظر: M. "Extra Ordinary Adventures of A French Officer [M.

١٩٠ ..... البصرة في خمس وعشرين رحلةً أجنبيّة

عند أول مكان تَتَوَقَّف فيه، فهما ليس من جماعتنا. فُقمنا بتحميل المُؤن، وهي سمك التونة ولحوم خنازير وبعض الأجبان والمشروبات الكحولية وغيرها من المستلزمات، ورافقنا ثلاثة من الخدم: أوروبي وأرمني من البصرة (وهو مترجمنا)، ويدعى «ريشة»<sup>(١)</sup>، وخادم حلبي للسيد «آبوت»<sup>(٢)</sup> كان يريد العودة إلى سيده. فتَوَجَّهنا بهذه المشاحيف نحو «القرنة»، التي تَوَجَّهنا إليها عبر نهر جميل جداً، ضفته مزدانتان بأنواع جميلة من النخيل. والمنطقة كُلُّها هنا ذات جمال أخاذ.

---

Borel de Bourge]; in: John Hope & Thomas Holcroft, The Westminster Magazine, or: The Pantheon of State, issue 139, London, 1784, pp. 24-26.

وذكر جيمس كاپر في رحلاته، التي زار خلالها البصرة مُتوجَّهاً إلى حلب، يوم ٢٤ كانون الأول / ديسمبر سنة (١٧٧٣)، أن عدد المسافرين الذين كانوا معه ستة مسافرين، من بينهم «مسيو بوريل دو بوع»، الذي تعرَّض للسرقه والإصابة بجروح على يد عرب الصحراء، وأنه أراد معرفة آخر الأخبار من أوروبا، وربما كان يريد التحدث مع شخصٍ سافر عبر الطريق الذي مرَّ به هو، فجاء وقضى الليلة في بيت الوكيل التجاري، فأخبره كاپر بأنَّ ما حدث له في الصحراء ليس غريباً عنه، وأوحى له بأنَّ يروي له ما حدث في الصحراء. أنظر: [James Capper], "Observations on the Passage to India through Egypt and across the De-sart [sic]"; in: W. Wood, The British Magazine and Review, or: Universal Miscellany, vol. iii, London, 1783, p. 371, [367-373];

وهذه هي الرحلة الأولى للسيد جيمس كاپر، أما رحلته الثانية (رحلة العودة سنة ١٧٧٨) فقد نشرت في كتاب آخر عنوانه: James Capper, Observations on the Passage to India through Egypt, also by Vienna and Constantinople to Aleppo and from thence by bagdad, and Directly across the Great Desert, to Bassora, London, 1785.

(١) وَرَدَ الاسم في النص بصيغة (Risha)، ولا يبدو أنه يُلفظ بطريقةٍ أخرى.

(٢) وهو السيد روبرت آبوت. أنظر: Sauvieur Lusignan, A History of the Revolt of Ali Bey against the Ottoman Porte, and Journal of Gentleman who Traveled from Aleppo to Bassora, by S. A., London, 1783, pp. 239-243, 254.



[ ١٦ ] رحلة صموئيل ايفرز من البصرة إلى البحر الأبيض المتوسط ..... ١٩١

## الوصول إلى القرنة

الخميس، ١١ آذار / مارس: في نحو الساعة العاشرة مساءً وصلنا «القرنة». ولدى تقديمنا رسالةً من السيد «لاتوش»<sup>(١)</sup> إلى الحاكم، استقبلنا الأخير بحفاوةٍ كبيرة.

وهنا حدث نزاع بين الفرنسي ومترجمنا، بسبب قيام الأول بضرب الثاني أمام الحاكم «حاتم آغا»<sup>(٢)</sup>، لأنّه قاطع حديثه على حد قوله. فاشتكى المترجم عند الحاكم الذي هدّد بمعاقبة «دوبوغ» لأنّه انتهك عاداتهم، ولكنه تغاضى عن الموضوع احتراماً للسيد «لاتوش». وبدورنا تمكّنا نحن، بعد جهدٍ جهيد، من إقناع المترجم بتناسي الموضوع. فأصرَّ الحاكم على دعوتنا إلى منزله، وبقينا نشرب معه طوال الليل تقريباً. ومن هنا استقلينا مشاحيف أخرى.

---

(١) ويليام جورج دييجز لاتوش (W. G. Digges La Touche)، (٢٨ آب / أغسطس ١٧٤٦ - ٧ تشرين الثاني / نوفمبر ١٨٠٣): المقيم البريطاني في البصرة، والابن الأكبر لجيمس من زوجته الثانية، ماتيلدا بنت ويليام توياتس. دخل مدرسة سان بول في لندن في ٣٠ آب / أغسطس (١٧٥٧)، ثم توجّه إلى البصرة مع المقيم البريطاني في البصرة مور، الذي أخلفه في منصبه. ساعد لاتوش الرحالة وكسب رضا الأهالي. وحينما احتلّ الفرس مدينة الزبير في سنة (١٧٧٥) افتدى أهلها على حسابه الخاص، فأنقذهم من الوقوع أسرى بيد الفرس. وخلال حصار البصرة في السنة ذاتها منح أعيان المدينة، مع زوجاتهم وعوائلهم، ملجأً في الوكالة التجارية الإنكليزية. وفي نحو سنة (١٧٨٤) عاد إلى دبلن وتوفّي فيها. للتفاصيل: W. Urwick, *Biographic Sketches of the Late James Digges La Touche, Dublin, [n. d.], p. 166.*

(٢) لم نقف على ترجمة له.

١٩٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

الجمعة، ١٢ آذار / مارس: قضينا الوقت في ذلك المكان نُخْرِج حاجياتنا من المشاحيف، ونُهَيِّئ الأمور الأخرى لرحلتنا. ثم انتهزنا الفرصة لإلقاء نظرة على هذا المكان الذي تَوَسَّط نهري دجلة والفرات؛ فالجانب الشرقي يغسله نهر دجلة، بينما يغسل نهر الفرات الجانب الجنوبي الغربي منه، فَيَتَشَكَّل «شط العرب».

## رحلة الأب دومينيكو سيستيني

### الإحتفال بالوصول إلى القُنة

والقُنة هي «دغبة»<sup>(١)</sup> لدى «بليني»، وهي تقع على إلتقاء نهر دجلة بالفرات. وقد أطلق بطليموس عليها اسم «أپاميا». أما اليوم فهي ليست سوى قلعة صغيرة يحكمها «آغا الإنكشارية» من حامية البصرة.

### شط العرب ونهرا دجلة والفرات

في هذا المكان تنتهي بلاد ما بين النهرين على شكل لسانٍ طويلٍ وضيِّقٍ للغاية من اليابسة. ونتيجة اندماج نهري دجلة والفرات يتكوّن «شط العرب»، وهو نهرٌ عريضٌ وعميقٌ يتّجه بمساره يميناً إلى «الخليج الفارسي». ويطلقُ عليه القدماء تسمية «باسيليكا» أي «النهر الإمبراطوري» بسبب عرضه وهيبته، بعد أن شهدَ اندماج هذين النهرين اللذين أود أن أقول كلمة عن منبعهما ومسارهما.

---

(١) وردت القُنة بتسميات أخرى في المدونات التاريخية؛ إذ وَرَدَتْ لدى الرومان في القرن الأول للميلاد بصيغة دقة أو دبغة. مشتاق طالب محمد، «مدن العراق القديم»، ص ٤٥ [المترجم].

فالشريقون، ومعهم بليني، يُسمّون نهر تايجر «دجلة»، أو «تايجرس» بسبب شدة جريانه. وكلمة «تايجرس» تعني في ميديا «السهم»، إذ تُخرُج مياهه متلاطمة من كهفٍ في شمالي ديار بكر، ويستقبل أعداداً كبيرةً من الأنهار، مكوّناً العديدَ من الجُزر، ويمرّ عبر بغداد القديمة والجديدة<sup>(١)</sup>، ويتصل بالفرات عبر قناة، ويتحدّ بهذا النهر في القرنة ويصبُّ في «الخليج الفارسي» جنوبي البصرة، بعد أن قطعَ في مساره مسافة أربعمئة فرسخ.

أما نهر الفرات فيقال أنه ينبع من فرعين في أرمينيا، وهما «مراد» و«فرا». و«مراد» هو الأعنف، ويأتي من جبال «آلا»، ويستقبل أعداداً كبيرةً من الأنهار، ويكوّن العديدَ من الجُزر، ومياهه تُزوّد قنوات مختلفة، ويتصل بنهر دجلة عند القرنة فيشكّلان معاً ذراعاً عريضة<sup>(٢)</sup> من البحر تصب في «الخليج الفارسي».

## الوصول إلى البصرة والإقامة فيها

تبدو بلاد ما بين النهرين جنة نعيم لمن يأتون إليها عبر الصحراء، فسواحلها مُغطّاة بالنخيل، وصورة الخضار فيها تُبهر العيون. فإن كانت «الجنة الأرضية»<sup>(٣)</sup> هنا

(١) تقع بغداد القديمة في جانب الكرخ، أما بغداد الجديدة فتقع في جانب الرصافة [المترجم].

(٢) لا شك أن المقصود هو شط العرب [أ.ع.].

(٣) تؤكد الروايات القديمة على أن هذا المكان (أي مُلتقى نهري دجلة والفرات عند القرنة) هو موقع الجنة الأرضية. ويُقدّم المؤرخ تشارلز تومسون، بعد أن يصف مختلف الآراء عن موقعها، إشارة تضع عدن على موضع إلتقاء نهري دجلة والفرات، الذي يُسمّيه العرب «شط العرب»،

[ ١٧ ] رحلة الأب دومينيكو سيستيني ..... ١٩٥

كما يُزعم، فمن المرجح أن آدم كان يعيش هنا. وأعتقد أحياناً أن مَنْ يمرون بلسان الأرض هذا يجدونه أكثر راحة ممَّن يعيشون فيه.

بعد أن دفعنا الرسوم وقَدَّمنا هديةً بسيطةً للقائد، واصلنا طريقنا ليلاً بعد أن هَبَّت علينا رياحٌ شمالية.

في الساعة الحادية عشرة صباحاً وصلنا أمام «قناة البصرة». وتبلغ المسافة بين إلتقاء النهرين خمسة وسبعين ميلاً، ومن البصرة حتى بداية «الخليج الفارسي» تسعين ميلاً. وقد جعلتني تلك المنعطفات الكبيرة في نهر دجلة أعتقد أنَّ المسافة من بغداد حتى إلتقائه بنهر الفرات عند القرنة تبلغ أربعمئة وخمسين ميلاً.

شاهدنا في ميناء البصرة الكبير سفينة شحن إنكليزية من «بومباي»، وسفینتين تركيتين جاءتا من سورات، وعدداً كبيراً من الزوارق العربية من أنحاء الخليج.

### الإقامة في بيت السيد لاتوش

أعارتنا سفينةُ الشحن زورقها لنصعد به إلى أعالي «قناة البصرة» الضيقة، التي

---

أي «نهر العرب»، الذي يبعد عن البصرة رحلة يومين، وبعد نحو خمسة فراسخ يتفرع مجدداً إلى جدولين يصبان في الخليج العربي.

Charles Thompson, Travels [of the Late Charles Thompson]Containing His Observation..., vol. iii, (London, 1767), pp. 21- 23.

ولتفاصيل أكثر عن موقع اللجنة الأرضية والآراء التي قيلت بشأنها يمكن مراجعة كتاب العراق وملاحظات شرقية ...، ص ٦٤ - ٥٩. وكذلك ماكتبه الأب فيليب الكرمل في أثناء زيارته للعراق بين سنتي (١٦٤١ - ١٦٢٩) في كتاب رحلته المذكورة في أعلاه [أ.ع.].

١٩٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

يبلغ طولها فرسخاً واحداً، فنزلنا عند الوكالة التجارية الإنكليزية (١). وبعد العشاء دعانا المقيم لدى الشركة السيد «لاتوش» (٢) للمبيت في بيته الريفي المٌطل على القناة، والذي يبعد عن المدينة فرسخاً واحداً. وهو يعود للمقيم السابق السيد (فلاشو) (٣)،

(١) للتفاصيل عن هذه الوكالة انظر: رحلة ابراهام بارسونز ...، ص ١٢٤ - ١٢٣.

(٢) السيد لاتوش هو الوكيل البريطاني في البصرة، وقد عاضد سُليمان آغا لأنه كان صديقه ودائه في الوقت ذاته، إلى جانب كونه الوسيط الخاص في تحويل المبالغ العظيمة إلى استانبول. لونكريك، أربعة قرون ... ص ٢٤٣ [المترجم].

- وليام جورج ديجز لاتوش (W. G. Digges La Touche) 28 آب / أغسطس ٧ - ١٧٤٦ تشرين الثاني / نوفمبر ١٨٠٣): المقيم البريطاني في البصرة، والابن الأكبر لجيمس من زوجته الثانية، ماتيلدا بنت وليام توياتس. دَخَلَ مدرسة سان بول في لندن في ٣٠ آب / أغسطس (١٧٥٧)، ثم تَوَجَّهَ إلى البصرة مع المقيم البريطاني في البصرة مور، الذي أخلفه في منصبه. ساعد لاتوش الرحالة وكسب رضا الأهالي. وحينما احتل الفُرس مدينة الزبير في سنة (١٧٧٥) افتدى أهلها على حسابها الخاص، فأنقذهم من الوقوع أسرى بيد الفرس. وخلال حصار البصرة في السنة ذاتها مَتَّحَ أعيانَ المدينة، مع زوجاتهم وأسرهم، ملجأً في الوكالة التجارية الإنكليزية. وفي نحو سنة (١٧٨٤) عاد إلى دبلن وتوفي فيها [أ.ع.]. للتفاصيل: W. Urwick. Biographic Sketches of the Late James Digges La Touche, (Dublin, [n. d.], p. 166

(٣) لم يتأكد لدينا وجود هذا الاسم في دليل الخليج، وبدلاً منه كان وكيل مجلس شركة الهند الشرقية في البصرة هو السيد هنري مور الذي تولَّى المنصب خلال (١٧٧٦ - ١٧٧٥). وقد تَوَقَّفت أعمال المقيمة بسبب الطاعون من نيسان / ابريل (١٧٧٣) إلى كانون الثاني / يناير (١٧٧٤)، وتَوَقَّفت مرَّةً أخرى بسبب الحصار الإيراني للبصرة من نيسان / ابريل إلى سنة (١٧٧٦). وبعد ذلك تولَّى السيد وليام ديجز لاتوش مهام المقيمة خلال (١٧٧٨ - ١٧٧٦). وفي سنة (١٧٧٨) إنتهت وكالة المجلس، وحلَّت محلَّها المقيمة. لوريمر، دليل الخليج: القسم التاريخي، الجزء السابع، ص ٣٩٤١ [أ.ع.].

ويشمل مساحةً واسعةً من الأرض المزروعة بالنخيل.

وكان لدى الشركة الإنكليزية مُلكٌ خاص بها، إلا أن الفُرس قاموا بتدميره. ويمضي السيد «لاتوش» أوقات الصيف في الريف، فالبصرة تكون شديدة الحر في هذا الفصل وتُسبب الحمى.

ها قد وَصَلتُ رحلتي إلى نهاية المطاف. ولو لم يكن «حيدر علي» (١) في حالة حرب مع الإنكليز لرافقت السيد «سوليثنان» إلى الهند. إلا أن الحرب حالت دون ذلك، فضلاً عن إن العرفان بالجميل يدعوني لأن أكون قريباً من الشخص الذي أولاني رعايته في القسطنطينية.

---

(١) سلطان حيدر علي خان: (نحو سنة ٧- ١٧٢٠ كانون الأول / ديسمبر ١٧٨٢). كان الحُكْم الفعلي لمملكة ميسور الواقعة في جنوب الهند. سعى إلى التميز عسكرياً، مما جذب انتباه حُكَّام ميسور. وعندما وصل إلى منصب رئيس أركان كريشناراجا ووديار الثاني، أتاحت له الفرصة للسيطرة على حكومة ميسور، وتمكّن تدريجياً من التَحكُّم في جميع زمام السلطة. كما وسَّع حدود مملكته على حساب إمبراطورية مارثا ونظام حيدر آباد، فضلاً عن أنه كان واحداً من الحُكَّام المحليين القلائل الذين خففوا فعلياً الضمانات العسكرية لشركة الهند الشرقية البريطانية خلال الحربين الأولى والثانية بين الإنكليز وسلطنة ميسور. كما لُقِّبَ بعددٍ من الألقاب الفخرية، مثل السلطان حيدر علي خان أو حيدر علي صهيب اتسم حُكْمُه بالحروب المتكررة على جيرانه، والتمرد داخل أراضيه أيضاً، وكان هذا أمراً طبعياً آنذاك، إذ كان وضع معظم شبه الجزيرة الهندية مضطرباً. كان قائداً فطناً، إذ ترك لابنه طيبو سلطان مملكة كانت أكبر مساحة بكثير مقارنةً بالمملكة التي تولى زمام الحكم فيها في البداية [أ.ع.]:

### سُفن القراصنة الفرنسية تجوب سواحل الخليج

لم يكن السيد «سوليڤان» مُستعداً لمغادرة البصرة. فمِنذ أكثر من شهرين كانت هناك سفينتان فرنسيتان للقراصنة تجوبان «الخليج الفارسي»، ويبدو أنهما كانتا تنتظران السفينة حال خروجها من النهر. ويُقال أن هناك سُفناً أخرى في مضيق البحر الأحمر. أما من ناحيتي فلا يمكنني العودة بمفردي، فقد أموت عطشاً في تلك الصحراء الكُبرى. وكُنْتُ أنتظر الفرصة المناسبة والفصل الذي تَحْفُّ فيه شدة الحرِّ لأواصل طريقِي إلى حلب.

### الحُمى الثلاثية تَتَسبَّب في موت الكثير من الإنكليز في البصرة

في شهر تموز / يوليو بدأت الحُمى الثلاثية، فأصِبتُ بها، واستفحل أذاها مدةً طويلة، وظننتُ أني سأبقى هنا كل يوم تحت ظلال النخيل. لكن شفائي يعود لبُنيتي القوية وعناية طبيب الشركة. ولم يكن الحظ حليف الكثير من الإنكليز المرتبطين بالشركة، فهاتوا. وكان شفاء أحدهم باعثاً للأسى، فقد أحرقت الحُمى نخاع عظامه. ويُعدُّ هذا النوع من الحُمى من أخطر الأنواع، وربما يَتَسبَّب في موتك خلال أيام قلائل، وإذا ما تغلغلت داخل الجسم فسوف تتركه هزياً سقيماً مدى الحياة. أما الحُمى التي أصِبتُ بها فقد عاجلت آثار الإحتقان في عيني.

أمضيْنَا أياماً شديدة الحرِّ بها فيها من غمٍّ كثير، وكان عزاًؤنا الوحيد قضاء الوقت بالإستماع إلى حكايات السلب التي يقوم بها القراصنة الفرنسيون في الخُلجان. ومن حسن الحظ تهيأت السفينة للإبحار حالما رُفعت المراقبة البحرية.



### وصول هانچمان إلى البصرة قادماً من مسقط، ومغادرة سوليڤان

جاء السيد «هانچمان» من البنغال، ورسا في مسقط، التي كانت تُسمّى «بيت الشيطان»، هرباً من القَرصنة، ومنها أبحر على متن قارب عربي، وَوَصَلَ البصرة أخيراً. وَصَمَّ على الرحيل إلى حلب بعد أن عانى من الحر الجهنمي كثيراً. وَكُنْتُ أتمنى مرافقته.

الجمعة، ٢١ أيلول / سبتمبر: الموافق اليوم الأول من رمضان لدى الأتراك [=المسلمين]. كانت السفينة جاهزة للإبحار، فاصطحبنا إليها السيد «سوليڤان». وكانت سفينةً حربيةً ضخمةً وجميلةً مجهزةً بإثني عشر مدفعاً، وكان طاقمها يتكوّن من خمسين شخصاً، وكانوا سوداً وقصار القامة. ولم يكن هذا يُشكّل عيباً لدى البحارة.

### الإقامة عند المبشرين

بعد أن غادر السيد «سوليڤان» أمضيتُ أياماً عدة لدى الآباء المبشرين، ومنهم عَلِمْتُ بأخبار الأب «توريتي التوريني»، الذي وَصَلَ من حلب قادماً من بغداد بعد حصوله على بعض المال عن طريق ممارسة الطب، وأعطوه حصانين أيضاً وصل بهما البصرة حيث أقام لدى القُنصل الهولندي. ومن البصرة ذَهَبَ إلى شيراز، وهناك بَدَدَ كُلَّ ما لديه، فعاد إلى البصرة مهموماً. وقد استضافه الإنكليز وأرسلوه إلى بومباي، وَتَوَجَّه من بومباي إلى غوا، ويُعتقد أنه مات هناك.

٢٠٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

باع لي مطران البصرة الأب «لويجي دي سين»<sup>(١)</sup> الكثير من المسكوكات الذهبية والفضية والنحاسية، بعضها يعود للملوك الفرثيين، والبعض الآخر يعود لملوك سوريا، وهي حالياً ضمن مجموعة السيد «إينزلي» التي تصل إلى أكثر من عشرة آلاف قطعة، ناهيك عن المُكرّرة منها، التي اشتراها كُلُّها داخل الإمبراطورية التركية سواء بطريقة مباشرة أو عن طريقي.

### دير المُبشرين في البصرة

يُعد دير المُبشرين في البصرة من أجمل الصروح بعد الشركة الإنكليزية. وكنيسة الدير كبيرة وبنائها جيد. ويجيد البعض من الآباء فيها الأرمنية والعربية، وأكثرهم معرفة لديه عادات غريبة، إذ لا يزالون يستخدمون ريش الكتابة ذاته الذي جلبوه من روما.

### حال البصرة بعد تدميرها على يد الفرس

كانت المدينة على درجة كبيرة من الانحطاط، فقد دَمَّرها الفرس بالكامل، وكانت مُحاطة بسورٍ مطمور. وبيوتها بائسةً يتناثر فيها بعض النخيل، وتخرق شوارعها قنواتٌ صغيرة تعمل على إيصال الماء إلى البيوت وبعض البساتين.

---

(١) لويجي دي سيني (Le pere Luigi de Sienna): لم نقف على ترجمة له [أ.ع].

## تأريخ نشوء البصرة

أُنشئت البصرة في سنة (١٤) للهجرة في زمن الخليفة عمر بجهود عتبة بن غزوان. وكان عدد سكانها ثمانية آلاف نسمة (١).

وقال «بليني» عنها أنها كانت تُسمّى قديماً «طريدون»، التي نشاهدها في الخرائط القديمة. وأعتقد أنها تقع على بُعد عدة فراسخ من هنا في موقع يُسمّى «البصرة القديمة» (٢).

---

(١) البصرة مدينة عراقية قديمة أسسها الصحابي عتبة بن غزوان سنة ١٤ هـ / ٦٣٥ م، وهي أول مدينة تُؤسّس بعصر الإسلام. وتقع على بُعد (٥٤٩) كم جنوب العاصمة بغداد. ويعد مسجد البصرة أول مسجد بُني في العراق، «محافظة البصرة»، ميزوبوتاميا، العدد (٦-٥)، ص ١٨٧ [المترجم].

(٢) هذه المنطقة يُحدّدها السيد بيدرو تيخيرا بالقرب من الدرهمية، وهي منطقة تقع عند منتصف خرائب مدينة البصرة الثانية. وقال أن آثار هذه المدينة لاتزال باقية، فضلاً عن الجامع الكبير، وبقايا متراس، وجزء من الخندق. وقال أيضاً أن هذه المدينة عظيمة لكل من يشاهدها. وفيها بعض الأبار ذوات المياه الصالحة للشرب، وأراضي مزروعة بغلال القمح والشعير والفواكة. رحلة بيدرو تيخيرا...، ص ٤٧-٤٦. وتحدّث عنها الرحالة كارستن نيبور أيضاً، فقال: «تقع مدينة البصرة القديمة، التي اشتهرت في ظل حكم الخلفاء الأولين، على بُعد ميلين جنوب غربي المدينة التي تحمل اليوم هذا الاسم. ونجد هنا بقايا سور من أسوار المدينة، يبلغ محيطه فرسخين، فضلاً عن أسوار جامعي علي البرمكي، وسفران، وأضرحة الحسن البصري الشهير، والزبير بن العوام وطلحة، وابن عبيدة وغيرهم من الحكماء الذين دُفِنوا في البصرة». أنظر: كارستن نيبور: رحلة إلى شبه الجزيرة العربية وإلى بلاد أخرى مجاورة لها، ترجمة: عبير المنذر، الجزء الثاني، مؤسسة الانتشار العربي، (بيروت، ٢٠٠٧)، ص ١٩٠، فما بعد. أنظر أيضاً عن

٢٠٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

## موقع البصرة وتنازع العرب والأتراك عليها

تقع «البصرة الجديدة» على خط عرض (٣٠) و(٣١) درجة شمالاً. وكانت تعود لعرب البادية قبل أن يُمارس الأوروبيون أعمال التجارة فيها. فقام الأتراك بطرد العرب منها، واشترطوا، مقابل عقد السلام معهم، أن يكونوا هم أسياد المدينة، بينما يبقى العرب على بُعد ثلاثة فراسخ منها.

وعَيّن عليها الأتراك حاكماً ونَصَّبوا حاميةً، وبنوا قلعةً صغيرةً في وسط المدينة. وكان والي بغداد يرسل قواته إليها باستمرار.

وكثيراً ما كان العرب يرفعون السلاح ضد الأتراك ويحاصروهم داخل القلعة، حتى أن أحد القادة الأتراك قام ببيع موقعه بالمال إلى عربي أعلن استقلاله عن الباب العالي.

ولكن بعد إستيلاء مُراد الرابع على بغداد، قبل أمير البصرة الجديد أن يدفع له الجزية من خيولٍ وهدايا أخرى.

## إمام قُلي خان يُحاصر البصرة

بعد إستيلاء الملك الفارسي «الشاه عباس الكبير» على هرمز، أرسل جيشاً بقيادة

---

موقع البصرة القديمة: علي ظريف الأعظمي، مختصر تاريخ البصرة، مكتبة الثقافة الدينية، (بور

سعيد، ١٩٢٧)، ص ٨-٤ [أ.ع.].

[ ١٧ ] رحلة الأب دومينيكو سيستيني ..... ٢٠٣

«إمام قُلي خان» لمُحاصرة البصرة (١). وكان الأمير العربي ضعيفاً للغاية إزاء الفُرس، فاستعان بعرب الصحراء المجاورين لفتح السدود التي تحجز مياه النهر. فغمّرت المياه تلك الأراضي بالكامل وامتدت، كما قيل، لمسافة إثني عشر ميلاً في عمق الصحراء. عندها رفع الفُرس الحصار عن المدينة مُحلِّفين وراءهم أسلحتهم التي غمرتها المياه. وقد عانت البصرة كثيراً بسبب غرق أراضيها بتلك المياه المالحة التي استمرّت مدةً طويلة من الزمن، والتي كانت تتجدّد باستمرار كُلمّا ارتفعت المياه في أثناء المد، غير أن أراضيها لاتزال صالحة للزراعة. وما أن انسحب الفُرس منها حتى دعا أمير العرب البرتغاليين لممارسة تجارتهم فيها.

### مدينة البصرة أم المدن والطاعون

أصبح الأتراك أسياد البصرة مُجدِّداً في سنة (١٠٩٧) هجرية، الموافق لسنة (١٧٧٦) ميلادية. لكن الفُرس انتزعوها منهم في شهر آذار / مارس سنة (١٧٧٩). بعدها قام «كريم خان» ببيعها والإنسحاب منها. عندها سُكَّت فيها النقود الذهبية والفضية. وبحسب طريقة التفخيم المتبعة في بلاد المشرق أُطلقَ على البصرة تسمية «أم

---

(١) كان الشاه عباس قد طلب من أفراسياب أن يعلن له ولاءه ويترك ولاءه للعثمانيين. وحينما رفض أفراسياب أمر الشاه عباس حاكم شيراز إمام قُلي خان بالهجوم على البصرة واحتلالها في سنة (١٦٢٤). فتوجّه الأخير إليها من الحوزة في آذار / مارس (١٦٢٥). لكن القوة الإيرانية انسحبت فجأة ونجّت البصرة من الإحتلال. للتفاصيل: لونكريك، أربعة قرون ...، ص ١٣٢-١٣١ [أ.ع.].

المدن» بعدها بيعها للأتراك.

أراد الفُرس سَوِّقَ عدد كبير من العرب لجعلهم خدماً، فأبدى الإنكليز نوعاً من الإنسانية تجاههم، فقاموا بشرائهم. عندئذ أُصيب الأتراك بصدمة، وهي كيف يستأثر هؤلاء الكفرة بهذا العمل لوحدهم ويصبحوا مثلاً للكرم. وكبادرة حُسن نية، قاموا بشراء كُلِّ مَنْ تَبَقَّى من هؤلاء الأسرى تقريباً. ولم ينس العرب هذا الصنيع، فأصبحوا منذ ذلك الحين مُتعلِّقين بالإنكليز كثيراً.

ويَسكن البصرة كُلُّ من الأتراك والأرمن والنساطرة واليهود. ويتراوح عدد نفوسها ما بين ألفين إلى ثلاثة آلاف نسمة. وقد انخفض سكانها إلى هذا العدد القليل بسبب الطاعون الذي اجتاح القارّة الآسيوية كُلِّها تقريباً في سنة (١٧٧٣) (١).

### وكالة الشركة الهندية البريطانية

يقوم مكتب وكالة الشركة الإنكليزية برفع الأعلام في كُلِّ يوم أحد. كما أن مكتب وكالة «چلبي» في سورات لدية علمه أيضاً. وللشركة الهندية هناك مُقيم دائم يَتَحَمَّلُ أعباء مسؤولية كبيرة، ولديه خمسون «سباهيا» (٢)، وأمام بابه مدافع. وعندما

---

(١) يبدو أن الأرقام التي ذكرها الرحّالة غير دقيقة. فقد ذكر الرحّالة السيد بارسونز أن عدد سكان البصرة في نيسان / ابريل (١٧٧٥) يبلغ تسعين ألفاً بين رجلٍ وإمرأة وطفل. وأن عددهم قبل الطاعون كان لا يقل عن ثلاثمئة ألف نسمة. رحلة أبراهام بارسونز ...، ص ١٢٦، ١٤٢ - [أ.ع.] ١٤١.

(٢) السباهي جندي من قوات الخيالة النظامية في الدولة العثمانية [المترجم].

يخرج يسير الخيالة معه، وهو يحمل قضيباً فضياً كبيراً. ويتمتع بشرفٍ لا يحظى به حتى سفراء القسطنطينية أنفسهم، فإنكشاريتهم يسرون راجلين. وقبل مدةٍ من الزمن أُلزم الأهالي بالتوقف والنهوض لتحتيتهم في أثناء مرورهم بالشوارع، إلا أن الإنكليز شعروا أن هذه الطريقة تجرح كرامة العرب، فاسقطوا العمل بهذه الطريقة البالية المذلة.

### منزل السيد لاتوش

جميع العاملين في منزل المقيم الحالي السيد «لاتوش» من العرب، لكنهم يتكلمون الإنكليزية والبرتغالية. أما الطباخ الذي يصنع الأطباق الفاخرة من الأطعمة المتبلة، فهو مسلم فارسي يمتنع عن طهي الخنزير المؤلف هنا كثيراً، فيكلف شخصاً أرمينياً للقيام بذلك. والعرب عموماً، وليس كلُّهم، ينفرون من أكل لحمه، وحتى طهيه. ولكن رفضهم له ليس بقدر رفضهم للخمر. ويتولّى «القواصون» العرب، أو الحرس الخاص، إعداد المائدة، بخلاف ما يجري في القسطنطينية؛ فالخدم الإنكشاريون لدى السفراء لا فائدة تُرجى منهم مُطلقاً داخل المنزل، وهم لا ينهضون إلا عندما يخرج سيدهم.

### سفن الشحن والبريد الموجودة في البصرة

كانت السفن في السابق لا تستطيع الصعود إلا لمسافة خمسة أو ستة فراسخ جنوبي البصرة. أما الآن فيمكنها أن ترسو عند مدخل القناة، وأن تواصل صعودها حتى ملتقى النهرين في القرنة دون أن تتعرض للخطر.

٢٠٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

وطوال السنوات السابقة كانت تأتي أربع أو ست سفن شحن من سورات، مُرسَلةً من وكالة «چلبلي»، وهم الأرمن المولودون في الموصل، وهي مُحمّلة بالأقمشة القطنية والأنسجة من «كُجرات»، وقد منعها [السلطان] مصطفى الثالث<sup>(١)</sup>. إلا أن السلطان الحالي<sup>(٢)</sup> سمّح لها بالاستيراد. فضلاً عن ذلك، فهي تحمل الكثير من جذوع الخيزران الذي يصنع العرب منه رماحهم، وهي سلاحهم الإعتيادي في الهجوم أو الدفاع، والأدوية، والخطب، بل وحتى الحجر. وتُباع تلك الأشياء بأسعارٍ مناسبة.

وتُرسل بومباي سفينتي بريد لغرض تبادل الرسائل، وهي مُحمّلة بالألواح الساج الجميل، وهو خشبٌ متين للغاية يشبه خشب الجوز، وبأقمشة صوفية بقيمة ثلاثين أو أربعين ألف جنيه إسترليني لتوزيعها في بلاد فارس وحلب وبغداد. ويحدث أن تخسر الشركة الهندية، إلا أن المصانع البريطانية هي التي تريح.

وتنقل هاتان السفينتان إلى بومباي المسافرين والتمور والبُن وجوز العفص وملح البارود والرهج الأصفر، وأحياناً الملح. وترسل البنغال الموسلين والأنسجة الناعمة. ويستورد الهولنديون التوابل وكبش القرنفل والقرفة والسكر الأبيض. وقد جاء الهولنديون لإزالة هذا الفرع التجاري وتأسيس المصافي في البنغال.

---

(١) السلطان العثماني مصطفى الثالث (١٧٥٧ - ١٧٧٤): هو ابن السلطان أحمد الثالث، تولى العرش وهو بعمر ٤٢ سنة، اتخذ طريق الإصلاح مُعتبداً على الصدر الأعظم راغب باشا [أ.ع].

(٢) السلطان العثماني عبد الحميد الأول (١٧٨٩ - ١٧٧٤). [أ.ع].



[ ١٧ ] رحلة الأب دومينيكو سيستيني ..... ٢٠٧

وتُنقل القهوة من «مخا» إلى مسقط، ومنها إلى البصرة، ثم إلى أنحاء الإمبراطورية التركية كافة.

وليس في البصرة مَنْ يتعامل بالمقايسة، فالكل يتعامل نقداً. ولذا نرى في الهند وجود الكثير من النقود النمساوية والبندقية والتركية، وهذه الأخيرة بكميات قليلة بسبب انخفاض قيمتها، فتختفي في الهند بعد أن يتم صهرها.

وكانوا في السابق ينتظرون الرياح الموسمية للإبحار. أما اليوم فهم يذهبون ويأتون في كُلِّ الأوقات.

### الدور الوطني لخواجة يعقوب في أثناء الحصار الفارسي

تعود المؤسسات التجارية الكبيرة في البصرة لكل من «أريوتون الأرميني» و«اسطيفان الأرميني» الكاثوليكي، و«خواجة رويين» و«خواجة يعقوب»، والأخيران يهوديان. وقد أدّى الأخير دوراً مهماً في أثناء الحصار الفارسي، إذ تَفَجَّرَت وطنيته، فقام بإطعام الحامية على نفقته الخاصة مدةً طويلة، وقال لأمر الحامية أنه على إستعداد للتضحية بكل ما يملك من لآلئ لإطعام الجنود من أجل الدفاع عن البصرة، مسقط رأسه. وحينما استولى «كريم خان» على المدينة أراد أن يقطع عنقه، فتدخل الإنكليز وأطلقوا سراحه، ثم ما لبثوا أن تدمروا منه وقالوا أنه ليس وفيّاً!

وقبل الحرب الفارسية كان جميع اللؤلؤ الذي يُصطاد في الخليج يأتي إلى البصرة. أما اليوم فإنه يُنقل إلى مسقط، ومنها يمر إلى الهند، ثم إلى الصين.

## الأرضة في البصرة

تُسبب حشرة الأرضة (النمل الأبيض) التي تحملها سُفن الشحن من الهند إلى البصرة أضراراً كبيرة للمخازن. وتعالج تلك المشكلة برش كميات كبيرة من الملح على الأرضيات، ومن ثم بوضع البالات على ألواح خشبية عريضة. كانت معظم القوافل التي تغادر البصرة من قوافل حلب، فتعود إليها بعد اجتيازها البادية الكبرى. إلا أن هذه القوافل أصبحت نادرة في الوقت الحاضر بسبب قلة النشاط التجاري.

## البصرة القديمة

تقع «البصرة القديمة» على بُعد ثلاثة فراسخ من البصرة، ويسكنها العرب من عشيرة «النجادة»<sup>(١)</sup>، وفيها الكثير من الآثار القديمة. ويُعتَقَد أنها «طريدون القديمة» أو «بالاكوبا» لدى «آرين»، إذ قال: «عندما تمَّ حفر المرسى وصُنعت السفن ذات المجاذيف الثلاثة في بابل تنزل الإسكندر عبر نهر الفرات إلى بالاكوبا».

وأضاف: «دَخَلَ هذا الأمير في بحيرة إلى شمال بالاكوبا، ونَزَلَ من السفن في بلاد العرب، فصادف منطقةً ملائمةً للتجارة، وبنى فيها مدينة وأحاطها بالأسوار، وأسس مُستعمرة يونانية للجنود اليونانيين والمتطوعين والجنود المنهكين والعاجزين، أو مَنْ

---

(١) عشيرة النجادة إحدى عشائر آل مسعود. والتسمية منسوبة إلى موطنهم الأصلي في نجد. تنتشر هذه العشيرة في محافظة ذي قار الحالية [أ.ع.].

أنهكتهم الحرب».

ولا شك أن المدينة التي تَحَدَّثَ عنها «بليني» تُسَمَّى «الإسكندرية» التي قال عنها: «بني الإسكندر مدينةً على نهر الفرات منحها اسمه. وقصبةً أطلق عليها اسم «بيللا»، وهو اسم المكان الذي ولد فيه بمقدونيا. ودَمَّرَت مياه النهر هذه المدينة، وأعاد أنطيوخس الخامس<sup>(١)</sup> بناءها باسم «إنطاكية»، ودَمَّرَهَا «الصُغد»، بيد أن «يوباً» يعتقد -وهو إعتقادٌ ليس في محلّه- أن أميراً عربياً وأحد حكام انطيوخس هو مَنْ بناها وَرَفَعَ سدودها لحمايتها من العرق، وأطلق عليها اسمه «باسينز». وتُسَمَّى تلك المنطقة اليوم باسم «الزير»، وهي مُلائمة أكثر من البصرة. ويذهب أهالي هذه المدينة الأخيرة لتجديد عافيتهم، وكذلك «الناوي»، وهي قريةٌ صغيرة تقع على ضفة النهر يسكنها «الصابئة» أو مسيحيو القديس يوحنا».

### مدينة الزير

تَتَجَمَّع القوافل في «الزير» لغرض الرحيل أو التوقف. وهناك يطالب الشيخ بالأتاوة ليمسح لها بالمرور، ويهتم بعدم إثارة غضب المُتسلِّم تجاهه. وفي كل سنة تغادر قوافل الإبل الكبيرة لبيع بضاعتها في كُلِّ من حلب ودمشق. وكانت قبل شن الحرب الفارسية تبلغ أكثر من ستة آلاف رأس. أما الآن فلا تزيد عن

---

(١) انطيوخس الخامس (١٦١-١٧٢ ق. م.): حاكم الإمبراطورية السلوقية اليونانية، حكم بين سنتي (١٦١-١٦٣ ق. م.) [أ.ع.].

٢١٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

الألفين. وكانت الخيول الأصيلة نادرة، فقد أباد «نادر شاه» في أثناء غزوه كردستان أفضل أنواع الخيول.

### الطقس في البصرة

قليلاً ما تبعث الإقامة في البصرة البهجة في نفس الأجنبي، إذ يشتدُّ الحر خلال حزيران / يونيو وتموز / يوليو وآب / أغسطس، بيد أن شهر أيلول / سبتمبر لا يقلُّ عنه حرّاً.

ويصل مقياس درجة الحرارة عند شروق الشمس إلى (٨٠) درجة، وعند الظهيرة (٩٠) درجة، وفي الساعة الرابعة إلى (٩٤)، وأحياناً يصل إلى (١٠٥) درجات. وقد انخفضت درجة الحرارة في السنة الماضية إلى (١١٦) درجة (١)، واختطف الحُمى أرواح العديد من البشر.

تكثر في البصرة الأمطار في فصل الشتاء، ونادراً ما يتساقط البرد. وعلى الرغم من برودة الجو في الأحوال الإعتيادية، فليست ثمة حاجة إلى التدفئة. وشوارع المدينة غير مُبلّطة، وهي مُحفرة، وتصبح موحلة بعد هطول الأمطار (٢).

---

(١) درجات الحرارة هنا بالفهرنهايت، أما بالدرجات المئوية فهي: ٨٠ = (٢٦, ٦٧) ؛ ٩٠ = (٣٢, ٢٢) ؛ ٩٤ = (٣٤, ٤٤) ؛ ١٠٥ = (٤٠, ٥٦) ؛ ١١٦ = (٤٦, ٦٧) [أ.ع.].

(٢) قارن ذلك مع ما ذكره بيدرو تيخيرا في رحلته، ص ١٠٧ [أ.ع.].

## الحياة في الريف

ها هي طريقة الحياة التي عشناها:

بعد أن نستيقظ فجراً، نذهب للتَنَزُّه بوساطة الحَيْلِ أو العربات، فقد أحضر السيد «لاتوش» واحدةً معه من بومباي. وما أن تشرق الشمس حتى يجين وقت العودة بسبب شدة الحرِّ. وعادةً ما يبدأ الفطور بالقهوة أو الشاي مع الزُّبد الطازج الذي جَلَبَهُ لنا العرب. وتشاركنا في هذا الفطور أكواظٌ من الذباب. وينصرف كُلُّ واحدٍ مُنْشَغَلاً بالكتابة أو المُطالعة حتى الساعة الحادية عشرة التي تتفاقم فيها شدة الحر، فتجعل العمل كُلَّهُ مُسْتَحِيلًا. ونلعب البليارد بانتظار الغداء الذي يُقدَّم عند منتصف النهار. ولكي نحصل على القليل من البرودة ابتكرنا طريقةً لتثيبت أغصان العاقول على الأبواب ورَشَّها بالماء بوساطة مَضْحَعة، فيفقد الهواء بعض حرارته عند مروره عبر الحُرْمِ المُبلَّلة، فيصل إلينا هواءٌ رطبٌ من بين شقوق تلك الحُرْمِ. ولكن حينما نغلق الأبواب لننعم بالهدوء، نُحرِّم من البرودة.

ويُستخدم في الهند القماش القطني الخفيف المُبلَّل بالماء الذي يمرُّ الهواء من خلاله بدلاً من العاقول.

كان الغداء لذيذاً، فاستغرقنا في تناوله وقتاً طويلاً، لاسيما حينما يصاحبه تناول الحلوى، فخلال ذلك الوقت نُقرِّغ الكثيرَ من قناني الشراب ونستمتع بتدخين الغليون كثيراً. وبعد الغداء علينا أن نتمدِّد، شئنا أم أبينا، إستعداداً للنوم الذي لم يكن سهلاً بسبب شدة الحر. ويتكوَّن السرير من أحزمةٍ دون فراش، ووسادتين، واحدة للرأس

والأخرى ما بين الساقين.

وعند المساء نهض فلبس الملابس وتناول الشاي ونذهب للتزّه. وبعد مغيب الشمس، وفي أثناء تنزهنا، يقومُ رجالنا بنقل الأسرة والكراسي والمناضد وقطع الأثاث الأخرى إلى السطح لتنظيف الصالات. وعند عودتنا من التزّه نصعد إلى سطح المنزل، إذ أن داخل البيت أصبح سعيراً. وفي الساعة العاشرة نتناول العشاء.

تتماز ليالي البصرة بروعتها، ومن دواعي سرورنا إطالة تلك السهرات، فبمجرد أن نتهيأ للنوم يهاجمنا سربُ البعوض. وفي هذه الحالة فإن من يستطيع النوم أما أن يكون عديم الإحساس أو أصمّاً. وغالباً ما كان يُوقضنا ويُفزعنا الخفير عندما يصيح: «هل الجميع بخير؟»، فنصرخ فيه: «الكُلُّ يَسْتَعِر، أما ترى الحرّاً!».

### الأطعمة والأشربة والفواكه والمالح في البصرة

طعامُ البصرة له نكهةٌ طيبةٌ، ولحم الخروف له مذاقٌ شهّي. وتكثر في البصرة الدواجن والبيض والزبدة، والرز طيب جداً. والخمور فيها مُرتفعة السعر، والعرب يشربون العرق المصنوع من التمر. وفي البداية كُنّا لا نَشْرَب إلاّ خمور شيراز وماديرا أو المشروبات الكحولية البُرْتَغالية المُحلّلة. إلاّ أن إحدى القوافل القادمة من حلب كانت تَحْمِل معها إلى مضيفنا المقيم شحنةً كبيرة من خمور بوردو والراين، فاستقبلناها كما يُستقبل المنُّ النازل من السماء.

ويكثرُ في البصرة البرتقال والليمون والعنب أيضاً. ويمتاز خمر البصرة بشهرته، إلاّ أن الفرس أجهزوا على كل حقول العنب وحتى على براعم شجيرات الورد التي

تُجهَّز البصرة بكمية كبيرة لتصنيع ماء الورد، وهو فرعٌ مُربحٌ من فروع التجارة. وتتوافر فيها أكثر أنواع الخُضار، وتُوجد فيها أشجار الزيتون والتوت.

وبجوار البصرة تُوجد ممالح طبيعية. والأراضي الشاسعة التي يُختار الملح منها هي «السلسولة». ويُحرق الملح لاستخراج الصودا التي يُصنع منها الصابون وحتى الزُجاج.

وتؤدي المياه الراكدة إلى إفساد الجو وتضرُّ بالصحة. وزراعة الأراضي المالحة شاقّة ومُكلّفة، إذ يجب إزالة المساحة المُغطّاة والمُشبعة بالأملاح وحفرها إلى الحد الذي تكون فيه الأرض صالحة للزراعة. ولا تتم زراعة الحنطة والشعير إلا بهذه الطريقة، ويصبح الناتج عندئذ وافرًا.

### أنواع الأسماك

يزوّد شط العرب أهالي البصرة بأنواع كثيرة من الأسماك الفاخرة التي يصطادها العرب ويُحفظونها ليتناولوها في البادية. وينصبُّ أهالي البصرة حاجزاً مربع الشكل من سعف النخيل أو الأغصان الأخرى مفتوحاً من إحدى جهاته. فالأسماك التي يحملها المد تصبح غنيمة بعد أن تنخفض المياه في أثناء الجزر، وأفضلها سمك «البنّي» و«البرسيم». وقد اتخذ بعض الكهنة الكلدانيين سمكة «الزنجور» إلهة. وتعد أسماك «أونيس» الشهيرة من تلك الأنواع، وهي من الأسماك الأزلية، لها ثلاث أرجل طويلة واستطالة في ذيلها. وقد ظهرت بين الكهنة أشكالية لاهوتية كبيرة فيما إذا كانت هذه

٢١٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةٍ أجنبيّة

السّمكة «مُرّول» (١) أم ليست مُرّول. وانتهى النزاع فيما بينهم بعد أن جعلهم ملك البلاد يأكلون من كلا النوعين من دون علمهم. وعندما شاهدوا إن تلك الآلهة سَمَحَتْ لهم بطهيها اتفقوا مع بعضهم بأنّ هذه السمكة «أونيس»، لم تكن سوى نوعاً من أنواع «الزنجور» الممتازة.

### الفرس يُبيدون الأرناب في البصرة

قام الفرس بإبادة الأرناب التي كانت موجودة في البصرة بكثرة. ويتعدّد العثور على الأرناب البريّة في البصرة التي كانت موجودة بأعداد كبيرة في البادية. وتُوجد في البصرة طيور الحجلان والدراج ودجاج الحراج اللذيذة الطعم. وتأتي إلى البصرة من بلاد فارس الفواكه المُجفّفة والمُربيات واللحوم المُقدّدة. إلا أن هذه الأشياء كُلّها من نصيب الأغنياء. أما الفقراء فيعيشون على التمر فقط.

### النخيل في البصرة

يحتاج النخيل الذي يغطي ضفتي النهر إلى أرضٍ رملية رطبة، وتنضج ثماره (التمر) في شهر آب / أغسطس، ويتمّ قطفها في شهر أيلول / سبتمبر، كما هو حال الكُمثري والتفاح في بلادنا. وثمة اختلاف كبير في أنواع التمور من حيث اللون والشكل والطعم.

وتختلف الضريبة التي تُدفع عن دخول التمور إلى البصرة للمُتسلّم إلى أكثر من

---

(١) مُرّول (Laité): صفة ذكر السّمكة الذي أفرز الرول [المترجم].



مليون [قرش؟] (١). والناس يأكلون التمر كالحُبز، فهو غذاؤهم الوحيد.

ويُعد «العرق» المُصنَّع من التمر سلعةً مهمةً، إذ يُصدَّر منه الكثير إلى مسقط و«الخليج الفارسي». وطعم «الجُمَّار» الذي يكون في قمة النخلة لذيذ وله طعم الكُستناء، ويُمنع قطعه لأنَّ النخلة تتلف. ويُستخرج من النواة زيت يصلح للإشعال، وتُأكل الجمال سحيق النواة. ويُستخدم السَعْفُ في صناعة الأبواب والشبابيك والأسرَّة ... الخ، ومن أوراق السَعْف تُصنَّع السِّلال والمَنَافِيخ والمَهَافِيغ والمَكَانِس. ويُسبَّب حرق الجذع الكثير من الدُّخَان والسِّخَام بسبب اشتعاله الرديء. ويُستخدم أيضاً كمقاعد أو رفوف. ويُعزى ذلك كله إلى الحاجة والإفتقار إلى الأنواع الأخرى من الخشب.

وتُوجد في بعض الحدائق وفي باحة الرواق الإنكليزي شجيرات الطرفاء التي يَعْتَقِدُ العربُ أنها شجرةُ شَوْم، وأعتقد أنها جاءت من أطراف «الخليج الفارسي». وفاتني أن أُمَحِّدَثَ عن مسجدٍ فيه منارتان أو قُبَّتَانِ شَيَّدَهُ الخلفاء، فيه صَحْنٌ فسيحٌ وجميل، إلا أنه كان في حالٍ يرثى لها.

### الحرب المُستَعْرَة بين زعماء بلاد فارس

في هذه اللحظة علينا أن نُؤلي بعضَ اهتمامنا للحرب الفارسية. فبعد أن حاصر «علي مراد خان» مدينة «شيراز» وسَجَنَ «صادق خان» توقفت القوافل، وصارت هذه

---

(١) لم يذكر الرحالة اسم العُملة بعد المليون وربما يقصد القُرش [أ.ع.].

٢١٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

البلاد البائسة فريسةً لكثيرٍ من العصابات، إذ أعلن أغلب الحُكّام استقلالهم واشتعلت الحرب فيما بينهم. وعندما استولى «مراد خان» على «شيراز» وتخلّص من خصمه «صادق خان» قام جميع الطواغيت الصغار بمحاكمته ومُنازعته على المملكة التي صارت مسرحاً واسعاً للسلب والحروب المتجدّدة لمدةٍ طويلة.

### كلمةٌ موجزةٌ عن التجارة الإنكليزية في البصرة

تعمد تجارة الشركة الإنكليزية في البصرة على الأقمشة. وينصّ قانون تأسيس الشركة على نقل كمّية محدودة من البالات لا تتجاوز تسعمائة بالة سنوياً، على الرغم من خسارتها بعض الكميات. وتتم المبادلة بالروبيات وبحرير كيلان، وهي طريقة توفر ربحاً أكثر.

وكان المقيم البريطاني العضو بالمجلس الإستشاري في بومباي مسؤولاً عن تلك الوكالة التي لم تكن بمنأى عن المضايقات. فمنذ سنوات عدة استولى بعض العرب الذين يسكنون الجزر الواقعة إلى جنوب «القرنة» على أربع سفن تخص الشركة، فضلاً عن أن الوصي على العرش الفارسي «كريم خان» كان في خلافٍ مع الإنكليز. وبسبب تلك الاضطرابات أُصيبت الشركة بخسارة سنوية بلغت أربعين ألف جنيةٍ إسترليني. وكما هو مألوف فإن من الأفضل لموظفي الشركة الإنسحاب، كما إن الوكيل الرئيس قد جمع ثروة طائلة خلال سنواتٍ قليلة من خلال تجارته الخاصّة مع مستخدميه في الوكالة. أما أولئك الموجودون في البنغال فقد أرسلوا أموالهم إلى البصرة سواء أكانت بشكل أموال أو على شكل أقمشة الموسلين ليتم نقلها إلى أوروبا بعدما مُنعت تجارتهم

[ ١٧ ] رحلة الأب دومينيكو سيستيني ..... ٢١٧

من المرور عبر طريق رأس الرجاء الصالح وقاموا بإرسال سفينةً من سورات أو الصين لتسليمها.

عندما كان السلام مُستتباً مع الفُرس كان لدى الشركة وكالة في «بندر بوشهر»، وهو الميناء الأقرب لشيراز، أما «بندر عباس» فقد تم التخلي عنه (١)، وكذا الحال فيما يخص ميناء «هرمز» بعد أن كان مُزدهراً فيما مضى. أما ميناء «مسقط» فلا يُوجد للشركة أي شيء فيه إطلاقاً، فالجو السيء والحُر الشديد جعل الأوربيين، لا بل وحتى الهنود، لا يَتَمَكَّنون من العيش فيه. وقد اضطرَّ «نادر شاه»، بعد استيلائه عليه وتكوين تجارة مُربحة، إلى التخلي عنه بعد أن فقد خلال مدة قصيرة حاميته بالكامل. وأصبحت المدينة معبراً للمرور، ولم تعمل الأقوام المتاجرة على إقامة أية مؤسسة فيها. ولدى الفرنسيين قنصلٌ في البصرة، إلا أن تجارتها قليلة وتقتصر على بعض الأقمشة التي يُؤتى بها من حلب عبر الصحراء.

أما الهولنديون فقد أفادوا من نقل السُكَّر والقهوة والتوابل من «باتافيا» قبل أن يفقدوا جزيرة «خَرْج»، التي طردهم الفُرس منها في سنة (١٧٦٩). وهم يتفاوضون

---

(١) في سنة (١٧٥٩) دَمَّرَ الفرنسيون الوكالة التجارية البريطانية في بندر عباس، فأغلقتها الحكومة البريطانية رسمياً في سنة (١٧٦٣)، ونقلت ممتلكات الشركة إلى البصرة. وقد اعترف الباب العالي بوكالة البصرة بدرجة قنصلية في السنة اللاحقة (١٧٦٤). وفي سنة (١٧٦٣) نَجَحَتْ الشركة في الحصول على موافقة كريم خان الزند من أجل فتح وكالة في بندر بوشهر. فأصبحت بريطانيا بذلك تُسيطر على الموانئ الشمالية للخليج العربي [أ.ع.].

٢١٨ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

الآن مع «كريم خان» بصفته وصياً على العرش لاستعادة «خَرْج» وكُلِّ ما سُلِبَ منهم هناك، وهو يصل إلى ثمانية عشر «لكاً» (١) من الروبيات. وقد رَحَّبَ «كريم خان» بمبعوثهم ترحيباً حاراً وتعهَّد بإعادة كُلِّ شيءٍ حال عودتهم واستقرارهم. ولكن سرعان ما اندلعت الحرب بين الفُرس والأتراك، فَتَخَلَّى الهولنديون عن جميع تجارتهم في منطقة «الخليج الفارسي».

وكانت وكالة «چلبی» تمارس نشاطاً تجارياً مُهماً في منطقة الخليج طوال أكثر من قرنين. فالسفينّة الأولى التي أُرسِلت إلى البصرة وكان عمرها يزيد عن مئة سنة لا تزال تعمل، وهي مصنوعة من خشب الساج غير القابل للتلف والمقاوم للرطوبة والحرارة.

---

(١) اللُّك: لها تعريفان. فقد وَرَدَ لدى ابن منظور: اللُّك أو اللُّكا، صُبُغٌ أحمر تُصَبَّغُ به جلود الماعز للخفاف وغيرها. وقيل: لا يُسَمَّى لُكاً بالضم إلا إذا طُبِّخَ واستخْرِجَ صبغته. انظر: لسان العرب، ج ١٢، ص ٣٢٣. نقلاً عن: عبد الجبار ناجي وحسين داخل البهادلي، بغداد في كتابات الرخالة العرب والأجانب من القرن التاسع إلى القرن الخامس عشر الميلادي، بيت الحكمة، (بغداد، ٢٠٠٣)، ص ١١٧. أما الأستاذ عباس العزاوي فقد وَرَدَت الكلمة عنده كوحدة وزن. فقد ذَكَرَ: أن كُلَّ مئة ألف تنكة (صفيحة) من الذهب أو الفضة تُسَمَّى لُكاً، إلا أنه يُعَبَّرُ عن الذهب باللُّك الأحمر، وعن اللُّك الفضة باللُّك الأبيض. وعن وزير المغول رشيد الدين فضل الله الهمداني أن السلطان خدابنده أعطاه جائزة قدرها خمسون تومانا عن تأليفه كتاب جامع التواريخ. وعندنا مقدار معروف يُسَمَّى اللُّك، وقدره مئة ألف من العدد. انظر: تأريخ النقود العراقية لما بعد العهود العباسية (٦٥٦-١٣٣٥هـ / ١٢٥٨-١٩١٧م)، شركة التجارة والطباعة، (بغداد، ١٩٥٨)، ص ١٣٨، ١٤٠؛ رحلة أبراهام بارسونز، ص ١٣٥ [أ].

ع.].

[ ١٧ ] رحلة الأب دومينيكو سيستيني ..... ٢١٩

ويارس الوكلاء الأتراك، إلى جانب العرب والأرمن واليهود، نشاطاتهم التجارية كُلَّها تقريباً مع هذه الوكالة التي تملك مؤسسةً خاصّة ترفع عَلَمَها في البصرة. فضلاً عن ذلك فهم يمارسون التجارة مع السفن الإنكليزية المبحّرة من سورات، وبومباي، وتيلشري، ومدارس، والبنغال، ومع كوشين بواسطة السفن الهندية، أو سفنهم الخاصّة.

وتُنقل الكثير من تمر البصرة إلى سواحل مالابار وبلاد فارس، ولاسيا سواحل الخليج حتى مسقط. ويتمُّ جمع التمور من الأصناف الممتازة بكمياتٍ قليلة. وعندما مُنعت الملاحة عبر «الإسكندرونة» خلال الحرب مع روسيا، قام ميناء «نخا» بإرسال كميةٍ كبيرة من البُن إلى البصرة ليتم نقلها إلى حلب، ومنها إلى أرجاء الإمبراطورية التركية كافة.

وللشركة الإنكليزية الشرقية امتياز مزاولة التجارة في البصرة كما هو حال شركة الهند البريطانية، فالشركة التي مقرّها في البصرة لها حق المتاجرة المطلقة في كافة أنحاء الإمبراطورية التركية كافة، أما الشركة الأخرى فهي تملك الحق ذاته بالمتاجرة مع بلاد فارس وبلاد العرب جميعها والهند وحتى حلب عن طريق رأس الرجاء الصالح.

هذا كُلُّ ما استطعت الحصول عليه من معلومات مُؤكّدة عن البصرة وتجارها.

٢٢٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

## رحلةُ العُودة من البصرة إلى القسطنطينية عبر الفرات بغداد - حلب - قبرص - الإسكندرية

مثلاً كان مرور السيد «سوليڤان» بالقسطنطينية فرصة رحلتي إلى البصرة، فقد كان مرور السيد «هانچمان» بالبصرة بعد رجوعه من البنغال وهو يريد العودة إلى أوروبا عبر حلب فرصة عودتي إلى القسطنطينية.

هناك طريقان للعودة إلى حلب: الأول عبر الصحراء الكبرى والآخر عبر بغداد، وقد فَضَّلنا الأخير كونه أنسب، فاستأجرنا سفينةً بريد لتنقلنا عبر نهر الفرات حتى الحِلَّة، وهو ما يَسْتَعْرِقُ مدَّةً تتراوح بين (١٠ - ١٢) يوماً. ولم يكن اجتياز هذا الطريق يجري بسهولة في كل الأوقات. فالقبائل العربية التي تُحَيِّم على ضفاف نهر الفرات تُعيق المسافرين إذا ما تَعَكَّر مزاجها لأدنى سبب. أما إذا كانت في حالة وفاق مع والي بغداد ومُتَّفِقة معه، فيمكن حينذاك إتباع هذا الطريق من دون مخاطر، فضلاً عن كونه أسهل من الطريق البري عبر الصحراء.

إلا أن العقبات الطارئة التي ابتلينا بها جعلتني أعتقد أن هذا الطريق ليس أفضل من الطريق الآخر. وقُمتُ بإعداد تقرير دقيق عن إبحارنا إلى الحِلَّة. ومن الحِلَّة عدنا إلى بغداد عبر الطريق البري خلال أربعة أيام في أثناء اجتيازنا بلاد ما بين النهرين. وكانت الخانات موجودةً بين مسافة وأخرى على هذا الطريق.

وعند وصولنا بغداد وجدنا السيد «كامبل»، الكابتن في خدمة الشركة الإنكليزية قد وَصَلَ للتو من حلب برفقة أحد التتار. وحينما إلتقينا به أبلغناه برغبتنا في اجتياز

[ ١٧ ] رحلة الأب دومينيكو سيستيني ..... ٢٢١

بادية الشام مُسْتَغَلِّينَ فرصة عودة التتري إلى حلب. وقد جاء السيد «كامبل» ودليله من بغداد خلال إثني عشر يوماً من دون أن يتعرَّضاً لأية عقبات. لكننا لم نكن سُعداءَ الحظ مثلها، فالصعوبات كانت تتجدد في كل خطوة بعد أن استفحل الشقاق بين الولاية من جهة والعرب والأكراد من جهةٍ أخرى. فلن نستطيع الوصول إلى حلب إلا بعد ستة أيام وأكثر. وفضلاً عن سوء الحظ، فقد أُصَبْنَا بِحُمَّى حلب.

أسرع «هانچمان» بالوصول إلى جزيرة قبرص على أمل العثور على سفينة عائدة إلى «ليفورن»، إذ تم استدعاؤه لأمرٍ هامّة، لكنه لم يَسَلَمَ من المضايقات. وعلى الرغم من أنه كان ينوي الوصول إلى روما قادماً من البنغال خلال ثلاثة أو أربعة أشهر على الأكثر، إلا أنه لم يصلها إلا في نهاية السنة.

كُنْتُ أريد الذهاب من حلب إلى القسطنطينية، إلا أن الطريق لم يكن آمناً، فَمَرَرْتُ عِبرَ «اللاذقية» إلى جزيرة قُبرص. وهناك وجدت السيد «هانچمان» مُصَاباً بِالْحُمَّى، ولم تكن هناك أي من السفن تَقْلُهُ إلى «ليفورن»، فدعوته لمرافقتي إلى الإسكندرية ليرحل من هناك إلى أوروبا، وأنا إلى «القسطنطينية» التي وصلتُها أخيراً بعد سنة منذ مغادرتي البصرة.

## مغادرة البصرة والوصول إلى الحِلَّةِ عِبرَ الفُرات

الخميس، ٢٨ أيلول / سبتمبر (١٧٨١): مَضَّتْ سَبْعُ سنواتٍ على مغادرة موطني فوق نهر «آرنو»، وهو نهرٌ صغيرٌ مقارنةً بشط العرب الذي أبحرتُ منه. فالمياه الجميلة لآرنو حملتني برفق إلى «بيزا»، ثم إلى الشرق. وها أنا أبحر في نهر الفرات

٢٢٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

مُتَّجِهًا بقوة المجاذيف بعكس التيار لأصل إلى «الحلّة».

لم تتركني الحمّى وهاجمتني خلال وجودي في البصرة في هذا الطقس الحارق، وأججت حُرقة الأبرق من «الشعري اليمانية» العطش الشديد ونَتَّ الأمراض على أهلها التعساء، واضطرت السماء بضياءٍ ضارٍ مؤذٍ.

وقيل لي أنني لن أجد الشفاء الكامل إلا في مياه الشاطيء المشبعة بالأملاح الكبريتية لطرد الحمّى.

في الساعة العاشرة صباحاً غادرنا البصرة في قارب السيد «لاتوش» الذي أراد أن يُرافقنا. وكان في مؤخِّرة القارب ظلّةً للوقاية من الشمس، وهذا أمرٌ غريب، لأنَّ الباب العالي لا يسمَح حتى للسُفراء في القسطنطينية بوضع تلك الظلّة. وقد اضطرَّ سفير فرنسا السيد «دو فيريول»<sup>(١)</sup>، الذي كان يَتَمَنَّى الحصول على مثل هذا الترف، إلى التخلّي عنها في اليوم الأول ورفع الأغطية عن سفينته.

يَتَمَتَّع المقيمون في البصرة بمزايا لا يَتَمَتَّع بها وزراء السلاطين في القسطنطينية. من الواضح حقاً أن قارب المُتسلِّم مُغَطَّى، إذ لا يمكن تحمُّل حرارة الجو العالية دون ستارة تقي أشعة الشمس المنعكسة على سطح الماء.

---

(١) شارل دو فيريول (Charles de Ferriol)، (١٦٥٢-١٧٢٢): السفير الفرنسي لدى الباب العالي (١٦٩٢-١٧١١)، خلال حكم السلطان أحمد الثالث (١٦٤٨-١٦٨٧) والملك لويس الرابع عشر (١٦٤٣-١٧١٥) [أ.ع.].



وعند الظهرية مَرَرنا أمام صرْحٍ من الأنقاض لمبنى قديم للغاية. وفي كل مكان على إمتداد الضفة وحتى «القرنة» كُنَّا نشاهد حواجز دائرية مصنوعة من القصب أو من جريد النخيل لصيد السمك. فالمدُّ يؤدي إلى رفع مستوى المياه في «شط العرب» لمسافاتٍ بعيدة، فيقوم الصيادون برمي ما يشبه العجينة المصنوعة من الطحين والزُّبد ومرارة العجل أو الخروف مع الزَّهر، وهو نوعٌ من السموم التي تشهيهها الأسماك، بعد أن يحملها المد داخل الحواجز. وبعد الجزر تظل تنزف وهي شُبه ميتة.

تركنا السيد «لاتوش» بالقرب من قناة «ستييان» التي تُشكِّل جزيرةً كبيرةً يسكنها العرب من قبيلة «بني كعب»، وهي محاطةً بالنخيل وتكثر فيها زراعة الشلب (الرُز). وركبنا سفينتنا التي يجرُّها الرجال لنكمل طريقنا حتى في أثناء الليل، ومَرَرنا أمام قرية «نهر عمر». وكان لدينا ستة رجال يتناوبون سحب القارب في كل الساعات، ثلاثة في كل مجموعة. ويُطلَق على تلك المحطَّات أو المواقف اسم «يدك»<sup>(١)</sup>. ويتمُّ احتساب المسافات بعدد تلك المحطَّات. ويُعاني هؤلاء الساحبون الكثير من التعب، فغالباً ما يكونون داخل المياه والأوحال.

تُوجد بين البصرة والحلَّة ثمانون محطةً، أي ما يُعادل نحو مئة وعشرين فرسخاً. وعلى بُعد فرسخ واحد لاحت لنا قرية «الدير»<sup>(٢)</sup>، التي شاهدنا فيها مسجداً

(١) يدك: كلمةٌ عامية تعني الإحتياط. وعندما تقول هذه الحاجة يدك يعني اجعلها احتياط واستخدمها عند الحاجة - محطات أو مواقف احتياطية [المترجم].

(٢) الدير قريةٌ كبيرة تقع في الساحل الجنوبي من شط العرب، وعلى مسافة تبعد عن البصرة بنحو

٢٢٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

ومنارةً من دون باب وبلا قبة. وقد نَقَلَ الملائكة هذا المسجد إلى هنا. ويقول العرب أن الأرواح الشريرة تسكن فيه. وهناك قرية أخرى اضطُر أهلها إلى النزوح عنها.

وبعد «الدير» مررنا بقريةٍ لعرب «الزيدية»، وأبعد منها بكثير، على الضفة الأخرى، شاهدنا قرية «سويب»<sup>(١)</sup> التي يحتلها الفرس حالياً، وهي تقع عند مدخل نهر أو قناة صغيرة ترتفع فيها مياه المد.

٢٩ أيلول / سبتمبر: في نحو الساعة الرابعة، تجاوزنا حد بلاد ما بين النهرين الذي تقع عليه «القرنة»، فأدّينا التحية برشقة من البنادق إشارة إلى أن سفينتنا مُخصّصة لنقل البريد وليس فيها بضائع ولا يتوجّب علينا أن ندفع شيئاً من أجل المرور. وتبلغ

---

يوم واحد. ويُشاهد فيها تلٌّ كبيرٌ يتألف من خرائب مدينة كبيرة كانت تعود للبرتغاليين، ولكن لم يَبْقَ من أبنيتها القديمة سوى منارة جميلة هي المنارة الوحيدة التي تُصادف خلال الرحلة كلّها من البصرة إلى الحلة. رحلة نيبور الكاملة إلى العراق: مشاهدات نيبور في رحلته من البصرة إلى الحلة سنة ١٧٦٥م، ترجمة: سعاد هادي العمري، شركة دار الوراق، (بيروت، ٢٠١٢)، ص ١٠٥. ص ١٠٥ [أ.ع.].

(١) السويب قرية من قرى البصرة تقع في الجهة الشمالية من شط العرب، ويمرُّ بها نهر السويب الذي ينحدر من الحويزة. وتحدّث نيبور (رحلته الكاملة، ص ١٠٥) عن وجود آثار مدينة مهمه هناك في الماضي. وسبق للرحالة التركي سيدي علي ريس أن مرَّ بها في أثناء مروره بالعراق بين (١٥٥٣-١٥٥٤). أما الآن فهي ناحية تابعة لقضاء القرنة وأراضيها محاذية لإيران عن طريق الحويزة. أما نهر السويب المذكور فيبعد عن البصرة نحو (٣٠) ميلاً إلى الشمال من الجهة الشرقية من شط العرب. انظر: علاء موسى كاظم نورس، حكم المماليك في العراق ١٧٥٠-١٨٣١، دار الحرية للطباعة، (بغداد، ١٩٧٥)، ص ٢٠٢-٢٠٣ [أ.ع.].

المسافة ما بين القرنة البصرة خمسة عشر ميلاً<sup>(١)</sup>. ولهذا المدينة وضواحيها مرأى جميلاً للغاية من جهة نهر دجلة، إلا أننا لم نَتعرَّف فيها على «جَنَّةِ عَدَن»، إذ لا يُوجد فيها سوى بعض النخيل وأشجار التوت. وكانت ضفتا هذا النهر الكبير مليئتين بالنخيل قبل الحروب التي دارت بين الفُرس والأتراك وكادت أن تدمرها بالكامل. والشاطيء مُنخَفِضٌ ويصبح أكثر انخفاضاً عند دخوله في نهر الفرات. ولا يَتَمَكَّنُ رجالنا من سحب سفينتنا إلا على جهد كبير.

يتنشر الكثير من القصب والبردي في كُلِّ مكان على نحو شائع جداً، ويُعد مصدراً للتجارة، ويُصنَع منه الحصير الذي يُباع في البصرة ويُستخدم في تغطية الأرضيات. وتَتكوَّنُ بعضُ خيام عرب الصحراء من هذا القصب الطويل. أما القصب الصغير فتُصنَع منه الزوارق الطويلة والنحيف التي يقودها شخص واحد. والقصب السميك يُستخدم كمجاديف. وهنا يصبح نهر الفرات عريضاً، فضلاً عمَّا يمتاز به من هيبة مثل «شط العرب». وفي كُلِّ مكان تُوجد طيور الماء، ولا سيما اللقالق، وبأعداد كبيرة.

بعد ذلك شاهدنا قرية تُسمَّى «جرف اليهود»<sup>(٢)</sup>، ويسكنها العبريون منذ قديم

---

(١) ذكر الرحالة البرتغالي السيد بيدرو تيخيرا أن القرنة آخر نقطة من بلاد ما بين النهرين، وتقع على بعد ثلاثة أيام شمالي مدينة البصرة. رحلة بيدرو تيخيرا ...، ص ٢٨ [أ.ع.].

(٢) وَرَدَتْ في النص بصيغة (la rive des Juifs)، وربما يقصد الصابئة لأنَّ اليهود لا يسكنون هناك [المترجم].

٢٢٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةٍ أجنبيّة

الزمان. ومن المُحتمَل أن بعض الأقبام الإسرائيليّة لا تزال تعيش في بيوت الأجداد. وتُشاهد بالقرب من قرية صغيرة اسمها «المنصورية»<sup>(١)</sup> قناةٌ تتصل بنهر دجلة وفتحتها الأخرى بالقرب من «العمارة»، وقد اجتزناها عند الساعة التاسعة مساءً. وكان النهار فيها مُحرقاً على الرغم من أن الرياح كانت شمالية شرقية. وكانت الضفة مُغطّاةً بالذرة الصفراء التي يضطر السكان لحراستها من أجل المحافظة عليها من الطيور والحيوانات الوحشية، ويجلسون فوق أكوام قصب أكثر ارتفاعاً للذرة البيضاء، ويطلقون صيحاتٍ عاليةً ويضربون عليها بقطعةٍ من الخشب لإبعاد الطيور الضارّة. وهؤلاء الحُرّاس كأنهم أولاد الشمس، فهم يتعرّضون لها من الصباح إلى المساء دون أية وقاية.

وهنا يصبح نهر الفرات مُتعرّجاً، إلا أنه لا يزال على هيبته ومليناً بالأسمك، إذ تندفع أسماك «القَطّان» بقوة خارج الماء بضجّةٍ كبيرة. وأعتقد أن صنف «الزنجور» المشهور خلقه إلهٌ غريب الأطوار!

ويُشكّل نهر «أبو الكلبين»<sup>(٢)</sup> جزيرةً مُغطّاةً بحقول الذرة الصفراء والباقلاء. وفي الضفّة الأخرى من النهر يُشاهد أحد الأضرحة.

---

(١) كتبها الرّحالة «المنصورية» (Mansurie)، ووصفها نيبور بأنها قريةٌ كبيرة تقع على الفرات إلى الشمال من نهري عنتر وصالح. رحلة نيبور الكاملة، ص ١٠٧ [المترجم].

(٢) لم نعثر على تعريف له [أ.ع.].

[ ١٧ ] رحلة الأب دومينيكو سيستيني ..... ٢٢٧

وإلى جوار قرية «الفيلية»<sup>(١)</sup>، وهي قريةٌ محاطةٌ بالنخيل، تُوجد قناةٌ للإتصال بين دجلة والفرات. وجميع هذه القرى الثلاث أو الأربع كانت إيالات أو ممالك خاضعةً للأتراك، ويحكمها شيخٌ عربي، وأهلها منشغلون بصناعة الحصير أو غزل الأقمشة الصوفية السميقة لصناعة عباءاتهم.

---

(١) لم نعثر على تعريف له [أ.ع.].



## رحلة تايلر (١٧٨٩-١٧٩٠)

## الزبير

في اليوم السابع عشر من الشهر استأنفنا رحلتنا. وكنا نستحث الشيخ على الإسراع، فسرنا بإتجاه الشرق رأساً حتى بدت لنا أسوار الزبير (١)، فأخذنا نسير بمحاذاتها، حتى وصلنا إلى القرية التي طالما اشتقنا إليها.. وكانت أبوابها واطئة جداً بحيث لا يدخل فيها الجمل محملاً لذلك نزلنا عن مطايانا وأنزلنا الأحمال، وشرع الشيخ يصدر أوامره إلى هذا وذاك. وفي هذه الأثناء رافقنا أحدهم إلى بيت أحد أكابر القوم لنجّل فيه.

كان عوام الزبير ينظرون إلينا ونحن نسير في الدروب نظرات استغراب، مع هذا كان الإحترام والأدب باديين عليهم.

هناك أمر أعجبت به أكثر من شيء آخر، وهو شعور السكّان الطيب في هذه القرية. كُنّا لا نزال على بعد مسافةٍ غير قليلة عن الزبير، عندما نشرّ أعراب القافلة

---

(١) عن الزبير وسورها راجع مقالة علي الشريقي: بلد الزبير أو البصرة القديمة، مجلة لغة العرب (١٩٢٨) ٦ ص ٢٧٥-٢٧٩.

٢٣٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

بيارقهم الملوّنة وشرعوا يطلقون عيارات نارية، فهب سكان الزبير إلى ملاحقتنا.

لقد هرع الرجال والصبيان بالأهل والأصدقاء مُعبرّين عن حُبهم بأجمل علامات الشوق والوداد، ولم أشاهد في حياتي قط تعبيراً عن الفرح وأكثر إخلاصاً وحرارة مما رأيته هناك. إن منظرًا كهذا كان جديداً على أشخاص أوروبيين لقنوا منذ نعومة أظفارهم. إن العربَ شعبٌ متأخر، فلقد بدأ الواقع عكس ذلك، وكان المنظر مؤثراً للغاية.

إن هؤلاء الناس البُسطاء الطيبين، انفصلوا عن بعضهم منذ بضعة أشهر ليعملوا كحراس ومرشدين للقوافل، وها هم عند إلتقائهم يسرعون فيلقون أنفسهم على بعضهم ويتبادلون علامات الحب.

كان رجال القافلة كافّة، من الشيخ الوقور حتى حادي العيس البسيط، قد أخرجوا أجمل ما عندهم مما اشتروه في حلب من ثمرة تعبهم وادخارهم، ولبسوا أحسن ما عندهم من ثياب فظهوروا وكأنهم في يوم عيد، ولم ينسوا أحياءهم في الزبير، فحملوا إليهم الهدايا.

عند وصولنا إلى البيت المُعد لنزولنا، دخلنا إلى غرفة واسعة خُصّصت لنا، كانت قريبة من مثوى النساء. فقدّموا لنا أولاً القهوة ثم ورّعت علينا الغلايين، وبُسطت أخيراً أمامنا حصيرةٌ وُضِعَ عليها الطعامُ المتكوّن من بيضٍ وخبزٍ شعير.

بعد العشاء كتبت من جديد رسالة إلى السيد مانستي أطلب منه إرسال عربات لحمل أمتعتنا، لأنّ جمال القافلة لا تسير إلى البصرة بعد أن وصلت إلى نهاية المطاف أي



الزبير ... وانتظرت الجواب طويلاً حتى عيّل صبري. فأسرعتُ إلى جواد لأنطلقَ به بنفسي إلى البصرة برفقة دليل.

تجاوزنا الزبير بأربعة أميال وإذا برَجُلٍ على حصانٍ يتجّه نحونا. فلما إلتقينا أخبرنا بأنَّ المنطقة قد غرقتُ في الآونة الأخيرة بسبب الفيضان فمن المُستحيل إخراج عربات من المدينة، لذا أرسل المُقيم البريطاني جيداً ستصل بعد مدة قصيرة. وأخرج الرجل رسالة من السيد مانستي، فإذا به يرحب بنا ويدعونا للنزول عنده خلال فترة بقائنا في البصرة، ويخبرنا بأنَّ هذه المدة لن تطول نظراً لوجود سفينة من سفن الشركة (١) اسمها "انتريد" Intrepide بقيادة القبطان "جرفيس" Jervis مُستعدة للإبحار إلى الهند، وهي بانتظار رسائل من أوروبا.

كانت الأرض التي نسير عليها ونحن نتجه إلى البصرة مستوية طينية، بحيث أن الجياد كانت تسير بصعوبة، ولم نشاهد أشجاراً أو أدغالاً. وكان منظر البصرة من بعيد وكأنها قائمة في وسط بحيرة، يحيط بها النخيل. ثم لمحنا على البُعد علمَ بريطانيا العظمى يرفرف فوق المقيمة الإنكليزية. وأخيراً وصلتُ إلى البيت في الساعة الثالثة والنصف فإستقبلني السيد مانستي بمودة وإحترام ... وهذا الرجل حسبما عَلِمْتُ كان مَحَطَّ تقدير أهل البصرة وإحترامهم.

---

(١) يريد "شركة الهند الشرقية" وهي شركة احتكرت التعامل التجاري بين إنكلترا والهند، لعبت دوراً مهماً في تأريخ الإستعمار البريطاني.

٢٣٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

وبعد ساعتين وَصَلْتُ السيدة تايلى مع رفيقنا الآخر السيد بلاكيدر (١) ... وفي ذلك المساء آوينا إلى الفراش بسرعةٍ لننسى في النعاس اللذيذ أتعاب السفر وهمومه ... وفي صباح اليوم التالي نهضنا وقد استعدنا قوانا فَخَرَجْنَا لزيارة المدينة والتجول في بساينها الواقعة على شط العرب (٢)، وهو النهر الذي يبدأ بالقرنة وَيَتَكَوَّن من إلتقاء الفرات بدجلة. وتقع القرنة على بعد ثلاثة عشر فرسخاً أو أربعة عشر إلى الشمال من البصرة.

### البصرة (٣)

يَطْلُقُ العرب على البصرة اسم "الصورة" [هذا غير معروف] وهي كلمةٌ منحوتة من "بالصورة" [باصورا] التي تعني الأرض الحجرية (٤) وهي بهذا تُعَبَّر عن طبيعة الأرض التي قامت عليها هذه المدينة.

إن البصرة ليست قديمة جداً (٥) وكانت الغاية من بنائها أن تكون مستودعاً

---

(١) أن زوجة تايلى رافقته في رحلته مع الدكتور بلاكيدر.

(٢) قال تايلى: شط العطشان وقد أخطأ.

(٣) هنا يبدأ الفصل السادس من الرحلة.

(٤) البصرة في كلام العرب الأرض الغليظة التي فيها حجارة صلبة تقطع حوافر الخيل. أنظر: مجلة لغة العرب ٨ / ١٩٣٠ ص ٢٥١.

(٥) أنظر: الحسيني: العراق قديماً وحديثاً ص ١٧٣-١٨٢.

للتجارة<sup>(١)</sup>. ولذلك لم يتخذها الملوك عبر تاريخها قاعدة لهم، ولم يهتموا بهندستها المعمارية ولا تجد فيها أبنية مهمة كتلك التي تُزين عواصم الشرق.

عندما أراد الخليفة عمر في السنة الخامسة عشرة من الهجرة جمع تجارة الهند وفارس وبلاد العرب، قرّر وضع أساس مدينة البصرة في موقع قريب من ملتقى الفرات بدجلة، على بُعد ثمانين ميلاً فوق مصب شط العرب في الخليج، ولقد نجح والحق يُقال في اختيار الموقع<sup>(٢)</sup>. إذ هناك تجتمع القوافل القادمة من بلاد الفرس والعرب. وهي تحافظ على السفن التي تُبحر إلى البلاد القريبة فتكون نقطة إتصال بين هذه البلاد وساحل الهند. ولذلك قَدِمَ إليها أناسٌ من كل فج عميق: يونانيون ويهود وأرمن وهنود<sup>(٣)</sup> ومغاربة فحلوا فيها.

تقع المدينة في أرض واطئة، وهي لهذا السبب عرضة للفيضانات التي يتكرّر حدوثها، أما لإزدياد المياه وطغيانها، أو بسبب القبائل العربية نفسها التي تكسر السدّاد المحيطة بمجرى النهر، ويفعلون ذلك بُغْضاً للحُكّام أو انتقاماً منهم. وبالقرب من المدينة مستنقعات مياه<sup>(٤)</sup>، تتصاعد منها أبخرةٌ موبوءةٌ، لهذا ترى

(١) هذا وهم من المؤلف، فقد حُطّطت البصرة لخدمة الجيش في بدء الفتح الإسلامي.

(٢) لا يفكر صاحبنا إلا بالتجارة! لقد تم فتح البصرة على يد عتبة بن غزوان سنة ١٤ هـ فأخذها مُعسكراً لجيشه ثم شرع بتمصيرها بأذن من الخليفة عمر بن الخطاب.

(٣) في الأصل "البنانيون" وهم جماعةٌ من الهنود اشتهروا بمعاونة التجارة.

(٤) لعلّه يشير إلى أحد الأهوار القريبة من البصرة.

٢٣٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

وجوه السُّكَّانِ شاحبة. ويُعتَبَرُ فصل الصيفِ بحرّه اللاهب من أصعب الفصول على الأوروبيين خاصّة. وفي هذا الفصل يَحْصِدُ الموتُ عدداً كبيراً من الأرواح، فيقل عدد السكان ولا يبقى من كلِّ قومٍ إلاَّ عددٌ يسير.

يُحْمَنُ عددُ سكانِ البصرة حالياً أكثرَ بقليل من ثمانية آلاف نسمة. لكن محيط الأسوار واتساعها يدلّان على أنها كانت تضم في زمنٍ سابقٍ أكثر من هذا العدد عشرة أضعاف. ولقد ذكر أن المدينة كادت تخلو من سكانها في سنة ١٦٩١ عندما زَحَفَ الطاعون عليها، فقد قضى على ثمانين ألف ضحية (١).

يدفع النصارى في مدينتي بغداد والبصرة الجزية، أو ضريبة الرأس، وهي لا تتجاوز عن البلديتين خمسمائة كيس (٢). إن هذه المدينة، أي البصرة، انتقلت بالتناوب من سلطةٍ إلى أخرى، فَخَضَعَتْ تارةً للعرب وطوراً للفرس أو للأتراك. وهذه الأحداث المتتالية أثرت عليها وأدّت إلى انحطاطها الذي نراه حالياً.

---

(١) جاء في تأريخ كلشن خلفا في حوادث سنة ١١٠٢هـ: "وسرى الطاعون إلى البصرة أيضاً حيث فَتَكَ بالألوف إلى درجة أن الذي يموت يُدْفَنُ في مكانه لعدم وجود مَنْ ينقله" ص ٢٩٨ (ترجمة موسى كاظم نورس).

(٢) اختلف قيمة ما في الكيس باختلاف الأزمان. قال الأب الكرملّي: "كان كيس الفضة في أحسن أوقاته يساوي خمسمائة قرش وكيس الذهب عشرة آلاف قرش" (تذكرة الشعراء أو شعراء بغداد وكتّابها) بغداد ١٩٢٦ ص ٩٧ ولم يذكر تايلر ما في الكيس، أكان ذهباً أم فضة.

### البناء في البصرة

للبصرة أسوار تحيط بها، وفي هذه الأسوار أبراجٌ مُدَوَّرة. لكن لا قيمة دفاعية لها. ورئيس المدينة (١) يخضع لباشا بغداد (٢)، وليس له من الجنود والعَتاد ما هو جدير بالذكر، ما عدا كوكبة من الفُرسان تعمل لحمايته الشخصية.

لا وجودَ لفن البناء في مدينة البصرة، فهي مُهمَّلة كما أسفلنا، وبيوتها مُنخَفِضة، وهي مُشَيَّدة بالمدر الأبيض الذي لم يُفخَّر بالنار، وهو مصنوع من طينٍ فاخر نظيف للغاية، بعد أن يُخلَطَ خلطاً جيداً بالتبن وروث الخيل. تُخلَطُ هذه المواد مع الطين وتُعبَجَن جيداً، ثم تُقسَم إلى قطعٍ حسب الأحجام المطلوبة وتُعرَض من ثم للشمس لتجف وتتماسك. وأنَّ القوم مُضطَّرون إلى إتباع هذه الطريقة لإفتقارهم إلى الأخشاب في تلك الأنحاء. والخشب الوحيد المتوافر لديهم هو خشب النخيل لكنه رخو ضعيف فلا فائدة تُرجى منه.

### فواكه البصرة

من جهةٍ أخرى تَميَّز البصرة ببساتينٍ جميلة، وفواكه لذيذة. فأهل البصرة يزرعون الوردَ بكمياتٍ كبيرة ويستقطنونه، وماء الورد الذي يُستقطن في البصرة يُعتبر من أجود الأنواع ويُصدَّر إلى مُختلف البلاد حتى الهند وحلب، وإلى جميع الأمصار التي

(١) كان في ذلك العهد عيسى بك المارديني وبقي يحكم البصرة إلى سنة ١٢٠٨ هـ (دوحة الوزراء ص ٩٠) ويُطلَق عليه عادة اسم "مُتسلَّم المدينة".

(٢) يريد والي بغداد، وهو آنذاك سُليمان باشا بك أي الكبير.

٢٣٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

لها علاقة تجارية مع المدينة.

إضافة إلى ما ذكرت، ففي البصرة أنواعٌ مختلفة من الفواكه منها: الخوخ والتمر والتفاح والأجاص والعنب. وكمياتها وفيرة. وبالرغم من مناخ البصرة الذي لا يرحم فهي مدينة ساحرة.

قد يستغرب القارئ هذا الوصف، خاصّة بعد أن يعلم أن الصحراء تمتد إلى أبواب المدينة تقريباً. لكن البساتين الواسعة الموجودة داخل الأسوار والمنتشرة خارجها تُجهّز السكان بكمياتٍ كبيرة من مختلف أنواع الخضروات التي يحتاجون إليها.

يصطاد السكان في النهر أفخر أنواع الأسماك. كما أن البادية مليئةٌ بالصيد البري. فهناك في الأراضي المجاورة للمدينة عددٌ كبير من الخنازير الوحشية، وطيور الحجل ودجاج البر والحداق.

ويهتم السكان بتربية الماشية داخل المدينة، منهم يتقنون طرق تسمين الأغنام، ويُربون في أفنية البيوت الداخلية أعداداً كبيرة من الطيور. وإلى جانب هذه اللحوم اللذيذة المتوافرة هناك، فعندهم أجود الخمور الفارسية المُستوردة من شيراز، تلك الخمور التي طالما تَغنى بها الشاعر حافظ (١).

بعد هذا الوصف الطويل لا بُدَّ أن القارئ يرى القائمة الطويلة التي تحتوي على

---

(١) حافظ الشيرازي (شمس الدين بن محمد) شاعرٌ إيراني مشهور (١٣٢٠-١٣٨٩م).

كل ما لَدَّ وطاب في البصرة<sup>(١)</sup>. بل أضيف إلى كل ذلك إني وجدت خمراً بوركونية الشهر<sup>(٢)</sup> وقد وَصَلَ إليها من ساحل البحر الأبيض المتوسط بعد أن قطع الفيافي على ظهور البعران. لكن هذا الصنف العزيز لا يَتَمَتَّع به سوى المقيم البريطاني.

### تجارة البصرة

إزدهرت التجارة في البصرة كثيراً على أيام الخلفاء. فقد أصبحت مستودع البضائع التي كانت تأتي إليها من الهند عن طريق الخليج. ثم تنتقل منها بواسطة الجمال إلى البحر الأبيض المتوسط. أو إلى بلاد العرب، وإلى أقصى المناطق في إيران.

ثم كان اكتشاف رأس الرجاء الصالح بمثابة ضربة قاصمة على تجارة البصرة خاصة في علاقاتها التجارية مع أوروبا. ومن الأسباب التي أدَّت إلى انحطاط تجارتها مُعاملة الأتراك الشرسة وجهلهم طرق تعاطي الأمور التجارية. كل ذلك أدى إلى إضعاف العلاقات مع آسيا. وتكاد التجارة تكون محصورة في البصرة في أيادي الأرمن الذين يخضعون إلى ضرائب عالية.

يتعاطى الأوروبيون الساكنون في البصرة بيع كميات قليلة من البضائع التي يستوردونها من "سورات"<sup>(٣)</sup> والأقمشة التي تُصنع في البنغال وبعض الأقمشة

---

(١) يكثر صاحبنا من ذكر الطعام والشراب في رحلته، ولو أننا لم نترجم دائماً تلك الفقرات لِقَلَّة قيمتها. والظاهر أنه كان تهماً أكولاً.

(٢) إقليم في شرق فرنسا، اشتهر بصنع الخمور الجيدة.

(٣) مدينة في الهند.

الإنكليزية الصنع.

إن الأرباح التي تُجنى من هذه التجارة لا تُفني بالمصاريف الكبيرة التي تُنفق على المقيمة وما تتطلبها من خدمات، ولكن وجود المقيمة ضروري للإبقاء على العلاقات مع الجزيرة وتنظيم الإتصالات والرحلات البرية مع المُستعمرات الإنكليزية في الهند. للأتراك في البصرة مجموعة سفن في نهر الفرات هي قوتها البحرية، ويرأسها موظف يحمل لقب "قبطان باشا" ويخضع لوالي بغداد مباشرة. وله تحت سلطته خمس سفن ذات أهمية، وأعظم هذه السفن مُجهّزة بخمسين مدفعاً. وهناك سفن أخرى صغيرة أقل أهمية من السابقة غايتها حماية السفر الداخلي وتنظيمه. والحقيقة إن جميع السفن بصورةٍ عامّة هي في حالة سيئة من جميع وجهات النظر.

### الطاعون

كُنْتُ قد ذَكَرْتُ آنفاً أن الطاعون يعيثُ فساداً ودماراً في هذه المدينة. ولقد حسب أهل المدينة فترة ظهوره فقالوا إنه يأتي كل تسعة عشر عاماً. وجديراً بالذكر أن هذا المرض الوبيل يقل إنتشاراً كُلّما توغلنا في الشرق. ويُروى أن ظهوره له علاقة بالبيئات التي تزرع الزيتون وتنتجه. ففي الهند مثلاً—حين لا يعتنى بالزيتون— لا أثر له تقريباً. بينما يظهر كثيراً في القاهرة وإسطنبول فيحصد الأرواح بصورة هائلة.

ليس في البصرة ما يجلب نظر الزائر. لكن لا بأس أن نذكر طريقة فريدة في بناء وسائل عبور الأنهار التي يستعملها السكان. هذه الوسيلة هي عبارة عن قِفاف في أحطاب مُتشابكة مُغطّاة بالجلد تُصنَع بشكلٍ مدور. إنها غير مريحة لكنها آمنة ولا



تقل فائدتها عن القوارب الكبيرة التي تَتَطَلَّبُ إعتناءً بالغاً في صنعها. ويستعينون بمجذاف طويل ليمخروا في الفرات المعروف بسرعة جريانه. إن بناء هذه الأنواع من المواخر يرجع إلى عهدٍ سحيق، إذ نجد أثارها في مُحَلِّفات ملوك بابل.

### القِباب البصرية

نظراً لإفتقار أهل البصرة إلى الأخشاب، فإنهم عندما يريدون بناء قبة أو إقامة قوس، يُصمِّمونَ القوس نصفين متساويين على الأرض. ويضعون الآجر إلى بعض ويستعملون الملاط، ثم يرفعون النصفين إلى المَحَلِّ المُقرَّر لوضعهما ويُثَبِّتون في نقطة إلتقائهما قطعة كبيرة وسطية تكمل العمل وتقويه. وهذه الطريقة في العمل جيدة، فالأقواس التي تُبنى على هذه الطريقة تَتَحَمَّلُ ثِقَلاً كبيراً.

### انطباعات عامّة عن العرب

إن فترة مكوثي في البصرة أتاحت لي الفرصة والوقت المقتضى لأتم ملاحظاتي عن طِباع العرب وعاداتهم وأخلاقهم. ولعلَّ السُّيَّاح الذين حلَّوا في هذه المدينة مدةً أطول مني استطاعوا التعرّف عليهم أحسن مني. مهماً يكن من أمر فلا بأس بأن أُبيِّن رأيي في حقهم بكل صراحة وسلامة نية. وإذ أكتب هذه الملاحظات، فإنَّ روحي لا تزال متأثرة بالانطباعات التي أخذتها عن هذه الأمة العجيبة.

يتفق الجميع على القول بأنَّ العرب يَتَحَلُّون في قبائلهم بصفات اجتماعية عالية، ومن هذه الصفات: الإلتزام بالعهود التي يقطعونها على أنفسهم. والإعتزاز بإكرام لا حدَّ له للضيوف الذين يقصدونهم ليتقاسموا وإياهم الحياة البسيطة. وحماية الغرباء

٢٤٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةٍ أجنبيّة

الذين يسعون إليهم.

إن مختلف الأقوام في أرجاء المعمورة كافة، لها عادات توارثتها منذ أقدم العصور. وهذه العادات تخضع لمؤثراتٍ عديدة تتكوّن من عوامل مختلفة كالمناخ والأرض وحالة الاستقرار في البلاد التي يسكنون فيها. هذه العوامل لها أثرها في العرب أيضاً. وإنطلاقاً من هذه الفكرة يمكننا أن نُقسّم العربَ إلى طبقاتٍ مختلفة، طبقاً لإختلاف أماكن وجودهم. فهناك:

١- عرب الصحراء (البدو).

٢- العرب الذين يزرعون الأرض على ضفاف الأنهر الكبيرة.

٣- العرب الذين يعيشون في المدن (الحضر).

٤- قُطَاعُ الطُّرُق المتشردين (\*).

فالقبايل البدوية الضاربة في أعماق الصحراء تُذكّرنا بما كان يُروى عن الآباء الأقدمين. فهم يعيشون ضمن تجمعات عائلية، ويتنقلون من منطقةٍ إلى أخرى سعياً وراء الماء والكلأ لأجل مواشيهم. هؤلاء يعشقون الحرية وهم لذلك يُفضّلون العيش في البيداء التي لا تحدّها حدود فيتوجّهون حيثما يطيب لهم دون التقيّد بمسكنٍ دائمٍ... أما في المناطق القريبة من المدن الكبرى، حيث تتجاوب الأرض مع الحاجة

---

(\*) وكان هؤلاء معقد الاستهجان، والعرب براءً منهم وسوف نجد رحالتنا عند حديثه عنهم في صفحة قادمة يؤكد ما ذهبْتُ إليه.

الزراعية، كما في سهول سوريا، فإنَّ أعراب تلك المنطقة يتحلُّون بالطيبة والمسالمة، وينزلون إلى أسواق المدن القريبة ليبيعوا منتجات مواشيهم الفائضة عن حاجتهم كالحليب والسمن، وأثمار أراضيهم. وهذه الطبقة نافعة للخير العام ولهذا فإنَّ الآخرين، أي سُكَّان المُدن يشجعونهم ويحافظون عليهم.

أما الصحراء الممتدة بين حلب والبصرة فهي أرض قاحلة جداً، لا يستطيع العربي استثمارها في شيء من أجل معيشته، فهو يلتجئ إلى عملٍ أي شيء آخر ليعيش مهماً كان نوع هذا العمل، المهم أنَّه يحاول. ومن الأعمال التي يتعاطاها أنه يسير كدليل للقوافل التي تقطع صحراء لقاء مبلغ يتم الإتفاق عليه. وهو أمين في وعده متى وعد لا يخلف أبداً. وبإستطاعة التجار أن يسيروا في حمايته بدون خوف.

ولكن عندما توسَّعت التجارة. أخذت القبائل تتنافس في هذا المجال. فخلق هذا التنافس عداوة بينهما وكان له أثره السيئ على التجار أيضاً. بيد أن هذه العداوات الداخلية أخذت بالتقلص بعد أن توصلَّ العرب إلى إتفاق داخلي. وهو إنهم عَيَّنوا مُمثلاً عنهم في حلب يجذب التجار ويجمعهم ويعددهم للسفر، ويزودهم بوثائق مرور، ويأخذ منهم أجراً يُوزَّع على كافة الشيوخ الذين تسير القوافل ضمن أراضيهم.

وقد اشتهر في هذا العمل أهالي الزبير. والزبير كما نوهنا سابقاً بلدة صغيرة مُسَوَّرة، تبعد عن البصرة ثمانية أميال. ويتنصَّف أعراب هذه المنطقة بأنهم يتمسِّكون بالعمل من أجل نفع الذين يدفعون لهم. وهم يخضعون لشيخ المتفق المسيطر على ضواحي البصرة. وهو بالطبع يستفيد من كل البضائع التي تمر في منطقتة.

٢٤٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

أما العرب الذين يسكنون على ضفاف النهرين: دجلة والفرات فتتلخّص طباعهم في أمرين: القسوة وإنتهاز الفرص إذا ما واتتهم لسرقة الغرباء. فلا تنجح فيهم إلّا القوة ... ويرجع سبب إختلافهم عن البدو إلى وجودهم في مساكن ثابتة جعلهم يخضعون لِنير الحكم التركي الثقيل، فإقتبسوا من الأتراك عادات سيئة وتطبعوا بطباع لا يقبلها البدوي.

يعمل أفراد هذه الطبقة في زراعة النخيل، وتربية المواشي، ويُفلاحون الأرض، ويهتمون بزراعة الشعير. وتنتشر قُرَاهم على ضفاف الفرات، متناثرة بين غابات النخيل وتمتد الأراضي التي يعتنون بزراعتها على مدى نحو ميل من الشاطيء لا أكثر، تليها الصحراء الجرداء.

الطبقة الثالثة هي سُكّان المدن ويتصفون بالإعتداد والإعتقاد بالخرافات والتظاهر بالتقوى، وعدم الثقة بالغرباء. إن هذه الملاحظة تعتمد على رأي "مونتسكيو" (١) القائل بأنه على قدر ما يتكاثر أفراد المجتمع بقدر ذلك تنتشر بينهم صفات الشر ...

أما الطبقة الرابعة فهي مُتكوّنة من قُطّاع الطُرق المتشردين. وهذه الجماعة تشجعها القبائل الأخرى. ولحسن الحظ فإنّ عدد هؤلاء قليل.

---

(١) Montesquieu مفكّرٌ فرنسي (١٦٨٩-١٧٥٥) له مؤلفات عديدة كان لها تأثير في رجال الثورة الفرنسية.

أعراب الصحراء هم خير الأزواج ونعم الآباء. وهم ضمن قبائلهم أمناء نحو نظامها يعشقون الحرية ويتمسكون بوعودهم بأمانة تكاد تكون دينية. فإذا انفصلوا عن قبائلهم تغيّرت أخلاقهم ومالوا عندئذ إلى الشر ... إن الطبيعة وهبتهم حب الحرية وهم لهذا يرفضون الخضوع للظلم.

يتصف العربي بقناعة مُدهشة، وتقتصر حاجياته على أشياء قليلة - فلباسه بسيط، ويسير في الصيف شبه عارٍ، بينما يتدثر في الشتاء بألبسة مصنوعة من الصوف أو الوبر. أما الرؤساء فيطلبون القماش الجيد والكوفية القطنية أو الحريرية والخفاف التركية الملونة، خاصّة عندما يكونون في سن المشيب. ويعتنون اعتناءً كبيراً باقتناء السلاح وهم يفضّلون المسدسات الأوروبية والسيوف الدمشقية والبنادق الحلبية التي تشعل بالفتائل.

لا يقرب العربي المشروبات الروحية أبداً. وطعامه بسيط أكثره من الشعير. ويكثر من أكل التمر واللبن ... ويُقِلُّ من تناول اللحوم، إذ هم لا يذبحون الغنم إلا نادراً. وهم صيادون مهرة ولذلك يأكلون لحم طرائدهم كالأرانب ... يتناولون القهوة عدة مرات في اليوم، ويدخنون الغلايين التركية ... وتنحصر ملذاتهم في هذه الأشياء البسيطة.

لهم قطعان كبيرة من مختلف المواشي. يبيعون جيادهم في أسواق المدن الكبرى كالبصرة وبغداد وحلب ودمشق. ويحافظون على الأفراس لتكثير النسل. ويُربون جنساً من الحمير قوي الجسم يتحمّل العيش في الصحراء، ويستعملونه لحمل الملح إلى

٢٤٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

المدن الداخلية. لكن أحسن حيواناتهم هي دون شك الجمال فهي حيوانات الصحراء الأصلية.

ينتشر الحَجَل بكثرة في أطراف حلب ... وقد يظهر في الصحراء ولكن ليس في فصل الصيف، ويجتمع بالقرب من الينابيع والعيون ... كما يُوجد الحداف والبط الصحراوي وأنواع الطيور الأخرى التي تنتقل في مجموعات.

أما الحيوانات المفترسة فهي قليلة في تلك الأنحاء: فهناك عددٌ من السباع على ضفاف الفرات، كما تُوجد الضبّاع، وقد في الصحراء أيضاً نبات آوى وعدداً من الأرناب واليرابيع.

## مغادرة العراق

في الرابع والعشرين من شهر كانون الثاني [١٧٩٠] ركبنا البحر على متن سفينة من أسطول الشركة اسمها "انتريد" وكانت مُسلّحة بأربعة عشر مدفعاً، وتحت قيادة القبطان جريس، لنسافر إلى الهند.

مررنا صباح اليوم التالي مواجهين البصرة القديمة فرأينا آثارها ماثلة على بعد نصف فرسخ من النهر على الضفة المجاورة للأراضي الإيرانية، وقيل لنا عن هذه المدينة إنها كانت عظيمة الشأن واسعة الإرجاء في سالف الزمن.

## نصائح عملية للرحالين (١)

من السهل أن تجد في البصرة رجالاً يقومون على خدمتك ويرافقونك في الرحلة، يتكلمون التركية والعربية وقليلًا من البرتغالية كما يلفظها أهل الهند، وبعضهم يتكلم اللغات الإفرنجية (٢) (المنتشرة في حوض البحر الأبيض المتوسط). وإن وجود مثل هؤلاء الأدلاء مفيدٌ جداً في السفر، ويرافقك الدليل إذا دفعت له مبلغاً زهيداً لا يتعدى ستين روبية (٣) للرحلة كلها.

إذا أراد السائح السفر من البصرة إلى بغداد بطريق النهر، فعليه أن يختار شهر كانون الثاني إذ يكون نهر دجلة، والفرات أيضاً في انحدارٍ هادئ، لأنّ مياههما تتكوّن في ذلك الوقت من ذوبان الثلوج وليس من سقوط الأمطار. ويكون المناخ طيباً في ذلك الموسم. وباستطاعة الأوروبي الذي لم يتعود على المناخ الحار جداً أن يتحمّله.

ويستغرق السفر من البصرة إلى بغداد بالنهر خمسة عشر يوماً. وتتم السفارة بواسطة سفنٍ شراعية، فإذا هبَّ الريح تُنشر الأشرعة وإلا فأنهم يضطرون إلى استعمال المجاديف.

إن أول ما يُصادف المسافر بعد مغادرته البصرة بطريق النهر هو "القرنة" حيث يلتقي النهران: دجلة والفرات. وتقع القرنة على بعد أربعين ميلاً شمال البصرة.

(١) تركنا ما لا شأن لنا به من الرحلة وأتينا على نهايتها نترجم المفيد منها.

(٢) قال في مواضع أخرى من الرحلة أنه يعني باللغات الإفرنجية: الفرنسية والإيطالية.

(٣) نقدٌ هندي من فضة.

٢٤٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

وللحكومة في تلك المنطقة أسطول من السفن تصنعه هناك للمحافظة على الأرض والتجارة النهريّة. وهذه المدينة ثلاثة حصون: أولها مقام على أرض بارزة في النهر، والثاني مواجه لأرض كلدية والأخير يقع بإتجاه بلاد العرب<sup>(١)</sup>. ويستغرق السفر من البصرة إلى القرنة ١٢ إلى ١٤ ساعة.

ويمر المسافر بعد القرنة بالأماكن التالية:

الجزائر<sup>(٢)</sup> (Gazar)

مزار<sup>(٣)</sup> (Mazar) [هي المذار وليس المزار]

المنصورية<sup>(٤)</sup> (Mansoury) وهي بلدة كبيرة

... (Satarat) ولها قلعة مبنية بالآجر

العِمارة (Amarat) ولها قلعةٌ مُماثلة

بغداد (Bagdad) وهي مقر الوالي.

ومن الأماكن الجديدة بالزيارة، بقايا طيسفون التي تُسمّى اليوم "كسرى"<sup>(٥)</sup>

---

(١) الأعظمي: تاريخ البصرة ص ١٣١ في الحاشية.

(٢) هي الجزائر المتكوّنة من سواعد شط العرب وتشتمل على قرى عديدة [الجزائر المقصود بها الأهوار].

(٣) لعلّه يشير إلى مزار العزيز المعروف [هي ليس المزار بل المذار وتقع بعد منطقة العزيز].

(٤) إن الاسم يشير إلى "الشطرة" ولكنها ليست على دجلة وبعيدة كل البعد عن العِمارة.

(٥) هكذا في الأصل إذ لم يذكر طاق كسرى، أو إيوان كسرى، وفي الخريطة المنشورة مع الرحلة كتب



فمن المتعة للسائح أن يزورها، وهي بعيدة نسبياً عن بغداد ... إن أسوارها تدل على عظمتها السابقة، وهي مُشَيِّدة بأجر مفخور بالنار هائل الحجم. حجم كل قطعة نحو عشرة أقدام مَرَبَّعة وسمكها ثلاثة أقدام. أما عرض الجدران فكبير جداً بحيث يمكن أن تمر ستُّ عرباتٍ عليها. إن مقارنة أبنية كهذه بما يشيد اليوم يجعلنا نندهش إلى أقصى حد من الأقدمين كيف استطاعوا إنجاز مُعجزاتٍ كهذه.

إني أنصح المسافرين أن يتمنوا بكمياتٍ من خبز البصرة، فهو أجود أنواع الخبز في البلاد.

باستطاعة المسافر أن يذهب من بغداد إلى كركوك Karkuk, Thourkat مُسْتَعْرِقاً ثمانية أيام، ومن هناك يُكْمِل الطريق إلى المُوصَل في أربعة أيام. ولكركوك موقع حصين. وعلى المُسافر - كما أرى - أن يقضي فيها يومين ليتزوّد بالزاد الضروري لأربعة أيام، وهي المدة التي يستغرقها السفر إلى المُوصِل.



## رحلة الفرنسي أوليفيه سنة ١٧٩٤

### حصار البصرة:

في أيام ولاية عمر حاصر كريم خان<sup>(١)</sup> البصرة سنة ١٧٧٥

كان سليمان والي بغداد مُتسلماً على البصرة يومذاك، فأحكم الحصار بمهارة مدة ثلاثة عشر شهراً، وبما أن ترفيع سليمان إلى هذا المقام<sup>(٢)</sup> يرجع إلى دفاعه عن المدينة،

---

(١) كريم خان من قبيلة الزند، كان أحد الذين تنازعوا على السلطة في فارس بعد مقتل نادر شاه، أصبح سنة ١١٧١ هـ (١٧٥٧ م) الحاكم الذي لا يُنازع، بوصفه وصياً على العرش، ثم دَخَلَ في نزاعاتٍ مع والي بغداد وهَدَّد البصرة والشمال، وتَمَكَّنَت القوات التي أرسلها بقيادة أخيه صادق خان من الإستيلاء على البصرة سنة ١١٩٠ هـ (١٧٧٦ م)، ثم توفي كريم خان الزند سنة ١١٩٣ هـ (١٧٧٩ م)، وأخَلَّت قواته البصرة وعاد أخوه صادق ليتنافس مع غيره على تولي الحكم في بلاده.

(٢) سليمان آغا (ثم باشا) من مماليك والي بغداد أحمد باشا بن حسين باشا ولد حوالي (١٧١٦ - ١٧٢٠)، وترَقَّى في المناصب وعيِّن مُتسلماً في البصرة سنة ١١٧٩ هـ (١٧٦٥ م)، ونُقِلَ منها بعد ثلاث سنين ثم أعيد سنة ١١٨ هـ (١٧٧١ م)، وكانت الأمور مُستقرَّة والتجارة رائجة وحدث الطاعون المروع سنة ١١٧٨ هـ (١٧٧٣ م) وكان الخطر الفارسي المتمثل بخطط كريم زندي وأخيه صادق، يهدد البصرة، فأسرع المُتسلَّم إلى اتخاذ الإجراءات اللازمة للدفاع، وهاجم صادق زند البصرة سنة ١١٨٩ هـ (١٧٧٥ م) وتَمَكَّن دفاع المدينة الذي شارك فيه الجميع من

٢٥٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

فإننا سنذكر بعبارة وجيزة أهم أحداث هذا الحصار، تَسبَّب كريم خان، وهو أحد مغتصبي عرش فارس، في نشوب خلافات مع عمر والي بغداد، وذلك بسبب من الزوار الذين يمرون في هذه المدينة للذهاب لزيارة ضريح الإمام علي، حتى أنه طَلَب من الباب العالي رأس عمر، وهَدَّد بأنه سيرسل جيشاً إلى دجلة والفرات إذا لم يُلبَّوا طلبه، وإذا لم يلغوا الضريبة التي كان الباشا قد فَرَضَها على كُلِّ حاجٍ وهي أربعة قروش.

---

صد الهجوم الأول، ولكن الإيرانيين استمروا بمحاصرة البصرة ولم تأتِهم نجات من ووالي بغداد عمر باشا، فاضطرت القوات المدافعة للاستسلام، وأُسر المُتسلِّم سُليمان آغا وجماعته من أعيان البصرة سنة ١١٩٠هـ، و حَدَّثَتْ بعدها اعتداءات فارسية كثيرة واصطدام بين قبائل المنتفك والفُرس وخسر فيها الفُرس خسائرَ كبيرة، وبقي سُليمان آغا في الأسر في شيراز أربع سنوات ثم عاد إلى البصرة، ومنحه السلطان رتبة الميرميران، ثم عُيِّن والياً على بغداد برتبة وزير سنة ١١٩٤هـ (١٧٨٠م)، وقد شارف على الستين من عمره، واستقرَّت الأحوال في بغداد في عهده الطويل وازدهرت التجارة، ولكن حَدَّثَتْ اصطدامات كثيرة بين قوات الولاية والقبائل التي كانت في نزاع مع السلطة، وحدثت مجاعة في بغداد أدَّت إلى اضطرابات قضى عليها، ثم اتفقت القبائل على التعاون فيما بينها وتمكَّنوا من السيطرة على البصرة، ولكن سُليمان باشا سار بقوات كبيرة وتمكَّن من إعادة السلطة إليها في ١٢٠٢هـ (١٧٨٧م) ثم حدث عصيان مُتسلِّم البصرة وعصيان آخر قام به حاكم كركوك بالتعاون مع البابانيين، وتمكَّن الوالي من اخضاعها وضرب تيمور باشا الملي في منطقة ماردين، ودخل في نزاع مع الوهابيين سنة ١٢٠٦هـ (١٧٩١م)، وأُصيب بمرضٍ طويل ثم شُفي منه وتُوفي بعد ذلك في سنة ١٢١٧هـ (١٨٠٢م). (دوحة الوزراء، غاية المرام، وتاريخ المالك الكولة مند، العراق بين احتلالين، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث).

إن الباب العالي الذي يتباطأ حتى حين يتهدّد الخطر مصالحه، أو حين يطعن في كبريائه، لم يكن مُستَعِدّاً للحكم على أحد كبار موظفي الإمبرطورية، ولا على ملك فارس، دون أن يستمع إلى الأول وأن يعرف الأسباب الحقيقية التي جعلت الآخر يتصرّف هكذا.

غير أن كريم الذي كان يبغى ذريعة لكي يشن الحرب، وكان يَعْرِفُ جيداً أنه لن ينال حظوة لدى أولئك الأفراد إلا بالاستيلاء على بغداد والبصرة، وعلى الأماكن التي تضم رفات أكرم الأولياء، نراه يُجهّز جيشاً مُكوّناً من خمسين ألف رجل، عهد بقيادته إلى أخيه صادق خان، وأمرهم بالتوجّه إلى البصرة وضرب الحصار عليها.

ولما علّم سليمان مُتسلّم البصرة بإستعدادات كريم خان، جَمَعَ بسرعةٍ مؤونة وذخيرة تكفي لمدة سنة، وسلّح نحو خمسة عشر ألف رجل من الإنكشارية، وكان يُمني نفسه أن يتمكّن منهم، إما من رفع الحصار، أو الانتظار حتى تتم أية محاولة من قبل الباشا فيرسل لهم المعونة، لقد كانت أسوار المدينة جيدة على الرغم من أنها من طين، وهي مُحصّنة بمائة مدفع ذات عيارات مختلفة، كما أنها كانت مُحاطة بقناة عريضة متصلة بالنهر، وكان الأهالي كُلُّهم مستعدين لدعم حاكمهم الذي كانوا يقدرون مهارته ويمتدحون مزاياه الخلقية.

كانت البصرة تضم يومذاك داخل أسوارها أكثر من أربعين ألف نسمة، أما اليوم فلا يكاد يُوجد فيها خمسة عشر ألفاً، أما نطاقها فأوسع بكثير من سكانها، إذ يبلغ عرضها ألفاً وخمسمائة أو ألفاً وستمائة خطوة هندسية على إمتداد شط العرب، وطولها

٢٥٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

ثلاثة آلاف خطوة من المسافة (١). ولا يكاد يكون ربع هذه المساحة فقط مشغولاً بالبيوت، أما الباقي فليس فيه سوى حدائق وسهول مزروعة بالقمح والقطن أو مغروسة بالنخيل.

وتدخل ضمن النطاق المذكور آنفاً الضاحية أو القرية المعروفة باسم المناوي (٢)، وهي واقعة إلى جانب النهر، ولها سورٌ مُحصّن أيضاً أما البيوت التي تُشكّل البصرة بالمعنى الدقيق فهي التي على بعد نصف فرسخ من النهر، مُنذُ أن تَهَدَّت المدينة بالحصار، حمّل الإنكليز ما يملكون على متن ثلاث بواخر إنكليزية كانت راسية في الميناء ركبوها بأجمعهم ونشروا الأشرعة وأبحروا إلى بومباي، أما الرهبان الكرمليون وممثّل الشركة الفرنسية الهندية وبعض الإيطاليين الذين تحميهم فرنسا فمكثوا في المدينة، ولم يقدموا على الهرب ولم يلحقهم أذى لا من قبيل الأتراك إبان الحصار، ولا من قبل الفرس بعد استيلائهم على المدينة.

وكان كريم خان قد سلّح في موانئ الخليج ثلاثين قاعدة بحرية محمّلة ببضعة مدافع، كانت تستطيع ضرب المدينة من الماء وتسند محاولات الجنود الذين يقاتلون في البر، فدَخَلَت البوارج المياه في أواسط جانيوري سنة ١٧٧٥، وَوَصَلَتْ مقابل البصرة

---

(١) يحيل أوليفيه في الهامش إلى رحلة نيبور، ويشير إلى خارطة البصرة التي وضعها، ويضيف: تقع هذه المدينة على الضفة الغربية من شط العرب، وعلى بعد ١٥ فرسخاً من المصب (في الخليج) وعلى ٣٠ درجة و ٣٠ دقيقة من العلو الشمالي.

(٢) وَرَدَتْ بالفرنسية Menavi (المناوي).

في الوقت نفسه الذي وصلت فيه العساكر.

وكان للسلطان في البصرة قائد. (قبودان باشا) يقود اسطولاً صغيراً مكوناً من خمسين زورقاً<sup>(١)</sup> أو قوارب صغيرة حربية، وكان على هذا الضابط أن يحمي بها التجارة، ويمنع ظهور أية قرصنة في الخليج وشط العرب ودجلة والفرات، غير أن هذا الإسطول كان في حالة يرثى لها، فلم يكن باستطاعته مقاومة قواعد المدفعية، لذا تمكن صادق خان من الإستيلاء عليه وتدميره قبل أن يتمكن الباشا القائد من القيام بأبسط محاولة لإستخدامه أو التمكن من إنقاذه، وقد كان الأمر سهلاً لو أنه استطاع ادخاله إلى القناة الداخلية التي تحترق جزءاً من المدينة، مُطلقاً من النهر في أعالي المناوي.

وعلى الرغم من شراسة الفُرس وما كان لهم من مدافع ذات حجم كبير، وشخصان أوربان لتسييرها، فإن الحصار دام طويلاً وذلك بسبب من إستعدادات المُتسلّم الجيدة، ولا سيما بسبب من سحق منجمي الجيش (الفارسي) فقد كانوا يستشيرونهم في كل عمل إذا كان المدفع قد أصاب الهدف، فيجيبونهم بأنهم يقرأون في السماء بأن ساعة الهجوم العام لم تحن بعد، بينما كان العثمانيون يصلحون أسوارهم خلال ذلك، ويتخذون التدابير لصد الفُرس الذين لم يكونوا ليجرأوا على التقدم.

(١) القواعد الحربية والزوارق والبوارج والمدافع وَرَدَتْ لدى أوليفيه هكذا: tanes, gavettes,

٢٥٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

وعند وصول أولى أنباء هجمات كريم، تسلّم باشوات الموصلَ ووان وديار بكر وحلب ودمشق الأمر بالسير إلى بغداد بالقوات التي لديهم وكان عليهم الانضمام إلى عمر والعمل معه بانسجام لرفع الحصار عن البصرة، غير أن تعليماتهم كانت تدعو إلى أرضاء ملك فارس لذا نراهم عند وصولهم إلى بغداد، يقطعون رأس الباشا، ثم يعودون إلى ولاياتهم دون القيام بأية محاولة لإنقاذ البصرة.

وعندما علّم كريم بموت عمر، بدا وكأنه قد رَضِيَ، فأقتنع بسحب قواته من الأراضي العثمانية، لكن جيش صادق لم يتخذ أي إجراء لتنفيذ الأمر واستمرّ بالحصار، بل زاد من تصعيد حدّته.

لم يكن الباب العالي قد أحسَّ بأنَّ إجهازه على عمر والتضحية بباشا من المرتبة الأولى وذوي مسلك غير ملوم، إنما يشجع وجهة نظر كريم، ويُقدّم له الذرائع للسيطرة كما كان يتَمَنَّى على ضفاف دجلة والفرات، من هيت فبغداد وحتى الخليج، لذا فإن الباب العالي قد أخطأ في حساباته، مع ما في ذلك من خسارةٍ للبصرة، إذ لم يعد ثمة مجال لتجنيد جيش يسير للذود عن تلك المدينة.

وكانت قد انقضت ثلاثة عشر شهراً ولم تصل إلى المُتسلّم أية مساعدة أو خبر من قبل باشا بغداد، فاستنزفت المؤون وشحّ العتاد وخيمَّ شبح الجوع قاسياً على المدينة، وأبدى مجلس المُتسلّم المُتعدّد مرات عدة بأنَّ صموداً أطول لن يضيف شيئاً إلى مجد المدينة، بل سيؤدي إلى هلاكٍ كبيرٍ جداً.

دخَلَ صادق خان المدينة في أواسط أيار ١٧٧٦ وقبض على المُتسلّم وموظفيه



الكبار، وأرسلهم إلى ملك فارس، وفَرَضَ ضريبة باهضة على السكان، واستعادت التجارة مجراها الإعتيادي حالاً، وساد المدينة الهدوء فلم يتأخر الإنكليز من العودة إليها، واستعادة مشاريعهم التجارية.

ظَلَّت البصرة تحت سيطرة الفُرس إلى أن مات كريم سنة ١٧٧٩، فانسحب منها صادق الذي كان يُمنِّي النفس بأنَّ يخلف أخاه، وقد عاد إلى بلاد فارس، فأرسل حسن باشا والي بغداد يومذاك، مُتَسَلِّماً تَوَلَّى إدارتها فوراً باسم السلطان. وبعد موت كريم وجلاء الفُرس عن البصرة أُطْلِقَ سراح سُليمان، وُسْمِحَ له بالعودة إلى تركيا، وكان مسلكه الحسن قد جعل أنظار الباب العالي تلتفت إليه، فقد حظي في البصرة بتقدير ممتاز، كما أنه اتصف بالذكاء والاستقامة، وذاع أمره في بغداد وفي الولاية كلها، بينما كان حسن<sup>(١)</sup> لا يرضي الكبار ولا الشعب، كما أنه لم يكن يرضي الباب العالي، وكان يظلم البدو، وُضِيْقَ على الأكراد، أما سليمان فكان يسايرهم جميعاً، لذلك نال رضاهم، وبما أنه كان قد وقع بالأسر بسبب من إخلاصه، فقد كان حَقّاً الشخص الذي ينال رضا الباب العالي أكثر من غيره، لذلك تَسَلَّمَ الطوغات الثلاث<sup>(٢)</sup>، وعُيِّنَ والياً على

---

(١) حسن آغا (ثم باشا) كان كهية سُليمان باشا أبي ليلة، ثم أصبح حاكماً في ماردين وعُيِّنَ والياً على شهرزور والموصل، ثم عُيِّنَ والياً على بغداد في ١١٩٢ هـ (١٧٧٨ م) فَبَقِيَ فيها سنتين في حكمٍ مضطرب، وَتَحَلَّى في أثناءها الفرس عن البصرة لوفاة كريم زند، ولكنه اضطر إلى الفرار من بغداد إلى الموصل بسبب الاضطرابات التي حدثت، وَنُقِلَ إلى ديار بكر حيث تُوِّفِيَ (انظر: أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، والموصل في العهد العثماني).

(٢) أي أنه أصبح باشا بطوغات ثلاثة، أي برتبة وزير.

### سليمان باشا وأحمد أغا:

وسليمان شأن أسلافه لم يتسلّم منصبه إلّا بعد اتخاذه كل وسيلة لبقاءه في هذا المنصب، لكنه تحاشى أن يثقل الشعب بالضرائب أو يستبد كما يفعل معظم الباشوات الآخرين، بل خلاف ذلك طبّق سياسة التخفيف عن الطبقة البائسة، ومنع موظفيه الرئيسيين من ارتكاب المظالم أو ممارسة الاستبداد، ولم يتحمّل أن يظلم الأعراب، في الرافدين، كما أنه شجّع التجارة وعمّل على حمايتها بسائر الوسائل المتيسّرة له، دون أن يفرض أي رسم جديد، فسهرّ على أمن القوافل وقدم القروض بدون فوائد لتجار لحق بهم مكروهه، أو لمن كانوا ينوون القيام بمشاريع مفيدة، لذلك خشيّه أفراد العصابات، فإنه قاومهم دوماً بنجاح، ومنذ اللحظات الأولى لإرتكابهم أعمال اللصوصية أو محاولتهم التهرّب من الضرائب الخاضعين لها، فنال بحنكته هذه تقدير جميع رجال الحرب، لأن الهدوء الذي أحلّه في بغداد، والعدالة التي سادت فيها، جعلت الناس يتعلّقون بشخصه وبياركون حكمه.

ولم يكن للباب العالي أي مأخذ عليه، بل كان راضياً عن سلوكه، فقد كان يبعث بالواردات المرسومة على الباشوية في أوقاتها المعتادة، كما أنه أقام في الآستانة عاملاً يخبره بكل ما يُحاك حوله، ولم يهمل قط تقديم هدايا سنوية مُعتبرة لمختلف أعضاء الديوان لكي يدعموه في منصبه الذي تقلّده.

برهن هذا الباشا المُحنك بكثيرٍ من الحُدق، وفي كل الظروف على شجاعة كبيرة،

كما أظهر في جميع مواقفه قوة وفاعلية، إذ اهتَمَّ بدقائق شؤون إدارته، فكان يَسْتَمِعُ بنفسه إلى شكاوى البؤساء، وكان يهيمه الإطلاع حتى على القضايا المرفوعة إلى محكمة العدل. ومع ذلك فإن سليمان هذا الذي كان قد بلغ من العمر ستين سنة، إنتهى بأنَّ أمسى شبه باشا، أو كأنه دمية تلبى ما يريده الآخرون، إذ لم يعد يَتَكَلَّم، أو يعمل إلاَّ بوساطة وبإيعاز من مملوكه أحمد، بل ماذا أقول؟ لقد كان هذا الأخير يعفيه حتى من المشاركة في أبرز أمور الإدارة.

### استبداد أحمد آغا (١)

كان أحمد قد وُلِدَ في بغداد من أبوين فقيرين، لكنها شريفان، كان أبوه سائس سليمان يوم كان هذا مُتَسَلِّماً في البصرة، أجهد نفسه لوضع ابنه في حاشية سيده، ولم يكن أحمد قاصراً في الحَدَق والذكاء، بل كان خفيف الروح، مَرِح المزاج، جميل الصورة، لذا أُعْجِبَ به المُتَسَلِّم وقبله، فمَكَثَ في بغداد طيلة المُدَّة التي كان فيها سيده

---

(١) أحمد آغا (ثم باشا) كان من موظفي سليمان آغا (ثم باشا) مُتَسَلِّم البصرة وأُسِرَ معه في إيران، ثم عاد معه، وعندما عيّن سليمان والياً على بغداد سنة ١٧٨٠م جعله (مهردار) ثم كتخدا، ومنح رتبة الميرميران (باشا). وكان له نفوذ كبير وحدثت له منازعات وإصدامات مع سليمان الشاوي رئيس عشيرة العبيد، ثم اغتاله (الخنزرة دار) علي آغا سنة ١٢١٠هـ (١٧٩٥م)، ويروي مؤلف دوحه الوزراء أن ذلك كان بأمر سليمان باشا بينما يذكر سليمان فائق أنها لم تكن بعلم الوالي وموافقته (دوحه الوزراء، تأريخ بغداد الكوله مند، العراق بين احتلالين ج ٦، وأربعة قرون من تأريخ العراق الحديث).

٢٥٨ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

المُتسلّم أسيراً وعاد إلى خدمته بعد اطلاق سراحه فلما عُيّن سليمان باشا والياً على بغداد اهتم بثقافته، وكان يقيه دوماً قريباً منه، وبفضل سلاسة روحه، وسرعته الكبيرة في العمل، تمكّن أحمد بخضوعه التام وتجرّده التام عن رغباته الذاتية، من كسب الخطوة عند سيده فأعزّه كولده، وينبغي أن تبقى النعمة دوماً التزام الطرف الثاني، ولما كان الباشا راضياً جداً عن عمله، لم يتردّد عن القيام بشيء أعظم، إذ بعد أن جعله يتدرّج في جميع مواضع الشرف والمناصب المريجة، قرّر أن يرفعه إلى درجة شريفة هي درجة كهية، وأوفد تترى إلى القسطنطينية فطلّب له من الباب العالي لقب باشا من الرتبة الثانية فجاءت (١) الموافقة من السلطان.

وكان من المفروض أن أحمد أغا قد أشبع رغبته كُلّها -مؤقتاً على الأقل- لآئته بعمر ست وثلاثين سنة وصل إلى أحد المواقع الرئيسة في الإمبراطورية (العثمانية)، وغدا صاحب ثروة معتبرة ومتمرساً في فن الإدارة الصعب، وضمن بفضل أمواله رضا الشعب وارتياح رجال الحرب بأنّ يخلف يوماً المحسن إليه، فهلا يكون سعيداً بحظه هذا وقانعاً بمستقبل مشرقٍ مرسوم أمامه بوضوح؟

ولكن ... هل من حدود لطموح الإنسان؟ وهل تتوقّف النزوات عن تعذيب مَنْ لا يعرف أن يسيطر عليها مُبكرًا؟

لقد نبّئني أحمد ما لسليمان من أفضالٍ ونعمٍ عليه، بل ما له هو ذاته من واجبات

---

(١) أي ذي طوغين، وهو ميرمران، والكهية، الكتخدا أكبر منصب في الولاية بعد الوالي.

تجاه نفسه، لم يعتبر نفسه إلا القائم مقام الباشا، بحيث استحوذ تدريجياً على السلطة كلها، وأهمل أخبار الباشا بتفاصيل القضايا الإدارية، وأخذ يصدر الأوامر باسم سيده حتى على غير علم منه، وفرض بأن لا تمنح أية مساعدة مالية، أو أي فضل، إلا بطلب يُرْفَع إليه، كما أمر بعدم إنزال أي عقاب إلا بأمره، وأية وظيفة إنما تُعْطى أو تُباع إلا للذي يَحْمِيه هو نفسه.



## القرن التاسع عشر الميلادي

٢٠- رحلة أبي طالب خان سنة ١٨٠٤ م

٢١- رحلة دُوبريه





## رحلة أبي طالب خان سنة ١٨٠٤م

### القرنة

وباليوم الثاني والعشرين من ذي القعدة دخلنا مدينة القرنة، وعند جدرانها يلتقي الفرات ودجلة ويكوّنان نهراً أعرض من نهر الكانج بضعتين، ويُسمّى شط العرب أي نهر العرب ويصب في الخليج العربي.

### معقل «الكوت الفرنجي»

وباليوم الثالث والعشرين الذي هو اليوم السابع لهذه السفرة المملّة وصلنا إلى معقل ويُسمّيه الأوربيون «ماركيل» وهو على فرسخين من البصرة، وشركة الهند تملك فيه مكتب تجارة صغيراً يُقيم فيه القنصل (١)، والبنية مُحوّطة بسورٍ من الرهص، وتُسمّى «الكوت الفرنجي» أي الحصن الأوروبي، فكوت تعني باللغة العربية حصناً صغيراً. ومنظر هذه البلدة راعني بجماله، والشهرة الحسنة التي نالها المقيم الإنكليزي جعلتني أحدث نفسي باستقبال حريّ بأنّ يعيد إليّ قواي البدنية وقواي المعنوية التي

---

(١) سيأتي في كلامه أن اسمه المستر مانستي، وأنه وكيل شركة الهند بالبصرة ومركزها بلندن (المترجم).

٢٦٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

أثرت فيها المومم والأتعاب تأثيراً ظاهراً، ومن سوء حظي أنّ أشخاصاً حملهم النفع الدنيء كانوا قد أذاعوا بخبثٍ أنّ علامات طاعون ظهرت ببغداد (١)، فداخل الخوف المستر مانستي حالماً عَلِمَ بوصولي، فتقدّم إلى ضفة النهر وحثني بالإشارات على أن أبلغ البصرة فقد أعدّ لي فيها منزلاً، ولما عَلِمْتُ بمذيعي هذه الأكذوبة أضمرت لهم كل الإحتقار الذي يستحقونه ولكنني صُرتُ إلى البصرة إشباعاً لرغبة المستر مانستي وفيها وجدت مثنوى مُعدّاً لي في دار «أغا محمد عبد النبي» وهو صديق حميم للمستر مانستي، وكان ملك الفُرس قبل مدة استقدمه إلى بلاطه ليسند إليه وظيفة سفير لدى حاكم الهند العام، بدلاً من «حاجي خليل خان» الذي قتله حُرّاسه في بومباي ومُهلّ جثثانه إلى النجف بنفقة شركة الهند ليُدْفَنَ باحتفالٍ فخم في المشهد المُقدّس.

## أبو طالب بالبصرة

ويسكن البصرة كثيرٌ من الفُرس المتميزين الذين اضطروا إلى ترك بلادهم مثلي

---

(١) لم تكن الإذاعة باطلة ولا أكذوبة قال الشيخ ياسين العمري في حوادث سنة ١٢١٨ هـ من غرائب الأثر: «وفيها عاد الطاعون إلى بغداد وكان قد انقطع في صفر فعاد إليها في ذي الحُجّة وابتدأ في قرشي ياخا (الجانب المقابل وهو الغربي)، ثم في بغداد في ذي الحُجّة فكان يموت في اليوم مائة وخمسون وأكثر» (ص ٦٤)، وقال في سفر الوالي علي باشا إلى الشمال وعوده إلى بغداد: «ثم رحل إلى بغداد أول صفر يوم السبت وكان الطاعون الشديد في بغداد، وكان يموت فيه كل يوم نحو أربعمئة نفس من الجانبين فتثاقل علي باشا لذلك في الطريق حتى بلغه أنّ الطاعون أنقطع آخر صفر» (٦٧).

بسبب الثورات التي مزقت هذه الإمبراطورية زمنًا طويلاً، وقد جاءني عدة رجال منهم وكُنْتُ أرى في الإجتماع معهم معرفةً ولطفاً وهذا ما عَوَّضني من السامة الناشئة من عيشي مع أهل البصرة فإنهم همج بخلاء<sup>(١)</sup>، ولكنهم أوفياء وذوو اعتماد وثقة في صلاتهم التجارية<sup>(٢)</sup>، وهؤلاء الممثلة أذهانهم من الأحكام المُبتسرة والأخطاء لا يَشْكُون في وجود الإكسير<sup>(٣)</sup>. والبصرة مدينةٌ أعظمُ بكثيرٍ من بغداد وهي مركز اجتماع التجار لجميع أصقاع الشرق، وسورها وخذقها العميق المملوء من ماء دجلة يصونانها<sup>(٤)</sup> من كُلِّ اعتداء، وفي داخل السور بساتين واسعة وكروم ونخيل وتُسقى كُلُّها بنهر يتصل بدجلة، وعامة الدور مبنية بالرهص بشكل مخالف للمعتاد جداً فهي تشبه الأكواخ، ولما كان المناخ شديد الحرارة والمدينة تحيط بها بطائح صار الهواء وبيلاً، وبالأشهر الأربعة من الفصل الماطر يفيض النهر ويغمر المزارع والحقول، وحينئذ يفتح العرب مجاري عميقة لإرواء الصحراء ولكن دجلة<sup>(٥)</sup> في جزرها تترك في باطن المجاري مياهاً مستطيلة راکدة يحدث تصاعُدٌ أبخرتها الطاعون أو أمراضاً ليست أقلَّ

---

(١) قلت: المشهور من الصفات عنهم هو بالضد مما قاله أبو طالب كساحة الأخلاق وطيب الأعراق والسخاء الدائم (المترجم).

(٢) قلت: وليس من الممكن أن يكون للرعاع مثل هذه الصفات، فلعلَّ في أصل الترجمة وهماً جعل الجُهلاء رعاعاً (المترجم).

(٣) كان هذا عاماً في الأمم حتى السنين الأخيرة من عصرنا فلا يُعد عيباً فيهم (المترجم).

(٤) الصحيح ماء شط العرب (المترجم).

(٥) قلنا: إن النهر شط العرب لا دجلة وحدها (المترجم).

٢٦٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

منه أضراراً، والعرب يسمون هذا الفصل «ماء الموج» [ماء الموح] أي فيضان الماء. وسكان البصرة قَلِقُونَ دائماً من العرب الجوّالين الرّحّالين وقد إلْتزموا أن يؤدّوا نصف غلات أرضهم إلى قبيلة «المنتفك» (١) التي وعدت أن تدفع عنهم أعداءهم، ومع هذا الإتفاق يهجم العرب غالباً على المدينة بالليل وينهبون جميع ما تقع عليه أيديهم. وقد شَيّدَ «عبد الله آغا» حاكم المدينة في الزمن الأقرب سوراً عليها من جهة الصحراء، طويلاً يمتد ستة عشر فرسخاً، ويحفظ أبوابه حراس متيقظون، وهذا الرجل لم يهمل قط شيئاً لسعادة الناس وعرف كيفية استحقاقه لتعلّقتهم به ومودتهم إياه.

إن قبر طلحة وقبر الزبير الصاحبين من أصحاب النبي ﷺ على ثمانية أميال من البصرة، ولم أجروا على زيارتهما، لأن كثيراً من الوهابيين والعرب يطوفون حول البلدة. وبعد إثني عشر يوماً علّم القنصل البريطاني أني لم يصبني وباء ولا طاعون مجّدي بأنّ دعاني إلى داره، وإتّما نلت هذه الرعاية بكتاب من اللورد وأوامر من مجلس المديرين (٢) تُوجِب على المستر مانستي أن يقوم لي بجميع أشغالي التي تتعلّق به، ولكن سيرته أحنقتني فرجوت منه أن يحصل لي على موضع في أول سفينة تبحر إلى بومباي حسب ولكنه لم يفعل حتى هذا الجميل، فهذا الرجل الفاضل الذي يُمثّل شركة الهند بالبصرة يُعدّ عند سكانها رجلاً ذا مكانة عالية، ومنهم من يُفرط في تملّقه، فهو جدّ مفترّ مزهو بحيث صدمه تصريحي، وأراد غمي وإهانتني، فمن وظائف القنصل أن يرسل بالرّزم

(١) تقدم ذكرها في الرحلة (المترجم).

(٢) أراد أبو طالب «مديري شركة الهند» في إنكلترا.

والرسائل المؤجّه بها إلى الهند وهذه الخدمة كثيرة الربح جداً، ففي سنوات معدودات استعمل لهذا العلم التجار العرب من قبيلة عتوب أو أول سفينة إنكليزية راسية بالبصرة، ولكنه حسب أنه يكون أربح له أن يكون تحت أمره سفن صغار، يستطيع أن يشحنها، مع الرسائل، ببضاعات تكسبه ربحاً عظيماً، فحصل على ست سفن أو ثمان من ذلك النوع بجميع شؤون التجار بالبصرة، وإشتياموها<sup>(١)</sup> من خدمة الخاصين به، فلذلك كانوا يطيعونه في أوامره طاعة عمياء. وبعد عدة أيام من وصولي أعلمني المستر مانستي أن سفينة على عزم أن تبحر إلى بومباي وأنه يجب علي أنا نفسي أن أدبر أمري مع الإشتيام لأن ذلك لا يختص به البتة، فتوجهت إلى ذلك الرجل إذن فطلب مني خمسمائة ربية أجرة حملي في سفينته، وبان لي المبلغ فاحشاً، وسكان البصرة يدفعون أقل منه بكثير عند سفرهم، فأدركت أن احتيلاً يوقع علي، فشكوت ذلك إلى القنصل فقال لي إنه لا يستطيع أن يتدخل في هذا الشأن أبداً، فرجعت إلى الإشتيام في اليوم الثاني وقدمت إليه ثلاثمائة ربية، فقبل ذلك قائلاً لي: ينبغي أن أطلع السفينة من غير إبطاء لأن الريح طيبة وملائمة للإبحار ولأنه ينبغي له الإقلاع، فأعلمته أن أثنائي وحقائبي بالبصرة ولذلك أحتاج إلى ساعة أو ساعتين لنقلها إلى السفينة، ولكنه أبى أن ينتظرنى محتجاً بأن الريح يمكن أن تتغير في هاتين الساعتين، ويجوز أن يؤخره التغير عشرة أيام أخرى بالبصرة، وهكذا فاتتني هذه الفرصة. وبعد أيام قليلة بعث المستر مانستي سفينة أخرى من غير أن يعلمني بها، فلما عاتبته قال: إن هذه السفينة مبحرة

(١) الإشتيام هو ربان السفينة كما ذكرت في أول الرحلة (المترجم).

٢٦٨ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

إلى البنغال وأنت تود أن ترى عجائب بومباي. ثم أفلعت سفينةً ثالثة فوجدَ حُجّةً أيضاً لكيلا يجعل لي فيها موضعاً، فلم أستطع أن أكتم اغتياضي، وقُلْتُ له: إنه تجافي عن الخلق الإنكليزي (١)، واختار عادات الشرق الخسنة، ونظمت في هجوه قصيدةً، وقرأت عليه أبياتاً منها، فقال لي إني قد أفسدتني لندن وإنه ليس مليئاً (٢) بأرضائي، وتشاجرنا تشاجراً عليه مُسحة من الإنبساط تخفف قليلاً من حرافة اللوم والتشريب. وأضيف إلى ذلك أني قضيت وقتي بعد ذلك في دار القنصل باستلطافٍ فائقٍ وعيشٍ رائعٍ، فقد كان حسن الإضافة، وحسنت اجتماعاتنا بحضور الرِّبَّان «سينس» والدكتور «ميلز».

### المرأة الأرمنية وقضيتها

وفي أثناء إقامتي بالبصرة أقلقني جداً حادث لم يكن مُتوقِعاً، ذلك أن رُبَّاناً من الربانين اسمه «وايت» كانت له دار ذات أثاث حُسنٌ في المدينة، وكانت له فيها خدينة أرمنية، وجاء ذات يوم عربي فقير فوجدَ لدى الباب رقعة مكتوباً فيها هذه العبارات «يا سكان البصرة أنا أستغيثكم، فإني مُسلمة مولودة في مصر وفي أثناء الغزو الفرنسي لها وقعت في يدي نصراني وأنا أمقته مقتاً فأترضع إليكم أن تنقذوني». فأسرع العربي في

---

(١) قلت: ومن أدرى أبا طالب أن هذه الخدع ليست من الخلق الإنكليزي، فالإنكليز يراؤون في بلادهم ويكاشفون ويجهرون في غيرها، وخصوصاً مستعمراتهم، وهذا أمرٌ مشهود من الشعب المتعجرف (المترجم).

(٢) المليء هو القادر المستطيع المتمكن (المترجم).

نقل الرقعة إلى القاضي وحلّف بحضرته أن الرقعة أُلقيت إليه من أعلى دار الربّان وايت، وأعلن الشهود أنهم في الحقيقة طالما سمعوا هذه المرأة تشكو سوء حظها، فأرسل القاضي موظفاً لدعوة الأرمنية إلى حضور مجلس القضاء، فأبى الربّان وايت أن يُسلم المرأة وتخصّن في داره وأمتنع، وأخطر القنصل بالحال التي صار إليها، وهذا القنصل كانت له كلمة نافذة عند جميع الموظفين الأتراك بمقامه وثوراته، فبعث برسالة إلى حاكم البصرة يرجو منه أن يؤخر المحاكمة إلى اليوم الثاني واعداً إياه بإطلاق المرأة، إن كانت مسلمة أو أرادت أن تكون مسلمة. فأجابه الحاكم إلى ذلك، وأمر جماعة من الجند أن يفرقوا المتألبين الذين جمعتهم غرابة الحادث. وكان ربّان آخر لسفينة أخرى مشحونة للسفر إلى بومباي يسكن في دار الربان وايت المذكور آنفاً، فذعره هذا الحادث وبعثه على أن يسرع في نقل ماله وأشياءه الثمينة جداً إلى سفينته، وذاع الخبر في الحال بأنّ المسلمة الشابة متأهبة للهرب. فاجتمعت العامة واقتحمت دار الربان وايت وأخذت المرأة إلى مجلس القضاء، فسألها القاضي عن الأمر، فأعلنت أن كل هذه الحكاية كذب وهو الغاية في التوحش، وأنّ أهلها نصارى، ولا تريد أن تُعير دينها ولا أن تترك سيدها، ولكن الشهود احتجّوا بعجرفة بأنهم سمعوها تلو العقيدة الإسلامية، فدهش القاضي حاقّ الدهش وقال للأرمنية: «إن شهادة هؤلاء المسلمين تثبت أنك كنت تدينين بالإسلام، ولكونك أنكرته وارتددت استحققت الإعدام، فإن لم تستبصري وتجددي هذا الإلحاد خلال ثلاثة أيام فإني سأقضي في أمرك بما يوجبه عليك الشرع». وأرسل بها إلى دار المفتي، وأدخلت في مشوى الحرم فيه، ولكنها استطاعت الهرب بالليل وإلتجأت إلى دار وكلاء التجار الإنكليز، غير أنها استعيدت

٢٧٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

منها، ودعا بها القاضي في غدٍ ذلك اليوم صباحاً، وأعاد عليها أنها إما أن تقتل شرعاً وإما أن تترك النصرانية، وتتزوج رجلاً مسلماً، فوافقت المرأة المسكينة (١) أن تنتقل إلى الإسلام وَدَفَعَ إليها في الحال ألف قرش صداقاً لها، وفي اليوم التالي لذلك اليوم تزوجت جندياً، فأخذها إلى داره باحتفال الغالبين. وقد أثر هذا الأمر في زهو القنصل تأثيراً سيئاً واضحاً فكتب إلى الحاكم قائلاً: «لئن لم يرد إليه المرأة في الحال، وهي نصرانية من غير شك، ليقطعن صلته به وصداقته له، وليندمن الحاكم نفسه يوماً ما على ما فعل». وأمر بإغلاق أبواب دار وكلاء التجار ومنع أن يطأ عتبتها البصريون، فأعرب له الحاكم عن أسفه الشديد، وعزا الأمر إلى العامة المليمين (٢). وذكر أنه كان من المحال عليه أن يضبط الأمر، وأضاف قوله: إن المرأة وافقت أن تتزوج مسلماً وتركت النصرانية ولا يمكن نقض حكم القاضي.

إن كبرياء المستر مانستي وسيرته الجبروتية أحنقتا عليه عدة أعيان من أهل البصرة، غير أن ناساً يعتقدون بالإجمال أن كل هذا الأمر لم يكن إلا كيداً وتزويراً زوّره أعداؤه ليذلّوه ويهينوه، وليكن ما يكون فإنهم سيندمون عليه. وتركتُ البصرة وهذا الحادث لم ينته إلى نهاية ولكنني عَلِمْتُ أن المستر مانستي رفع القضية إلى باشا بغداد أولاً وإلى القسطنطينية ثانياً فحصل على نقض حكم القاضي مُضافاً إلى عَزَلِهِ عن

---

(١) هذا ما وَرَدَ في الترجمة الفرنسية ويجوز أن يكون المترجم أقحم هذه الصفة تَوَجُّعاً لها، والفرنسيون يُكثرون من هذا الإقحام (المترجم).

(٢) المليم: المستحق للملامة (المترجم).



[ ٢٠ ] رحلة أبي طالب خان ..... ٢٧١

منصب القضاء وأوقع على الحاكم توييح وتأييب، ونفي لعدة من رؤساء المشاغبين، وقد لاقيت في كلكتا الشابة الأرمنية فأكدت لي صحة جميع ما سمعته وذكرته آنفاً.

ولو قد شعرت عند وصولي إلى البصرة بأني سأمكث فيها مدةً طويلة لسافرت براً إلى شستر (١) ومنها إلى شيراز، ومنها استطيع أن أصير إلى بعض موالي البلاد الفارسية، ومنه أبحر إلى بومباي وأخيراً أبحرت في اليوم التاسع عشر من المحرم سنة ١٢١٨ هـ الموافق اليوم العاشر من أيار سنة ١٨٠٣ م (٢) في سفينة من سفن القنصل تُسمّى «شانون» بعد مكث في البصرة دام خمسة وخمسين يوماً.

### أبو طالب يغادر البصرة إلى بومباي

وما كدتُ أضع قدمي في السفينة المذكورة، والريح مؤاتية لها حتى أفلعت، وفي غدٍ ذلك اليوم وصلنا إلى مصب النهر، وهو على مسافة تسعين ميلاً من البصرة، ودخلنا في الخليج العربي وهذا الخليج هو إحدى أذرع الجنوب الشرقي، وطوله قرابة خمسمائة ميل، وعرضه مائة وخمسون ميلاً في مواضع، ولكن عرضه في مدخله ستة وستون ميلاً فقط، والمسافة بين البصرة وبومباي ألف وخمسمائة ميل.

---

(١) يعني «تستر» في الجغرافية القديمة (المترجم).

(٢) ذكرنا سالفاً نقلاً من كتاب التوقيقات الإلهامية أن أول شوال من سنة ١٢١٨ هـ وافق اليوم الرابع عشر من كانون الثاني سنة ١٨٠٤ م فكيف يصح تأريخ أبي طالب؟ لأنَّ أول المحرم من سنة ١٢١٩ هـ يوافق اليوم الثالث عشر من نيسان سنة ١٨٠٥ م (المترجم).



## رحلة دُوبريه

إن العلاقات بين البصرة وبغداد هي علاقات متينة جداً، فلا أريد أن أترك شاردة أو واردة لا أذكرها للقارئ خاصة عن المدينة الأولى بين المدن أي البصرة.

تقع البصرة تحت الخط ٣٠ درجة عرضاً، ٤٠ طولاً. على بُعد ثلاثة فراسخ من البصرة القديمة التي يسكنها اليوم عرب من قبيلة النجادة Nedjadeh. وتشاهد هناك آثار قديمة لعلها تعود إلى تريدون Teredon القديمة، أو هي بللاكوباس Pallacopas عند أريان. وتقع على الضفة اليمنى لشط العرب. والبصرة الحديثة هي الميناء الوحيد لولاية بغداد. هناك ترسو المراكب القادمة من الهند، ومن مسقط، ومن محّا، ومن سواحل بلاد العرب والخليج. وبالرغم من أن هذه المدينة تبعد ثلاثين فرسخاً من موضع مصب الرافدين في الخليج. لكن المراكب تستطيع الإقتراب منها دون خطر بقيادة ملاحين ماهرين حتى تصل إلى مسافة قريبة من أسوارها.

تأسست البصرة سنة ١٤ هجرية على عهد الخليفة عمر بن الخطاب على يد عتبة بن غزوان. وكانت في زمنٍ مضى واحدة من أكثر المدن العربية ازدهاراً، وفي العهود التالية أصبح عربُ الصحراء أسيادَ البصرة، ولم يكن للأوروبيين موضع قدم فيها. وحدث أن الأتراك طردوا العرب ثم سالموهم على شروطٍ، وكان أحد الشروط أن

٢٧٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

تبقى المدينة تحت سيطرة المنتصرين وأن ينسحب الأعراب إلى الصحراء على بُعد ثلاثة فراسخ من البصرة، وعيّن الأتراك حاكماً على المدينة مع حامية، وشيدوا حصناً لا يزال قائماً إلى اليوم ويرسل والي بغداد عسكرياً لحمايته.

وحدث أن أحد الحكّام العثمانيين باع المكان إلى أحد العرب الذي أعلن نفسه حاكماً مستقلاً (فراسياب)، ولكن بعد أن استعاد مراد الرابع بغداد قبل هذا أمير البصرة أن يكون من أتباعه.

وبعد أن استُعِيد ميناء هُرمز، أرسلَ عباس الكبير ملك الفُرس جيشاً بقيادة أمام قلي خان فحاصر البصرة، وإذ رأى حاكمها أنه في موقفٍ لا يستطيع مقاومة الفُرس طلبَ من جيرانه العرب أن يكسروا السدود التي على النهر فَغَرَقَت الأراضي فاضطر الفُرس عندئذ إلى رفع الحصار والانسحاب تاركين مدافعهم.

وبعد انسحاب الفُرس دعا أمير البصرة العربي البرتغاليين فجاءوا وشرعوا بالتجارة فيها. ولقد عادت البصرة لسيادة الأتراك سنة ١٠٧٠ هـ التي تقابل سنة ١٧٧٦ م<sup>(١)</sup>؛ وعاد الفُرس واستولوا على البصرة من جديد في شهر آذار ١٧٧٩ م على يد كريم خان، ثم أعادها إلى الأتراك بعد زمن<sup>(٢)</sup>.

---

(١) هناك خطأ في أحد التأريخين وإذ نظن أن دوبريه كان أكثر خبرة بالتأريخ الميلادي فهذه الحالة تكون سنة ١٧٧٦م=١١٨٩هـ. وتفصيل الأحداث التي يذكرها المؤلف تجددها في كتاب العزاوي: تأريخ العراق بين احتلالين ٥١:٦ وما بعدها.

(٢) قال المؤلف في الهامش إنه اعتمد في كلامه على رحلة (سبستيني). وأحيل القارئ إلى الهامش ١

لم تُعد البصرة اليوم تُقدّم للزائر غير ركّام الخرائب من بعد أن دَمَرها الفُرس .  
يحيط بالبصرة سورٌ من الطين، ونطاقُ السورِ عامرٌ بالبساتين، وإني أقدر محيطه  
بنحو ثلاثة فراسخ. يبلغ عدد سكانها بالكاد ستة آلاف نسمة أكثرهم عرب، ولكن  
يُوجد عددٌ قليلٌ من الأرمن واليهود. وللأرمن كنيسة خاصّة بهم. ولليهود مَعْبَدَهُم  
الخاص. كما هناك كنيسة كاثوليكية يخدمها آباء كرمليون حفاة (١) الذين وضعوا  
أنفسهم تحت حماية الإنكليز عندما نَشَبَت الحرب بين فرنسا وتركية.

لقد تَعَدَّبت البصرة كثيراً منذ أن امتدت المياه المالحة إلى أراضيها عندما كُيِّسرت  
السدود في زمن حصار الفُرس كما ذكرنا. ويكاد هذا البلد يتحمّل الأضرار سنوياً  
بفيضان النهر. كما أن المستنقعات المنتشرة تسبب الحُمَيَّات والأمراض الوبائية بحيث  
تجعل المناخ غير قابل الاحتمال حتى على أهل البلد. وهذا الألم يصبح أكثر إزعاجاً  
بقدر ما ترتفع الحرارة ارتفاعاً مُطَرِّداً، فمقياس الحرارة يشير في الصيف عند الصباح  
إلى درجة ٣٥ [مئوية] وعند الظهر ٤٠ وعند العصر، أي نحو الساعة الرابعة والنصف  
٤٢ درجة، وأحياناً ترتفع إلى ٤٦ وثلاثي درجة مئوية. أما الشتاء فهو كثير المطر.

(١) تنتمي هذه الرّهبة إلى جبل الكرمل قرب حيفا في فلسطين ثم انتشرت في أوروبا وجاء بعض  
رهبانها إلى البصرة ١٦٢٣ وما زالوا في بغداد.

## النشاط التجاري

كانت التجارة سابقاً في البصرة بيد الأرمن، أما الآن فهي بيد العرب والفُرس واليهود. وكُل البضائع التي تصل إلى البصرة أكانت عن طريق البر أم عن طريق البحر فإنها تخضع للكمرك. وتجري الأمور كالاتي:

- ثمانية وثلث بالمائة عن البياضات والكتانات والأقمشة.

- سبعة ونصف بالمائة عن البضائع الثقيلة.

- أما السلع التي تُرسل إلى الهند أو إلى الخليج فيدفعون عنها خمسة بالمائة وتُدعى

Raftie العاجل<sup>(١)</sup>.

- الأوروبيون لا يدفعون إلا ثلاثة بالمائة كما في بغداد.

إنّ لبصرة بضائع قليلة للتبادل: كالرز مثلاً والتمور التي يستقطرون منه العرق. والواقع هو أن هذا البلد ينتج أيضاً القمح والشعير وريعتها وفير. لكن زراعة الأرض مُتعبة وباهظة التكاليف، إذ لا بد من الحفر للوصول إلى الأرض البكر وقشط الأرض من الطبقة العليا المشبعة بالملح. إن دخل الكمرك من الضريبة المفروضة على التمور وعلى الرز يزيد على المليون والنصف من القروش.

---

(١) العامر: نشاط شركة الهند الشرقية الإنكليزية في البصرة: ص ٦٧ وما بعدها.

## الشركات

شركة الهند الإنكليزية معمل في البصرة، والمقيم حالياً هو السيد صموئيل مانيستي (١) الذي كُلف قبل سنوات بمهمة لدى فتح علي شاه. إن الوظيفة التي يتسّمها، والتجارة التي يتعامل بها، والمال الذي يوزعه يمينا وشمالاً كَسَبَ له احتراماً كبيراً بين العرب.

يتألف هذا المعمل من مُقيمٍ ومساعد أو وسيط وطبيب وعدد من الموظفين وأربعين «سيبايس» أي جنود هنود، واستخدام هؤلاء غاية إضفاء الهيبة على المُقيمة أكثر من سلامتها

أما شركة الهند الفرنسية (\*) فقبل أن تتوقف نهائياً أسرعَت الحكومة فعينت قنصلاً في البصرة. وكان هذا القنصل يسكن في بيتٍ جميل جداً إلا أنه آل الآن إلى حالةٍ يرثى لها ويميل إلى السقوط لأنه غير مسكون منذ سنوات عديدة.

إن وجود مُقيم في هذه المدينة هو مفيد جداً، لا بل أستطيع أن أقول إن مثل هذه الوكالة لا غنى عنها إذا ما اعتبرنا موقع البصرة على أبواب ثلاثة أقطار هي جديرة بالانتباه، أعني: الهند وبلاد فارس وبلاد الوهابيين.

---

(١) العامر: نشاط شركة الهند الشرقية الإنكليزية في البصرة: ص ٦٧ وما بعدها.

(\*) الأدق الإنكليزية.

## جدول بالبضائع المُودّعة في بغداد:

### • القسم الأول: البضائع الأجنبية (١)

#### (١) من أوروبا

المرجان	الجوخ
العنبر الأصفر	قطيفة سادة
الحديد	قطيفة مُقلّمة بخطوطٍ ذهبية
الفولاذ	ساتان سادة
النحاس	ساتان مُقلّم
الرّمرد	مخير (متموج)
الماس	تفته
الصبغ القرمزي	صقيلة (نسيج صقيل)
الرّبّيق	أشرطة
الزرنبخ	الشذر

---

(١) استعنت بترجمة الكلمات بقاموس فرنسي - عربي المُسمّى «المنهل» تأليف د. سهيل ادريس ود.

جور عبد النور، بيروت ط. التاسعة ١٩٨٧ فهو مسؤول عن الترجمة.



الشاش	الزنجفر
القماش الملوّن	البرفير، الأرجوان
الساعات	المينا
آنية بيتية	كبريتوز الزئبق
الكرستال	المن
البنادق	الكينين
المسدسات	أدوية أخرى
الفرو بأنواعه	الإبر
(٢) من تركيا	الحبال
أطوال الكتان	الحرير
القماش الموصليّ الملوّن	روح الورد
Aladja	الصابون
قطني وهي إقمشة	الزيت
كرمسود من حرير	البنادق
غزي أو قطن	المسدسات

٢٨٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

النُّحاس

Beyazlou

الأفيون

(٣) بلاد العرب

القهوة

الإبل

العنبر السنجابي

الخيّل

الأغنام

(٤) من الخليج

الأسماك المملّحة (المُقَدَّدة)

اللؤلؤ

(٥) من بلاد فارس

نبات oppoponax لصنع المرأهم الطيبة

شال كشمير

جلينة (صمغ)

شال كرمان

صمغ النشادر

شال كاشان

صمغ الكثيراء

أقمشة يزد

المن guezinguebin

أقمشة كاشان الحريرية

المن serguech

القماش المرسوم

زعفران

القماش الملوّن

الراوند	القطن
النفط الأبيض	الحرير
الشب	الفرو
بادزهر	جلود الحملان
السيلان	الفاكهة المُجفَّفة
التبغ للتدخين	
	(٦) من الهند
جوزة الطيب	القماش المُوصليّ
القرنفل	المُوصليّ المُوشى
القاقلة	أقمشة سادة
البخور	أقمشة كلنكار
حلتيت (لتهدئة التشنجات)	أقمشة ملونة
الكافور	كرمسود
الكبريت	قطني
الزاج	خزف ميني
الكُرِّم	النيل

٢٨٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

السُّكر	الزَّنْجَبِيل
التوابل	ملح الأمونياك
	خشب
	خشب الصندل

• القسم الثاني: بضائع للتبادل منتجات ولاية بغداد

الرز	العسل
القمح	التبغ
الشعير	العفص
القطن	الحِنَّة
الحريز	الصوف
الخيل	الأشنان
الجمال	ملح البارود
الجلود	ملح الأمونياك
جلود الجاموس	الملح
جلود الحملان	البورق
النفط الأسود	

• أشياء أخرى من إنتاج بغداد

الموسلين العادي المُسمّى سكري	بوشي (نوع من الطربوش من حرير للرجال)
المُوسلين المطبوع	مناديل حرير
المُوسلين المُوشّى	التفتة
أقمشة من حرير أو من قطن	الشالات
نسيج عادي	الكحّاة
أنسجة منقوشة	طنافس عادية
أنسجة مُلوّنة	العباءة (من الصوف للرجال)
قطن مَغزول	الزجاج
دسمال: نوع من طربوش من حرير النساء	صابون من الشحوم



## القرن العشرون

٢٢ - مذكرات فيلبي ١٩١٥ - ١٩٢١ م

٢٣ - أرض النخيل رحلة كرسجي

٢٤ - نص كي لسترنج في كتابه (بلدان الخلافة الشرقية)

٢٥ - رحلة الحدود بين الدولة العثمانية وإيران





## مذكرات فيلبي

في العراق والجزيرة العربية (١٩١٥-١٩٢١م)

### في البصرة

كانت في انتظارنا في البصرة تشكيلة كبيرة من الموظفين والوجهاء على رأسهم ل. تي. ويلسن، وأقيمت في اليوم التالي حفلةٌ بستانية عظيمة ليتسنى لكل أحد أن يُقدّم احتراماته إلى أول مندوبٍ سامٍ في العراق. وكان أبرز من في الحفلة شخصان، هما: الشيخ خزعل بن مرداو<sup>(١)</sup>، شيخُ المحمّرة الذي كان كوكس في أيام الحرب الأولى قد وعده باعتراف بريطانية بوضعه المُستقل في عربستان، والذي كان الآن أحد المرشحين لملوكية العراق، والسيد طالب النقيب مُنقذ بغداد الأخير الذي كان كوكس نفسه قد حَكَمَ عليه بالنفي<sup>(٢)</sup> عن موطن آبائه مدة تقارب الخمس سنوات، والذي كان يطمع الآن بصورةٍ جازمة بملوكية العراق.

---

(١) إن والد الشيخ خزعل هو الحاج جابر بن مرداو.

(٢) إنه يشير إلى نفي السيد طالب عند أول وصول الإنكليز إلى البصرة أيام الحرب حتى سمح له بالعودة بعد إنتهائها.

وفي ذلك المساء أقام السيد طالب حفلةً استقباليّة فخمة في قصره المُلج على الشط<sup>(١)</sup>، على شرف كوكس، حَضَرَ فيها عددٌ كبيرٌ من الوجهاء والموظفين البريطانيين الكبار، وفيها اقتُرِفَتْ غلطةٌ بسهو مني. إذ بينما كُنَّا نبحث في شؤون الكويت انتقدت الأسرة المالكة فيها على أساس أن إثنين من حكامها الأخيرين تسنموا الحكمَ بعد قتل أخويهما، وقارنت هذا الوضع بالخصومة الأخوية التي كان لها تأثير سيء في تاريخ أسرة آل الرشيد. ولم أكن أعلم يومذاك أن الشيخ خزعل أيضاً كان قد قتل أخاه الأكبر ليغتصب عرشه!

وفي صباح اليوم التالي اصطفَّ حرسُ الشرف على رصيف الميناء لآخر مرة في توديع ويلسن الذي استقلَّ الباخرة «لورنس» إلى الهند. وقد جرى لي حديث معه قبل الرحيل فوجدته مستاءً استياءً مُراً من سير الأمور بوجه عام ومن نظام الحكم الجديد المُقترَح على الأخص، حيث أن ذلك كان يعني إنتهاء أحلامه المزوَّقة عن العراق كدرة لامعة في التاج البريطاني. وفي الأخير كان الأسف يغمرنني عندما رأيته يرحل. حيث أن مزاياه العظيمة التي لا مناقشةَ فيها قد تبدَّدت من أجل انحرافٍ بالٍ في الرأي، وأن البناء الذي حاول تشييده قد أنهار فأصبح أنقاضاً بالية على مَسْمَعٍ منه. والخيبة من هذا القبيل لا سبيل إلى الرحمة فيها. وكان يومئذٍ في السادسة والثلاثين من عمره، وقد قُدِّر له أن يتسَمَّ مناصبَ مهمة في «شركة النفط الإنكليزية - الإيرانية» في الوطن والخارج

---

(١) في السيليات.

قبل أن يصبح عضواً نشيطاً غير مؤثّرٍ من أعضاء البرلمان المحافظين. إلا أنه لم يحقق  
الآمال التي كانت معقودة عليه في أوائل العقد الثالث من عمره<sup>(١)</sup>.

### مطامع السيد طالب النقيب

وبعد ذلك ركب كوكس وعقيلته، وفي معيتهما جيزمن وأنا والسيد طالب أيضاً  
في «مركب» نهري إلى الكوت. ومن هناك أكملتُ السفرَ بقاطرةٍ خاصّة من قاطرات  
الخط الحديدي الجديد<sup>(٢)</sup>. وقد كُنّا خلال الطريق منهمكين بالأوراق والمناقشات،  
وبذا كانت الرحلة فريدة في بابها. وقد جرت لي في هذا الأثناء بعض الأحاديث  
الخصوصية مع السيد طالب -كُنْتُ قد تعرّفت عليه في الإسكندرية من قبل- فأسرّني  
خلالها ببعض من مطامعه البعيدة. وكان هدفهُ الصريح بطبيعة الحال أن يحصل على  
التاج العراقي، لكنه قبلَ كلِّ شيء كان في نفسه أن يصبح أميراً من أمراء الممتلكات  
البريطانية، ولم يكن يفهم لماذا لا ينعم الملك جورج الخامس عليه بالإمارة إذا كان في  
وسع الشريف الحسين أن يضع الأمراء من آل لطف الله اللبنانيين! على أني لم أفش  
الأسرار التي إتمنني بها إلى أي أحد وخاصة إلى كوكس، لكنني لم أشجعه على  
مطمعيه هذين يومذاك وبعد ذلك بكل تبصّر وروية.

والحقيقة هي أنني كان لي أمل كبير في مستقبله. حيث كان من الواضح أنه كان

(١) وقد توفي في الحرب العالمية الثانية بعد أن تطوع جندياً في سلاح الطيران البريطاني وسقطت به  
الطائرة في سماء لندن.

(٢) كانت الكوت قد ربطت ببغداد في الحرب العالمية الأولى بسكة حديد لأغراض عسكرية.

٢٩٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

أبرزَ شخصيّة في العراق، في الذكاء وقوة الشخصية، لكنه كان على جانب كبير من الطيش والغرور، ولذا كان مرهوب الجانب عند الناس ومكروهاً من معظمهم. وإذا كان في الإمكان الاستفادة من مزاياه الحميدة واستخدامها استخداماً تاماً فإني كنتُ أتكهنُ له أن دوره سيكون إدارة مصائر العراق المُستقل لعدة سنوات تأتي في أرجح المناصب التي تحتمها الظروف والأحوال - كمنصب رئيس وزارة مثلاً أو رئيس جمهورية. ومنذ ذلك الحين أخذتُ أدربه على الاضطلاع بأحد هذين الدورين، ويجب عليّ أن أعترف هنا أنه كان تلميذاً ذا أهلية وقابلية بشرط أن تكون اليد التي تُدربه فيها شيء قليل من الود والصدقة. وربما كُنّا قد نجحنا معه لولا أن تقف في سبيل ذلك بعض الظروف الخاصّة التي سوف أُبيّن شيئاً أكثر منها في سياق هذا الموضوع.

### تشكيل الحكومة المؤقتة

وقد عَزَفَتْ في محطة «جنوبي بغداد» الفرقة الموسيقية نشيداً «أنقذ الله الملك» عندما وقف القطار ووقف على منصة صالونه السير بيرسي ببزته البيضاء يؤدي التحية. ثم أعقبَ ذلك توارد المُستقبِلين (١) للتحية -الجنرال مارشال، فالسير أيدغار بونهام

---

(١) تقول المس بيل في رسالتها من بغداد المؤرّخة في يوم الأحد ١٧ تشرين الأول ١٩٢٠ أن المُستقبِلين كان بينهم ٢٠-٣٠ من وجوه بغداد، وكان من جملة هؤلاء الشاعر جميل صدقي الزهاوي الذي ألقى بين يدي كوكس خطاباً ترحيبياً بعد الإنتهاء من تقديم المُستقبِلين له. وقد رد السير بيرسي كوكس عليه بالعربية، فكان نص الكلمة التي ألقاها، بحسب ما نُشِرت في الجرائد، كما يلي: «أن دولة بريطانية أرسلتني للمساعدة والإتفاق مع أشرف ورؤساء العراق لنحصل على الغاية المطلوبة للطرفين، وتألّف الحكومة العربية حكومة مستقلة بنظارة إنكلترا.

كارتر وكثير غيرهما، ولم تكن أقلهم شأنًا غير تروود بيل بديلتها الباريسية الجديدة وهي تبدي من ضروب المجاملة والتلطّف أعمقها. وكان نقيب بغداد المُتقدّم في السن السيد عبد الرحمن القادري، بعمره الذي ينوف على السبعين وبهزله برغم ضخامته، على رأس جمهور الوجهاء الذين وقف السيد طالب مُحتيلاً بينهم لِيَتَقَبَّل نصيبه من واجبات الطاعة. وكان كُلُّ شيء مؤثراً جداً، فاتضح أن العهد الجديد يتأهّب للبدء ببداية حسنة برغم أن اعتراضاتٍ كثيرة أثارها بعد ذلك أناسٌ (١) ذوو أهمية حول تعقيد السلطات المُختصة في تقديمهم إلى المندوب السامي بالفعل - حتى أن قسماً منهم لم يستطيعوا الدخول إلى المحطة بالنظر لازدحام الناس في خارجها.

وبمثل هذا احتفلت بغداد بفجر عهد السلم الجديد وعهد الحرية والرّخاء، بينما كانت جمار الثورة لا تزال تنقد في الأنحاء اتقاداً نكداً. حيث أن الثورة كانت قد كسرت شوكتها بدرجةٍ لا يُستهان بها، غير أن عمليات التطهير تطاولت خلال أشهرٍ

---

ولقد جئت هذه المقاصد لكن ما زال الاغتشاش مُستمرّاً طبعاً ولا يمكن العمل، وأنا حاضر عندما تحصل الفرصة وهذا شيء بيدكم».

(١) وها ما تقوله المس بيل في رسالتها المُشار إليها أخيراً في هذا الشأن: «... وما إن وصلتُ لمكتبي حتى بدأ سيل الرسائل والزوار يتوافد عليّ، وكلُّ منهم منزعج أكثر من الآخر، مُبدين أن المدينة مُستاءة كلّها من تشريفات الاستقبال لأنّ الوجهاء دعوا وحشروا إلا قليلاً منهم في الغبار خارج ردهة الاستقبال، حتى أنهم لم تتهياً لهم الفرصة لمصافحة السير بيرسي. وقد قال لي شيخٌ هرم من الشيوخ البارزين وهو يستخدم غضباً «إننا جئنا بحبٍ وطاعة، وعندما حاولنا الإقتراب من فخامته دفعنا جانباً. وقد عومل بهذه المعاملة حتى إخوة النقيب».

٢٩٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

متناقلة بعد ذلك. فلم يُلتفت إلى اقتراحي بإعلان الهدنة والأمان. لأنّ السلطات العسكرية و«شبان» ويلسن، وعلى رأسهم أيفلين هاوّل آخر الرؤساء الرجعيين - الذين تَحَمَّلوا بالطبع وزرّ اليوم وحرارته وتعرَّضوا لمهاناتٍ لا يمكن أن تُنسى - كان يطالبون بحصّتهم من الدم. وشعَرَ كوكس أنه يجب أن يدعن بهذا المقدار إلى ضغطهم عليه.

وقد باشرنا من غير تأخير بواجب تأليف وزارة الحكومة المؤقتة التي ستأخذ على عاتقها إدارة البلاد بإشراف كوكس. وكان بونهام كارتر، أحد المُتعمِّدين العدليين، قد قَطَعَ شوطاً بعيداً في إحضار لائحة لقانون الإنتخابات مبنية على الطريقة التركية في الإنتخابات الأولية والثانوية، فكانت جاهزة في نهاية السنة لعرضها على مجلس الوزراء. وكان، في الوقت نفسه، واجب إنتقاء الأعضاء اللّائقين للوزارة، وهو واجبٌ غير سهل على الإطلاق، قد أشغَلَ السير بيرسي كوكس مشغولية تامة. حيث كان مُنهمكاً يوماً بعد يوم وعلى طول الأيام بمواجهة المُرشحين الذين يمكن أن يقع اختياره عليهم وأخذ المُشورة والرأي من أناسٍ يمثلون جميع مناحي الحياة، الرسمية وغير الرسمية، بينما كُنْتُ أنا (١) وغير ترود بيل نقوم بكثيرٍ من الأعمال التي تُمهِّد له

---

(١) وفي الرسالة نفسها تقول المس بيل ما يلي:

«... وأن فرائضي لترتعد عندما أتصوّر ما كان يمكن أن يحدث لو لم نبادر بمعالجة الوضع عاجلاً، حيث لم يكن يوجد ولا شخص واحد من أصحاب السلطة يفكر بالناحية التي تختص بالعرب من الأمر في الوقت الذي كان من المهم جداً أن يتصل السر بيرسي إتصالاً شخصياً

السبيل بزيارة المرشحين للوزارة وغيرهم، ومن بينهم عبد القادر باشا الخضيرى رجل بغداد، الشيخ الذي لم تكن له مطامع سياسية مع أنه كان يعرف نبض البلاد كطبيب ذي خبرة. فأصبح صديقي الشخصي في المدينة، فما كان أعظمه رجلاً. حيث أنه كان الوحيد من بين مواطني بغداد الذي جازفَ في تحديّ نقمة الأتراك بذهابه إلى الرصيف في توديع البريطانيين الذكور الذين اعتقلوا وسُفروا إلى أفيمون قره عند الحصار في بداية الحرب. ثم استمر على النظر في راحة النساء الذين تركوا في المدينة. وقد بعث رجاله يوماً، بعد أن استنجد به، لينقذ امرأة إنكليزية من عبث أحد الضباط الألمان. وكان يحيا حياة غريبة الأطوار عائشاً في قصره المطل على دجلة. حيث أنه كان ينزل سلّم قصره صبيحة كل يوم، في الشتاء والصيف، فيستحم في النهر قبل أن يقصد مكتبه في السوق حيث يشتغل طيلة النهار من غير أن يتناول شيئاً سوى شطيرة من الطعام وفنجانين من القهوة التركية، حتى يجين المساء فيعود إلى بيته ويبدأ بتقشير اللوز والفسق، وقدح العرق أمامه، وهو جالس في شرفته المطلّة على النهر وحيداً أو مع بعض الأصدقاء. ونادراً ما كان يهتم بطعام العشاء الفاخر الذي كان يُعد له على الدوام، إلا عندما كان يقصده بعض الضيوف أو الزوار. وسواء وجد في مجلس الزوار

---

عاجلاً بوجوه البلد. وقد تعشى المستر فيلبي معي تلك الليلة فجرى بيني وبينه حديث طويل مفيد. كما كان قد تناول الشاي معي أيضاً فدبرت حضور ساسون أفندي ليتعرّف به فكان ذلك على جانبٍ عظيم من الفائدة، حيث أن ساسون أفندي من أعقل الناس هنا، وقد استعرض معنا الوضع بكامله بحكمته المعتادة وباعتداله المعهود.

٢٩٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةٍ أجنبيّة

أو لم يُوجدوا كان خدَمه يحملونه كُلَّ ليلةٍ إلى فراشه وهو لا يعي من السكر. وكان يحمل بين جنبيه أنبل وأنقى نفسية في بغداد.

وكان غير ترود بيل قد ركّزت نفسها منذ مدةٍ طويلة، مع خادم أمين استخدَمته عندها منذ أيامها الخالية في سورية، في «فيلا»<sup>(١)</sup> صغيرة مُبهجة تقع في وسط بستانٍ بدیعة ملاءى بالزهور أصبحت تُعرَف بين المتحلّلين باسم «مرتع العزوبية» فأصبحت هذه الدار بسرعةٍ مركزاً مُعترفاً به لشبكة واسعة النطاق من الدس السياسي الذي يشمل البلاد بأجمعها، وما كان أكثر الساعات المُبهجة التي قضيتها هناك معها هي وضيوفها من العرب مُتحمّساً نبَّض الرأي العام وشاعراً بالحركات والميول في مجتمعٍ من أشد المجتمعات تعلقاً بالسياسة في العالم. وكان غير ترود بيل وأنا بمقام محبّتي السر بيرسي كوكس نسبر الجو الذي لا يمكن أن يجس وراء أمائر الزمن ودلائله. وكُنّا ثلاثتنا نشتغل بانسجام تامٍ ووحدة متناهية كفرقةٍ واحدة نذرت نفسها لواجبٍ واحدٍ — وهو أن نُشكّل في بغداد حكومةً مؤقتة تحظى بقبول الجميع ومصادقتهم عليها.

على أن تلك المهمة لم تكن شيئاً يسيراً كما يتبادر إلى السامع. فقد كان هناك شخصان فقد يليقان لإشغال المنصبين اللذين خُصّصا لهما في النتيجة. فكان أحدهما ساسون أفندي، وهو تاجرٌ يهودي بارز من تجار بغداد كانت لياقته واضحة للعيان لمنصب وزير المالية. وكان الآخر جعفر باشا العسكري، الذي حاربَ ببسالة مع

---

(١) كان الدار مبنية في قطعة بستانٍ صغيرة تعود للمرحوم موسى الباجه جي، كما كان موقعها مقابل جامع السيد سُلیمان النقيب في السنك وفي جوار بناية مدرسة الرصافة المتوسطة الحالية.



الفريقين خلال الحرب وحصل على وسام الصليب الحديدي ووسام سي. أيم. جي. كما كان أحد قواد<sup>(١)</sup> فيصل البارزين. وكفرد من سكان بغداد كان قد عاد إلى وطنه، لم يكن في وسع أحد أن يتحدّاه في طلبه منصب وزير الدفاع. وكان هناك قائد آخر من قواد فيصل، من أهالي بغداد أيضاً لم يكن قد وصل بغداد بعد لكنه كان من المتوقع أن يصل عاجلاً. وهو نوري باشا السعيد<sup>(٢)</sup> الذي رُشِّحَ مقدماً لمنصب رئاسة أركان الجيش العراقي - أي القائد العام فعلياً. وكان هناك رجل صالح تمام الصلاح يليق لمنصب وزير العدلية وهو الرجل المتعلم الشيخ مصطفى الألوسي، بينما كان هناك عدد كبير من المرشحين لوزارات المعارف والصحة العامة والأشغال العامة وما أشبه ممن يمكن أن يجري الإنتقاء من بينهم من دون أي محذور سياسي لأننا كان في نيتنا أن نضيف إلى مجلس الوزراء عدداً من الوزراء بلا وزارة لأجل أن نشرك في الحكم عدداً

---

(١) كان قائد جيوش فيصل العام.

(٢) وهناك ما تقوله المس بيل في رسالتها المؤرخة في ٢٤ شباط ١٩٢١ حول نوري باشا: «... لقد شهدَ الأسبوع الماضي وصول عنصرٍ جديد لأول مرة، حيث أن الضباط العراقيين الذين كانوا في سورية أخذوا يعودون، وأول من وصل منهم نوري السعيد صهر جعفر باشا الذي وصل في الأسبوع الماضي... وفي اليوم الذي تلى وصوله خابري جعفر بالتلفون وسألني متى يستطيع نوري مواجهة السر بيرسي. فطلب إليها السر بيرسي أن يأتيا في الحال ويقيتا لتناول الغداء معه. وقد جاء في الثانية عشرة فجلسا معي ساعة واحدة. ثم استدعيت الكابتن كلايتن الذي كان يعرف نوري في سورية ويوده، وكذلك مرّ بنا الميجر موري فجرى بين الجميع حديث خطير. وفي اللحظة التي رأيت نوري فيها أدركت أن أماننا قوة القاهرة سهلة الإنقياد وعلينا إما أن نستخدمها أو نشتبك معها في صراعٍ شاقٍ...».

من الشخصيات المهمة الذين لا يمكن أن يوضعوا بشكلٍ آخر.

إلا أن العُقدة في تشكيل الوزارة كانت مُركّزة في رئاسة مجلس الوزراء وفي وزارة الداخلية. حيث أن السيد طالب بالنسبة لمزايه كان أبرز مَنْ يستطيع إشغال المنصبين، لأنّ الداخلية كانت الوزارة الحيوية وبالإمكان دمجها بالرئاسة من غير محذور. ولو كُنّا اتخذنا هذه الخطوة لكان من الواضح أن يُرشّح السيد طالب مُقدّمًا رئيساً مُقبلاً للدولة مهماً كان الاسم الذي كان سيُقرّر لهذه الرئاسة - وربما كان سيكون رئيساً للجمهورية لأنّ الشعور العام في العراق كان يومذاك ميال بصورةٍ جازمة إلى الجمهورية (١) و ضد الملكية، ما خلا عدد من الأتباع المهمين الذين كانوا يؤيدون الدعوة الشريفة.

غير أن غيرتروود بيل تكره السيد طالب كما تكره السُمّ، بينما كان السر بيرسي كوكس لا يأتّمه ولا يميل إليه بوجهٍ عام. على أن الإثنين إتفقا على أن يكون من بين

---

(١) كانت هذه مُجرّد فكرة نشأت عند أناس معدودين فقط، وأن ما توصلنا إليه في الرجوع إلى كثير من المصادر يشير إلى أن أكثرية الطبقات كانت راغبة في الملوكية لأحد أنجال الشريف. ويقول السيد عبد الرزاق الحسيني في النص (٢٠٦) من كتاب (العراق في دوري الإحتلال والانتداب) ج ١ ما يلي: «... فإن المستر فيلبي مستشار وزارة الداخلية سابقاً... كان أول مَنْ قال وجاهر بفكرة الجمهورية في العراق، وقد تمكّن أن يجمع حوله بعض الشخصيات البارزة في العراق كالمرحوم توفيق بك الخالدي والشيخ سالم الخيون والسيد محمود النقيب وعبد المجيد الشاوي وفخر الدين جميل وغيرهم من رجال الحزب العراقي الحر الذي أَلّفه النقيب في بغداد ليسند وزارته والذين كان يُؤثر عليهم المستر فيلبي. وقد أخذت هذه الفكرة كل الأحماد بحمل المستر فيلبي على اعتزال منصبه...».

الوزراء وأن يشغل وزارة مهمة، وبذا لم يكن من الصعب على المرء أن يرى أن المنصب الوحيد الذي يقبل به هو منصب وزير الداخلية. ولم أَلح أنا من جهتي على تعيينه للرئاسة، لعلمي بأنه كان ثمة رجل واحد فقط يقبل السيد طالب الإشتغال برئاسته، ولعلمي أيضاً أن السيد عبد الرحمن النقيب بشيخوخته كان عزوفاً<sup>(١)</sup> عن الإضطلاع بمثل هذه المسؤولية. وقد كُنْتُ على إتصال دائم بالسيد طالب مُشيراً عليه بالصبر ومُوصياً إِيَّاه بالإذعان لخطط كوكس من أجل أن يتم تشكيل الحكومة المؤقتة التي سيكون هو فيها، على كُلِّ حال، الشخصية المُهيمنة كوزير للداخلية. وفي الأخير تم كُلُّ شيء، فعقدنا كوكس وغيرترود وأنا مجلساً نهائياً لنقرر وضع كل شيء في موضع التنفيذ. فذهَبَ كوكس وحده لزيارة النقيب قاصداً تكليفه بتشكيل الحكومة المؤقتة، وبقيت أنا وغيرترود في مكتبه منتظرين نتيجة المواجهة. وعندما عاد كوكس إلينا خاطبنا بكلماتٍ مُختصرة مفيدة تتم عن ارتياحه قائلاً: «لقد قَبِل»، فَطَفَحَ البشر من أوجهنَّا كُلُّنَّا لهذه النتيجة السارَّة التي تكلَّلت بها مساعينا<sup>(٢)</sup>.

(١) وقد جاء في رسالة المس بيل المُشار إليها من قبل في هذا الشأن ما يلي: «... وإذا رَفَضَ النقيب أن يخطو إلى الأمام ويسد الثغرة الحاصلة فإن وجه الخيار الوحيد الذي أراه هو أن يضطلع السر بيرسي نفسه بالمهمة (تأليف الوزارة المؤقتة) فيدعو أعضاء الوزارة المؤقتة ويعينهم. والمعتدلون أنفسهم هم الذين يفكرُّون بهذه الفكرة الآن، حيث أن فخري جميل اقترح ذلك عليَّ صبيحة هذا اليوم. ولستُ بحاجة أن أقول بأني رحبت بها مُبديةً غاية التعجب والإهتمام لأني أريد أن يأتي كُلُّ شيء من عندهم لا من عندنا...».

(٢) لقد تَشَكَّلَت الحكومة المؤقتة برئاسة السيد عبد الرحمن النقيب وعضوية الذوات التالية

ولما كُنْتُ، في الوقت نفسه، على إتصال وثيق بكوكس كُنْتُ قد وَصَعْتُ مُسَوِّدَةً خِطَّةً لِلجهازِ الإِستشاري المَزْمَعِ تَنفِيذِهِ. تتناول الإدارة الحكومية بكاملها من الوزارات إلى المناطق والنواحي. وكان ويلسن قد جَنَدَ لهذا الجهاز، فضلاً عن الموظفين الكبار في المركز، ما لا يقل عن (١٣٠) ضابطاً إدارياً بريطانياً يجب أن يَتَخَلَّوا الآن عن مناصبهم إلى المتصرفين والقائممقامين ومديري النواحي العرب. وسوف لا تدعو الحاجة إلا إلى عددٍ قليل من هؤلاء الموظفين البريطانيين ليصبحوا مستشارين ومساعدى مستشارين للموظفين الوطنيين، وعلى هذا فقد انقصتُ عددهم من (١٣٠) إلى (٣٠) فقط، وبعد استشاراتٍ ومداوماتٍ أخرى رُفِعَ العدد إلى (٤٠). أما البقية فقد نُحِتَمَ عليهم أن يتركوا البلاد، وقد دَبَّرنا لهم طريقةً سخيةً بدفع الإكراميات النهائية إليهم لأجل أن يَتَسَنَّى لهم تدبير شؤونهم حتى يمكن إيجاد وظائفٍ أخرى لهم. وأذكر بهذه المناسبة أنني أصررت على وجوب إعادة ديكسن إلى العراق، وعلى إخراج الكابتن سي. كي. ديلي أحد رجال ويلسن الجُفَاءة من الخدمة في البلاد.

---

أسماؤهم (مع حفظ الألقاب): السيد طالب النقيب للداخلية وساسون حسيقيل للمالية والسيد مصطفى الألوسي للعدلية وجعفر العسكري للدفاع وعزت الكركوكي للأشغال وعبد اللطيف المنديل للتجارة والسيد محمد مهدي الطباطبائي للصحة والمعارف ومحمد علي فاضل للأوقاف. أما وزارة الدولة (بلا وزارة) فقد كانوا: عبد الرحمن الحيدري وعبد الجبار الخياط وفخر الدين جميل والحاج عبد الغني كبة والشيخ عجيل السمرمد وعبد المجيد الشاوي والشيخ محمد الصيهود وداود اليوسفاني والشيخ سالم الخيون وأحمد الصانع والشيخ ضاري السعدون والحاج نجم البدرأوي.

ووجب أخيراً أن نباشر بإملاء المستشاريات الوزارية، فعقدَ كوكس عدة اجتماعات لهذا الغرض. فكان بونهام كارتر، وهو أقدم موظف كبير في معية المندوب السامي على الإطلاق، لائقاً بوضوح لمستشارية العدلية، ويضاهيه في ذلك لياقةً لمستشارية المالية أ. هـ. سليتر. وقد كان سليتر شديد الحيوية وإدارياً مقتدراً وطموحاً جداً. وفوق ذلك كُلِّه كان يرغب بالاحتفاظ بمستشارية الداخلية لنفسه، ولذا اقترح بجرأة أن أكون أنا مستشاراً للأشغال العامة. فقابلت الإقتراح بصخبٍ غير لائق، فخُصِّصَتْ تلك المستشارية إلى الجنرال سنت جون أتكسن الذي كان مديراً عاماً للأشغال العامة في عهد ويلسن، وكان أليق رجل للمنصب الجديد هذا. ثم أصبح لايونيل سميث مستشاراً للمعارف، كما خُصِّصت المستشاريات المختلفة الأخرى من غير صعوبة تذكر حتى بقيت مستشارية الداخلية وحدها شاغرة ووجب أن يشغلها أحد مرشحين هما أنا وغاربيت الذي جاء إلى العراق ليكون السكرتير الأول للمندوب السامي. وكان المقرَّر أن يكون هذا المنصب مساوياً لمنصب المستشارية الوزارية، وعلى هذا كان لدينا في الحقيقة منصبان ومرشحان لهما. وكان سليتر لا يرغب أن أكون في الداخلية مهما كلف الأمر فرشَّح غاربيت لها.

فإلتفت إليّ كوكس قائلاً: «أي منصب تُرَجِّح أنت؟» فأجبت: «أنني في خدمتك بالكلية يا سيدي». وعندئذٍ أجابني بقوله: «أشكرك يا فيلبي، أني أقدر ذلك». وعلى هذا أصبحت مستشاراً للداخلية كما أصبح السيد طالب وزيري.

ثم حاول سليتر أن يلعب لعبةً أخرى فاقترح أن يتقاضى هو وبونهام كارتر راتباً

٣٠٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

شهرياً قدره (٣٠٠٠) روبية، بينما يجب أن يتقاضى جميع المستشارين الآخرين (٢٥٠٠) روبية. فاعترضت على ذلك لأنني مع عدم وجود مصلحة خاصّة لي بالمبلغ الذي تَقَرَّر إعطاؤه كُنْتُ أعتقد أنه من الضروري أن يتقاضى جميع المستشارين نفس الراتب فنجح اعتراضى - حيث تَقَرَّر أن يكون الراتب الشهري للجميع أقل المبلّغين المذكورين.

## أرض النخيل

رحلة كرسجي

### عائق جرف البصرة

غادرنا مرفأ الكويت في الساعة الثامنة مساءً، وقطعنا حوالي ثلاثين ميلاً في البحر مروراً ما بين جزيرة بوبيان الكبيرة الرملية القاحلة الواقعة إلى يسارنا وجزيرة فليكة الصغيرة الواقعة إلى يميننا، وفي الساعة الرابعة صباحاً رسونا عند مدخل جرف البصرة المُوَجِّل الحرج بانتظار المد العالي.

ويمثل هذا المستنقع الضحل من مياه البحر الواقع عند رأس الخليج عقبةً كأداء في طريق البواخر التي يزيد غاطسها على غاطس الباخرة «زيانتي» ويشكّل هذا المُسْتَنَقِع بفعل المصبّ النهري الكبير أو دلتا الأخوار والروافد المشتركة مثل شط العرب، بهمنشير، قبان، خور موسى، خور عبد الله، خور قناقة، وجميع هذه الروافد من بينها الرافد الأكبر وهو الشط تتدفق أو تمر عبر عربستان الفارسية وسوسانة (١) وتصب في الخليج، ويشكّل الشط الحدود الغربية لهذه البلدان، وعلى مدى عصورٍ

---

(١) تعقيب: خوزسنان قديماً، وتُسمّى أيضاً «سوسيانا» و«شوشانة»

٣٠٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

عديدة لا تُعد ولا تُحصى جرفت مياه هذه الروافد كافة أنواع الطمي، وفتات الصخور، وشتى أصناف الرواسب النهرية، فتراكمت هذه المقذوفات على بعضها الآخر، وشكّلت قاع البحر في هذا الموضع مُحدثةً بذلك عائقاً كبيراً أمام المراكب المُسافِرة بحراً حتى بالنسبة للمراكب المتوسطة الوزن خصوصاً أن هذا العائق يتعاظم ويزداد اتساعاً، ونتيجة لذلك تضطر البواخر التي يزيد ثقلها على ٣,٠٠٠ طن والمليئة بالحمولة أن تتباطأ وتتأني أثناء اجتيازها لهذا العائق سواء عند الدخول أم الخروج منه دون أن تلامس القاع أو أنها تتعرّض لخطر الجنوح في الوحل المتراكم القادم من بلاد الرافدين والأقاليم المجاورة لها والذي يغمر قاع البحر هنا.

وتحين اللحظة المحددة والمواتية لعبور الجرف الرملي عند ارتفاع منسوب التيار أثناء النهار، كما يتطلّب العبور عند مصب الشط في تلك اللحظة الحاسمة الحرجة حساباً دقيقاً ومتأنياً من جانب ربان الباخرة. وفي الصباح الباكر يوم ٢٣ ديسمبر ١٩١٦ م عندما:

«بدأ الصباح المُتَشِح بالسواد يصبحُ وريداً كجراد البحر حين يصبح مطهياً»

رفعت الباخرة «زياني» مراسيها ووجدت نفسها برفقة سبع بواخر أخرى عند نهاية الخط البحري للجرف الرملي، وكان بإمكاننا أن نسبق أقراننا ونَتَقَدَّم الموكب لو لم تضع منا الفرصة بسبب إفتقار مرشدنا وهو شابٌ إلى الخبرة والممارسة، فقد ارتطمت الباخرة بالقاع وبدت كأنها على وشك أن تلتصق هناك لمدةٍ إثنتي عشرة ساعةٍ أخرى، ولكن رباننا قد تمكّن من تخلصها بمهارةٍ من تلك المحنة في الوقت المناسب، وحينما



كان التيار المائي لا يزال يتدفق بغزارة كُنَّا قادرين على عبور عائق الجرف في أثر البواخر السبع الأخرى.

وكنْتُ طوال الوقت أرقب عن كثب من فوق منصة الرُّبَّان مشهد البواخر الثمان وهي تعبر بالتتابع فوق الماء العكِر المغمور بالوحل، حيث كان مشهدها ممتعاً للغاية وهي تتبع كل واحدة منها الأخرى في رتلٍ منتظم، فقد كان المشهد شيء شبيهاً بالاستعراض البحري ولكن على نطاقٍ ضيق، فالدلتا الواقع فوق الجرف عريضة بما فيه الكفاية، وبها العديد من المتسعَات المائِة المأمونة لكن الدخول إلى مصب الشط يتم عبر قناةٍ ضيقة معالمها مُحَدَّدة وبخطوطٍ طويلة من العوامات الطافية السوداء، وتُوجد بينهما فسحةٌ من الماء تسمح بمرور باخرة واحدة فقط بسرعة منخفضة وعلى فتراتٍ متباعدة، وعلى مدى أبعد قليلاً كان علينا أن نعبر فوق شطٍ آخر من قاع البحر المغمور بالطمي مما يشكّل جرفاً ثانياً هو جرف الفاو، وهو أهون على أية حال من العائق السابق الذي اجتزنه لتونا.

وقد قامت الحكومة البريطانية التي تسيطر الآن على البصرة وكافة أراضيها بحيويتها المعهودة بالنشاط والرأفة، بالبدا في عمليات كسح الوحل الرامية إلى التخفيف من أعباء الصعوبات الناجمة عن مثل هذه العقبات الخطيرة والمُعيقة ولكن المسألة تَتطلَّب تهدئة الأمور إذ يجري العمل الآن طبقاً لجميع الروايات على خفايا الأمور بأنَّ هذا الكسح يؤدي فقط إلى نقل جُسيمات الطمي - التي تُسبب خلق جميع هذه الصعوبات - من مكانٍ إلى آخر ومن ثم توسيعها بدرجةٍ متفاوتة، وجعلها

٣٠٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

متكتلة كالروابي والأكمات، أما سطح الطمي الذي يتعرّض للكسح فبدلاً من إلقائه بعيداً في البحر عن مسافة تقدر بحوالي عشرين ميلاً أو أكثر فإنه يُلقى به عند مسافةٍ قصيرة حيث يتكرّر مرةً أخرى بفعل المد المتدفق ويسبب أضراراً أكثر جسامة من السابق.

## شط العرب

وبمجرد أن عبرنا عائق الجرف دخلنا شط العرب الكبير الواسع المتدفق، أو نهر العرب إذ كلمة الشط تعني بالعربية نهراً فعلى سبيل المثال يُوجد شط الحلة، وشط ديالى، وشط العظيم، إنما شط العرب فهو نهر بكل ما في الكلمة من معنى، فهو الأوسع والأهم من بين عدة أنهار تقوم بتصريف مياه بلاد الرافدين وتُشكّل بذلك الدلتا الكبيرة الواقعة فوق رأس الخليج العربي، وهو يجري مُتدفقاً نحو الجنوب ويصب في البحر، ويبدأ مجراه الطويل من «القرنة»، حيث تلتقي هناك على شكل حربةٍ أو سهم مياه الفرات والذي يعني «المجرى البعيد» ومياه دجلة الذي يعني «المجرى السريع»، وينبع هذان النهران في المناطق البعيدة الواقعة إلى الشمال وذلك من وسط الثلوج المتساقطة طول العام التي تغطي جبال أرمينية، ويكبران باندماجهما مع روافدهما المتعددة ثم يتحدان فيشكّلان بذلك شط العرب الكبير الذي يربط بين الأرض القديمة لبلاد الرافدين - «تلك الكلمة المباركة» «أو العكس؟» التي تتردد الآن كثيراً على ألسنة الناس - وبين الخليج العربي، فعلى هذه الأرض سادت وازدهرت في الأزمنة الغابرة الإمبراطوريات القوية للأشوريين، والبابليين، والميديين،

والفرس، والحثيين، فهذه البلاد الشهيرة الواقعة ما بين النهرين التوأمن التي ازدهرت فيها قديماً هذه الإمبراطوريات الخمس العظيمة قد تركت «مهلةً لأكثر من ألفي سنة» وبالأخص بعد النكبات المروعة التي حلت بها على أيدي اليهود الشرقيين والمغول الذين قوّضوا الخلافة الأولى العظيمة وحضارتها الزاهرة المتألقة، مُخْلِفين وراءهم المجاعة والدمار، أما الأتراك الذين جاءوا إلى هذه البلاد فلم يعملوا سوى القليل لإحياء مجدها التليد وإعادة الإزدهار إليها، ومما يدعو للاستبشار أنها أصبحت الآن بريطانية عن طريق القوى العسكرية وعبر الحماقات الرعناء التي ارتكبتها مالكوها السابقون، ويسود إعتقادٌ عام بأنها ستكون حماقة لا نظير لها ولا مبرر لها إذا تَخَلَّتْ بريطانياً العظمى عنها، وفي الواقع أن: «الذين بيدهم الحكم الصالح يرسمون لهم خطة في منتهى البساطة ليحل مَنْ هو قادرٌ مَحَلَّ مَنْ بيده السلطة»

ويجب ألا تُحَرِّم «بلاد الرافدين» من الفرصة السانحة لها الآن، وهي الفرصة التي اتاحها لها «السلم البريطاني» إذ كانت هذه الأرض في الماضي تفيض بالخيرات وتنعم بالرخاء والحرية.

ويؤكد الخبراء أن إمكاناتها المتوافرة تتيح لها أن تتحوّل إلى موطنٍ حقيقي للثروة والغنى وتصل إلى حد التعويض عن أكثر من نصف تكاليف هذه الحرب الدائرة الآن، ففي ظل إدارة رشيدة، نزيهة، قادرة، وجريئة كالإدارة القائمة حالياً تحت الحكم البريطاني - الهندي فإن البلاد ستزدهر وتتعشّح حتماً إلى حدٍ كبير وفي مجالاتٍ متنوعة وبالأخص كبلدٍ مُنتج للقمح «الحنطة» والقطن، ففي أثناء الحكم الروماني الذي سادة

٣٠٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

أنحاء واسعة من العالم كانت «بلاد الرافدين» تُعدُّ واحدة من كبار مخازن الغلال بالنسبة لأوروبا، وبإمكانها أن تعود بسهولة مرةً أخرى إلى سابق عهدها إذا توافر لها ري مناسب ومواصلات سهلة في البر والنهر، وتبدو هذه المرافق الضرورية سهلة المنال مع وقوع السكك الحديدية ونهري الفرات ودجلة وتابعهما الكبير شط العرب في القبضة البريطانية فهذه المزايا من وراءها عزمٌ ونشاط ومهارة وإقدام البريطانيين والهنود توعد بضمّان مستقبلٍ باهر لبلاد الرافدين العريقة، فهي لا تنتظر كما ذكر السيد «هوبارد» في كتابه الذي صدر مؤخراً بعنوان «من الخليج إلى آارات» سوى إشارة البدء أو قول «افتح ياسمسم» من مهندس الري الحديث لكي تفتح أبوابها وتزوّد نصف سكان القارّة بالغذاء، وتقع المدن ذات الأهمية الكبيرة في تركيا الآسيوية الشرقية مثل الموصل، وديار بكر، وسامراء، وبغداد على ضفاف نهر دجلة، وغالباً ما يتردّد ذكر هذه الروافد الثلاثة العظيمة التي كانت تمثل في العصور القديمة الممرات المائية التاريخية للتجارة بين أوروبا وكافة أنحاء آسيا في الأدبين العربي والفارسي، وبالأخص التلميحات المتعلّقة بأحجامها ومميزات تفوقها، وقد ذكرها الشاعر الصوفي الكبير مولانا الجلال الدين الرومي في قصيدة الرائعة «المنوى»<sup>(١)</sup> قائلاً:

---

(١) تعقيب: المثنوي الأثر الأدبي الشهير لشاعر الصوفية الكبير «جلال الدين الرومي»، (٦٠٤ - ٦٧٢ هـ / ١٢٠٧ - ١٢٧٤ م) أحد الأعلام البارزين في الأدب، ويتمتع المثنوي بشهرة عالمية كبيرة فهو يُعد في طليعة المأثورات الأدبية العالمية، وقد كثرت حوله الشروح والتراجم في مختلف اللغات الحية، والمثنوي مصنف موضوعه الوجود بصفة عامة والإنسان والحياة بصفة خاصة ويشتمل على (٢٥٦٣٢) بيتاً موزّعة بين أجزاء الستة، وهو مقدم في صور من القصص

«فيا من مقامك عند الغدير المالح!

أتى لك أن تعرف الشط وجيحون والفرات؟»

فالشط الذي تلتئم عند مياه دجلة والفرات اللذان يشكّان «بلاد الرافدين» يصبح نهراً فيّاضاً مُتدفّقاً يبلغ إتساعه عند بدايته في القرنة ألف ياردة، ويشق طريقة في صهابة وإجلال مُنحدراً نحو الجنوب، ليصب في الخليج في خطٍ مستقيم عبر مصب نهري وحيد يبلغ عرضه ميل واحد أو أكثر، وهو نهر غزير المدى، يسيل في معظم مجراه بين الضفاف العالية، وهو صالح لبحارة البواخر المسافر في البحر ذات الحمولة الكبيرة على طول إمتداد مجراه حتى مدينة البصرة، وإلى مدى أبعد بالقوارب النهرية، وللشط أهمية وفائدة كبيرة عند استخدامه للأغراض التجارية والإستراتيجية، ومن المُدهش أنه لا تقع على الشط ما بين الفاو والقرنة مدن كبيرة أخرى باستثناء المُحمّرة والبصرة.

ولا تساوي مدينة «القرنة» الموضع الشهير لجنة عدن الواقعة عند رأس الشط شيئاً يُذكر، ولكنها لفتت إنتباه «السيرجون مالكوم» باعتبارها أهم موقع في هذه

---

والحكايات أو عبارة عن مجموعات من المقطوعات الفنية بالمواعظ والحكم، وللمثنوي شأن كبير في الصوفية وطرقها ومريدوها وبالأخص بين أتباع الطريقة «المولوية» التي أنشأها، جلال الدين الرومي، في مدينة «قونية» بالأناضول وتعني كلمة مثنوي بالعربية النظم المزدوج الذي يتّحد به شطرا البيت الواحد، ويكون لكل بيت قافيته الخاصة، وبذلك تتحرر المنظومة من القافية المُوحّدة.

٣٠٨ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

الأنحاء من الناحية العسكرية، وقد أوصى «السيرجون» ببصيرة ثاقبة «المركز وليسلي»<sup>(١)</sup> الذي كان آنذاك الحاكم العام للهند بأن يأخذ أو يستولى، ويضم هذا الموضوع لأنه تصوّر أنّ الإستيلاء على هذا الموقع القيادي الذي يربط بين ثلاثة روافد وبالتالي تحصينه وجعله منيعاً سيكبح جماح العشائر العربية والقبائل الأخرى المتمردة والسكان الذين يقطنون أو يجوبون هذه الأنحاء، كما سيارس نفوذاً مؤثراً على جميع البلدان المشاكسة المحاذية لهذه الروافد من بغداد إلى البصرة، ولم يتوقع الحاكم العام والمحارب الكبيرة آنذاك سوى الشيء القليل من هذا القبيل، وبعده بمائة عام، وعندما كانت القوات البريطانية الهندية تزحف ظافرة شاقّة طريقها ميلاً بعد آخر وسط أعراش وأهوار نهر دجلة ذات الطيبة القاسية احتلّت القرنة واحتفظت بها كواحدة من أهم مواقعها العسكرية.

وتتناثر على ضفتي شط العرب القرى بالعربية الصغيرة أو مستوطنات البدو، مؤلفةً بذلك سلسلةً متواصلة من الأكواخ المصنوعة من أعواد القصب الطويلة والواقعة بمحاذاة ضفة النهر.

وقد صُنِعَتْ هذه الأكواخ على نحوٍ بسيط من جذوع النخل وذلك كدعائم وكُسيّت سقوفها بالقش والقصب، وأحياناً حينها يرتحل البدو إلى أماكن أخرى يتم

---

(١) تعقيب: المركز ريتشارد كولي وليسلي (١٧٦٠ - ١٨٤٢) شغل منصب الحاكم البريطاني في الهند في الفترة (١٧٩٨ - ١٨٠٥) ثم وزيراً لخارجية بريطانيا ١٨٠٩ - ١٨١٢ ثم مسؤولاً عسكرياً في أيرلندا ١٨٢١ - ١٨٢٨ و ١٨٣٢ - ١٨٣٤ م.

تحويل هذه الأكواخ إلى أطواف<sup>(١)</sup> وتعتبر العديد من هذه المستوطنات مجرد مزارع صغيرة تُربى فيها الأغنام والمواشي والدواجن، وقد شاهدتُ أسرابها عديدة من البط البري والأوز والدجاج تسرح حول الجداول التي يتم عبرها الوصول إلى هذه الأماكن، وتزخر هذه المناطق بأصناف متنوعة من البط البري وطيور الشنابق والقطاة وغيرها من الطيور المائية والطيور الصالحة الصيد مما يُتيح فرصة نادرة لصيد ثمين في هذه الأنحاء، إذ توفر أعواد القصب والأعشاب المائية بالأهوار لهذه الطيور مكاناً ملائماً للمأوى والغذاء، ولقد شاهدت عدة أسراب من البط البري تسبح طافية فوق سطح الماء آمنة مطمئنة على مقربةٍ دانية من باخرتنا المتحركة، كما شاهدتُ هنا أيضاً ولأول مرة مُنذُ أن غادرت بومباي الجاموس الضخم المُترهل الجسم، ومن الملاحظ أن الجاموس الفارسي لا يختلف عن نظيرة الجاموس الهندي.

ولقد شاهدت في هذه الفصل من السنة عدداً قليلاً جداً من الأبقار أو العجول، كما بدت الخيول نادرة في هذه الأنحاء، كما شاهدت في الشط لأول مرة بعد مضي عدة أيام أعداداً من الحداء والنسور كانت تحوم فوق البواخر الراسية، باحثةً عن حُطام سفينة طافية فوق الماء قد تقع بالصدفة في طريقها، وكانت تنقُص من حينٍ إلى آخر وسط طيور النورس المتصايحة فتثير، الهلع فيما بينها، وقد لاحظتُ أن هذه المناطق الواقعة حول شط العرب الكبير تبدو خالية من ذلك الفزع الأسود المثير للقلق الذي

---

(١) تعقيب: أطواف مفردھا طوف وهو قصب أو خشب يُشد بعضه إلى بعض ويُستعمل للركوب في مياه الأنهار.

٣١٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

نعاني منهم في بومباي والمتمثل بذلك الوباء المُجَنَّح الذي دأبه السرقة والنهب، وهو الغراب الأسود ذو الرقبة الرمادية، وبدلاً منه يُوجد في البصرة طائر جميل خاص بها بل هو دون شك ابن عمه، بالرغم من قِلَّة عدده وهو الغراب الأبيض الجميل الكبير الحجم، رأسه وجسمه لونهما أبيض شاحب، وجناحيه لونها أسود، ولم أشاهد وسط النخيل سوى القليل من هذه الغربان البيضاء وقد بدت من مظهرها الخارجي بأنها تَتَمَنَّع بالإحترام الكامل بين أفراد فصيلتها، أما الطرائد الكبيرة فلا تُوجد في أي مكانٍ قريب من الشط، ولكن قد تشكل الثعالب وبنات آوى والخنازير البرية صيداً وصيداً لصيادٍ جسور.

## أرض التمور

لقد أطلقتُ على هذا الكتاب اسم «أرض التمور» ولقد سبق لي أن قدّمتُ وصفاً عن الأماكن التي زرتها في الخليج، وقد حان الوقت الآن مع دخولنا ولاية البصرة أن أقدم بعض الوصف عن هذه المناطق الشاسعة المنتجة للتمور الواقعة بمحاذاة ضفتي شط العرب الكبير، إضافة إلى وصف الثمرة التي تشتهر بإنتاجها هذه البلاد، فنحن الآن في الموطن الأصلي للتمور إذ تنتشر هنا زراعتها على ضفاف الشط، وبالرغم من النخلة تنمو بكثرة على طول إمتداد ساحل الخليج وتنتشر زراعتها من البحرين أدناه حتى الكويت عند رأس الخليج إلا أنه هنا في هذه البقعة الخصبة حينما ندخل في هذا النهر الواسع العريض نكون قد دخلنا إلى الموطن الأصلي للنخلة، فالنخلة هنا شجرة أصلية تنمو وتترعرع في تربة بلدها الحقيقي، ويمكنني القول إن جودة ثمرتها تعود



بدرجة كبيرة إلى عذوبة مياه الشط وخصوبتها، وتُشاهد الغابات الكثيفة لهذه الشجرة الرائعة وهي تغطي كلتا ضفتي الشط على مدى أميال عديدة إلى الداخل ممتدة من الشرق إلى الغرب، ولكلمة «تمرة» بالإنكليزية اشتقاق لفضي مفيد، إذ هي مشتقة من كلمة إغريقية تعني «إصبع» لأنَّ شكل التمرة يشبه مظهر الاصبع البشري، لذا فإنَّ الاسم العلمي النباتي التي تعرف به هذه الشجرة هو «حاملة الأصابع الفينيقية» وتعود بنا هذه التسمية إلى العصور القديمة الغابرة، حينما رحل المستوطنون الفينيقيون الأوائل من الخليج وحملوا معهم النخلة إلى الشواطئ الشرقية وربما أيضاً إلى الشواطئ الجنوبية أو الإفريقية للبحر الأبيض المتوسط، ولا يقع بصرك في سهول البصرة حيث ينشط الشط إلى قسمين على تلٍ أو ربوة قط، فأينما أَجَلتَ بَصْرَكَ وأينما اتجهت سترى الأرض مكسوَّة والأفق محجوباً بأشجاره النخيل، لاشي هناك سوى النخيل الخضراء، الرشيقة المظهر، الجميلة المنظر، ويبدل العرب القاطنين في هذه المناطق جُلَّ اهتمامهم ورعايتهم في زراعة النخيل، ونظراً لعدم وجود النخل في هذه الأسماء فإنَّ عملية إثارة هذه الأشجار الشديدة الإخصاب تتم عن طريق قطع الأكمام (الطلع) الحاملة لحبوب اللقاح (غبار الطلع) من النخلة الذكر وذلك من خلال فصول مُعيَّنة من السنة، ونثر الأزهار الأنثوية عليها بواسطة كيسٍ خشن فيتم الإخصاب، وفي نفس الوقت تتغذى هذه الأشجار بسماذٍ يأخذ من سمكة الكوسج (١) التي تُسمَّى «أوال»، وذلك بعد تحللها نتيجة نقعها في الماء، وهي عملية

---

(١) تعقيب: تعرف عامة باسم «اللخمة» أو «اللخم»

٣١٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةٍ أجنبيّة

مُنشّطة ومنبهة للغاية، وبالرغم من أن نباتات الشط تشمل التوت والتين والكروم التي تُزرع غالباً في المزارع الخاصّة فإنها تشمل أيضاً أشجار التمر الهندي وذلك طبقاً للاسم الذي يطلقه العرب والفرس على أحد توابلنا الشائعة في الإستعمال في الطهي، كما تشمل بعض الشجيرات القصيرة الضئيلة الحجم (كشجرة العناب الهندية) المألوفة في بومباي وفي مناطق أخرى من الهند، إلا أن النخلة هي الشجرة الأولى والمسيطرة دون منازع على هذه الأنحاء وفقاً لتقدير الناس، وحينما تقف على ظهر الباخرة أثناء إبحارها صعوداً أو نزولاً في الشط فأنت لا ترى سوى مساحاتٍ شاسعة لا نهاية لها من الأراضي التي تزدحم فوقها أشجار النخيل الدائمة الخضرة، بسعفها الشوكي، ومنظرها البهيج، وبالكاد يُزرع صنفٌ آخر من النخيل في الموضع التي تُزرع فيه نخلة التمر.

ومن الغريب - وفقاً لملاحظاتي - أنه لا يُشاهد فوق هذه الأراضي التي تنمو فيها نخلة التمر بكثافة وبهذا القدر من النضج والكمال أية أصناف أخرى من فصيلة النخليات، إذ لم أشاهد على إمتداد الخليج أو في أنحاء الشط أي أثر لنخلة النارجيل، أو نخلة الأريقة (نخلة النوفل)، أو نخلة الطاليب، أو نخلة (كندالا)، أو نخلة القناني، أو نخلة النشأ أو أيا من أصناف النخل الأخرى المنتشرة عامة في الهند وجزر البحار الهندية، ويتضح من ذلك أن أشجار نخيل التمر تفي بكافة الاحتياجات العربية، كما تقوم بساتين النخيل بدور مخازن المؤونة ومصادر الطعام وموارد الغذاء بالنسبة لجميع السكان القاطنين في هذه الأنحاء من بلاد العرب، وقد وصف أحد الرحّالة الأوائل التمر بأنه (خبز البلاد ومادة الحياة وعماد التجارة) بالنسبة للعرب

القاطنين في كافة أرجاء الخليج والشط، فقد كان ولا يزال يُمثّل مصدر الرئيسي لرزق الفقراء ولثراء الأغنياء في هذه البلاد، وقد أوصى نبي المسلمين بحق - على غرار الوصية الخامسة لموسى الكليم - قائلاً: «اكرموا عمّتكم النخلة».

ويُعتَبَر أكل التمر أو الرطب عند تناول وجبة الفطور في الصباح كأول عمل تقوم به في يومك عمل من أعمال التقوى، أو حسنة تؤتيها وذلك على رأي المثل الشائع في هذه الأنحاء (هو تمر وهو ثواب) أي أن أكل التمر حسنة لها نفس جزاء العمل الصالح.

### زراعة التمور

تماماً كما تُعتَبَر زهرة اللوتس شعاراً للهند، وشجرة الزيتون شعاراً لسوريا، وشجرة الورد شعاراً لإنكلترا، فإنّ النخل أيضاً تُعتَبَر شعاراً لبلاد العرب خصوصاً في هذا الجزء الذي يجري في شط بجلال ومهابة، وتحضى النخلة باحترام شديد وعناية كبيرة من قبل أصحاب المزارع العرب، والإجراء العاملين في مزارعهم أو خدمهم، والقرويين الفقراء وهم ماهرون في زراعتها رغم اتباعهم لأساليب بدائية في الزراعة، وتُقسَم أراضي البساتين إلى عدة أحواض على هيئة مُربّعات أو مستطيلات تفصلها حواجز ترابية وذلك أشبه بحال، حقول الأرز عندنا في الهند، وفي داخل هذه الأحواض تُغرَس أشجار النخيل في صفوفٍ منتظمة متناسقة.

ويَتَفَرَّع من الشط على طول إمتداد ضفافه العديد من الجداول المائية التي تتوغّل نحو الداخل إلى مسافاتٍ بعيدة وهي صالحة لإبحار القوارب الصغيرة وتقع على

٣١٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

ضفافها قرى الأهالي القاطنين في هذه الأنحاء وتُستخدَم هذه الممرات النهريّة على حدٍ سواء (كمواضع لغسل الثياب، ومساح ومجاري للصرف الصحي)، وفي أثناء الجزر تُقَدَف فيها الاوساخ ذات الرواح الكريهة التي تُزكِم الأنوف ولكنها تمتلئ أثناء المد بمياه الشط التي يتم تحويلها حينئذ نحو المزارع عبر قنواتٍ يتم التحكم فيها عند الضرورة من خلال فتح أو ردم منافذها بالتراب فتُسقى النخيل بهذه الطريقة بصورةٍ منتظمة وتنمو وتترعرع وتظل قوية ومثمرة، وتنقسم هذه النخيل غالباً إلى نوعين، قصيرة وطويلة، إلا أنها جميعاً أعرض وأقوى في محيط الجذع من أصناف النخيل المتوافرة لدينا في أنحاء عديدة من الهند والتي لاتصل ثمرتها اطلاقاً إلى هذه الحد من النضج والكمال، وتمثل زراعة النخيل المهنة الزراعية الأولى الفريدة من نوعها ويعود سبب جودة ثمرتها الشهيرة في جميع أنحاء العالم -حسبنا أنصوّر- إلى الحرارة المُشَبَّعة بالرطوبة السائدة في منطقة الشط أو ناحية البصرة خلال شهر أبريل (نيسان)، ومايو (آيار) ويونيو (حزيران)، ويوليو (تموز) وأغسطس (آب).

ففي هذه الشهور ترتفع درجة الحرارة إلى حدٍ توصف بأنها شواظ من الجحيم إلا أنها ضرورية وملائمة تماماً لنضوج الثمرة ونموها نمواً كاملاً، حيث يكتمل نضوجها في شهري أغسطس (آب) وسبتمبر (أيلول)، وعندما يجين موسم جني الرطب وهو موسم الحصاد عند العرب يخرج الناس إلى بساتين النخيل على هيئة مجموعات للتزّه ويقضون وقتاً طيباً هناك، ويستمتعون بأكل الرطب الطازج اللذيذ وسط تلك البيئة

القروية الممتعة والمُسليّة، وحالما يكتمل نضوج الثمرة تُؤكّل طازجة، وهي الدُّ طعماً وأوفر عصارة وأكثر تغذية من أفضل أنواع العنب الإنكليزي المستنبت في الدفيئة (١). وأصناف الرُّطب متنوعة وعديدة إلا أن صنف الرطب الأحمر الداكن هو أفضلها جميعاً بينما يخلو صنف الرطب الطويل الأصفر أو الذهبي على ما يبدو من النوى، وله نكهة حلوة وطعام شهّي لذيذ الطعم وطيب المذاق، ومن المعروف أن ربّه البيت العربية ماهرة في تحضير أطباق الطعام الشهّي المعمول بالبلح والمطهي بطرقٍ مختلفة أو بالسّمك أو اللبن، حيث تُؤكّل هذه الأطباق في مواسمٍ مختلفة.

ويُستخرج من التمر شراباً يُسمّى «تامير» [يقصد الدبس] غالباً ما يُستخدم في الأكل لأغراض التحلية بعد الأكل، وترتفع النخلة ارتفاعاً شاهقاً يبلغ خمسين قدماً أو أكثر، تعلوها مظلة من السعف المتموج المُتّصّب، ويمتلئ طلوعها بآلاف الأزهار، ويتدلّى ثمرها في عناقيد ذهبية، فتتنافس بذلك أشجار التفاحات الذهبية الوارد ذكرها في الأساطير الإغريقية القديمة، ومنظرها بديعٌ خلّابٌ يَسرُّ الناظرين.

وإلى جانب عطاء النخلة الغزير من الثمر الوفير الصالح للغذاء البشري فإنها تُوفّر أيضاً الكثير من المواد الصالحة للاستخدامات المنزلية، لذا فهي تُعتبَر قطعاً المنتج الأكثر نفعاً في عالم النبات، فهي في الحقيقة والواقع نعمة وبركة في هذه الأراضي الصحراوية المُنتجة للبلح.

(١) تعقيب: بناءً زجاجي عالي الحرارة تُستنبت فيه النباتات الإستوائية التي لا تتحمل البرد.

٣١٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةٍ أجنبيّة

وهناك الكثير من البلح الذي لا يَنْضِجُ ويُسَمَّى (سالنغ) وهو يعجن مع الأسماك الجافة، ويأكله عادةً الفقراء، ويخلط (السالنغ) مع النوى - الذي يُستفاد منها أيضاً بهذه الطريقة - ومع عظام الأسماك فيصبح علفاً مُغذياً للماشية والإبل والحمير، بل حتى الخيول تتلذذ كثير بأكله، أما لبُّ الطلع الأخضر فيؤكل طعاماً لذيذاً طيبَ المذاق، وحينما يُقَطَّرُ يُسْتَخْرَجُ منه سائلاً حلواً يُطَلَّقُ عليه العرب (قارا) [دبس] غالباً ما يُستخدم في صناعة الشربات، وبالإمكان تحويله إلى سُكَّرٍ في حالة توفير المهارة اللازمة لذلك.

لا شك في أنّه من هذه الكلمة أخذنا كلمتنا الهندية (تادي) وجاءت التسمية الإنكليزية لعصارة النخيل الطازجة وهي (تودي) ومنها اشتقت كلمتي (قطران) و(غلام) في الإنكليزية.

كما جاء منها اسم نخلة الطالب الهندية ومنها اشتقَّ اسم مدينة تدمر أو مدينة النخيل التي أعلنت الملكة النبيلة (زنوبيا) شأنها وجعلتها ذائعة الصيت في زمانها والتي تقف أطلالها الآن مُقْفرة مهجورة وسط بادية الشام، فتصيب السائح بالذهول والإنبهار، وللنخلة فائدة أخرى تتمثل في الاستفادة من الألياف الخضراء المُستخرجة من جذعها في صنع الحبال النافعة جداً، بينما يأتي معظم الوقود المُستخدَم في المناطق التي تفتقر إلى الخشب من الكرنيف (الكرب) الجاف، ويُستفاد من الخوص وهي وريقات النخل الريشية الشكل في صنع المراوح والحُصُر والسِلال والأسرة فتوفر بذلك للناس مصدراً للرزق وكسب المعيشة، كما يُستفاد من سعف النخل كظلال

تُغطَّى بها الممرات الضيقة في الأسواق فتوفر بذلك الفيء والبرودة، وتُستعمل جذوع النخل اليابسة التي كانت تحمل الثمر من قبل عموماً كدعامات لحماية ضفاف الأنهار والجداول من التآكل والتفتت.

وتُستعمل هذه الجذوع أيضاً كجسور أُعدَّت بصورةٍ مرتجلةٍ دون أي إستعداد من أجل العبور عليها فوق الجداول الموحلة وكأرصفتٍ للنزول في المراسي الواقعة على ضفة النهر، ويُستفاد منها أيضاً كدعامات للأبواب، كما تُستعمل عند قطعها إلى شرائح كعوأرض لسقوف الأكواخ أو كظلةٍ يَسْتَظِلُّ بها الفقراء من الناس، وحينما تُقَطَّع هذه الجذوع إلى أشكال دائرية فإنها تصبح فوراً صالحة للإستعمال كمقاعد وكراسي من الصنف الخشن بدون مساند وأذرع، وحينما تُقَطَّع أيضاً هذه الجذوع بالمنشار إلى النصف يجري تفريغها من الداخل فتصبح مُجَوَّفَةً ويُستفاد منها في هذه الحالة كأنايب لنقل المياه من بستانٍ إلى آخر.

ولا يفوتني في هذا الصدد أن أُشير إلى فائدةٍ أخرى للنخلة ذات الخير العميم وهو صنع صنف غريب في الأسرة عبارة عن سرير خفيف نُقَالَ أو سرير قابل للطّي له أربعة قوائم يشبه قن الدجاج إلى حدٍ بعيد، وقد يُستعمل أحياناً لهذا الغرض في المناسبات، وتُصنَع هذه الأسرة من الخوص وهي نافعة جداً وقوية إلى حدٍ كافٍ وسهلة عند الحمل، كما تتيح أي خيمة أو بستان من أشجار النخيل الجميلة هذه للناس فرصة ملائمة للتّنزه والاستراحة تحت ظلها الظليل، إذ منذ بزوغ فجر تاريخ الشرق كان الأمير أو القاضي يعقد مجلسه أو ينصب كرسي قضائه تحت الظلال الوارفة

لسعفها الجميل الرشيق، وقيد قيل إنّ البطلة والكاهنة «دبورة» كانت تُقيم القضاء في بني إسرائيل «وهي جالسةٌ تحت نخلة» (١) ولا يبدو أن النخلة التي دعاها النبي (عمّة العرب) (٢) يستخرج منها في هذه الأراضي المنتجة للتمور الواقعة قرب الشط وما فوقه وما دونه ذلك السائل الذي من أجله، فقط زُرعت هذه الشجرة على سواحل بومباي، إذ لم يتعلّم العربي حتى الآن كيف يستخلص هذا المنتج النافع من شجرته المُفضّلة ويستعمله أما كشرابٍ مُنعشٍ سائغٍ أو يُحيله إلى سكرٍ كما يُفعلُ به في بعض أنحاء الهند، إلّا إننا نعيش ونتعلّم أشياء كثيرة في حياتنا وبالإمكان الافتراض أن هذه الفوائد للنخلة سوف تُسخر على الأرجح في خدمة مهنةٍ أو صناعةٍ بريطانية على سبيل المثال التحسين الإجتماعي أو ستقام لها صناعةٌ جديدة من أجل استغلالها على الوجه الأكمل وإذا كانت الوصايا القرآنية تصون الناس -دعنا نأمل ذلك- من مخاطر لغواية في الإدمان على تعاطي هذا السائل السكري سواء أكان طازجاً أم مخمراً أو مُقطّراً وهو السائل الذي يرقصُ له قلب الكاهن المجوسي طرباً وتنفرج له أساريره فرحاً وابتهاجاً إلّا إنه لا يُوجد شيء يمنع دون تحويل عصارة النخيل إلى مادة ذات فائدةٍ كبيرة عن طريق تصنيعه وإحالته إلى سكرٍ وبالتالي إضافة سلعة جديدة مُربحة في تجارة الشط

(١) تعقيب: طبقاً لرواية وَرَدَتْ في الإصحاح الرابع من سفر القضاة بالعهد القديم من الكتاب المقدس استشهد المؤلف هنا، وقد جاء فيها «ودبورة إمرة نبية زوجة لفيدوت هي قاضية إسرائيل في ذلك الوقت، وهي جالسة تحت نخلة دبورة بين الراحة وبين إيل في جبل إفرام، وكان بنو إسرائيل يصعدون إليها للقضاء».

(٢) تعقيب: إشارة إلى قوله ﷺ: «أَكْرِمُوا عَمَّتَكُمْ النَّخْلَةَ».



وبلدان الخليج.

وعند معاينة هذه المساحات الشاسعة من الأراضي الممتدة بعيداً عن الشط، وعند معاينة المياه الوفيرة المتدفقة على الدوام بغزاره من هذه الروافد الكبيرة، فقد حَظَرَ ببالي أنه في حالة توفر أيدي ماهرة وبصيرة ثاقبة وجهد متميز بالنشاط والحيوية فإنه يُوجد مُتَسَّعٌ كافٍ في هذه الأراضي لزراعة الغلال النافعة مثل الأرز وأنواع الحبوب الأخرى وقصب السكر وذلك في الموضع الذي تُسيطر عليه النخلة لوحدها سيطرةً كاملة.

فالترية هنا مُلائمةٌ وصالحةٌ للزراعة، وعند ادخال أساليب الري العلمي في زراعتها فإنَّ خصوبتها مضمونة ومؤكدة على وجه اليقين.

### الإقتراب من المحمّرة

على بُعد حوالي ١٨ ميلاً إلى الشمال من العوامّة الخارجية الطافية فوق سطح الماء وهو الموضع الذي دخلنا فيه عائق جرف البصرة مررنا بالمدينة الصغيرة أو بالقرية الصغيرة المسماة الفاو، وهي بقعةٌ مُقفرةٌ جرداء، مليئةٌ بالرمال والمستنقعات، واقعة على الضفة اليمنى للشط، وتعود أهميتها في الوقت الحاضر على وجه الخصوص إلى كونها مقراً لمحطات البرق واللاسلكي التي تربط بين الخطوط البريطانية - الهندية - والتركية أو أنظمة البرق عبر أبي شهر، وقد جرت في هذه البقعة بعض الإشتباكات العسكرية مع الأتراك قبل سقوط البصرة، كما تُستخدم الفاو كمخفر أممي ومركز مُتقدّم للتفتيش والرقابة على السفن الداخلة إلى الشط من هذا الموضع، فهي بوابة بلاد الرافدين الأمامية ومدخلها المُطل على البحر، وقد بنى الأتراك في هذا المكان قبل

٣٢٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةٍ أجنبيّة

سنواتٍ قليلةٍ - مَضت قلعةٌ حصينةٌ أحدثت هياجاً شديداً ولغطاً كبيراً في الأوساط السياسية إلا أنه لم تُنصب فيها أية مدافع وربما أنّ ذلك يعود إلى الإحتياجات الفورية للمسؤولين الأتراك إذ جرى تحويل الأموال المُخصّصة للذخائر والأسلحة إلى جيوبهم الخاصّة ولم يُثر حولها أي سؤال، وقد أصبحت هذه القلعة عملياً مهجورة، ويتوجّب على البواخر الأجنبية المتوجّهة نحو أعالي الشط أن تنتظر هنا قبل التصريح لها بالصعود في الشط، وبناءً عليه فإنّ العديد من البواخر التي اجتازت عائق الجرف قبلنا قد تم احتجازها هنا وكان باستطاعة الباخرة (زياني) أن تُريد من سرعتها وتسبقهم في الإبحار.

وحينما تضح الحرب أوزارها مُكلّلة بالنصر المؤزّر، وتُحكّم القوات البريطانية - الهندية قبضتها بحزمٍ على كامل إمتداد شط العرب وجداوله النهرية فإنّ الفاو التي تُعد الآن واحدة من أكثر البراري الموحشة الهاجعة فقراً وجذباً قد تتحوّل إلى مُتّجعٍ مائي صحي مزدهر قريب من البحر يرتاده أهالي البصرة وعبّادان والمُحمّرة والقرنة ومن أنحاء بغداد ويتردّدون عليه عن طريق القطار أو النهر من أجل الظفر بتغيير صحي وقضاء إجازة مُمتعة وتمضية نهاية الأسبوع، كما يُمثّل بالنسبة للوجهاء والأعيان المحليين فرصةً طيبةً هم في أمس الحاجة إليها من أجل الإستحمام والإغتسال بصورةٍ دورية في أمواج البحر المالحة.

ومن المُتوقع أن يتحوّل هذا الموضوع (شريطة ألا تتراخى القبضة السالفة الذكر) إلى بُقعةٍ ملائمةٍ للراحة والاستجمام خلال موسم البرد، ومع ذلك إذا كان الناس

متيقظين عليهم تجنب الإستثمار في الأراضي إذ ليس هناك أسوأ من الإستثمار في الأراضي بسبب وفرة العرض وتدني الأسعار، وفي هذه الأنحاء.

وفي الفاو يتم الدخول الحقيقي إلى المجرى الرئيسي للشط، وعلى جانب المقابل أو الجانب الفارسي تُوجد جزيرة عبّادان الكبيرة البديعة الشكل التي شكّلت نتيجة مرور الشط بها من جهةٍ ومرور المجرى المتعرج لنهر (بهمنشير) من جهةٍ أخرى، وتمتد بعيداً حتى تصل إلى المحمّرة، على بُعد أربعين ميلاً إلى الشمال، وتبدأ هنا أيضاً طلائع البساتين الخضراء أو بالأحرى غابات النخيل المزدهجة والمتراصة والمتشجرة على ضفتي الشط كليهما والممتدة بعيداً إلى ما وراء البصرة.

وعلى بُعد بضعة أميال من الإبحار البطيء صعوداً في الشط، مررنا بمدينة عبّادان الواقعة على الضفة اليسرى للشط، وهي مدينة حديثة بالكامل، وتدين بنهضتها الحالية إلى شركة النفط الإنكليزية - الفارسية التي اتخذتها مقراً لها، فهذه الزاوية الجديدة من الإمبراطورية المترامية الأطراف تُفصح عن وجودها من بعيد عبر النسيم الذي يهب حاملاً معه رائحة (الزيت الكريهة المُقرّفة) كما وصفها العجوز (جوزيف باربارو) عند الإشارة إلى نفط (باكو)<sup>(١)</sup> وتقع آبار النفط أو المناجم في الأهواز الواقعة على نهر كارون على بعد حوالي ١٥٠ ميلاً إلى الشمال الشرقي من عبّادان، ومنها يُنقل السائل النفطي الثمين عبر أنابيب في خطٍ مستقيم إلى عبّادان ويُشحن من هناك في

(١) تعقيب: مرفأ نفطي هام يطل على بحر قزوين (عاصمة أذربيجان السوفيتية).

٣٢٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةٍ أجنبيّة

ناقلاتٍ صُنِعَتْ خصيصاً لأغراض النقل في المياه النهرية حيث يُنقل إلى البصرة وما فوقها من جهة من أجل تلبية الإحتياجات العسكرية الحالية، كما يُنقل من جهةٍ أخرى لأغراض التصدير إلى البلدان الأخرى فيما وراء عائق الجرف حيث يُعاد شحنته في ناقلاتٍ كبيرة يتعدّر عليها إجتياز عائق الجرف.

ولقد ساد في بداية الحملة العسكرية الحالية في بلاد الرافدين قلقٌ وخوفٌ [شديدين] على سلامة الآبار النفطية خشية أن تتعرّض لمخاطرة جسيمة، إذ جرى التخطيط للإستيلاء عليها أو تدميرها، وتهديدها مباشرة من قبل المتآمرين الألمان في فارس يساندُهُم العديد من رجال الفُرس في السلطة، الذين تملّقهم أو هدّدهم أو رشاهم الألمان في سبيل كسبهم، وقد تم إنقاذ الآبار الثمينة في الوقت المناسب عبر إجراء فوري اتخذته الحكومة البريطانية تمثل بإرسال حملة الجنرال (غورنغ) العسكرية إلى أعالي نهر كارون، فأصبحت هذه الآبار محميّة الآن بالفعل عن طريق إخماد كافة القلّاقل القبلية في المناطق المجاورة وعن طريق وجود قوة عسكرية ميدانية كافية في الأهواز، وهكذا أصبحت الأهواز مخفراً بريطانياً مُتقدّماً في الأراضي الفارسية تؤدّي خدماتٍ نافعة في المرحلة الراهنة، ويبدو منظر عبّادان مُتعمّاً على نحوٍ استثنائي، وبصفوف صهاريجها النفطية الواسعة العديدة، ومصانعها ذات المداخن الطويلة التي تنفث دخاناً أسوداً، وورشاتها العديدة المليئة بالحركة التي تنبعث منها الأصوات المدوّية، ومسكنها الحسنة التنظيم، وأرصفتها وأحواض مرفأها النابضة بالنشاط والحركة والمحاذية للوجهة النهرية، وهو الموضع الذي مدّت فيه بعض من خطوط الترام الضيقة المتصلة بصهاريج النفط والتي تتحرك عليها باستمرار ذهاباً وإياباً

العربات الصغيرة تجرها قاطراتٌ صغيرة تنفث دخاناً مُتقطَّعاً، لذا فإن مدينة عبّادان كما تبدو صورتها في مُخيلة المرء عبارة عن مدينةٍ صناعية، متناهية، مليئة بالحياة والحركة، ومُلوّثة بالسُخام والأوساخ التتنة التي تقذفها، وهي متناقضة على نحوٍ مُدهش ومُلفت للنظر مع وسطها المُحيط بها، وتقع على مَقربةٍ من أطلال قصور بربسوليس إذ سكنها ملوك الملوك أمثال (داريوس) و(احشورس) و(ارتخششتا) وبلغوا قمة المجد والعظمة والتي دخلها ظافراً الإسكندر الأكبر المقدوني وأقام حفلاته الصاخبة.

فقد برزت بسرعةٍ خلال سنوات قليلة، على نحوٍ مُثير للدهشة من أرض تُركت مهملة، قاحلة، فاقدة للحياة، كما كانت عالية لأكثر من ثلاثين قرناً، ومن أرض شهدت صعود وتألّق وسقوط وإنهيار الإمبراطوريات العظيمة التي سادت ثم بادت ولم تترك وراءها سوى التلال الرملية والمنحوتات المُثيرة للتعجب المُهشّمة والمُلقاة وسط (الخرائب الهائلة) ككنوشٍ تذكارية تشهد على القوة والأبهة والمجد التي بادت، واندثرت، وضاعت، وطواها النسيان وعفا عليها الزمن، لقد زال المجد منذ زمنٍ بعيد عن هذه البلاد العريقة في القدم، وخَيّم فيها الصمت والسكون كما جاء الوصف في هذه الحالة على لسان الشاعر الحكيم عمر الخيام حينما قال:

«طبولُك ساكّنة وإنذارُك تدقُّ أجراسَ المُدنة».

إلا أن العالم من حولنا بدأ يصحو من جديد على حياةٍ مُشرقة ناضرة حيث تعكس عبّادان على نحوٍ بهيج هذا التغيير الجديد، فقد تحوّلت بالفعل إلى خلية نحلٍ

٣٢٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

تنبض بالحياة والحركة، تزدحم بالرجال العاملين، الذين ملأوا رمال الصحراء، وأعتقد أنها أول مدينة صناعية حديثة تُنشأ في جميع أنحاء هذه المناطق الآسيوية، وهي تواعد بأنَّ تتحوَّل إلى قاعدةٍ كبيرة للصناعة، بحيث تصبح (باكو) أخرى، وبحكم كونها واقعة على مقربةٍ من الهند، فهي مهمة ومفيدة لنا جميعاً.

## المُحمَّرة ونهر كارون

بعد إثني عشر ميلاً من الإبحار صعوداً في الشط وصلنا مدينة المُحمَّرة، عاصمة عربستان الفارسية ورسونا هناك في الساعة الثانية بعد الظهر، وقد وَصَلَ مركب (دامرا) التابع لشركة الهند البريطانية للبواخر والمُحمَّل بالبريد القادم من بومباي قبل وصولنا بقليل وكان راسياً قبالتنا مباشرة، وبما أنه لبثَ هناك من أجل تفريغ حمولة البريد فقط ثم انصرف فورَ وصلنا، فقد قامت الباخرة (زياني) بتغيّر موضع رسوها إلى موضعٍ آخر أكثر ملاءمة منه وهو الموضع الذي أخلاه (دامرا) نظراً لكونه أقرب إلى المدينة من الموضع السابق وصعد على متن باخرتنا الدكتور (لنكولن) المسؤول الصحي بالقنصلية يرافقه السيد (ميرزا محمد حسين) سكرتير وكيل شركة الخليج للملاحة، وقد وجدتها شخصين في غاية اللطف والكياسة وأمضينا شطراً طيباً من العصر معهما تناول الشاي والكعك وتبادل الأحاديث والأخبار، وبعد مضي زهاء ١٨ يوماً في البحر لم نكن نرى خلالها سوى التلال الجرداء والسواحل الصحراوية جاء مشهد الشط بنخيله الخضراء المتموّج الممتد على مدى أميال والسفن والبواخر والمراكب المحليّة القديمة من مختلف الأصناف والأحجام العابرة صعوداً ونزولاً على

نحو متواصل في مياه الشط الخضراء العتيقية اللون بمثابة تغيير حسن في طبيعة المشاهد التي كُنَّا نراها طول هذه المدة، وبعد الغروب مباشرة انتشر ضبابٌ أبيض كثيف وحَجَبَ كلتا الضفتين عن الرؤية، وتقع المُحمَّرة في نفس الموضع الذي كانت تقوم فيه سابقاً مدينة (بهمنشر) أو (بهمن - أردشير) القديمة التي لا يزال اسمها وذكرها باقين مع بقاء نهر (بهمنشر) الكبير الذي يمر مجراه البطيء والمتعرج إلى الشرق من جزيرة عبّادان ويسيل مُتدفقاً نحو الجنوب ليصب في الخليج العربي، وتقع المدينة الحديثة التي يبلغ عدد سكانها حوالي ١٠,٠٠٠ نسمة على الضفة اليمنى (للحفار) وذلك الموضع الذي تَنحرفُ عنده مياه نهر كارون من قناتها الطبيعية وتَدْفُقُ متجهة نحو الغرب لتصب في الشط، بالقرب من الموضع الذي رَسَتْ فيه الباخرة (زياني) وهي بقعةٌ جميلة للغاية.

وينبع نهر كارون أو (كوه دنك) (الجبل المُلَوَّن) من سلسلة جبال (زاده كوه) (١) الواقعة إلى الشمال من مدينة الأهواز، وبعد جريانه في مجرى مضطرب ومُتعرِّج تعترضه المنحدرات النهرية وغالباً الشلالات ينحدر عبر موطن البختيارين المضطرب ماراً بمدينتي «شوشتر» و«الأهواز»، وتَنحرف معظم مياهه قبل أن يصل إلى نهر (بهمنشير) الذي يُشكِّل قناته الطبيعية نحو «الحفار» ليصب بعدها في الشط، وكان يُعرَف هذا النهر قديماً باسم «باسي دجلة» أو دجلة الصغير، وقد أبقى عبره

---

(١) تعقيب: (زرده كوه) أعلى قمة في سلسلة جبال زاغروس بفارس ويبلغ ارتفاعها ٥٤٧, ٤ متر.

٣٢٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةٍ أجنبيّة

الإسكندر الأكبر في طريق عودته من الهند إلى سوسة جسراً من المراكب للعبور فيه، «والحفّار» عبارة عن ممرٍ مائي عريض يبلغ طوله حوالي ثلاثة أو أربعة أميال وهو يربط بين نهر كارون والشط، وتعني كلمة «حفار» في العربية القناة، أو الحفر، أو الخندق، مشيرة بذلك إلى بنائه الصناعي، وقد حُفِرَ في حوالي عام ٩٨٠ م من أجل تحقيق إتصالٍ أوثقٍ ومباشرٍ بين الأهواز والمدن الفارسية الداخلية الأخرى وبين البصرة، جاعلاً من المُحمّرة المرفأً النهري لبلاد فارس.

ومنذ عام ١٨٨٩ زادت أهمية المُحمّرة الواقعة عند ملتقى «الحفّار» بالشط نتيجة توسيع الملاحة الدولية حتى منحدرات نهر كارون قرب الأهواز، على بُعد حوالي مائة وسبعة عشر ميلاً من المُحمّرة، كما زادت أهمية الأهواز نظراً لوجود آبار النفط فيها ولكونها المركز التجاري داخل هذا الجزء من فارس، أما مشروع مد خط للسكة الحديدية من الأهواز إلى الداخل الذي علّق بسبب الحرب الجارية فسوف يضيف على المدينة عند اكتماله أهميةً أكبر وفقاً لأقوال اللورد كيرزون «سوف يقع السكان في شبكة صناعي القطن في لانكشاير والصنّاع الحرفيين في الهند»، ويُقال إن مناخها لطيف وصحي، وإن الطريق النهري بالرغم من كونه أطول من الطريق البري إلا أنه أسلم وأفضل لأغراض شحن البضائع ونقل الركاب نظراً لتوفر خدمة حسنة التنظيم من البواخر النهرية العاملة بين الأهواز والمُحمّرة، ولأغراض الإتصال بطرق القوافل المؤدية إلى الداخل فيما وراء مدينة «شوشتر» فاتحاً بذلك أقصر طريق بري إلى مدينة أصفهان العاصمة القديمة للشاه عباس الصفوي التي يطلُّ عليها أهلها باعتزاز وصف «أصفهان نصفي جيهان» أي نصف الدنيا، ومن هناك يتم الإتصال



بالمقاطعات ذات الأهمية التجارية البالغة في بلاد فارس.

### مدينة المحمّرة

أمضينا عيد الميلاد في المحمّرة وشاهدنا ما تحويه المدينة من مناظر، وفي الصباح الباكر بعد تناول وجبة الفطور المعتادة مع القبطان وجميع أفراد الطاقم الملاحين التابعين إليه المجتمعين في صالة الطعام التي كانت مُزيّنة على نحوٍ ظريف بهذه المناسبة، قُمتُ مع القبطان ورئيس المهندسين بجولةٍ نهريّةٍ مُمتعةٍ حيثُ أَسْتَقْلِينَا قارب (بلم) وقمنا بالتجديف والدوران حول المنعطف الذي يلتقي عنده كارون - و- الحفّار بالشط وهو الموضع الذي يقع في الجانب الأيسر من مجرى الماء فيه مدينة المحمّرة وسط بيئةٍ طبيعةٍ خلّابة، وتمتد إلى بعيد نحو أعلى الحفّار، ويقع في هذه الزاوية مباشرة مبنى الجمارك وهو موضع كثيرُ الحركة بأكثر ما يمكن أن يُوصَف به مكان أو شخص يمثل هذا الوصف في فارس، ويقع إلى جانبه مبنى النيابة القنصلية البريطانية الذي يمكن تمييزه بسهولةٍ من خلال السارية التي يعلوها العلم البريطاني المألوف، وعلى الضفاف المقابلة مباشرةً يقع منزل الطبيب، والمستشفى، والمَحَجَّر الصحي الكئيب المنظر، والقليل من البيوت الأخرى، وبعض أحواض بناء السفن المليئة بالوحل، وتُوجَد في الصف الذي تقع فيه القنصلية مكاتب متعددة ومن بينها يُوجَد منزلٌ كبير ذو طابقٍ علوي تحيط به حديقةٌ مليئةٌ بأشجار الورد وكروم العنب، وهو مكتب وكيل شركة الخليج للملاحة، وقد نزلنا على الأرض الفارسية مرّةً أخرى، وخطونا فوق لوح خشبي مرتعش، كان يمتد فوق الشاطيء الموحل من القارب إلى

٣٢٨ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

سُلمَ النزول، وكان (الحاج محمد مشيري) رئيس التجار والوزير الرئيسي للشيخ وهو رجلٌ فارسي وقور جالساً القرفصاء على كرسية المنخفض، وقد استقبلنا بحفاوةٍ بالغة وبالاستفسارات المعهودة في مثل هذه الحالة، وبما أنّ الرجل العجوز كان مُصاباً بداء الربو ويشتكى من مرض العنّاج (القطان) (١) فقد كانت غرفة المكتب مغلقة بإحكام بالرغم من سعتها إلاّ أنّها كانت خانقة نتيجة انحباس الهواء فيها، وكانت مفروشة بالسجاد الفاخر، ومُؤثّثة ببعض الأدوات الجميلة مثل الطاولات والمقاعد والرفوف المزخرفة الهندية والصينية الصنع، وبعض الأواني الخزفية البديعة، والمرايا، وبعض النقوش المُزركشة والمناظر والصور العادية الباهتة، وقد كانت مفاجأة لنا أن نشاهد من بين التحف الفنية جهاز أورغن كنسي صغير الحجم يحوي العديد من الأنابيب والمفاتيح الموسيقية، وإني أتساءل مُتّعجباً ما الذي يمكن مملكه أو لهذه الفئة المتنوعة من البحّارة والملاحين العرب والفرس الذين كانوا داخل وخارج المكتب أن يستفيد من مثل هذا الجهاز، وبينما كُنّا جالسين هناك جاء إلى المكتب ابن شيخ المحمّرة وورثته وقام رئيس التجار بتقديمنا إليه للسلام عليه، وقد إنتهت زيارتنا رسمياً مع تقديم الشاي الساخن بدون حليب في فناجين صغيرة - (صُنعت في ألمانيا) - لكنه كان مُحلّى بمعلقةٍ كبيرة من السُكّر وبعد أن شرب كُلُّ واحدٍ منا فنجاناً مليئاً بهذا الشراب الفارسي المُميز، دون أن نستمتع بجرعةٍ أخرى منه، غادرنا مكتب الوكيل.

---

(١) تعقيب: وجع أسفل الظهر

وكان سكرتير الوكيل (ميرزا محمد حسين) موجوداً هناك وقد عاملنا معاملَةً وديّة للغاية، فقد تَلَقَّى هذا الشاب تعليمه في بومباي وهو يتحدّث الإنكليزية بطلاقة وينطقها بلهجة سليمة، وهو رجلٌ مُجَرَّبٌ واسع الخبرة في الحياة، حسنُ الإطلاع على تأريخ وشؤون فارس، وجيرانها إلى حد الإلمام بأدق التفاصيل عن الأمور، وهو شابٌ وسيم، دمث الأخلاق، وقد راعني باعتباره واحداً من ذلك لأنَّ يكون رفيقاً مثالياً في السفر والترحال إذا ما رغب المرء القيام بجولة متروية على الأقدام في بلاد فارس، وبيننا لبث القبطان لإجراء المعاملات، قُمتُ مع المهندس والدليل الذي كَلَّفَه (ميرزا) بمرافقتنا بجولةٍ مُطوَّلةٍ حول أسواق هذه المدينة، الممتدة إلى مسافةٍ بعيدةٍ بمحاذاة واجهة القناة، وتتقاطع مع بعض الجداول المُوَحِّلة، ويصل عمقها إلى أكثر من نصف ميل، ولا تختلف هذه الأسواق عن غيرها من الأسواق التي وصفتها آنفاً، إذ تُوجد نفس الدروب والأزقة المتقاطعة الواحد مع الآخر، ونفس أنواع الحوانيت ومَنصَّات البيع المكشوفة، ونفس الزحام المتنوع مع نفس التركيبة من بلبه الألسن، ونفس أصناف البضائع والسلع التي تخلو من أي شيء من صنع محلي قد يجذب إليه نظر الزائر الغريب ونفس الأرصفة، ونفس القدارة وغياب التدابير الصحية، ونفس الروائح الحادّة التنتنة الطاغية التي يَشْمُها الأنف الحساس بسهولةٍ كما فعل كولريدج (١) في مدينة كولون (٢) حيث تُسهِم الجداول الرديئة الصرف إلى حدٍ كبير في إنبعاثها، وقد

(١) تعقيب: صمويل تايلور كولريدج (١٧٧٢ - ١٨٣٤) شاعر رومانسي إنكليزي

(٢) تعقيب: كولون أو كولونيا مدينة في ألمانيا تقع على نهر الراين إلى الشمال من بون.

٣٣٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةٍ أجنبيّة

أُضيف إلى هذه الروائح المتأصلة التي تُركم الأنوف صنفٌ جديدٌ من الروائح منذ أن بدأت أعمال صناعة النفط في عبّادان، فقد شعرنا طوال الليلتين اللتين رسونا خلالهما بالشط إلى جانب المحمّرة بنفحةٍ خفيفة من رائحة النفط تَسَلَّل عبر النسيم الخفيف الذي يهب من جهة الجنوب الدافئ، وهي حالة تختلف تماماً عن الحالة التي تَعْنَى بها الشاعر قائلاً:

«الجنوب الجميل الذي يَتَنَفَّس على ضفاف البنفسج يَحْتَلِس ويبيعث نفحة»، وبالرغم مما يُقال عن هذا النسيم المُشَبَّع برائحة النفط من أنه صحي باعتباره مُطَهِّرٌ إلّا إنه مُقْرِفٌ جداً، لذا فإنّ زجاجتي الحاوية لملح النشادر مخلوط بقليلٍ من الزيت (الأوكالبتوس) العطر كانت مفيدة للغاية في هذا المكان، وبسبب الطقس الشتوي المُنعش البهيج فقد استمتعنا بقضاء إجازة طيبة من بضعة أيام، إذ أن المحمّرة موضع ظريف يَسْتَحَقُّ البقاء في عدة أيام، والقيام برحلات إلى (الأهواز) و(شوشتر) وهي بقعة قديمة زاخرة بالآثار التاريخية المُثيرة للمتعة، ولكن من الأفضل الإبتعاد عنها طلية الشطر الأكبر من السنة.

عدنا إلى مكتب الوكيل واستقبلنا القارب مرةً أخرى وقمنا بالتجديف بعض الوقت في أعلى (الحفّار) أو القناة المحاذية للمدينة ومن ثم في أدنى (الحفّار) قرب الضفة المُقابلة الكثيفة التي لا نهاية لها، وقد بدت لنا المدينة عبر الماء بيوتها البيضاء الواقعة في وسط الحدائق ومن خلفها النخيل، وبواجهتها المُزدهجة بالقوارب الراسية أو المُبحرة صعوداً ونزولاً في الشط جذابةً وجميلةً للغاية.

والشيء المدهش الجدير بالملاحظة هنا هو اختلاف في درجة الحرارة المسجلة طوال العالم بين مياه الشط ومياه كارون والحفّار إلى الموضع الذي يندمجان عنده، إذ من الواضح أن مياه الأخير دائماً أبرد، وقد عدنا أدراجنا إلى الباخرة (زياني) بعد قضاء زيارة مُمتعة على الشاطيء وذلك لتناول الشاي في وقت متأخرٍ ولأخذ قسط من الراحة.

وفي السابق كانت المُحمّرة -التي يحكمها إسمياً شيخٌ عربي- تقع بالتناوب في أيدي الأتراك أو الفُرس نتيجة المنازعات المتواصلة حول الحدود التي يرسمها كل من الطرفين وفقاً لمصالحه، واستمر الحال على هذا المنوال حتى عام ١٨٤٧ حينما قامت لجنة مُكوّنة من ضابط ومسؤولين بريطانيين وروس وأتراك وفرنس -بعد سنوات من القلق والتحضيرات المكلفة- بتسوية النزاع وتعيين الحدود بصورة نهائية، قررت إلحاق المُحمّرة بفارس (١) ومنذ ذلك الحين أصبحت مقراً للحكم الفرنسي، الذي يشغله حالياً الشيخ خزعل، وهو يحمل (وسام فارس امبراطورية الهند من الدرجة الأولى) كما يحمل (وسام نجمة الهند الرفيع برتبة فارس)، وهو زعيمٌ عرب بني كعب الأشداء الذين هاجروا إلى هذه الأنحاء قبل حوالي ٢٥٠ سنة مضت، تاركين حكم السلطان العثماني ومُفضّلين عليه حكم الشاه، ويُعتبر الشيخ عملياً الحاكم المُستقل لإقليم عربستان، ويخضع تقريباً للسيطرة الإسمية للوكيل المُقيم للشاه (كرجوزار).

(١) تعقيب: بمقتضى معاهدة أضراروم لعام ١٨٤٧.

٣٣٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

ومن بين التشريفات الأخرى التي يحظى بها الشيخ، تأدية التحية إليه من قبل جميع البواخر العابرة في الشطّ صعوداً نحو البصرة، وذلك عرفاناً بالمساعدة القيّمة التي قدّمها هو أو والده - لست متأكداً أيّهما - إلى سفينة إنكليزية هاجمها القراصنة في هذه الأنحاء قبل بضع سنوات حينما كانت القرصنة سائدة في الشطّ، وفي أثناء الحرب البريطانية - الفارسية القصيرة الأمد لعام ١٨٥٧ استولت القوات البريطانية على المحمّرة واحتفظت بها حتى توقيع معاهدة السلام بين الطرفين.

### الإقتراب من البصرة

تقع البصرة على بعد ستة وعشرين ميلاً من المحمّرة، وقد دفعنا مرساتنا في الساعة التاسعة صباحاً وغادرنا المحمّرة متوجهين نحو آخر وأجمل محطة في هذه الرحلة، فنحن الآن في أرض التمور وهنا يضيق الشطّ إلى حدٍ كبير وينشطر إلى قسمين بواسطة جزيرة (دبا) الواقعة إلى يسارنا والمكسوة بأشجار النخيل ويبدو أن هذا الإنشطار ناتج عن تراكم الطمي عبر العصور، وقد مررنا إلى يميننا (بالفيلية) وهي قرية كبيرة أُقيم فيها بمحاذاة ضفة الشطّ قصر شيخ المحمّرة، وقد أطلقنا هنا التحية المعتادة عن طريق تفجير فتيل مفرقة نارية، وقد رد علينا التحية بدقّة متناهية مدفعين قديمين يعلوهما الصدا، تُركا على ضفة النهر، نصفها مغمور في الوحل، ويقف متراخياً هناك ثلة من العساكر الذين يرتدون بدلات عسكرية رثة وهم بالتأكيد الحرس الشخصي للحاكم حيث كانوا يرقبون هذا العرض التشريفي الذي لا يخلو من الخطورة، وتُعتبر هذه التحية ضرباً من المُجاملة والتكريم ويتوجّب عدم إغفالها بأي

حالٍ من الأحوال إذ أن إغفالها يعني الإساءة إلى كرامة الشيخ إن لم تكن مدعاة لنشوب الحرب، ويرافق الحرس الشخصي -المكوّن من الزنوج- الشيخ في جميع المناسبات وفي حله وترحاله، ويؤدي واجبه كحرسٍ ضروري لحماية الشيخ والمحافظة على سلامته الشخصية في هذا الجزء من العالم الذي يعتبره الإقدام على القتل تنفيذاً للأوامر مسألة تخص السياسة العليا أو سياسة حميدة تستحق المدح والثناء، وقصر الشيخ عبارة عن مبنى واسع واقع إلى اليمين من البواخر المتوجّهة نحو أعلى الشط، وله بوابة فخمة أو ذات مظهر فاخر، يقف في كل جانب منها تمثال لأسدٍ يُرْحَب بالزوار القادمين وهو مسكن الشيخ المُفْضَل، ومُلْحَقُ به في جانبٍ منه مسرحٌ كبير غالباً ما يتردّد عليه الشيخ لكسر رتابة الحياة في هذه البلاد الموحّشة عن طريق مشاهدة العروض المُسلِّية لفرق العجريات والراقصات الأخريات اللّاتي يجبن الأقطار دورياً، ويأتين إلى هذه البلاد قادماتٍ من رومانيا ويقضين وقتاً طيباً فيها، وتذكر جميع الروايات أنّ الذي يجري هنا يُعد ضرباً من العرْبدة، حيث يكون اللهو وقتها سريعاً وصاحباً، وعالياً ومنخفضاً، وبسيطاً ومعقداً، وتتتاب القوم نوبة طويلة من القصف، تتعطلّ عندها المحرّمات القرآنية إذا صدقت الأقاويل والشائعات، ويقع إلى جوار قصر الشيخ مساكن مستشاره، ويحدد القصر خط الحدود الفصل بين الأراضي الفارسية والتركية، وعلى مسافة أبعد قليلاً إلى الأعلى وصلنا في جانبنا الأيمن قبالة جزيرة طويلة تحفُّ بها الشجيرات القصيرة المنخفضة أعواد القصب تُسمّى جزيرة المَحَجَّر الصّحي، وينحني الشط إنحناءة ضيّقة جداً بين نهاية الطرف الجنوبي لهذه الجزيرة ونهاية الطرف الشمالي لجزيرة (دبا) إلى درجة أنه يصعب اجتيازه في هذا

٣٣٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

الوضع وبالأخص إذا انحدرت منه فجأةً في الجهة المعاكسة باخرة أخرى، ومع ذلك فإنه في هذه القناة الضيقة بالذات من الشط قام الألمان الماكرون الذين كانوا يسيطرون آنذاك بمجرد أن أعلنت تركيا الحرب -أو جُرّت إليها- ضد الحلفاء بإغراق أربع بواخر في خطٍ واحد عبر القناة، ومن بينها الباخرة الكبيرة (اقباطنة) وباخرة أخرى استأجرها الأتراك واستخدموها كفنارٍ عائِم، وكانوا يعتزمون بالطبع من وراء ذلك أن يغلقوا ممر العبور النهري المؤدي إلى البصرة، ومن حسن التوفيق أن هذا المخطط الرهيب قد فشل فشلاً ذريعاً، إذ أن اندفاع مياه الشط قد جَرَفَ بمعونة التيار أثناء إنحسار الباخرة (اقباطنة) إلى جانب حيث لامست تقريباً شاطئ جزيرة (دبا) تاركةً فسحةً كافيةً تتسلّل عبرها باخرة واحدة فقط في كل مرّة، وحينما عبرنا ذلك الموضع كانت مدخنة الباخرة الأمامية وصاريتها لا تزال جميعاً بادية للعيان من فوق سطح الماء، كما لا يزال قباطنة البواخر الذاهبة والقادمة من وإلى البصرة يواجهون وقتاً عصيباً أثناء العبور فيه.

إذ يتطلّب العبور المناورة بالباخرة بعناية فائقة، على أن يتم ذلك دوماً خلال النهار وبعد الدوران حول هذه الزاوية الحرجة للغاية، وقع بصرنا على أول منظر لمدينة البصرة ومرفأها العشار، التي بدت في صورة المدينة الشرقية الرائعة، كما رأيناها من فوق منصّة ربان الباخرة، وهي تنبثق من وسط الماء المُحدِق بها من كل جانب أشبه بمدينة البندقية (فينيسيا)، وتحيط بها بساتين النخيل المترصّة بأغصانها الشوكية المتموجة، ويتمدّد صفٌّ طويل من المنازل على إمتداد الضفة اليمنى للشط الذي تزدهم مياهه على مدى مسافة أميال بمختلف أنواع المراكب والسفن، وبالعديد من



الصواري والمداخن والأعلام التي تُضفي على مشهد المدينة الإثارة والجاذبية. وأول بيتٍ وقع عليه النظر هو (بيت نعمة) ويقع وسط حديقة كبيرة مليئة بنبات الدفلى (١) وأشجار البرتقال وكروم العنب المُتسلِّقة، وكان يملكه في السابق أحد الأثرياء العرب أو الأتراك إلا أنه تَمَّت مصادرتُه وتحويله إلى مستشفى للضباط وتهيئته لهذا الغرض وجعله مريحاً عن طريق إدخال الإضاءة الكهربائية والمراوح والماء الساخن والبارد فيه، إذ إنَّ الجندي الحديث باهظ النفقات ويتطلب عناية كبيرة، وبعد الظهر مباشرة إنسللنا إلى موضع رسونا في اثر طابور طويل من البواخر الراسية في أعلى المرفأ، وقد اعتبرنا أنفسنا مُوفِّقين لأننا لم نبتعد بأكثر من ميلين ونصف الميل عن جدول العشار، وهو الموضع الرئيسي للرسو في البصرة.

وفصل الشتاء هو موسم الأمطار في كافة أنحاء هذه المناطق من الشط ورافديه دجلة والفرات، وقد هَبَّت قبل أن ندخل إلى المرفأ عاصفةٌ من الغبار إلا أنها انقشعت من حسن التوفيق مع هطول وابلٍ من المطر، وكان الطقس بارداً على نحو يدعو للإرتياح، ويبعث في النفس السرور والبهجة حينها تهطل في بعض الأحيان زخات مُتقطعة من المطر.

### مدينة البصرة

تقع البصرة على منتصف ضفة الشط اليمنى وقد ذكرها الشاعر الإنكليزي

(١) تعقيب: نبتة عطرة الزهر تُستعمل للزينة.

٣٣٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

الشهير (ملتون) في قوله: (من سوسانة إلى جَنَّة البصرة) فهذه المدينة التي تافت فيها روح السندباد من حين إلى آخر شوقاً (للإبحار ومشاهدة البلدان الأجنبية ومصاحبة التجار وسماع الأخبار الجديدة)، تقع الآن في قبضة البريطانيين، وهي عاصمة ولاية البصرة المهمة (لم تعد تركية) التي تضم مدن لقرنة، العمارة، كوت العمارة، الناصرية، سوق الشيوخ، وغيرها من المدن، وقد وَصَلَ ذِكْرُهَا إلى مسامع العالم لأول مرة عبر الإنتصارات التي حَقَّقَتْهَا القوات البريطانية شأنها مع ضعف قوة الخلفاء العباسيين، حينما أُهْمِلت القنوات وقُطِعَت الإِتصالات مع الخليج، بعدها ظهرت مدينة البصرة الحالية على ضفاف شط العرب، وبسبب موقعها الملائم اشتهرت سريعاً باعتبارها واحدة من أكبر وأهم المدن في بلاد العرب، وقد سُيِّدَت على الضفة الغربية للشط على بُعد سبعين ميلاً من مصب النهر، ومن المُؤكَّد أن مدينة البصرة كانت في الماضي بأسوارها القديمة التي يصل محيطها إلى سبعة أميال، وتضم في داخلها العديد من الحدائق وبساتين النخيل، وبيوَاباتها الخمس، ونُزُها (خاناتها) المزدحمة بالساكين والنُزلاء، ومقاهيها المَلِيَّة بالحياة، وحمَّاماتها العمومية، وجوامعها، ومدارسها الشهيرة، وواجهتها النهرية النابضة بالنشاط والحركة، والتي لا شك أن السندباد البحري ملاحُ الشرق قد انطلق منها في رحلاته البحرية العجيبة، لا بُدَّ أنها كانت مدينة عامرة مزدهرة في ذلك الزمن القديم الذي بلغت فيه أوج مجدها، ويعود أول إتصال لها مع بومباي إلى عام ١٦٣٩ حينما أرسلت شركة الهند الشرقية الحاكمة في مدينة (سورت) الهندية وكيلين لتأسيس محطة تجارية لها هناك، ولم يكن التبادل التجاري معها على أية حال نشطاً أو واعداً بالنهء في تلك الفترة عام ١٦٦١م حينما تم

التوقيع على إتفاق بين الباب العالي (وشارل الثاني) ملك إنكلترا، الذي تم وصفه في وثيقة رسمية بُودلت بينهما (من الممتع ذكرها) بأنه (الأجد من بين إمرء عيسى، والأجل من بين أبناء شعب المسيح ... والسيد الحائز على أعلى مراتب الشرف والإحتشام ... الخ) وقد صُمّنت هذه الإتفاقية للشركة الكثير من الحقوق والإمتيازات بإعتبارها (الدولة الأكثر رعاية)، ولا يزال هناك الكثير من الأعمال التجارية الواجب إجراؤها مع بغداد والمدن السورية وتأسست هنا في عام ١٧٦٣م أول قنصلية بريطانية وعيّن السيد (جاردن) قنصلاً لها. ولم يدرُ بخُلد أي إنسان آنذاك أدنى قدرٍ من التفكير بأنَّ البصرة ستكون في عام ١٩١٦ من الممتلكات البريطانية - الهندية وتصبح المقر العام لأقوى الجيوش التي غادرت شواطئ الهند من أجل الفتوحات الخارجية، وقد احتلَّ الأتراك المدينة في عام ١٦٦٨م وأصبحت مسرحاً للعديد من الثورات، وفي عام ١٧٧٧ استولى عليها الفُرس بعد حصارٍ طويل دام تسعة شهور، وفي عام ١٧٨٧م استعادها الأتراك، وبعد سنواتٍ طويلة من الخضوع للحكم التركي الفاسد المُدمر وقعت المدينة فريسةً سهلةً في أيدي القوات البريطانية في مرحلةٍ مبكرة من هذه الحرب العالمية التي لاتزال تدور رحاها حتى الآن وذلك عندما ألقت تركيا بقدرها ومصيرها في أتون العار والدمار إلى جانب الألمان ضد بريطانيا العظمى وحلفائها.

وفي بداية شهر أكتوبر عام ١٩١٤ استشعرت حكومتنا وجود مشاكل وصعوبات مع تركيا، وأرسلت بحكمة وبصيرة نافذة لواء من القوات البريطانية - الهندية لاستعراض القوة العسكرية عند رأس الخليج العربي، واستعدت لإحتلال

٣٣٨ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

جزيرة عبّادان، إضافة إلى ميناء البصرة، وفي ٥ نوفمبر ١٩١٤ أعلنت الحرب ضد تركيا، وفي ٢٢ نوفمبر ١٩١٤م وقعت البصرة دون أيّة صعوبة تُذكر تحت احتلال قواتنا بقيادة اللواء (السيد آرثر بریت) الذي أهدى -من الممتع أن أُشير إلى ذلك- (اللوردَ ولندون) (١) تخليداً لهذا الإنجاز التاريخي نصباً تذكاريّاً عسكريّاً تركياً عبارة عن بلاطة من الحجر الأبيض نُحِتَ عليها على نحوٍ رائع شعار السلطان ودرع إمبراطوري حيث يُشاهد النصب الآن مُثَبَّتاً في أعلى مدخل دار الحكومة بمنطقة (مالبار بوينت) في بومباي، أما والي البصرة الذي قام بتسليم المدينة فقد نُفِيَ إلى الخارج حيث قضى نحبهُ مؤخراً في مكانٍ ما من بورما، وقد أصبحت البصرة وولايتها الآن خاضعة للسيادة البريطانية، بإعتبارها مقاطعة تابعة للهند البريطانية، وطُرِدَ منها التركي وحكمه الجائر العقيم.

### وصف البصرة

لا تُوجَد في البصرة فنادق تتلاءم مع نمط الحياة الأوربية، حتى تمّ مؤخراً تحويل واحدة من البواخر الأسيرة وهي الباخرة (فرانز جوزيف) التابعة لشركة لويد بالنمسا إلى فندقٍ للضباط، لذا فقد مكثنا على متن الباخرة (زياني) طيلة مده رسوِّها في مرفأ البصرة، ولقد ذهبنا إلى الشاطيء عدة مرات على قارب (بلم) وشاهدت كُلاً من

---

(١) تعقيب: اللوردَ ولندون فريمان (١٨٦٦ - ١٩٤١) حاكم بومباي في الفترة (١٣ - ١٩١٨) ثم حكم مدراس (١٩ - ١٩٢٤) ثم حاكم عام كندا (٢٦ - ١٩١٣) ثم نائب للملك الهند (٣١ - ١٩٣٦).

مدينة البصرة القديمة ومرفأها العشار، وقد وصف (كينير) أحد كبار الرحّالة في بلدان الشرق مدينة البصرة في كتابة المتعلّق بجغرافية فارس (١) (وهو كتاب مُتمّع للغاية) بأنها (بدون جدال أفذر مدينة شاهدها على الإطلاق) فحالتها - كما شاهدها - لا تتناقض إطلاقاً مع هذا الوصف، ويمكن القول بأنّ البصرة كما هي عليه اليوم تتكوّن من ثلاثة أو بالأحرى أربعة قطاعات متميزة، منفصلة عن ضواحيها، منها قطاع المدينة ذاتها، والقطاعين المحلي والبريطاني من العشار وهو مرفأ البصرة، وقطاع الإحتلال العسكري الحالي أو المعسكرات الكبيرة الواقعة على إمتداد ضفة الشط، على مدى حوالي ثمانية أميال من (بيت نعمة) إلى (مرجيل)، وتقع المدينة ذاتها أو مدينة البصرة على مدى ثلاثة أميال إلى الداخل، غربي الشط، بإتجاه نهاية جدول العشار الكبير، الصالح لإيجار قوارب (الأبلام) والزوارق الصغيرة الأخرى، وتتم حركة النقل من وإلى المدينة عبر الجداول، أو عبر طريقٍ عريضٍ للمركبات رديء التصريف، يمتد في الطرف الجنوبي من مدينة يُسمّى (طريق الساحل) وذلك وفقاً للاسم الذي يُطلَق على الشاطيء أو جانب النهر، وقد زُرنا المدينة في عربةٍ جرها حصان بالأجرة، ويوجد إقبال شديد على عربات الخيول، وقد وجدنا بعض الصعوبة في الحصول على واحدةٍ منها، وبالرغم من كونها شديدة الإهتزاز في سيرها إلا أنها تؤدي عملها على أحسن وجه، ويقف حشدٌ غفيرٌ من الناس عند رأس الجسر على الطريق الساحلي

---

(١) تعقيب: يُعرَف كتاب الرحّالة (كينير) باسم (مذكراتٌ جغرافية عن الإمبراطورية الفارسية)

٣٤٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

ينتظرون بفارغ الصبر وصول عربية فارغة، وبمجرد أن نَحَلُّوا من ركابها يستولى عليها ويطفر بها مَنْ ينجح في مدافعة منافسيه بمنكييه ويشق طريقه وسط الزحام إلى الصدارة ويصل إليها أولاً، وتتعالى من الحشد الصرخاتُ وصيحاتُ الشجب والتوبيخ، ويتم الدخول إلى المدينة القديمة عبر واحدة من بواباتها المتداعية البناء، وهي واسعة العمران، بها العديد من البيوت الكبيرة المهيبة الطابع، الرديئة البناء، والمُتهدِّمة جزئياً، ومعظم شوارعها ودروبها صَيِّقة، وبها شيء جميل وظريف، إلاّ أنّها ليسا كذلك في الوقت الحاضر، إذ هما الآن عبارة عن خلّاءٍ مفتوح تُقام فيه سوق شعبية في العراء تُباع فيها الماشية والحمير والدواجن، وذلك في يوم الخميس من كل أسبوع وهو يوم الأسواق في جميع أنحاء العالم العربي.

وهو دون ريب نفس الموضوع الذي كانت تُقام فيه منذ (العهد الذهبي لهارون الرشيد) وما قبله سوق النخاسة، بعدها مررنا بخانٍ كبير من الطراز الشائع الذي غالباً ما وصفه الرّحالة في الشرق إلاّ أنّه يُستخدَم الآن كسجنٍ مدني، وهو يرمز بذلك إلى الإحتلال البريطاني، وفي مكانٍ ليس ببعيد عن هذا الموضوع يُوجد جزءٌ باقٍ من حصونٍ قديمة يجرسها الآن بعض (الرجال باللباس الكاكي)، وهو ثلة من العساكر البنجابيين الأشداء (سيوف الهند القاطعة) وبالقرب من هناك يُوجد مسرحٌ كبير متناسق ومتداعٍ إلى حدٍ كبير كما هو شائع عادة في جميع المباني القائمة في هذه الأنحاء، فهنا يؤدي المشعوذون، والدجالون، والراقصون من مختلف الأصناف والأنواع، وكذلك المهرجون، والممثلون، المتجوِّلون، والموسيقيون أدوارهم وعروضهم التي تلقى الرعاية والدعم -كما تقول الروايات- من وجهاءٍ وأشرف البصرة، وقد تُحقَّق

أية جوقة غنائية وموسيقية أو أية فرقة أخرى من ممثلي المسرح المتجول كسباً طيباً أثناء فترة تقديم هذه العروض الفنية، وأعتقد أن مشاهدة أدوار الممثلات الفاتنات، وسماع الغناء والموسيقى وقبل كل شيء رؤية فن الرقص على أطراف الأصابع مع عرضٍ كامل (للجسم البشري الرائع) كما هو مُتبع الآن حتى على خشبة المسرح الإنكليزي الرصين سوف تستحوذ على إعجاب العربي وتغمره بفرحةٍ عارمة، وسيحقق القائمون على هذه العروض سريعاً ثروةً طائلة.

وأتصور أنه تُوجد الآن واحدة أو إثنين من دور السينما في مدينة البصرة والعشار، وذلك لتعليم الفتى العربي كيف ينطلق نحو إتجاهاتٍ جديدة متعددة، إنَّ مدينة السندباد القديمة قد أصبحت تمر بتحوّلاتٍ مُدهِشة، تابعنا سيرنا حتى وصلنا أسواق البصرة الكبيرة، وهذه الأسواق واسعة في مساحتها إلا أنها تختلف إختلافاً ضئيلاً جداً عن بقية الأسواق التي تراها في المدن العربية والفارسية والتي لا تتمتع بأية أهمية تُذكر، ومع ذلك فإني أجدها دائماً ممتعة للغاية وأهوى التجوّل دخولاً وخروجاً عبر ممراتها المُعقّدة المتشابكة وبين حوانيتها وأكشاكها المكشوفة المتنوعة التي تُضفي حياةً وصبغةً وطابعاً مُميز على المكان والناس، ومن بين جميع أنواع البضائع والمهن المختلفة التي تزدهم بها الأسواق المُعتمّة الباردة التي تفي باحتياجات السكان فإنَّ الشيء المُمتع الذي لا أمل إطلاقاً من مشاهدته هو منظر حوانيت الطهي الجاهز الشهي الرائحة والدكّات الصغيرة التي يعرّض عليها الباعة المتجوّلون ما لَدَّ وطاب من الأَطعمة المطبوخة، وهنا يجتمع أشبه بالذباب حول صينية الحلوى لفيفٍ من الرجال و الأولاد الجائعين الذين يبدو أنهم لا يطبخون مثل هذه المأكولات في بيوتهم

٣٤٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

لذا فإنهم يشترونها من الخارج، ويتكوّن الطعام من اللحم المشوي، والبيض المسلوق، والمخلّلات، واللبن الرائب، والجبن الذي يُباع بالصحن أو يُقد على طريقة مغربية على هيئة كومة فوق الخبز البلدي الذي يقوم مقام الطبق حيث يأكله هؤلاء الناس وهم واقفون، يثرثرون ويتبادلون الأحاديث الإجتماعية، ويهزون رؤوسهم ويومئون بأيديهم وكفوفهم.

## العشار

يُعتبر العشار أو بالأحرى جدول العشار الواسع مرفأً البصرة، وهو الآن أكثر قطاع يَعْجُ بالنشاط والحركة في مدينة السندباد، ويبدو أنّ هذه الكلمة أو التسمية مُشتقة - إذا لم أكن مُحطئاً - من كلمة (معشر) أو (محشر) التي تعني في العربية الجمارك أو دار الضرائب.

ويقع عند مصب الجدول على الجهة اليمنى من دخولك فيه قادماً من الشط مبنى ومكاتب ومستودعات الجمارك المليء بالحركة، وتُوجد على إمتداد كلتا ضفتي الجدول إلى الحد الذي يُوجد فيه الجسر الأول عتبات من السلام تتخلّلها بعض الفواصل القصيرة نصفها غارق في المستنقع الموحل وفي حالة تداعٍ مُزمن، فهذا هو الموضع الرئيسي للرسو والإقلاع لجميع القادمين عن طريق النهر أو من لديهم أعمال يقضونها في أعلى وأدنى الشط، ويخضع الجدول لحركة المد والجزر ويجرى بين الضفاف العالية، ويتمدّد فوق الجدول جسران خشبيان منظرهما ضعيفٌ واهن وشكلهما غريبٌ متنافر إلا أنّهما نافعان ويفيان بغرضهما تماماً، وينفتح هذان الجسران من وسطهما لعبور السفن



الشراعية والمراكب الأخرى ذات الصواري الطويلة وذلك أثناء مرورها في كلا الإتجاهين، وعلى مسافة قصيرة وراء الجسر الأول يُوجد موضع مفتوح في كلا الجانبين تكسوه بساتين النخيل التي زُرعت بعناية فائقة، والتي تَقفُ منتصبَةً داخل أحواض ترابية منخفضة سُقَّت فيها القنوات من أجل دخول الماء إليها أثناء المد العالي من الجدول، وفي الجهة اليمنى يُوجد مبنى كبير كان يُستخدَم حينما شاهدته كدار للمحكمة الصغرى التي أُنشئت مؤخراً، ويرأسها ضابط عسكري، وهي تعمل بالتأكيد دون ضوابط أو أنظمة وذلك وفقاً للحالة التي يؤثرها العقل والذوق البيروقراطيين البريطانيين، وستبشر عمّا قريب عملها هنا محكمةً للوصاية على القاصرين ومحكمةً محلية تختص بالنظر في قضايا الإفلاس والديون وسيقف أمامها حتماً طابورٌ من المحامين والوكلاء التجاريين، وبمجرد أن تتعقد حياة العربي البسيط وهو أمرٌ لا بد منه في ظل الأوضاع الجديدة، فسوف يُثنى دون شك على فوائد القضاء المختص بآفلاس والديون حيث سيتيح له التخلص من دائنيه بالطرق القانونية دون الحاجة إلى سفك الدماء أو اللجوء إلى المنفى الإختياري، وفي مكانٍ ليس ببعيد عن المحكمة يُوجد مبنى قدر كربه المظهر، يصعب الإقتراب منه أثناء الجزر، أشاروا إليه قائلين لي بأنه حَمّام من بين العديد من الحمامات أو المسابح العمومية التي تفخر بها البصرة حيث تتردّد عليه الشخصيات المرموقة في المدينة حينما ترغب في الإستحمام، أما المساكن العادية في مدن الخليج فقد اعتادت على الحياة دون الحاجة للإستحمام أو لمراقف الزينة والإغتسال الأخرى، إذ من الواضح أنّ السكان العرب لا يميلون إلى الإستحمام ولا يألّفونه، وعندما تترك هذا الحمام ستصل إلى مقر الإرسالية الأمريكية

٣٤٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

بمدارسها، ومستشفياتها، وعياداتها، وورشها، ومساكنها ذات الطابق الواحد، وقد تأسّست في هذا الجزء من العالم وفي أنحاء عديدة من بلاد فارس الإرساليات البروتستانتية الأمريكية منذ أمدٍ طويل، إنّ الحس العملي وحُسن التصرف والتسامح العفوي الذي تؤدّي به هذه الإرساليات عملها يجعلها تلقي ترحيباً كبيراً وشعبيةً واسعة لدى الأهالي، وجميع الذين اتصلوا بها وجربوا انشطتها الخيرية يثنون عليها غابة الثناء ويُقدِّرونها تقديراً عالياً.

وقد أنشأت (جمعية الشباب المسيحيين) فرعاً لها في البصرة مؤخراً وذلك - كما قيل - من أجل تلبية المطالب الروحية للغربيين الذين بدأوا يستوطنون بسرعةٍ ضفاف الشط، ومن أجل تعليم المسلم السامي العرق كيف يتبع طريقاً أكثر وثوقاً نحو السماء تجعله يجيد عن دينه وعقيدته، ويُمثّل رأس جدول العشار طوال النهار أجمل المشاهد المليئة بالحياة المتعدّدة الألوان والناضجة بالحركة الدائبة، وبالإمكان مقارنته - مع الفارق الكبير بالطبع - بالقناة الكبرى في مدينة البندقية (فينسيا) الإيطالية وقد أکسب هذا الجدول مدينة البصرة لقب فينسيا الشرق، إنّ ازدحام حشود القوارب، ومراكب الصنادل الخشبية، والسفن الناقلة للحمولة، وبالأخص زوارق (الأبلام) الجميلة التي تشبه كثيراً زورق الجندول الفينسي من حيث الشكل والحركة الإنسيابية، والناس الذين يرتدون ملابس غريبة وهم يصعدون وينزلون على العتبات النهريّة وصرخات البحّارة، والسماء الزرقاء الصافية في أعلى، والهواء المنعش البارد، تُضفي جميعاً بعض التشابه على هذا الوصف للبصرة، إلّا أنّ أية معرفة ضئيلة بحقائق الأمور سرعان ما تبعد هذا الوهم المُضلل، إذ من المُستعبد أن تتنافس مدينة السندباد القديمة تلك المدينة

التي يُطلق عليها (وليدة البحار) وملكة الإدرياتيك، ومع ذلك فإن الحياة النابضة بالحركة والمشاهد المتغيرة التي يزخر بها جدول العشار الواسع تُعتبر ممتعة ومُسيّلة بل هي من خصوصيات ذلك المكان حيث تجذب إليها نظر الزائر الغريب.

دعنا نتحدّث الآن عن (البلم) فهو يستحق وصفاً مُوجزاً، وهو قاربُ الرُّكّاب في البصرة وشط العرب من المُحمّرة إلى القرنة، وقد وصفه (السير بيرسي سايكس) خطأ في مكانٍ ما من مجلدات رحلاته الضخمة بأنه (طوف) من حيث أنه يشبه الأطواف الجلدية المنفوخة التي تُشاهد في نهر السند، أو يشبه (القُفّه) وهو قاربٌ صغير دائري الشكل مُغطّى بالجلد ومطلي بطبقةٍ من القار، يُستعمل في أعالي نهر دجلة لأغراض نقل الركاب أو للصيد النهري، ومن المُؤكّد أن (البلم) ليس بطوف وليس شيئاً شبيهاً بالطوف، بل على العكس من ذلك أنه أجمل مركب مائي صغير قد يراه المرء في أي مكانٍ سواء عند التنقل، داخل المرفأ أو عند الإبحار في النهر، ويبدو لي أنّ لكلمة (بلم) صدىً في كلمة (فلم) وهو اسم قارب صغير يُستخدّم في المياه الداخلية وهو عبارة عن قارب مُسطّح القعر يصل طوله إلى عشرين قدماً أو أكثر وقطره من قدمين إلى ثلاثة أقدام، له طرفان مُستدقان ينحنيان ويتقوسان إلى الداخل أشبه بقرون الكبش، وهما ملونان أو مطليان، وقد صُيغَ بدنه الرمادي وقعره الأحمر القاني على نحوٍ جميل بألوان خفيفة متنافسة منها الأزرق، والأخضر، الفاتح، والأبيض، والأخضر الداكن، وله مقاعد وثيرة مريحة في الوسط صالحة لجلوس شخصين أو ثلاثة عليها تعلوها مظلة أو غطاء واق من أشعة الشمس، وعند الإبحار عكس التيار نحو أعلى الشط قرب الشاطيء يقوم إثنان من البحّارة يقفان في أول و آخر (البلم) بتسيير أو دفع

٣٤٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

القارب بواسطة العصا الطويلة، وعند الإبحار في إتجاه مجرى النهر نزولاً من الشط فإنها يقومان بتجديفه أو توجيهه أو تركه ينساب لوحده مع التيار، وهو أجمل من قارب الجندول الداكن اللون، إن لم يكن أسهل منه في التسيير والتجديف، وهو أكثر شَبهاً بقارب (القايق) الإسطنبولي، ويُوجد أكثر من إلفين من قوارب (الأبلام) هذه تجوب مياه العشار وعلى إمتداد مجرى الشط وفي أعلى وأدنى الجداول وذلك لأغراض النقل بالأجرة، ولدى كُلِّ رجلٍ ميسور الحال في البصرة والمُحمّرة قارب أو قارين من (الأبلام) وذلك لأغراض التمتعة والترفيه، ومن المُمتع أن تكون راكباً على متن القارب (بلم) في الشط صباحاً أو مساءً خلال فصل الشتاء الجميل بالبصرة، فحركته هادئة ورشيقة ووديعة، أما (الأبلام) الأكبر حجماً إلى حدٍ ما والتي بإمكانها أن تحمل من عشرة إلى عشرين راكباً فتستعمل عموماً لأغراض نقل الركّاب بين الموانئ الرئيسية في الشط.

### مدينة العشار

تنقسم مدينة العشار الواقعة عند رأس الجدول نتيجة اختراق هذا الممر المائي لها، إلى قطاعين هما القطاع العربي المحلي أو الشطر التركي الواقع إلى اليمين، والحي التجاري الأوربي الواقع إلى اليسار، والمحاذي لطريق الساحل، وتُشاهد في القطاع الأخير العديد من المباني الكبيرة التي تصطفُ على طول إمتداد الطريق وتحتلُّها المكاتب والمؤسسات التجارية المتنوعة، ومن بينها مكاتب مصلحة البريد والهاتف البريطانية، والمكاتب العسكرية ووكالات البواخر، وفرع للبنك الشرقي الهندي لديه

أعمال تجارية رائجة، ومخفر للشرطة، ومكاتب جريدة (بصرة تايمز) ونسختها العربية (الأوقاف البصرية)، [الأوقات] وبالمناسبة هذه الصحيفة جريئة جداً تتكوّن من نشرة مزدوجة واحد ذات أربع صفحات من قطع الربع، وتضمّن موجزاً عن الحرب ومقالة افتتاحية حتى توفر حيزاً لذلك، والبقية عبارة عن إعلانات تجارية والتي أتصور أنها ضرورية جداً، ويبدو أنها تنتهج سياسة إنتهازية لا أقل ولا أكثر إلا أنني أتمنى لها على أية حال النجاح في عملها الصحفي، ولعلّ اصدار صحيفة قوية مُستقلّة كما هو مطلوب الآن في بلاد الرافدين لن تكون مُربحة، ويوجد في هذا القطاع أيضاً، وإلى مسافة أبعد إلى الداخل على إمتداد الشارع المتقاطع العديد من المتاجر الأوربية الكبيرة التي تحمل أسماء مألوفة لدى معظم الناس في بومباي مثل (ايفانز فرايزر)، (ليج و ويبورني)، (د ماكروبولو) (مخازن الجيش والبحرية)، (ريتشارد سون وكريداس)، وآخرون غيرهم من الذين قبضوا على الزمن ناصيته والذين ستتعثش أعمالهم التجارية حتماً في ظل الأحوال السائدة حالياً في (بلاد الرافدين) (من عادة الجندي البريطاني أن يلفظ هذه الكلمة المباركة بطريقةٍ رخيمة تنم عن عدم التوقير)، وتلقي جميع أنواع البضائع التي يتعاملوا بها رواجاً كبيراً وتحضى بطلبٍ عاجل ومتواصل، كما أن ظروف الحرب تتحكّم في الأسعار وتجعلها غير قابلة للنقاش ومُتعدّر السيطرة عليها، فيجنون من وراء ذلك أرباحاً طائلة في الوقت الذي يلتهب فيه سكير الحرب.

وتمثال الوجهات الخارجية لهذه المؤسسات تلك الوجهات الفخمة في مدينة بومباي، بالرغم من وجود بعض الكتابات العريضة أو الحروف المُختصرة المنقوش

٣٤٨ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

عليها، وتُوجد على إمتداد ضفة النهر في هذه الجهة من العشار إدارة المواصلات الحكومية، والإدارة العسكرية المُختصّة بلوازم الجيش، والمستودعات الأخرى التي تعج بالجنود المنهكين في عملهم وهم منتظرون في نسقٍ عسكري.

وتعتبر العشار مع مرفأها الحافل بالنشاط والحركة مدينة في حد ذاتها، مساحتها شاسعة وسكانها (يتزايدون على نحوٍ واضح) وقد توسّعت تدريجياً حول مبنى الجمارك ومواضع الرسو، وامتدت بعيداً نحو الشمال حيث تقع مزارع النخيل إلى الغرب ويقع الشط الواسع إلى الشرق منها، ومعظم سُكّانها من العرب سواء من الحضر أو البدو، ويقع على الضفة اليمنى من أعلى الجدول ويشرف عليها مقهيان كبيران مفتوحان للهواء الطلق، مؤثنان بمقاعد خشبية خشنة طويلة مُربّعة الشكل ذات مساند مستقيمة، كما يجويان بعض المناضد أو الطاولات وهذان المقهيان مُردحمان بمرتابهما طول اليوم من الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من الليل، حيث يتم تحويلهما بصورةٍ مُؤقّتهٍ إلى مقاهٍ غنائية، وبإمكان كُلِّ مَنْ لديه رغبة في معرفة الحياة في البصرة أن يشاهد الكثير من أطوارها في هذه المقاهي العربية التي يتردد عليها الأهالي ويجتمعون فيها بأعدادٍ كبيرة من أجل الترويح عن النفس، وتبادل الأحاديث، وإجراء المعاملات التجارية، والراحة والأنس وقضاء أوقات الفراغ، فهي تقوم مقام النادي أو تفي بغرضه دون الحاجة إلى دفع أية رسوم للعضوية أو أجرة للدخول.

أما الشارع، الطويل، الواسع، المستقيم، الممتد من الجسر الأول فوق الجدول فيقسّم هذا القطاع من المدينة إلى نصفين متساويين تقريباً، فهو الشارع الرئيسي العام

في العشار ويجد الزائر متعةً كبيرة أثناء التَّجول فيه.

وتقع على كلا جانبيه - اللذان يخلوان من أرضفة المشاة - صفوف متصلة من البيوت المتواضعة المظهر التي تَحْتَلُّ الحوانيت الشعبية وَمَنْصَّات البيع المكشوفة طوابقها الأرضية، وتتداخل مع ما يُعرف اليوم في الهند بإسم (المتاجر الأوربية)، وهي المؤسَّسات التجارية الجديدة، وقد بدا أنّ هذا الموضع يَحْتَلُّه العديد من صغار التجار القادمين من بومباي، منهم البهرة، والخوجة<sup>(١)</sup> وبعض التجار الهندوس، وقليل من المجوس الذين يطلقون على أنفسهم (تجار عموميون)، حيث فتحوا متاجرهم هنا تُعرَض فيها تشكيلة متنوعة من البضائع الهندية واليابانية والأوربية مثل الحرير، والملابس، والخردوات المعدنية، والأواني الخزفية، ولوازم الخياطة، والأحذية، والزيوت، والخمور والمشروبات الروحية والساعات الجدارية وساعات الأيدي، حيث تُباع جميع السلع بأسعارٍ خيالية، ويمتلئ هذا الشارع بمقاهي الشاي الصغيرة والمطاعم، مما يحمل المرء على الاعتقاد بأنَّ الإفراط في الإسْتهلاك والإسراف في الأكل والشرب هو سبب رواج جميع هذه المحلَّات، أما مهنة السقَّاء أو بائع الماء المتجول فهي على وشك الإندثار إن لم تندثر بعد، وقد شاهدتُ من بين هذه المحلَّات واحداً يُعد أفخمها جميعاً وقد صُمِّم على أساس أنه (مطعم إنكليزي فاخر) وهو يُقدِّم الشاي والقهوة والمرطبات والحلوى المثلَّجة، والفطائر والمعجنات والحلويات، إلَّا أنه لا يبدو

(١) أتباع آغاخان بالهند وهم من فرقة الإسماعيلية.

٣٥٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

جذاباً، وتُوجد هنا أيضاً عدة دكاكين لبيع التبغ، بينما قام طبيب واحد أو طبيبان للأسنان، وكذلك (حكيمان) أو طبيبان شعبيان لديهما عيادتان عاديتان، إضافة إلى مُصوّر واحد بمزاولة أعمالهم التي يبدو أنها تلقى رواجاً كبيراً هنا، ولا يزال يُوجد مُتسع للمزيد من مثل هؤلاء الحرفيين ذوي المهارات المهنية، إذ بإمكان بعض أطبائنا المجوس في بومباي الذين يحملون درجات في الطب مثل (إجازة في الطب والجراحة)، و(بكالوريوس الطب والجراحة)، و(جراحة الأسنان) بدلاً من إضاعة الوقت سُدىً في (قتل الذباب) (كما يقول التعبير الكوجراتي في الهند)، أن يجدوا فرصةً ثمينةً أمامهم إذا انتقلوا إلى العشار واستقروا فيها وفتحوا لهم عيادات مُجهّزة تجهيزاً جيداً تحت إشراف صيادلة ماهرين يقومون بتوفير أدوية مُصرّح بها إضافة إلى جميع مستلزمات الإستهتام والنظافة إلخ...، كما أنّ الأثرياء العرب الذين كانوا قانعين لفترةٍ طويلة بالسجاد والوسائد والجدران العارية قد بدأوا يحدون الآن حذو الأجانب في استعمال أطقم الأثاث المنزلي الحديث من طاولاتٍ ومقاعد، وآرائك، وأسرةٍ وخزانات في مختلف الأصناف والأنواع، والمناظر... إلخ حيث أصبح الأثاث الحديث الآن موضع إقبال عام، لذا فإنّ بإمكان النجارين وتجار الأثاث في بومباي الانتقال إلى البصرة وإقامة معاملات تجارية خاصّة بهم هناك، لتوقع الحصول على مردودٍ مادي كبير منه، فالبلاد بأسرها خالية من الأخشاب الصالحة لأغراض البناء، حيث يتم استيرادها الآن في الأغلب من بومباي وبورما وحتى من اليابان، لذا بالإمكان إقامة معاملات تجارية على نطاقٍ واسعٍ في البصرة وبعوائدٍ مالية سريعة في هذه السلعة التجارية الهامة، إلّا أنّ المشكلة الوحيدة التي تعترض جميع الذين لم يولدوا في هذه البلاد أو لم يألفوا



الحياة فيها هو المناخ القاسي في البصرة، الذي يستمر طوال خمسة شهور على الأقل من السنة، ما بين بداية أبريل حتى نهاية أكتوبر، حيث ترتفع درجة الحرارة خلال هذه المدة إلى حدٍ لا يُطاق كما عَبَّرَ عن هذه الحالة في إحدى المرّات ضابطٌ بحري (للسير بيرسي سايكس) قائلاً بأنَّ (البصرة في الصيف موضع غير ملائم لرجلٍ قصير الرقبة)، وأكاد أجزم قائلاً بأنها كذلك حتى لرجلٍ طويل الرقبة، استثناء من وِلْدَ وتربى على ضفاف الشط.

ومن المؤكّد أنه بالإمكان التخفيف إلى حدٍ بعيد من وطأة الظروف المناخية القاسية في الصيف عن طريق تحسين الأمور والأحوال السائدة الآن وذلك بتوفير وسائل أفضل لتموين المياه، وبناء نمط أحسن من المساكن، وتركيب المراوح الكهربائية، وإنشاء معامل الثلج وغرس الأشجار من أجل جعل البصرة مكاناً ملائماً لإقامة الهنود في جميع الأحوال، فهذه البقعة زاخرة بالعديد من الفرص الثمينة في العديد من المجالات، فعلى سبيل المثال أنّ الرجل الذي قام بتشغيل مركبتين عموميتين ذات محركات لنقل الركاب بين العشار والبصرة القديمة قد أثرى من وراء ذلك، بينما الرجل الآخر الذي يقوم الآن بتشغيل ستة من عربات الخيول لنقل الركاب بالأجرة قد أصبح لديه عملاً تجارياً مزدهراً منها، ولا يزال هناك مُتَّسِعٌ للمزيد، ويُقدِّم هذا القطاع الشعبي من العشار بأسواقه المُزدحمة، ومقاهيه الكبيرة ومكاتبه الجمركية النابضة بالحركة، وشارعه الرئيسي العام المليء بالصخب السالف الذكر مشاهدًا مُتغيِّرة الألوان حافلةً بالتنوع، أما بالنسبة لسكانه المتنوعين ومتعددي الأجناس فبالإمكان القول بأنَّ هذا القطاع يمثل متحفًا متحرِّكًا شاملاً للأعراق الآسيوية، فكلُّ

٣٥٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

نوعٍ وصنف من الشعوب السامية، من حضرموت إلى بغدادَ وما وراءها، من الشام ومصر ومن الهند وكوهات وكابل لهم حضور هنا، وتُمثّل البصرة والعشار بناذجها البشرية بالنسبة للطالب الدارس لعلم الإنسان حقلاً واسعاً ومتكاملاً للدراسة والبحث، فإنك تشاهد هنا وتتزاحم أثناء المشي عصراً مع العرب من حَصْرٍ ومن بدوٍ، مع الأتراك، واليهود، والأرمن، والزنوج، والفُرس القادمين من مناطق السهول، والقادمين من مناطق الجبال الوعرة، والبلوش، والكابوليين، والسوريين، والهنود، والأكراد، والمصريين، والعُجْر، ومن بين هؤلاء جميعاً يَتَمَيَّز المِلاي، والصوفيّين، والأرمنيين، والخاصامين اليهود، والمبشّرين، المسيحيين بأعظية رؤوسهم وأزيائهم.

وقد أُضيف الآن إلى هذا الحشد المتباين من البشر صنفاً جديداً على سبيل زيادة التنوع صنفاً جديداً يَتَمَثَّل في الوجود المؤلف للعسكريين البريطانيين والهنود المَتَمَيِّزين ببذلاتهم العسكرية الكاكية من مُجنّدين وجنود نظاميين، الذين جاءوا إلى هذه البلاد ليحكموها وَيَسَلِّطُوا على هؤلاء (اليهود والأتراك والكفار والوثنيين) حيث يعتزمون معاملة الأهالي معاملةً حسنة ويجعلوهم يَتَحَمَّلون المسؤولية، وغالباً ما ينظر العربي في البصرة ببالي مُشوَّش حينها يرى «هؤلاء الأسياد من بني البشر يمرون وكبرياء في قيافتهم وتحدي في عيونهم»، إلا أن العربي الذي يُشكِّل عنصر الأكثرية بين السكان القاطنين هنا وفي جميع أنحاء الشط يَتَمَيَّز بكونه شخصاً حساساً ونافذ البصيرة، لكنه غير عملي بأي حالٍ من الأحوال، فسرعان ما يهتف قائلاً «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» تبرّماً من أي تغيير في طبيعة الأمور، وحينما يألف السلطة الجديدة الغريبة فإنه سيحمد الله على هذه النعمة التي أسبغها عليه، لأنّه سيرى ويتعلّم

قيمة السواعد القوية والعقل المبدع الذي يوعد بتحويل (الصحراء إلى جنة خضراء) خصوصا إذا لم يتدخل أحد في معتقداته أو يسأل من أين يكسب ماله؟ فهو لم تحالطه فقط أدنى قدر من المودة نحو التركي، وبما أن العثماني قد تمت إزاحته الآن وأصبحت عاصمة الخلافة واقعة في أيدي البريطانيين فليس هناك ثمة سبب يحول دون أن يصبح العربي مؤطناً محباً للإمبراطورية التي تمتد فوق نصف مساحة الكرة الأرضية المأهولة بالسكان، فقط إذا استطاع الحكم البريطاني أن يوطد أقدامه في البلاد بالفطنة واللباقة والذوق السليم والتقليل شيئاً فشيئاً عن عجرفة الإعتداد بالنفس وعنجهية التعالي و صلف الغطرسة التي تجلب الأذى والضرر إلى البريطاني، وتجعله رغم خصاله الحميدة العديدة عرضةً للكراهية والبغضاء في الكثير من البلدان التي حبه العناية الإلهية بأن عهدت بها إليه أمانة بين يديه.

### الواجهة النهريّة في البصرة

يقتصر القطاع الرابع الذي يُشكّل البصرة الحديثة بأكملها على حي الإحتلال العسكرية فقط، ويمتد على طول ثمانية أو تسعة أميال من الواجهة النهريّة، حيث يقع في معظمه على الضفة اليمنى للشط، وهو الموضع الذي كانت تسود فيه أثناء وجودي هناك ولا تزال سائدة فيه أنشطة حربيةً محمومةً حيث إنبثقت فيه خلال شهور قليلة مدينة جديدة كأنها مرّت على هذا الموضع عصا سحرية وفتحت صناديق الثروة على مصراعها فلم تعد تكثر إدارة الحرب الحديثة بسر غور أعماقها، فالحرب العظمى تبدو ظاهرة للعيان على طول إمتداد هذا الحي في البر والنهر، فهناك مستشفى الجنود

الأوربيين، ومستشفى القوات المحليّة، ومساكن أعضاء هيئة الأركان، ومكاتب الإدارتين البحرية والعسكرية ومَنزلي مدير المرفأ ومدير الإرساء، والمنشأة العسكرية، وصفوف متتالية من الثكنات العسكرية التي أنشأت أو تحت الإنشاء، ومكاتب البريد والبرق العسكرية، والتوصيلات الكهربائية، ومظلات الإدارة العسكرية المُختصّة بلوازم الجيش، والمخازن والبرّادات، ومستودعات المدفعية، ونادي الضباط وقاعات الأكل، ومطاعم الجنود، ومساكن الممرضات والأطباء العسكريين، ومباني السكك الحديدية بمظلاتها، ومخازنها، وأرصفتها، ومكاتبها، ومحطّاتها، ومكاتب شركة الهند البريطانية للملاحة البحرية.

وهناك الأرصفة والأحواض والمراسي المليئة بالحركة إضافة إلى بعض المباني الأخرى، وذلك في المكان الذي لم يكن يُوجد فيه من قبل أي رصيف أو موضع مُلائم للرسو، فضجيج الحرب يُدوي في كُلِّ جهةٍ ومكان، والعمل يجري على قَدَمٍ وساقٍ بمعدلاتٍ عالية، فالمشاهد التي رأيتها كانت مليئة بالحركة والعمل وأكثر نشاطاً من أية خلية نحل، فقد تصادف في تلك الأثناء أن عاود البريطانيون شَنَّ هجماتهم القوية ضد الأتراك الذين كانوا بدورهم مُحاصرين في (كوت العمارة) (١) التي اشتهرت من جرّاء ذلك وكانت الأجواء مشحونة بالشائعات والحكايات عن إحراز البريطانيين لمكاسب عسكرية إلا أنه لم يعرف شيئاً من هذا القبيل آنذاك بصورةٍ قاطعة، حتى في

(١) بدأت معركة (الكوت) الثانية في ١٤ ديسمبر ١٩١٦ حتى ٢٣ فبراير ١٩١٧ م.

البصرة القريبة جداً من مسرح العمليات الحربية.

وكانت ضفة الشط مزدحمة بالبواخر من مختلف الأحجام والأنواع، فهذه هي المرة الأولى على مدى تأريخها الطويل الممتد عبر قرون ترى وتحقق البصرة أشياء وأعمالاً لم تخطر ببالها من قبل، حيث كان يشاهد هناك إنزال القوات، ورحيل للقوات، وزحف للقوات، كما تُشاهد الرافعات البخارية الضخمة الطافية فوق الماء وهي تنقل المدافع الكبيرة وعربات السكك الحديدية بكاملها والزوارق البخارية من البواخر إلى الشاطيء، وتُشاهد أيضاً هناك قاطرات متحركة تجر وراءها عربات كاملة للقطارات وهي تنفث الدخان المُتقطع في الهواء مُتنقلة بين «مرجيل» و«القرنة»، وكذلك السيارات، والشاحنات، والدراجات النارية والدراجات الهوائية وهي تدرع الطريق ذهاباً وإياباً أو تنطلق مُسرعةً في هذا أو ذاك الإتجاه، إضافة إلى مراكب التجديف الثقيلة وبواخر التجديف<sup>(١)</sup> وهي تمخر عُباب مياه الشط وكذلك السفن المستشفيات الضخمة الراسية هناك وقت الذي تنحدر فيه الشمس نحو الغروب مُتوهجة بالأنوار الحمراء والخضراء والبيضاء، كما تُشاهد السفن البخارية العملاقة الكاسحة للطُمى، والمراكب الحديدية الضخمة ذات الفتحات الواسعة الصالحة، كُلُّ واحدة منها لنقل خمسين طنّاً من الحمولة، وإلى جانب ذلك تُشاهد على الدوام معجزة العصر وهي الطائرات التي تزيد سرعتها على سرعة طير «الرخ» الأسطوري، حيث تناور في الجو

(١) مراكب وبواخر مُزوَّدة في جانبها الخلفي بعجلات للتجديف في الماء.

٣٥٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

بأجنتها الهادرة، مُحَقَّقةً بذلك النبوءة التي أطلقها أحد الشعراء حينما قال «أساطيل الجوّ العالقة في كبد السماء الزرقاء الصافية»، إنّ كل هذا التحول المفاجئ والمدهش والممتع الناجم عن وجود هذه القائمة من عجائب المخترعات العصرية تصيب البصراوي بالدهشة والتعجّب وتتركه في حالٍ أشبه بحال أصحاب الكهف، حينما أفاقوا من سباتهم الطويل، وأتصوّر أنه يجب أن يفيق من غفوته ويبدل كلّ ما في وسعه لكي يكون نشيطاً وإلا فإنه لن يتمكّن من مجارة مواطنية الهنود الذين يتميِّزون باليقظة والإقدام، وتقع عند نهاية الطرف الشمالي لهذا الحي الجديد، أو مدينة البصرة الحديثة قرية «مرجيل» وهي عبارة عن منتجع للنزهة والترفيه يرتاده أهالي البصرة، وقد تمّ تحويله الآن إلى منتجعٍ خصوصيٍّ مُغلقٍ محجوزٍ للأوروبيين فقط الذين جلبتهم الحرب إلى البصرة، وقد أزيلت من هذه الناحية وما حولها بساتين النخيل المتفرقة، كما قامت بعض الكاسحات البخارية القوية بكسح الطمى والوحل من قاع النهر وإلقائه فوق النهر حيث يُمهّد ويُشكّل أرضاً جديدة تستخدم لأغراض البناء.

ويوجد هنا عند نهاية هذه البقعة الخط النهائي للسكة الحديدية الممتدة دون انقطاع إلى القرنة وبغداد وسامراء وأبعد من ذلك بإتجاه الشمال، وهذا الحي بأكمله مُضاءً بالمصابيح الكهربائية، وقد بدأت الصحراء القفرة الشاسعة التي عاش وارتحل وسعى ودبّ فيها سكانها القلائل من البدو المتخلفين تندفق حيوية جديدة لم تعرفها ولم تشهدها من قبل، لذا فإنّ البصراوي المحافظ الذي يترك الأمور تسير على الغارب وينسبها للأقدار والقسمّة والنصيب بحاجة لأن يقف قليلاً ويفتح عينيه ويجول ببصره فيما حوله ويعرّف في تفكيرٍ عميق، فالأموال التي أنفقت في الخفاء ولا تزال تُنفق يوماً

بغير حساب دون أن يجرؤ أحد أن يعدها أو يسأل عنها وذلك من أجل بناء قوي متين راسخ بالرغم من أنها تصيب الأهالي بالدهشة، إلا أنها تثير في نفوسهم آمالاً واقعية بأن الذي يجري هنا يعني في حقيقة الأمر استمرارية الإحتلال البريطاني الذي لا يشعرون بأي نفور منه، بل أنهم يتطلعون قدماً نحو هذه الغاية، وهم من دون شك على أتم الإستعداد للتخلي عن التركي وأفعاله وأن يُسلموا أمرهم لأسيادهم الجدد، لذلك فإن الكثير من الناس يرون بأن البريطانيين سيرتكبون خطأً شنيعاً من جميع النواحي إذا هم أعادوا إلى الأتراك الذين دأبهم العناد والغدر، كل هذه الأراضي التي بذلوا من أجلها تضحياتٍ جسمية في الأرواح والأموال، بالنظر إلى ذلك فلا يسعني سوى أن أعلق هذا الفصل مُستشهداً بمقولة (السير آرثر لولي) الواردة في كتابه الصغير الذي صدر مؤخراً بعنوان «بلاد الرافدين» حيث يقول (من المؤكّد أنه إذا وضعت الحرب أوزارها وانسحبنا في لحظةٍ مشؤمة، فإنّ انسحابنا سيُعد بمثابة خيانة للرجال الذين كسبنا ولائهم بالتملّق وسيكون له أسوء الأثر على رعايانا المسلمين في كافة أنحاء الإمبراطورية)، يُضاف إلى هذه المقولة العبارة الختامية في خطاب «اللورد هاردنغ»<sup>(١)</sup> الذي ألقاه أثناء زيارته للبصرة في يناير ١٩١٥ حيث قال: «لقد جئتُ إلى هنا لمعاينة الأوضاع المحلية بنفسي: وكما تعلمون أننا لا نُقاتل لوحدها في هذا النزاع الكبير ولا يمكننا أن نضع خططنا المستقبلية دون أن نتبادل الآراء مع القوى العظمى

(١) اللورد شارلز هاردنغ (١٨٥٨ - ١٩٤٤) دبلوماسي بريطاني، عُين نائِباً للملك في الهند خلال

٣٥٨ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

الأخرى إلا أنني أستطيع أن أوكد لكم بأنّ المستقبل سوف يحمل إليكم حكماً أكثر رِفْقاً وعَطْفاً بكم» ولن يخطئ أهالي البصرة إذا اعتبروا هذه الكلمات الواضحة بمثابة وعدٍ بعدم تركهم يرزحون مرةً أخرى تحت نير الحكم التركي الجائر، ويحقُّ لهم أن يعتمدوا على الوفاء بهذا الوعد.

### الحكم العسكري البريطاني في البصرة

من المعروف أنّ مدينة الخرطوم الواقعة على النيل الأدنى كانت في الماضي بقعةً موبوءة يتفشى فيها مرضُ الملاريا، ومنعزلةً وسط القفار الرملية، كما كانت ضحيةً لتنافس القبائل المحلية المتوحشة، المتنازعة، الجاهلة، المتعصّبة، والمثيرة للقلاقل والفتن، وكانت صلاتها منقطعة تماماً عن كافة أشكال الحياة التمدّنة، وفي خلال تسعة عشر عاماً منذ أن شهدت أم درمان الفصل الختامي لمصير المهديين (١) تحوّلت الخرطوم تحت الحكم البريطاني إلى مدينة جميلة متطورة ومزدهرة تستحق عن جدارة

---

(١) تعقيب: من الواضح أن المؤلف يشير هنا إلى الحملة العسكرية البريطانية على السودان التي قضت على أتباع «المهدي» في أم درمان عام ١٨٩٨ م، إذ كانت معظم اراضي السودان واقعة حينذاك تحت سيطرة أتباع الزعيم الديني السوداني «محمد احمد بن عبد الله» (١٨٤٤ - ١٨٨٥ م) الملقب «بالمهدي» حيث استولى هذا الزعيم الديني على الخرطوم عام ١٨٨٩ م واتخذ أم درمان عاصمة له إلا أنه توفي بعد ذلك بقليل، وقد قاد «اللورد كيتشنر» الحملة العسكرية البريطانية على السودان واحتل هذا البلد واخضعه إلى ما يُسمّى «السيادة المشتركة البريطانية - المصرية» عام ١٨٩٩ م.



الاسم الذي أُطلقَ عليها الآن هو «مدينة جنائن مصر»، وليس ثمة سبب يحول دون أن تتحوَّل مدينة البصرة الواقعة بصورةٍ مماثلة على الشط والتي تعاني من الإهمال والسُّمعة السيئة نتيجة سنوات طويلة من الجمود والحكم السيء إلى مدينةٍ مُزدهرة تدبُّ فيها حياةٌ جديدة فتُنافس بذلك مدينة الخرطوم، إذا سارت الأمور ووصلت كما يتوقع المرء أن تسير وتصل إليه في ظل الأوضاع الجديدة السعيدة التي بدأت تستقر الآن هناك، ومنذ أن تمَّ إخراج وطرده التركي من هذه الأنحاء أصبح هذا المكان وما حوله خاضعاً الآن تحت سيطرة الحاكم العسكري البريطاني ونائب الحاكم وتُطبَّق فيه حالياً الأحكام العرفية، وهذه ضرورة أملتتها دون شك ظروفُ الحرب الراهنة إلا أنه من الأفضل التخفيف من وطأتها بالنوايا الطيبة وحُسنُ التصرف والذوق العلمي السليم، إنَّ حالة العجز القهري التي جثمت طويلاً على كاهل البلاد قد زالت وحلَّت محلها أنشطة جديدة بالإمكان رؤيتها عبر العديد من دلائل التحسُّن والتقدُّم الجارية في شتى المجالات والنواحي، وقد تكون بعض الدلائل تافهة ضئيلة الشأن إلا أنها تُمثِّل القشة الرقيقة التي تريك من أين تهب الريح، ولم تكن البصرة تعرف قبل مجيء الإنكليز إليها جهاز شرطة للمدينة يمكن الإعتماد عليه، ويقضي العُرف الإلزامي أن تُغلق جميع البيوت أبوابها وأن توصلها بإحكامٍ حتى قبل مغيب الشمس، ولم يكن في استطاعة أية امرأة محترمة أن تُغامر بالخروج بسلام إلى الشوارع بعد الساعة الرابعة عصراً.

وكان المجرمون وقُطاع الطُرق ينتشرون بكثرة في هذه الأنحاء ويعيشون فيها فساداً كما يلحوا لهم، وكانت الشرطة عاجزة عن أداء مهامها، كما كانت المحاكم فاسدة،

٣٦٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

ولم تكن تُوجد مصابيح للإضاءة في الشوارع، أما التدابير الصحيحة فلم تكن معروفة، ولم تُبدل أية محاولة لإنشاء الطرق أو اصلاحها وترميمها، إلا أنّ كل هذه الأمور قد تغيّرت الآن ففي العشار والبصرة يقوم الجنود الأوربيون والمجنّدون الهنود بأعمال الدورية بصورةٍ منتظمة الآن، وصانَ الأرواح والممتلكات، ويشنون عليه، وفي المساء تُعلّق مصابيح الكيروسين الحسنة للإضاءة على أعمدة أو على خطاطيف وحاملاتٍ تتدلّى من فوق جدران البيوت في زوايا ملائمة وتفصلها عن مُضاء بالكهرباء، وينظّف الكناسون الطرقات في أوقاتٍ محددة ويزيلون منها الأوساخ والقاذورات، ويجري حالياً شق وتعبيد طُرُقٍ جديدة أما الطرق القديمة فيجري اصلاحها وتحويلها إلى ممرات لعبور العربات، ويُعتبر الرماد والنفايات المحروقة المتخلّفة من البواخر مواداً رخيصة وملائمة لإنشاء الطرق، لذا فإنها تُستخدم لهذا الغرض، ومن المُؤكّد أنّ محذلتين بخاريتين لرصف طرق جيدة وفقاً للمواصفات المطلوبة، أما الدراجات النارية رمز السرعة والإستعجال فتُشاهد باستمرار في شوارع العشار وطريق الساحل، كما اعتاد المواطن العربي على ركوب الدراجة الهوائية، وكم كان مُسلياً أن تُشاهد عربياً طويلاً القامة، راكباً فوق دراجته الهوائية وقد لَفَّ ثوبه الفضفاض الواسع حول وسطه، ويضع نِعْالاً في رجله، وهو يدوس على دراجته الهوائية، وقد علّقت عند الأطراف لافتات تحمل أسماء الشوارع والمناطق مكتوبة بالحروف اللاتينية والعربية، وبعض هذه الأسماء تُفصح على نحوٍ واضح بأكثر من أي شيء آخر عن هويتها البريطانية، فعلى سبيل المثال يُوجد «شارع الحاكم» و«شارع الإمبراطور» و«شارع اكسفورد» و«شارع جيبور» و«الكنيسة» و«زاوية هايد بارك»،

أما العلائم الأخرى فلا تُفصح عن المتغيرات الجديدة، ويُوجد هناك نادياً وملعباً للتدريب الرياضي.

وكما سبق أن ذكرت تُوجد هنا أيضاً «جمعية الشبان المسيحيين»، ولم يُشيد بعد في هذه الناحية أيُّ بناءٍ على شكل كنيسة خاصّة بالقدّيس الشفيح لإنكلترا أو أي قديس آخر ذي منزلة ماثلة إلا أن مثل هذا البناء - وإن لم يكن قائماً أثناء زيارتي الأخيرة - سوف يُشيد حتماً هناك قبل مضي فترةٍ طويلة من الزمن، ويوجد في «مكينة» الواقعة ناحية «مرجيل» مضمارٌ لسباق الخيل تُقام فيه المنافسات طبقاً لقواعد وأنظمة نادي مضمار الخيل الهندي الغربي، وبه آلتين حاسبتين للمراهنات المشتركة، وجميع المرافق الضرورية لمضمار السباق التي تجعل من تربية الحصان عملية مربحة وتهذيبية، من حيث إعطاء دروس عملية في الأخلاق الشعبية، ويُعتبر القس والفارس المحترف شخصين يمثلان مؤسستين إنكليزيتين عريقتين تعملان معاً على إبراز الهوية البريطانية، وتُعتبر أيام السباق أعراف راسخة يُقدِّرها ويُجلِّها الناس كأيام العطل الرسمية، حيث يتدفق الناس خلالها من جميع أنحاء البصرة والعشّار والمُحمّرة وعبّادان والأماكن الأخرى المجاورة إلى «مكينة» التي يُوجد فيها مضمار السباق، وذلك للمشاركة في هذه الرياضة التي يولع بها الملوك، وفي كلِّ مكان يصل إليه الحكم البريطاني تُحاط بالهيبة البريطانية - ذلك البعع أو الشبح المخيف الذي يمكنك أن تُسمِّيه كما تشاء - هالة من القدسية وهذا ما هو حادث الآن في البصرة، فقد صدرت أوامر مُشدّدة يجري تطبيقها حالياً بصرامة وتقضي بإعطاء حق الصدارة وأولوية السبق للأوروبي جندياً كان أم مدنياً، تابعاً أم متبوعاً، رئيساً أم مرؤساً وذلك من قبل أهالي

٣٦٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةٍ أجنبيّة

البلاد الأصليين سواء أكانوا من عليّة القوم أو من أدناهم وأصبحت «التوبية» أو خوذة الفلين رمزاً بارزاً للسيطرة الأجنبية وشعاراً للتسلط والجهروت وإذا أراد إثنان أو ثلاثة من البريطانيين أن يسيروا جنباً إلى جنب - كما يفعلون عادةً - في الأزقة الضيقة فيتوجب على العربي أو أي شخصٍ آخر من الأهالي والغرباء أن يتخلّى عن الطريق ويلزم جانب الجدار، وإذا جاء بعض هؤلاء الأكابر في عربةٍ يجرها حصان وجاءت في الجهة المقابلة عربة أخرى مُحمّلة ببعض الرجال من الأهالي فعلى العربة الأخيرة أن تتوقّف وتفسح الطريق لمرور هؤلاء «الأصحاب» الأجلّاء لكي يمروا أولاً. وعند طرفي الجسر الموصّل بين شمال وجنوب العشار يقف الجنود حُرّاساً لمنع الأهالي من استخدام الممر الرئيسي أو الأوسط العريض حينما يعبر أو على وشك العبور فيه «صاحب» أوروبي ذلك الكيان الرفيع المتعالي، وعلى الأهالي أصحاب البلاد الأصليين ومالكها السابقين أن يترثّوا ويزدحموا في الشريط الضيّق لمر المشاة الخشبي على كلا جانبي الجسر حتى يجتازه «الصاحب» الأوروبي - أي شخص إنكلو - هنديا وهو يختال في مشيته المتروية، ويتوجّب على حوذي صاحب عربة الحصان والنوتي صاحب قارب «البلم» تحت طائلة العقاب أن يمنحا أولوية الركوب لمثل هذا المُستأجر الأوروبي حتى وإن كانت مركبته يحتلها راكبٌ محلي من أبناء البلاد، وقد أوصى السيد «سوين» في كتاب صدر حديثاً - حَظيَ بإطراءٍ مبالغ فيه من قبل أحد النقاد المتملقين - باستخدام العنف كوسيلةٍ ضرورية ومشروعة لإرغام النوتي صاحب «البلم» وأمثاله على الإلتزام بالنظام إذا بدّر منه أيُّ تصرف (وفقاً لتصور الأوروبي) مخلٍ بالإحترام والآداب أو طالب بأجره أكثر، ويستشهد المؤلف مُعرباً عن

استحسانه بحادثة قيام قسيس بجلد أحد الأهالي بالسوط وقيام ضابط روسي بإلقاء آخر في الشط إرضاءً لنزوة وهمية في الإستخفاف بالآخرين وازدراءهم وإذلالهم حيث يعتقد الغربي المتكبر أنه من اللائق ممارستها، ومن المؤكد أن القس قد نسي تعاليم سيده المسيح كما نسي الروسي أنه لا يعدو كونه قوقازياً، فضلاً عن ذلك فإن هذا المؤلف الإنكليزي يُوصي باتباع هذه الأمثلة من التواضع المسيحي باعتبارها جديرة بالتقليد، ويظنّ هذا الإنكليزي - حسب رأيه الشخصي - أنّ الإدمان على الكحول في بلد مثل بلاد الرافدين «يضيفي صفة إنسانية بالفعل» على المدمن، ويُشدّد على التمسك بهذه النصيحة الرامية إلى الوصول إلى مراتب الكمال قائلاً: إنه إذا حرّمها النبي «فيجدر التنويه بأنه أباح أشياء أخرى»، يجري تعاطيها بكثرة في أقاليمنا الجديدة الواقعة على الشط بطريقة لا تظهر بالطبع على السطح.

إنّ هذه الشراسة التي تحدّث عنها المؤلف السالف الذكر بطريقة سطحية يعوزها التفكير وتفتقر إلى المنطق وأوصى بحماقة خرقاء باتباعها والأخذ بها قد أبرزها على نحو بارع رسم هزلي ظهر مؤخراً في عدد من جريدة «بصرة تايمز»، يُمثّل ضابطاً أو موظفاً بريطانياً يرتدي قميصاً طويل الأكمام، يتظاهر بمخاطبة خادمه الهندوسي باللهجة العامية الدارجة وإساءة فهم الجواب، فيرفس الخادم التعس بعنف ويُلقيه خارج الغرفة، وقد يكون هذا عرضاً هزلياً للبسالة والهيبة البريطانيّتين، إلّا أنه يعكس العواقب المأساوية التي تؤدي إليها مثل هذه الممارسات، وكان عنوان هذا الرسم الهزلي الظريف «المطرود» وإذا لم يُراعَ القادمون الجدد عواقب أمورهم فإنّ هذا الأمر قد يؤدي جدياً إلى طردهم من البلاد، إذ من غير المتوقّع أن يعاني العربي طويلاً كما يعاني

الهندي منذ أمِدٍ طويل، على أية حال كُلُّ ما يمكنني ويمكن للآخرين الذين يولون هذا الأمر تفكيراً صائباً أن نقول إنه كُلُّما تم الإسراع في عدم تشجيع هذه الأساليب وغيرها من الأساليب الروتينية الجامدة المماثلة والتصرفات الغربية الرامية إلى فرض الإحترام والهيبية كُلُّما كان ذلك أفضل للسلام والرخاء في هذه الأقاليم الجديدة التي إضافتها مصائر الحرب بصفةٍ دائمة -دعنا نأمل ذلك- إلى الإمبراطورية البريطانية، فالحكُم البريطاني كفيلاً بنشر السلام والأمن والرخاء في ربوع هذا البلد العربي، فالمواطن من أبناء هذه البلاد مُستعدٌ من جانبه للقبول بالسلطة الجديدة ويعود للبريطاني ليُقرر بنفسه فيما إذا كان يستحقُّ الأمر ذلك العناء من أجل جعل هذه السُلطة مقبولةً لذلك المواطن حينما تُثار مسألة تقرير المصير بعد إنتهاء الحرب، إنَّ المفهوم السائد قبل الحرب وفي الوقت الحاضر عن التفوق العرقي وما يتميز به من صلافةٍ وغطرسةٍ ينطوي على مخاطرٍ ومساوئٍ كبيرة، ومن الأفضل نبذه والإقلاع عنه وإهالة التراب عليه.

### يوم إجازة في العشار

منذ أن وقعت البصرة في أيدي البريطانيين والمجوس الزرادشتيون مثلهم مثل التجار يقتفون أثر العَلَم الخفّاق، فقد سافر العديد منهم إلى هناك وسكنوا في هذه المدينة وبالأخص في العشار، حيث يمارس الكثير منهم العمل التجاري ولديهم معاملات تجارية عديدة أتاحتها لهم إلى حدٍ بعيد الحرب الجارية بمطالبها الملحة المُستعجلة المتواصلة، وقد غَدَت هذه الأعمال التجارية مُربحة -إذا صدقت

الشائعات- نتيجة التعامل بالرشوة وهو أسلوبٌ نفعي غير شريف إلا أنه يُنظر إليه كضرورةٍ وكحافز مشروع في العمل التجاري، والفُرس الذين يطلقون عليها «مدخل» يعتبرون مهرة بارعين في ممارستها، ويُقال إنَّ الشاه ظلَّ الله في الأرض «يستوجب استيفائها كُلِّها أسبغَ عفوه على أحد المتهمين أو مَنَحَ لقباً لأحد أصفيائه المُقربين»، أما المجوس الآخريين فيعلمون في الوظائف الحكومية وغيرها من الوظائف، وقد دعانا صديقٌ منهم يعيش في العشار برفقة آخريين من أبناء ملته لتمضية يوماً واحداً على الشاطيء وقد سُررنا بهذه الدعوه الكريمة التي توعد بقضاء نزهة جميلة، فقد كان الطقس مثالياً لقضاء إجازة مُمتعة، وقد أبحرنا في الشط على متن قاربٍ جميل من قوارب «البلم» ورسونا قرب «بيت وكيل» الذي يُستخدَم كمكتب للأعمال الحربية، فهنا تُوجد مباني إدارة المواصلات، والإدارة العسكرية المختصة بالأرزاق ولوازم الجيش، وإدارة الشحن والملاحة، ويُشاهد هنا المُجنَّد الهندي والجندي والضابط وضابط الصف والنفير، والمفتش، ومساعد المفتش، والخدام العسكري، والحَمال، وسائق عربة النقل، وسائس البغال، وهم يتحركون جيئةً وذهاباً ببذلاتهم العسكرية السمراء المُغبرة اللون أو ستراتهم الكاكية، وبأحذيتهم الطويلة السيقان، وشاراتهم، وأحزمتهم، وأشرطتهم، وأسلحتهم الجانبية التي يضعونها إلى جنبِ خصورهم، وهم يتألَقون بأعدادٍ هائلة من الأزرة النحاسية الصفراء المميّزة، والقُبعات والحُوذ النظامية المألوفة، وتدل حركة العربات الخفيفة التي تجرها الأبقار التابعة للإدارة العسكرية المُختصّة بالأرزاق ولوازم الجيش، وخيول الضباط، والبغال، وعربات السكة الحديد الضيقة على ضراوة الحرب وشدة المعارك الدائرة، وتضيف الشيء الكثير إلى الصخب

٣٦٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

السائد هناك، وبعد عبور الجدول الكبير نزلنا على سُلّم الجمارك حيث وجدنا هناك مشاهدَ مختلفة تماماً عن سابقتها وهي تدل على أنشطة التجارة والمُتاجرة والأطوار المتحرّكة للحياة في البصرة، وقد اجتاح الشاطيء الأيمن هنا حشدٌ هائلٌ من مراكب «الدهو» والصنادل وسُفن (البغلة) العميقة القعر المحمّلة بالبضائع وهي تمرُّ على نحوٍ متواصل دون انقطاع، كما كانت صدور بعض مراكب «الدهو» المرتفعة فوق سطح الماء مُزخرَفة على نحوٍ بديع بالألوان الفاقعة الزاهية، فيما بدا المستوردون والبحّارة وهم منهكون في تفرّغ وتدوين ونقل وتكديس الحمولة المُستوردة وسط لغطٍ شديد وثرثرة كبيرة، ولكن دون أية عجلة مُفرطة أو تبديد للطاقات، ويعتبر صدر النهار وهو الوقت الممتد من الصباح الباكر حتى الظهرية أكثر الأوقات ازدحاماً بالعمل، وبعد اجتياز الأرصفة سُرنا في طريقٍ طويل غير مُمهّد أو الممر الذي تقام على كلا جانبيه سوق العشار المليئة بالمحاصيل المحلية والسلع الأخرى، وليس هناك الشيء الكثير الذي يمكن أن يُقال عن هذا السوق إلا أنه مُتمتّع على أية حال، ويتصل هذا الطريق بالشارع الرئيسي العام - كما أطلقت عليه هذا الاسم - السالف الذكر وإلى جانبه الآخر يقع حي التجار العرب بأزقته الضيّقة الملتوية، وقد زُرنا هنا مكتب السيد «عبد الجبار» وهو تاجرٌ عربي واسع الثراء، لديه أعمال تجارية واسعة في البصرة، ويتعامل مع بومباي وبغداد وأماكن أخرى، وهو وكيل شركة الخليج للملاحة، وبما أنه كان في السابق من رعايا تركيا فقد كان عرضةً للتجنيد الإجباري، وكان يقيم في بغداد حينها دخلت تركيا الحرب إلا أنه تمكّن من الفرار إلى البصرة في الوقت نفسه، وإذا استعاد الأتراك سيطرتهم السابقة على هذه الأنحاء فسيكون عرضةً لتنفيذ حكم



الإعدام فيه، وهو في نفس الوقت مُراقب من قبل دائرة المباحث الجنائية العسكرية التي تضع عينها اليقظة عليه باستمرار، بسبب سوابقه فهذا الرجل المسكين أشبه بالسماك الطائر المحاصر بين سمك القرش وعقاب البحر، وهو يملك عقارات كثيرة من بيوتٍ وأراضٍ وَيَتَمَتَّعُ بنفوذٍ واسع، وهو يستحق بالفعل معاملةً حَسَنَةً تُليقُ به وقد استقبلنا بطريقةٍ وديةٍ ودمثةٍ للغاية، وهو رجلٌ متوسط العمر، قصيرُ القامة وبدين، وحَسُنُ المظهر ولَطِيفُ المعشر، ويشتهر بكونه رجل أعمالٍ قدير وذكي، وقد هطل مطرٌ خفيفٍ وبَلَلُ المدخل والفناء الداخلي والسُّلَمُ المؤدي إلى مكتبه مما جعل المكان مُوحِلاً وَرَلَقاً، وأضفى عليه مظهراً يوحي بأنه لم يُكنس أو ينظف لمد أسبوعٍ أو أكثر.

فالأبواب والنوافذ والجدران والأرضيات كانت في حاجةٍ ماسّةٍ لتنظيفٍ شاملٍ، وكان علينا أن نتلمّس طريقنا أثناء الصعود، وكان المكتب مُزوّداً بالأثاث الحديث إلا أنه أعد واستخدم كما يبدو وفقاً للطريقة العربية، ويحتوي على منضدةٍ مستديرة الشكل، وكُرسي دوار، ومقعدين وثيرين بهتَ لونها من كثرة الإستعمال، كما أسندت إلى جانب الجدار بعض الكراسي الطويلة ذات مساند صلبة وهي من صُنْعٍ عربيٍّ مُميز، جميع زواياها، قائمة ومقاعدُها خشنة كالتّي يَطْلُقُ عليها الفارسي وصف «خادشة الكفل» كما تُوجد ساعةٌ كبيرةٌ لكنها متوقّفة ومؤشر التاريخ فيها يشير إلى ٣٠ نوفمبر بالرغم من أن التاريخ الجاري كان أسبوع عيد الميلاد، وتتناثر فوق الأرضية أعقابُ السجائر والرماد والأوراق المهملّة، فكلُّ شيء يبدو قَدِراً هناك إلا أنّ القذارة والوساخة تُعتبران من الصفات الفطرية أو البساطة المتأصّلة للحياة والميول العربية

٣٦٨ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

المحافظة التي تَنَجَّبَ الإفراط في الأناقة وتتحاشى كُلَّ مستلزمات الصحة والنظافة، والتي قد يُبررها ويستحسنها الرواقيون<sup>(١)</sup> ومن المفيد الاستماع إلى آراء السيد (عبد الجبار) حول ما شاع في البصرة من نتائج الحرب، إذا كان راغباً في الإدلاء بآرائه حول هذا الموضوع، وجاء إلى المكتب بعض العرب والفُرس، وشربوا القهوة ودَخَّنوا الغليون أو النارجيلة، أو دَخَّنوا السيجار، وأجروا معاملاتهم التجارية وخرجوا، لم يَتَحَدَّثَ السيد (عبد الجبار) معنا طيلة هذه المدة واستمر مُنْهَمِكاً في أداء عمله، يُوقَّع الأوراق ويُصدر الأوامر إلى موظفيه أشبه بقيصر آخر ولكن بصورة مُصَغَّرَة وهو يُدخن سلسلة متواصلة من السجائر الجاهزة الإستعمال، وبعد تناول القهوة قُمنا (بانسحابٍ تكتيكي) وقد إلتقينا هنا مع مضيفنا لذلك اليوم حيث قُمنا معه بالتجول في الشوارع المؤدية إلى «مرجيل» و«الزبير» ونديرُ أنظارنا في هذه أو تلك الجهة مستطلعين الأحوال بوجهٍ عام، وقُمنا بجولةٍ استطلاعية شاملة في البصرة القديمة، إنَّ التنوع في الوجوه والأشكال والأزياء بين أهالي البصرة جعل الحياة في الشارع مليئة بالمتعة والتشويق بالرغم من أن غياب الجنس اللطيف قد أضفى عليه طابع الرتابة، وتشاهد القلائل من النسوة اللاتي ينتمين على الأرجح إلى الفئات الإجتماعية الفقيرة وهُنَّ متحجبات من قمة رؤوسهن إلى أخمص أقدامهن «بالشادور» الداكن المُعْتَم أو

---

(١) أتباع المذهب الفلسفي الرواقي الذي أنشأه الفيلسوف الإغريقي زينون (نحو ٣٣٥ - نحو ٢٦٤ ق.م) المولود في جزيرة قبرص، ويقوم على أساس التثقيف والصبر على البلوى والألم وتحمل الشدائد وشطف العيش وعدم المبالاة باللذة.

المصبوغ باللون الأزرق النيلي، وبالبراقع الكريهة البشعة المظهر، بالرغم من أنها تدلُّ على الحِشمة الشديدة، حتى النسوة المسيحيات أو الأرمنيات يُخرُجنَ بصورةٍ مماثلة لمعظم النسوة هنا، ويتميزون عن غيرهن من النسوة بكونهن يرتدين على نحوٍ أنيق الأحذية والجوارب المصنوعة في باريس أو فينا، كما يَتميزن بحركتهن التي تتسم بالخفَّة والحوية، أما الغانيات القلائل التي إلتقينا بهن بالصدفة هنا وهناك على هيئة مجموعات متجمهرة بالإثنين وبالثلث فتضيفن على المشهد لوناً وإثارة، فهذه الفئة من النساء المتبهجات، والمُلطَّحات بأحمر الشفاه، والمتباهيات بملابسهن الفاخرة الزاهية المتعددة الألوان، والمثقلَّة رقابهن من الحلي والمجوهرات الرخيصة والمُبهرجة، والمُزيَّنة عيونهن بالكحل، والمُزخرَفة وجوهن بالشامات الجميلة البارزة التي يمكن اكتشافها بسهولة، ومما لا شكَّ فيه أنَّ هؤلاء النسوة يتشابهن كثيراً مع تلك المرأة التي حدَّرَ منها سليمان الحكيم في قوله «خبِيثَةُ القلب، صحَّابة لاهية وجاحمة، في بيتها لا تستقر قدمها، تارةً في الخارج وأخرى في الشوارع، وعند كُلِّ زاوية تكمن» (١) وهذا يثبت أنَّ الطبيعة البشرية واحدة ومتشابهة في كُلِّ العصور وفي كُلِّ مناخ وفي كل ظرف مهماً طال الزمن بهذه الدنيا، وقد لاحظتُ أثناء تجوالنا في الطريق أن عدداً كبيراً من المشاة من عرب ويهود وجنود ومُجنَّدين وموظفي الإدارة العسكرية المُختصَّة بالأرزاق ولوازم الجيش وغيرهم كانوا يضعون ساعات في معاصم أيديهم، وقد إنجلي هذا الغموض حينما وجدتُ تاجراً صغيراً من بومباي قد جاء إلى البصرة في الأيام الأخيرة

---

(١) في الإصحاح السابع من سفر الأمثال بالعهد القديم من الكتاب المقدس.

٣٧٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةٍ أجنبيّة

ومعه حمولة من ساعات اليد المعدنية يصل سعر الواحدة منها ما بين ٢ - ٨ ربيات متوقّعاً مكسباً وربحاً كبيراً من وراء ذلك، وقد حازت هذه الساعات على إعجاب الناس في البصرة فباع الساعة الواحدة منها بسعر ٩ روبيات وأكثر من ذلك بقليل، فهذه المغامرة الجريئة تستحق تلك الربحية الكبيرة العائدة منها، إلى درجةٍ أنّ كلّ واحدٍ من بين ثلاثة من عابري السبيل الذين تقابلهم في العشار قد أصبح يمتلك ساعة يد وأخذ يتعلّم قيمة الوقت.

وقد قيل لي إنه يُوجد من بين أصحاب الدكاكين الصغيرة الجديدة في البصرة حوالي خمس وعشرون ساعاتياً، لديهم في الوقت الحاضر أعمالاً تجارية رائجة، وقد شاهدتُ هنا في البصرة أيضاً كما هو الحال في المنامة الأولاد من مختلف الأعمار يتدافعون في الشوارع وحول الزوايا دون أي اكتراث بحركة السير، وهم يلعبون لعبةً خارجية يبدو أنهم مُولعون بها وهي لعبة الخدروف، فالفتيان الذي يُفْلِحون في جعل دواماتهم أو حلزوناتهم البحرية تدور أطول مُدة مُمكنة عن طريق ضربها بالسياط يُعتَبرون أبطال هذه اللعبة، كذلك المتفرجين يُظهِرون ولعاً شديداً بهذه اللعبة، وفي الساعة الواحدة ظهراً وصلنا إلى منزل صديقنا حيث سُعدنا كثيراً بمقابلة العديد من المجوس المُقيمين في البصرة الذين تلقّوا دعوةً لمقابلتنا هناك، ووجدناهم مجموعةً في غاية اللطف والمرح والقناعة والرضا، فقد كانت رفقة مُمتعةً ظريفة حيث تناقشنا وتحدّثنا معهم عن الأحوال والسياسة في البصرة وحاضر ومستقبل المجوس الموجودين الآن في الأقاليم الجديدة الواقعة في حوزة البريطانيين، ومن ضمن المعلومات الأخرى التي حصلنا عليها فقد قيلَ لنا إنّ مجوس البصرة قد جمعوا تبرعاتٍ

مالية من أجل شراء وتعهّد مقبرة خاصّة بهم تقع خارج العشار، وقد حصلوا عليها مع شيء من الصعوبة عبر المساعي الحميدة التي بذلها أحد العسكريين برتبة مقدم، وإنما دعاهم للقيام بمثل هذا العمل الطيّب هو وفاة أول مجوسي في البصرة إذ كان هذا الرجل يعمل وحيداً في بعض الأعمال في مكانٍ بعيد حين وافته المنية، وقد دفنه تابعيه العرب دون أية طقوس دينية زرادشتية متعارفٌ عليها وذلك في بقعة نائية مقفرة، وقد ترسّبت أنباء هذه الفاجعة إلى المجوس وبقيت عالقة في أذهانهم وجرحت مشاعرهم الدينية، وقد سعوا فوراً من أجل الحصول على مقبرةٍ مجوسية «سونابور» (دار السبات) أو «خمولستان» (دار النسيان) كما حصلوا على تصريحٍ بنش القبر، وتوجّهوا إلى هناك في هيئة مجموعةٍ صغيرة، وبعد مشقةٍ كبيرة اكتشفوا تلك البقعة الموحّشة المنعزلة، وتيقّنوا من هوية الجثّة بحال «السيرجون مورز»<sup>(١)</sup> «خفية في جوف الليل البهيم على ضوء قنديلٍ خافت» ولا شكَّ أنّ تلاوة الصلوات كانت قليلة وقصيرة من قبل المجموعة التي قامت بالدفن إذ إبتاهم طيلة تلك المدة رعشة الموت، خشية من غارةٍ يشنّها عليهم المتعصبون كهنوتياً، وإذا ما كان في تلك المناسبة الجنائزية الحزينة أي «ضوء مُعتمٍ نافذ من قمرٍ متوارٍ وراء الضباب»، كما قال أحد الكهنة الأفاضل في قصيدته الخالدة، فإنّ الشهود لم يذكروا شيئاً من هذا القبيل وقد فاتني الإستفسار عن ذلك، على أية حال لقد أدّى المجوس المقيمون في البصرة واجبههم الديني بشجاعةٍ فائقة وليكن واضحاً أنّ الجثمان الذي نُقِلَ إلى الموقع الجديد المُخصّص للدفن هو

(١) تعقيب: جون مورز (١٧٢٩-١٨٠٢) طبيب ورخّالة وروائي اسكتلندي.

٣٧٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

جثمان أخيهم الزرادشتي المتوفى، فقد تدخّلوا في الوقت المناسب بأداء الطقوس وتلاوة التراتيل الدينية لإنقاذ روحه قبل أن يسلبها «داروغناشا» الرهيب الذي يفزع منه المجوس، ويستحق المجوس المقيمون في البصرة الذين تصرّفوا تصرفاً دينياً مشرفاً التقدير العالي والثناء الجزيل على ذلك، ومن المؤمل أن يسهم أبناء ملّتهم في بومباي بسخاءٍ في دعم صندوق التبرعات السالف ذكرها.

وبعد أن تناولنا الطعام اللذيذ الذي أُعدّ وفقاً للطريقة المجوسية في الطبخ، والذي تكرّم مضيفنا بسخاءٍ بالغٍ بتوفيره، وأعدّه طبّاحٌ قادمٌ من مدينة «سورت» الهندية استعاره من جارٍ له، وهو طبّاحٌ ماهرٌ في مجال اختصاصه، وقد أعدّ الطعام إلى حدٍ يصل إلى درجة الكمال، أمضينا بقية يومنا مع مضيفنا وبعض الأصدقاء الذين كانوا برفقتنا في نُزهةٍ جميلةٍ ممتعةٍ إلى «مرجيل» على متن الزورق البخاري الذي تكرّم السيد «عبد الجبار» ووضّعه تحت تصرفنا، وقد استمتعنا جداً بتلك النُزهة السارّة.

وكان الشط الكبير نابضاً بالحياة مليئاً بكافة أنواع القوارب والسفن والبواخر التي تخطر على البال، حيث تُعرض فيه نماذج متنوعة من السفن مُستَمدة من مراحل تاريخية عديدة تمتد من الأزمنة الغابرة حتى العصر الحديث، فيُشكّل بذلك متحفاً بحرياً متكاملًا، وكان زورقنا البخاري تحت إشراف مهندس عربي ورجل آخر كان يعمل فيه بصفته وقاداً إلا أن الزورق كان قديماً ومُستعملاً وفي حالةٍ يرثى لها من طول الخدمة، وبالرغم من أنه كان على وشك الانفجار في أية لحظةٍ إلا أنه قطعَ الرحلة دون أية متاعب تُذكر باستثناء عطلٍ واحدٍ أصابه وسط النهر، وذلك حينما إنخلعت منه

دفة القيادة، إلا أن الطريقة التي تم بها إصلاح هذا العطل كانت في منتهى الجرأة والجسارة وذلك بواسطة الوقاد الذي إنحنى فوق الحاجز الخلفي المنخفض للزورق وغمَرَ رأسه في الماء، بينما أمسكه المهندس من رسغي قدميه، ليقوم بإصلاح الدفة وكُلُّ شيء إنخلع من مكانه وتسبب في حدوث ذلك العطل، وقد تمتَّ هذه العملية الجريئة بينما كُنَّا نفكر في استدعاء زورق قطر يقوم بجر زورقنا وإرجاعنا من حيث أتينا وقد عدنا إلى باخرتنا (زياني) في الوقت المناسب لتناول العشاء، بعد أن استمتعنا تماماً بنزهتنا في ذلك اليوم بفضل أصدقائنا الطيبين في البصرة.

### الحياة على ضفاف شط العرب

تعتبر الحياة على ضفاف شط العرب الواسع المتدفق الرقراق، كما هي عليه الآن في عام ١٩١٧م حياة حافلة بالتنوعات الدائمة وناضجة بالحركة الدائبة المستمرة وذلك «من الصباح إلى الظهرية ومن الظهرية إلى المساء الندي»، وفي الصباح الباكر قبل أن ترتفع الشمس في الأفق يمتلئ الشط بالقوارب الصغيرة التي تنساب بخفة ورشاقة فوق صفحة الماء نتيجة قيام النساء الفلاحات والفتيات والأولاد بتجديفها أو تسييرها بالعصي الطويلة، فهؤلاء النسوة اللاتي يفصح منظرهن عن سداجتهم لا يسترن وجوههن ولا يقتضي الحال منهن أن يفعلن ذلك، وتأتي هذه النسوة إلى العشار والبصرة من أعلى وأدنى الشط، ويحملن معهن الحليب ومنتوجات الألبان الأخرى، والدواجن، والخضراوات، والفاكهة، والوقود حيث يبعنها هناك، ويربحن منها ربحاً طيباً، وهن فئة جريئة، مرحة، بشوشة ضاحكة، ويجدن من بين الجنود البريطانيين

٣٧٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةٍ أجنبيّة

والبخّارة والخدم والعسكريين مَنْ هم على إستعداد لشراء مالديهن من منتجاتٍ ولسع، وتُشاهد قوارب «الأبلام» من مختلف الأحجام وهي تجوب مياه شط العرب في حركةٍ دائبة من جدولٍ إلى آخر أو من وإلى المحمّرة وفي أعالي الشط، وهي محمّلة بالرجال المتوجّهين إلى أعمالهم، والركاب العابرين من مكانٍ إلى آخر، والضباط والجنود المرسلين وهم ينقلون رسائل الحرب الشفهية في حالة شديدة من الإستعجال، وهي عادةً لم يألّفها النوتي صاحب (البلم)، وتُوجد خدمة منتظمة لنقل الركاب بالزوارق البخارية في الشط إلاّ أنّ مثل هذه الخدمة وإن لم تتوافر حالياً فلا بد لها أن تجد طريقها هنا يوماً ما، وتُحلّ محلّ قارب «البلم» البطيء ومركب «اللغر» المُرهب، وغالباً ما تُشاهد المراكب النهرية الكبيرة المثقّلة بالحمولة وهي تُبحر ببطءٍ مُتّجهة نحو الجنوب، أو يجرى قطرها نحو أعلى النهر بطريقةٍ مُضنية تتطلّب الكثير من الجهد والعناء، ويُشاهد أحياناً زورقٌ بخاري وهو يقوم بقطر هذه المراكب التقليدية القديمة، وهو مَشهدٌ مألوف في هذا النهر العريق، كما تُمثّل الطريقة المحليّة لقطر المراكب التي يؤديها فريقٌ من البخّارة على إمتداد ممر القطر فوق ضفة النهر اليسرى حدّثاً فريداً ومُثيراً في نظر الزائر الغريب، إذ يشترك بعض البخّارة بالتناوب في جر المركب، ويُمسكون أطراف الحبال، ويسيرون على حافة الضفة بالذلين جهداً وعناءً شديدين بطريقةٍ تجعل عملية جر المركب في الماء تسير سيراً حسناً هادئاً، أما حبل الجر الرئيسي فيتم توصيل طرفيه في أعلى السارية الطويلة الوحيدة، وتمنح هذه الطريقة للقارب وضعاً متوازناً في النهر، وتحول دون تعرّضه للميلان أو الإنحراف أو الإرتطام بالضفاف، ويُشاهد أحياناً صياد منفرد بصيد السمك بسنّارته وهو واقفٌ أو



خائض في الماء إلى عمقٍ خاصته، وهو منظرٌ يُوحى بالهدوء والسكينة وهي «الصفات التي يتَّصف بها جميع أقرانه» منذ أن بدأ العالم يتعلَّم صيد الأسماك.

كما تُشاهد القوارب المُسطَّحة القاع المنخفضة وهي طافيةٌ باسترخاء فوق سطح الماء، ومُتلفة بأكوامٍ من القصب النهري والأعشاب الطويلة التي تنمو بمحاذاة الضفاف والمُستخدمة كثيراً في بناء الأكواخ الشعبية والسقائف، وحتى في صنع الأطواف عند الضرورة، بينما يجلس رجل الأهوار نصف العاري، أو جامع القصب مترخياً في مؤخرة القارب، حيث لا يكسب سوى رزقاً ضئيلاً من وراء ذلك، لقد غيرت المعركة الفاصلة الدائرة رحاها الآن من طبيعة الأمور، إذ يسود على إمتداد ثمانية أميال أو أكثر من واجهة العشار النهرية نشاطٌ محمودٌ وحركةٌ دؤوبة متصلة لا تنقطع ولذلك ساد فيه من قبل السكون والخمول والصمت الرهيب الشبيه بصمت القبور، ففي أثناء وجودي هناك كنتُ أحسبُ بين الفنية والأخرى أكثرَ من ثلاثين باخرة كبيرة راسية في آن واحد بالشط في طابورٍ طويل، ولا يمرُّ يوم دون أن يغادر بعضٌ منها الشط وتزدحم بواخرٌ أخرى فيه، فالحركة في الشط دائبةٌ دائمةٌ والصخب متواصلٌ على نحوٍ لا ينقطع، إذ تُوجد هناك السفنُ الناقلة للجنود، والسفنُ الناقلة للمعدات العسكرية، والسفنُ المستشفيات، وسفن الرصد والمراقبة، والبوارج الحربية، والرافعات التغديف، وبواخر التغديف المنخفضة، ومراكب الإنزال الحديدية الضخمة، والرافعات العملاقة الطافية فوق سطح الماء وكاسحات الوحل البخارية، دون احتساب المراكب النهرية التقليدية الصغيرة المتنوعة، فالعملُ يجري على قَدَمٍ وساقٍ هناك، ويسير بخطىٍ حثيثةٍ مُنتظمةٍ لا تكل ولا تتعب، ويبعث في تلك الربوع

٣٧٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

صحوةً لم يعهد لها سكان الشط من أهل المدن أو القرى أو يعرفونها منذ عهد الخلفاء العظام، ويُقال إن أكثر من ثلاثة آلاف رجل من العُمال والصُنّاع المهنيين يعملون هنا يومياً في بناء عددٍ كبير من مشاريع الأشغال العامة التي تُوحى فيما يبدو بالسيطرة الدائمة، إنَّ الحركة الناجمة عن دخول وخروج البواخر والزوارق البخارية والقوارب الصغيرة في الشط، إضافة إلى دوي الآلات وأصوات الصفارات تُثير مياه النهر الصافي الرائق وتجعل أمواجه الصغيرة تتدافع من شاطيء إلى آخر.

وفي عصر أيام العُطل وبالأخص في الجو البارد يصبح الشط مليئاً بالحياة على نحوٍ إضافي حيث تخرج جموع المتنزهين في العديد من قوارب «الأبلام» الجميلة مُتجهين نحو العديد من بساتين الفاكهة والحدائق الغنّاء المنتشرة على ضفتي الشط كليهما وبالأخص قُرب المصبّات النهرية البديعة المنظر وإلى جوار بعض الجداول الواسعة مثل الخندق والبصرة وهي الأماكن التي يقصدها المشعوذون، وعازفو الموسيقى، والراقصون، والبقالون والباعة المتجولون في كلِّ نوعٍ وصنف، والبهالين الذين يؤدون الألعاب البهلوانية، وذلك من أجل تسلية المتنزهين، وغالباً ما تبدو ضفة النهر هذه الأيام مليئةً بالحيوية والبهجة نتيجة ارتياد أعدادٍ كبيرة من المتنزهين، لها مثل جماعات الممرضات الأوروبيات وأعضاء هيئة إدارة المستشفى، والضباط في أوقات فراغهم بأزيائهم العسكرية الجذّابة أو بملابسهم الميدانية حيث يخرج هؤلاء في الأمسيات أو في ضوء القمر الساطع في قوارب «الأبلام» وفي المراكب أو الزوارق البخارية لشم النسيم ولقضاء وقتٍ مُمتع في الهواء الطلق، يريحهم من عناء الحنين إلى الوطن ويُعينهم على تغيير الرتابة في نمط حياتهم التي تبدو شاقّة وعسيرة في مثل هذه

الأحوال المناخية الأجنبية القاسية، وفي شهور الحر تمتلئ ضيفنا الشط بنخيام البدو الرُّحَل الذين يأتون إلى هنا هرباً من حرارة الصحراء اللّاهبة، ويُجَمِّمون إلى جانب الماء البارد، مصطحبين معهم قطعان أغنامهم وخيولهم وجواميسهم، فيخلقون بذلك صورةً مختلفةً تماماً للحياة على ضفاف الشط، وتجري عندها الكثير من المُساومات وصفقات البيع والشراء والمقايضات، وفي شهر اكتوبر يطوي هؤلاء الزوار الأجلاف خيامهم ويخنفون بهدوءٍ كما جاءوا، مُتجهين نحو حقول ومراعي جديدة أو عاندين إلى أماكنهم السابقة، هذه أمثلةٌ من المشاهد النهرية التي يراها الزائر المُولع بالاستطلاع حينما يمشي ذهاباً وإياباً على سطح الباخرة أو يتجول على إحدى الضفتين، أما طيور النورس البحرية الجميلة فهي موجودةٌ دائماً هناك تلهو سباحةً في الماء أو طائرة في الهواء على هيئة أسراب وأعداد مختلفة، فتضيف المزيد من الحيوية والجمال إلى هذه المشاهد وحينما تشتد حِلْكة الظلام يسود السلام التام، وتُحظر حالياً أية حركة للبواخر بعد غروب الشمس، فهذا «السكون الكامل» - كما عبّر عنه ذات مرة الشاعر الإنكليزي الكبير «جون ملتون» - تمزقه أحياناً قارعات الطبول العربية القادمة من بعيد ورنين بعض الدفوف الساذجة المنبعثة من أفراح قرية نائية أو قرع قصير للأجراس على متن السفن والنقيق المفاجئ للصفادع وصدى عواء ذئبٍ يُعسّس خلسةً في جوف الليل البهيم، ومما لا شك فيه أنه عندما تدور عجلة الزمن وتستقر الأمور وتضع هذه الحرب الألمانية الملعونة أوزارها ويحمد شرُّها وتتوقّف إشعاعاتها، فسوف يشهد الشط لاحقاً سباقات للزوارق ومباريات للسباحة وغيرها من الألعاب الرياضية النهرية كالتى تجعل الغربيين يتحمّلون «أعباء الرجل الأبيض» بإتزان

٣٧٨ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

ورباطة جأش تحت سماء الشرق، ومهما اقتضت الضرورة (إن كان لها ثمة مبرر) من الناحية الدبلوماسية أن تُعاد بغداد للأتراك الذين تَلَطَّخت سمعتهم وفقدوا ماء وجههم فإنَّ الشط من القرنة إلى البحر يجب أن يبقى نهراً بريطانياً بالمعنى الكامل والشامل للكلمة، ويجب أن تبقى ولاية البصرة في حوزة البريطانيين، ويبقى المركز التجاري القديم للخلفاء الذي لا يجوز التصرف به في أية حالٍ من الأحوال جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية البريطانية، وهذا ما يجب أن يكون!

## آراء واستنتاجات

اقتربت رحلتي من نهايتها ولكن قبل الختام قد يكون من الملائم هنا أن أقدم مُلخّصاً عن الإنطباعات والاستنتاجات التي توصلت إليها، وإذا كانت الحروب كالحرب الرهيبة الدائرة رحاها الآن مليئةً دوماً بالأهوال والضحايا والخسائر والمحن والآلام فإنَّ لها تعويضاتها أيضاً، فقط إذا ارتقت الأمم والشعوب بمداركها ووعيتها وأحاسيسها إلى مستوى الأحداث وإنطلقت - حينها يعود السلام - إلى جادة الصواب، وإذا أُتيح لشعوب البلدان التي اجتاحتها الجيوش المعادية وضمَّن لها حقَّها في تقرير المصير، وفق خطةٍ جيدة وحرة وعادلة وفعَّالة للتسوية والحل، ففي رأيي أنه في ظل الإعداد الجيد والتنفيذ الحازم لمثل هذه الخُطة، فإنَّ العديد من الشعوب والدول سوف تتخلى من تلقاء نفسها وبطيب خاطر عن أسيادها القدامى ووضعيتها السابقة للحرب وتختار الأحوال الجديدة التي تُفضِّلها وتجدها أكثر ملاءمة لها. وعندما يحدث ذلك وهو أمرٌ لا بد منه، فلا يساورني أدنى شكَّ بأنَّ الرافدين والأراضي المجاورة لها

التي طردَ منها الأتراك سوف تعرب على الفور عن رغبتها في الحكم البريطاني، ويشكل العرب الأغلبية العظمى من سكان هذه الأراضي العريقة في القدم ومن الواضح أنَّ العربي صغيراً كان أم كبيراً قد سئمَ الآن العيش في ظل الحكم التركي أكثر من أي وقتٍ مضى، فهو يرى بأم عينه كيف تُحكَّم كافة أنحاء تركيا بأساليب الحديد والدم من قبل الهون المعاصرين الذي أخضعوها لهم، لقد تحلَّصت بلاد الحجاز الواسعة نهائياً من نير الحُكْم التركي، كما أن سوريا بأكملها وفلسطين تضميران العداة للأتراك على نحوٍ واضحٍ، وهما ترتقبان وتتلَّعان نحو حلول السلام الظافر وانتصار الديمقراطية التي ستسود حتماً، لكي تتخلَّيان عن الدولة التي قهرتها وافقرتها طويلاً بيدِ مُمسِكٍ قضيياً من حديدٍ ويدِ تمارس السلب والنهب، كما أن جميع البلدان العربية الواقعة على إمتداد الخليج العربي وخارجه تنوي وتعترم الإنضواء تحت السيطرة البريطانية، كذلك مصر بأكملها من مصبات نهرها الأزرق العظيم إلى منابعه النائية خاضعة الآن عملياً تحت السيطرة البريطانية، ولم تعد تخضع لخدوي تابع للسلطان العثماني، ولكنها خاضعة لسلطانها الخاص، المُستقل عن الباب العالي، تحت إمرة القيادة العليا لبريطانياً العظمى، أما أرمينيا التي أنقدها الروس من براثن العثمانيين فهي الآن في ثورةٍ عارمةٍ ضد عودة حُكَّامها السابقين الممقوتين، ولم تعد تعترف بمملكة (كما تُسمَّى) قبرص بسيادة السلطان العثماني عليها ولو بصورةٍ شكلية، فهي الآن بريطانية خالصة، وفي ظل هذه الظروف فقد أصبح من المُتعدِّد التفكير في احتمال إعادة بلاد الروافد الثلاثة العظام المتوقَّفة جميعها نحو الخليج العربي والتي انتزعت من تركيا بقوة السلاح البريطاني - الهندي وبُذلت من أجلها تضحياتٌ جسيمة إلى الدولة التي

٣٨٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةٍ أجنبيّة

أساءت استخدامها لقرونٍ عديدة واستغلّتها لأغراضها الأنانية وأهوائها الذاتية، وخسرتها أخيراً في معركةٍ ضارية خاضتها بنفسها، وحُسمَ فيها القتال على نحوٍ ملائمٍ وسيرتكب رجالُ الدولة البريطانيون أو بالأحرى قادة الإمبراطورية خطأً شنيعاً وإثمًا مُشيناً فاضحاً يستحقُّ الشجبَ والاستنكار إذا هم أذعنوا عن ضعفٍ لخدعةٍ دبلوماسيةٍ أو رضخوا لتهديدٍ أو أقاموا أيّ اعتبارٍ للحساسيات التركية، وسمحوا بأن تُقطَعَ من الإمبراطورية أيّ جزءٍ من بلاد الرافدين التي يحتفظون بها الآن نحو ثابتٍ ودائمٍ وفقاً لحقِّ اكتسبه دونَ شكٍ عن طريق الفتوحات العسكرية - ولكنه سيكون بالتأكيد «مُرتكزاً على قاعدةٍ شعبيةٍ عريضة» مما سيَتعدَّر عندها نقضه أو دحضه أو منازعته من قبل أية جهةٍ أو قوةٍ كانت ولا يَسْتحقُّ رجلُ أوروبا المريض الذي اعتلّت صحتهُ الآن أكثر من أي وقتٍ مضى أية معاملةٍ جديرةٍ بالإحترام، وتستحقُّ تركيا ما أصابها من تَفكُّكٍ وتمزقٍ نتيجة إذعانها للأوامر الألمانية وإفتقارها للنوايا الحسنة فهي خاضعةٌ قلباً وقالباً تحت وطأة أقدام أسيادها «الهون».

ومن المُتعدَّر إجراء أية اصلاحات في ظل الحكم التركي فلقد أثبتَ التركي المَرّة تلو الأخرى عن عجزه في تحقيق أيّ شكلٍ من أشكال الترقّي والنهوض سواء أكان خُلقياً أو سياسياً أو غير ذلك، وبالإمكان الإفتراض بأنَّ الإمبراطورية البريطانية سوف تكبر وتَسبَح في الشرق الأدنى عند ضم هذه الأقاليم الجديدة إليها، إلا أن المسائل الكبرى التي سوف تُثار حولها تتعلّق بأساليب ووسائل وطُرق تنظيم وإدارة هذه المكاسب الإقليمية الجديدة وذلك من أجل إثراء الإمبراطورية وتعزيز إزدهارها وزيادة قوتها ونشر محاسن وفضائل الحرية والنظام والحضارة في هذه البقاع الجديدة.

وتعتمد كل هذه الأمور بالطبع على براعةٍ وحيويةٍ، وقبل كل شيء على حنكةٍ، وولادة الإمبراطورية وعلى قدرتهم على التفكير وإنجاز العمل الصائب خدمةً للمصالح الحقيقية لشعوب هذه الأقاليم الجديدة التي وقعت مسؤوليتها الآن على عاتقهم، وهذا يعني إدخال حكومة حديدية في هذه البلاد تركز على أساس رحبة ومتحررة طبقاً لأفضل التقاليد البريطانية، حكومة تَمَحُّ كافة الحريات المشروعة، وتنال ثقة أبناء الشعب وتسعى للإرتقاء بها من خلال الوثوق بهم وتصون حرمة حقوقهم الأساسية الثابتة، وعاداتهم ومعتقداتهم، وإمтиازاتهم، كتلك التي لا تمس الأخلاق العامة ولا تُشكِّل خطورةً على الدولة، واضعة على رأس اهتماماتها نشر التعليم الحُر في جميع أنحاء البلاد، وتشجيع ومساندة المشاريع الصناعية، وترويج وتوسيع نطاق التجارة والمُتاجرة في جميع النواحي، فالعربي كما ذكرت من قبل شخصٌ حساس، نافذ البصيرة، وما دام لم يتعرَّض للاستفزاز والإثارة أو يشعُر بالمضايقة والإزعاج، فهو يُوعَد بأن يتحوَّل إلى مواطنٍ مطيع ومخلص ومفيد للإمبراطورية، ومن المُستبعد جداً أن يعاوده الحنين إلى الحكم التركي الذي فقد ماء وجهه الآن في كافة أنحاء العالم العربي، والعربي رجلٌ نزيه، مستقل التفكير وإن كان محافظاً نوعاً ما، وهو يختلف جداً عن التركي المُتعصّب والقاسي، وعن اليهودي الذي يعبد المال وإذا حَظيت بلادُ الرافدين بمعاملةٍ حسنة وأديرت شؤونها بحنكةٍ وفطنةٍ في ظل أحوالها المُتغيِّرة فإن هذه البلاد سوف تتجاوب حتماً مع إدارة أسياها الجُدِّد بطريقةٍ تضمن المصلحة المُتبادلة للطرفين وتزيد الإمبراطورية مجداً وتألقاً، هذه هي الأفكار التي تزدهم في ذهن أي فرد يُفكِّر ملياً في الأحداث الأخيرة التي أفرزتها هذه الحروب

٣٨٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

الألمانية الضارية الواسعة النطاق، ويرقب التحركات العسكرية والمدنية والسياسية الحالية في القاعدة الكبيرة للعمليات العسكرية الحالية في البصرة وما جاورها، وكذلك في الهند.

ويَتوجَّب عمل أشياء كثيرة ولكن لا يمكن عمل أيّ شيء قبل أن تصبح المكاسب الإقليمية الجديدة مفيدةً ومُريحة من النواحي الإجتماعية والمالية والسياسية، وقد أدلى الخبراء بأرائهم عن الإمكانيات الهائلة لبلاد الرافدين بطريقة واضحة لا يشوبها لبسٌ أو غموض، فقد كانت بلاد الرافدين التي ساد فيها الصمت وأناخ فيها شبح الموت برحلةٍ طيلة عهود الأتراك والمغول والتتار وغيرهم من الغاصبين، تشتهر في الأزمنة الغابرة بخصوبة تربتها، ومن المؤكَّد أنه بالإمكان الآن إحيائها وإعادتها إلى سابق عهدها، بل زيادتها إلى مائة ضعف في مختلف مجالات الإنتاج الزراعي عن طريق إدخال أساليب الزراعة المتطوّرة من ري علمي، ومهارات هندسية مُتقدّمة وتدريبات.

ولقد إزدهرت التجارة والتجارة في الماضي إلى حدٍ بعيد في هذه المناطق نتيجة قيامها بتلبية المطالب الهائلة والعاجلة للإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف، وبالإمكان جعلها تزدهر بالتأكيد مرةً أخرى بصورة أكبر شريطة أن تتكفّل بها سياسة صريحة وسخية وبعيدة النظر من الأخذ والعطاء، وفيما يتعلّق بافتتاح أسواق جديدة يجدر الإستشهاد في هذا الصدد بالأراء التالية للكاتب المعاصر السيد «إي. إ. ج. باركر» حول الصين، أخذها بعين الإعتبار وإتباعها، وهي تنطبق بدرجةٍ مُماثلة على بلاد



الرافدين البريطانية الجديدة، وحيث تسترعي (الإنباه إلى الإهمال الحاصل في قطاع التجارة البريطانية الواجب، تنقيح أساليبها بصورة عامة وبالأخص في مجال الدعاية والإعلان، وإعداد قوائم واضحه للأسعار، وزياره الزبائن المحتَمَلين في موقع عملهم، ومنح اعتمادات مالية بشروطٍ مُيسَّرة والتخلص من الإختناق التجاري الكومبرادوري، ومُعاملة التاجر المحلِّي بمزيدٍ من اللطف والكياسة والتسامح، وهلم جرا وهو يَسْتَحْسِنُ إتباع الأساليب ذات الفاعلية الكبيرة المُشار إليها أعلاه والتي يَتَّبِعها الألمان الماكرون، النَّهَّازون للفرص، والمُداهنون بالرغم من استبدادهم وخلوهم من الضمائر، إذا أُريد للتجارة البريطانية في البلاد الخصبه أن تزدهر وتَتَعَشَّ إلى أقصى حدٍّ ممكن، ويتنقد الكاتب بشدة العادة القديمة المُتَّبعة في المعاملات التجارية التي ثبت عُقْمُها وعدم جدواها والمتمثلة بجلوس التاجر في الميناء ولا يحرك ساكناً بينما يعتمد كل شيء في الداخل على النظام الكومبرادوري، وأوصى الكاتب بالتفكير جدياً في الدروس التي ساقها المنافسون الألمان وبتابع نظاماً أكثر فاعليه وحيوية «في التجارة والمُتاجرة كما قال إنَّ إدارة العمل التجاري تَتَطَلَّبُ بذل جهدٍ أكبر وتفكير أكثر مما اعتاده التاجر البريطاني المحافظ الذي يفتقر إلى الخيال الخصب بحكم إنتمائه إلى المدرسة القديمة في التجارة» ويجب أن يُوجَّه العمل التجاري الخاص بتلبيه طلبات «الأذواق الحديثة» وهو عملٌ سيظهر حتماً من أجل جذب «وكسب الناس وتحقيق الإزدهار» وأنَّ التحديث يستوجب إتباع أساليبٍ أكثر قابلية وتكيفاً مع الظروف وليست أساليب التحفظ والإنعزال التي يتبعها، التاجر البريطاني، ويجب أن تُوظَّف من أجل ذلك طاقةٌ كبيرة وبصيرة نافذة وتلتقي المطالب والإحتياجات المحليَّة على

٣٨٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةٍ أجنبيّة

أساس العمل الجاد الدؤوب والنظرة البعيدة الثاقبة، عندها فقط بالإمكان فتح أسواقٍ جديدة في بلاد الرافدين وكافة الأنحاء المجاورة بحيث تُدرّ هذه الأسواق أرباحاً كبيرة وتُساهم بالكامل في تعويض واسترداد تكاليف الحرب الباهظة التي أنفقت دون مبالاة، وعلى الحكومة والتاجر والبائع، والبريطاني والهندي، أن يتقبّلوا جميعاً الآراء والإستنتاجات المطروحة أعلاه وأن يعملوا معاً على أسسٍ سليمة تُساهم في جعل هذه الأقاليم الجديدة مزدهرة تجارياً عن طريق جعل أسواقها غزيرة الإنتاج وفي أقصر مدة ممكنة، وإلى جانب توفر النية الحسنة المتبادلة وحسن التفاهم بين البلدان القديمة والإضافات الإقليمية الجديدة، وهما شرطان ضروريان للوصول إلى هذه الغاية، فإنه يتوجّب أيضاً إدخال وسائل إتصالات ومواصلات رخيصة وسريعة في البر والنهر، وربما في الجو أيضاً، واستحداث تسهيلات وخدمات دائمة للطرود البريدية والحوالات المالية والبرق والهاتف وكافة خدمات التبادل المنتظم والمتواصل، والتحرر من كافة أشكال القيود والعوائق التي لا ضرورة لها، وإدخال تعديلات وتقيحات شاملة في القوانين والأنظمة المالية، فإنّ جميع هذه الأمور يجب إدخالها والإهتمام بها وتنفيذها على أسسٍ عملية وسليمة إذا أريد لهذه «الغاية المنشودة» أن تتحقّق، والتي سيعتمد عليها اعتماداً كبيراً مستقبل التنمية الشاملة في هذه الزيادة الإقليمية الجديدة والمفيدة التي أُضيفت للتاج البريطاني فيما يخص التقدم والإزدهار والنجاح، باختصار لا يمكن لأية تعديلاتٍ مهماً كان نوعها في أساليب الحكم التركي أو الحكم العثماني السيء أن تُؤدّي إلى نهوضٍ حقيقي في بلاد الرافدين.

ومن المُتوقّع أن تُعيد حكومةً قويّة، مُستقرّة، قادرةً متحرّرةً، ونزيهة كالتي يمكن

الوثوق بها والإعتماد عليها وقبولها في ظلِ نظامِ السطلة البريطانية - الهندية إلى هذه البلاد سالف مجدها وعظمتها وازدهارها، وستنعم البلاد في ظل مثل هذه الحكومة بمستقبلٍ مُشرقٍ واعد بحيث تكون بغداد أو «باغوداتا» أو «هبة الله» (كما يفسر بعض الدارسين معنى الاسم) عاصمةً لها متفوقةً بذلك على شهرة وأمجاد الخلفاء، وتكون القرنة والبصرة والفاو أسواقها التجارية ذات الشهرة العالمية.

لقد أثارت مسألة اللغة في هذه الأقاليم الجديدة والحثّ والتقصّي وهي من المسائل التي تستأثر على قدرٍ كبيرٍ من الإهتمام بالفقه اللغوي ويتوجّب عدم إغفالها، أن توسّع الإمبراطورية وتمدّدها إلى ما يُسمّى آسيا الوسطى سواء تحت الإدارة الهندية أو الإستعمارية يجب أن يؤدي بالضرورة إلى استخدام «الهندوسية» وهي لغةُ الهند المشتركة.

فهذه اللغة أكثرُ نطقاً وانتشاراً من بين اللغات وهي الأردية أو اللغة التي تعود أصولها إلى جحافل المغول أو المعسكرات قد شقّت طريقها إلى حدّ ضئيل نحو الأسواق الواقعة على سواحل الخليج حيث رحل إلى هناك الكثير من التُّجار الصغار الهنود واستقرّوا فيها، وإذا كانت التجارة تقتفي أثر العالم، فإنّ اللغة تقتفي أثر التجارة وستتجلّى هذه الحقيقة بصورة أوضح عبر التدفق الهائل للهنود نحو آسيا الوسطى سواء أكانوا جنوداً أم مدنيين، أم تابعين في المعسكرات، أم مستخدمين، وجميعهم يتحدثون اللغة الأردية تقريباً، جاعلين منها وسيلةً ضروريةً لإتصالهم وتبادلهم مع مواطنيهم الجدد، وستوفر للطالب الدارس لعلم اللغة موضوعاً رائعاً وشيقاً للدراسة

والبحث فيما إذا انتشرت اللغة الأردية في هذه الأقاليم الإضافية الجديدة وتوطّد أقدامها بثبات فيها أو أنها ستنتهي إلى تطورٍ صنفٍ آخر من لغة الجحافل أو المعسكرات -و- الأسواق على هيئة مزيجٍ لغوي غريب ومُبَسَّط أو خليط من اللغات الشائعة وهي الهندوستانية والعربية والتركية مع خليطٍ آخر من اللهجات المحليّة الدارجة ومع أخذ كافة الظروف بعين الاعتبار، أكادُ أميل إلى القول بإنني أتوقّع أن تنتشر اللغة الأردية كلغةٍ مُحَدَثةٍ في مناطق الروافد الثلاث العظام مما سيزيد من أهميتها وفائدتها إن لم يكن من حيث قوتها الأصليّة وجمالها وإنما من باب المُجَامَلَة للهند من أجل تضحيتها وخدماتها التي قدمتها في سبيل أن تنعم هذه الأراضي القديمة المُهملة بحياةٍ جديدة من الإصلاح والتقدّم والرّخاء، وفي نفس الوقت قد يتطلّع المرء إلى نوع من الإمتزاج الشائبي اللغوي أو التزاوج اللغوي غير المتكافئ الناتج عن الإتصال الواسع المُتبادل بين السكان العرب والهنود في بلاد الرافدين، وما حولها، ومن المُرجّح أيضاً أن يؤدّي هذا التوسّع في أراضي الإمبراطورية إلى إنتشارٍ أكبر وقبولٍ أشمل للغة الإنكليزية، وهي نتيجة يجب أن تُؤخَذ بعين الاعتبار في كُلِّ حالٍ من الأحوال، فاللغة الأوسع انتشاراً والأكثر نُطقاً في جميع أنحاء العالم وهي اللغة الإنكليزية بتركيبها الجميلة وقوتها وحلاوة بيانها وأدبها الواسع الخالد العظيم سوف تنتشر وتُستخدَم حتماً في الأقاليم القديمة والجديدة على السواء، وهي بالفعل أداة وصل وسلسلة قوية تربط بين جميع الأجزاء المختلفة والأقاليم الواسعة المترامية الأطراف التي تتألف منها الإمبراطورية ففي كُلِّ مكانٍ يَخْفِق فيه العلم البريطاني يجب أن يتحدّث جميع المثقفين عامّة وباللغة التي نطقها وكتبها وأشهرها «شكسبير» و«ملتون» و«وردز وورث»

و«بيرك» و«بايرون» و«لونغفيلو» و«أمرسون»، والمئات من كبار الأدباء البارزين وفيما يخص دمج بلاد الرافدين كجزءٍ أساسي في الإمبراطورية وتنظيمها، وفيما يخص إختيار حكومتها القادمة يجب أن تُطالب الهند بالحصول على صوتٍ قوي وقيادي ومؤثر إن لم يكن مُسيطرًا إذ أن مكانتها البالغة الأهمية وخدماتها الكبيرة تؤهلها دون نقاش لذلك وهذا استنتاج ذو دلالةٍ كبيرة لا يجوز التغاضي عنه أو التهاون فيه، فهو يُعد بمثابة نتيجة منطقية ضرورية في طبيعة الأمور ويجب اعتبار بلاد الرافدين، بحكم قربها من الهند وإتصالها القريب المباشر معها، كما هي عليه في الحقيقة والواقع، ذات أهمية أولية بالنسبة للهند سواء فيما يخص المعاملات التجارية، أو الأهمية السياسية أو الإقليمية والإحتياجات العسكرية، أو تمديد خطوط السكك الحديدية نحو الغرب، أو العلاقات الإجتماعية الحميمة أو غيرها من الإعتبارات الماثلة، وقد تبدو هذه الملاحظات والآراء أشبه بعملية سلخ جلد الدبِّ واقتسامه قبل اصطياده إلا أن الأمر ليس كذلك، فالملاحظات تُبرِّرها الأحداث على اعتبار أن الدبَّ على وشك الوقوع في قبضتنا، إنَّ إستيلاء وسيطرة قواتنا عملياً على كافة أنحاء بلاد الرافدين -بالرغم من الهزيمة النكراء التي منيت بها القوات الروسية في الحرب- يجب أن يُعتبر كأمرٍ واقع وحقيقة قائمة، وإذا فقدنا سيطرتنا على تلك البلاد نتيجة سوء تصرفنا فستحمل عواقب أخطائنا وحماقاتنا التي ارتكبتها، ولكن لماذا نفترض مُسبقاً أن حُكَّامنا ومن ورائهم حلفائنا الأقوياء سوف يصدر عنهم عمل من أعمال الجبن والتخاذل والضعف والوهن بعد محاربة الأتراك والألمان ودحرهم والتغلب عليهم بالطريقة التي حاربت وتحارب بها جيوشنا الآن، وبطبيعة الحال فإنَّ مثل هذا الإفتراض غيرُ

واردٍ على الإطلاق ما لم تسقط من حسابك جميع التقاليد التاريخية العريقة للبسالة البريطانية، وغرائز العمل السليم، والإصرار على الوصول إلى الأهداف والغايات فنحن واثقون من الوصول إلى السلام الظافر المنتصر، ولكنه مجرد افتراض بأن الأمور لن تقضي تماماً إلى ما نصبو إليه، فالحقائق تبقى واضحةً باديةً للعيان وصريحةً ومُقنعةً وهي أن البلاد واقعة الآن في أيدينا، والسكان في معظمهم يرغبون في الإنضواء تحت الحكم البريطاني، حيث يتطلّب رخائهم وأمنهم ذلك، وأنّ تضحيات بريطانيا العظمى والهند كانت وما زالت جسيمة وتستوجب التعويض عنها، والعقل والمنطق يقضيان ويُثبّنان على استئصال شأفة الحكم التركي الجائر والقضاء عليه قضاءً مُبرماً، لذا فإنّ الحل الوحيد المرّضي للوضع الذي نشأ في البلاد التي يجري فيها الفرات ودجلة والشط هو الإلحاق والضم، حيث تقضي كلّ من السياسة الصالحة والمصلحة العامة حدوث هذا الإحتمال وتحويله إلى واقعٍ ملموس.

## نص كي لسترنج في كتابه (بلدان الخلافة الشرقية)

### العراق

واسط-البطائح-المذار والقرنة-دجلة العوراء-البصرة وأنهارها-الأبلة وعبّادان  
سُمِّيَتْ واسط بذلك، لتوسطها بين الكوفة والبصرة والأهواز. فهي على خمسين  
فَرَسَخاً من كل واحدة منها. وقد كانت أعظم مدن طسوج كسكر، بل كانت على ما  
ذكرنا إحدى مدن العراق الكبرى الثلاث قبل بناء بغداد.

ابتنى الحجاج، والي العراق المشهور في أيام الخليفة عبد الملك الأموي، مدينةً  
واسط في نحو سنة ٨٤ هـ (٧٠٣). وكانت واسط على جانبي دجلة، بينهما جسر  
سُفُن. لها جامعان، في كُلِّ جانبٍ جامع. وذكر اليعقوبي أنّ الجانب الشرقي من واسط  
كان مدينة قبل زمن الحجاج. والغلبة على سكان هذا الجانب، حتى المئة الثالثة  
(التاسعة)، للعجم. وبنى الحجاج في المدينة الغربية القصر الأخضر ويُقال له القُبَّة  
الخضراء، وهو المشهور بقبته العظيمة فقد كانت تُرى من أعلاها فم الصلح، وهي على  
سبعة فراسخ في شمالها. كانت أرض واسط وفيرة الخصب «وبها قوام مدينة السلام إذا

٣٩٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

أُسنتت (١) نواحيها أو عيَته» (٢) وكان خَراجها في العام ألف ألف درهم (٤٠ ألف دينار) على ما ذكر ابن حوقل. وقد كان في واسط سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) (٣). وروى المُقدّسي، أنّ جامع الجانب الشرقي قد بناه الحجاج كذلك (٤) وكانت أسواقها حسنة عامرة، وقد جعل في طرفي الجسر موضعان تدخل فيهما السفن لتفريغ وسقها.

وبقيت واسط طوال عصور الخلافة من أشهر مُدن العراق. ويظهر أنّ جانبها الشرقي كان أول ما انتابه الخراب منها. فالقزويني، وكان قاضياً في واسط في النصف الأخير من المئة السابعة (الثالثة عشرة)، ذكر إنّ المدينة بمفردها في جانب دجلة الغربي. وأشاد ابن بطوطة، وكان فيها في أوائل المئة التالية، بمبانيها الفخمة، وقال إنّ فيها مدرسة عظيمة حافلة فيها نحو ثلاثمئة خلوة ينزلها القادمون للتعلّم. وتوّه المُستوفي، وهو مَن عاصر ابن بطوطة، بما حولها من بساتين النخيل الكثيفة التي ترطب هواءها كثيراً. وفي نهاية المئة الثامنة للهجرة (الرابعة عشرة) ورَدَ ذكر واسط غير مرة بكونها موضعاً ذات شأن في حروب تيمور الذي أقام فيها حامية قوية. ولكن بعد ذلك بنحو قرن، ابتعد مجرى دجلة عن واسط - على ما بيّنا في مطلع الفصل السابق -

---

(١) استنتت بمعنى أصابها الجدب والقحط، وعيته أصابتها عاهة (م).

(٢) صورة الأرض لابن حوقل (١: ٢٣٩ طبعة كريمرز) (م).

(٣) ما في ابن حوقل (١: ٢٣٩) ستة آلاف درهم (م).

(٤) هذا ما قاله المقدسي بصدد الجامع: «واسط... ذات جانبيين وجامعين... جامع الحجاج وقبته في الغرب في طرف الأسواق بعيد عن الشط متشعث عامر بالقرآن» (أحسن التقاسيم، ص ١١٨). ولم نقف في المقدسي على إشارة إلى أنّ الحجاج قد بنى أيضاً جامع الجانب الشرقي (م).



[ ٢٤ ] نص كي لسترنج في كتابه (بلدان الخلافة الشرقية) ..... ٣٩١

وَتَحَوَّلَ إِلَى مجراه الشرقي المنحدر إلى القرنة. فاستولى الخراب على سائر المدينة. فَلَمَّا كَتَبَ الحاج خليفة في مطلع المئة الحادية عشرة (السابعة عشرة)، قال إنها بمفردها في وسط البرية وأنَّ النهر قد كان مشهوراً بقصبه الذي تُتخذُ منه الأقلام (١).

(١) اليعقوبي ٣٢٢؛ ابن رسته ١٨٧؛ الأصبخري ٨٢؛ ابن حوقل ١٦٢؛ المقدسي ١١٨؛ القزويني ٣٢٠؛ ابن بطوطة ٢:٢؛ المستوفي ١٤١؛ على اليزدي ١: ٦٤٠ و ٦٥٧؛ ٢: ٥١٧؛ جهان نما ٤٦٣.

يظهر أنَّ خرائب واسط لم يَتَّفَقْدها أحد من الرحالة المُحدِّثين. إلَّا أنَّ مَنْ كَتَبَ من الرحالة العرب عنها، حدَّدَ موضع خرائبها في مكانٍ على مقربةٍ من شط الحلي. وروى جسنبي في كتابه: Chesney, Report of the Euphrates and Tigris Expedition. (Vol. I, p. 37)، أنَّ أورمسيبي وليوت زارا هذه الخرائب في سنة ١٨٣١-١٨٣٢، ولكنها لم يُشير إلى موضعها (إنتهت حاشية المؤلف).

قلنا: تُعرَفُ خرائب واسط اليوم بالمنارة أيضاً لأنَّ منارة قديمة ما زالت قائمة في مسجد الجانب الشرقي منها. وأطلال مدينة واسط واسعة فسيحة تمتد على جانبي عقيق دجلة القديم المعروف اليوم بالدجيلية على نحو ٢٥ كيلومتراً من جنوب شرقي الحلي التي على نهر الغراف. وقد نُقِّبت مديرية الآثار العراقية العامة في أطلال واسط منذ سنة ١٩٣٦ حتى ١٩٤٢، وكان مما عُثِرَ عليه في الجانب الغربي، بقايا من جامع الحجاج، وقصره الذي كانت ترى قبته الخضراء من فم الصلح، أي من مسافة ٣٥ كيلو متراً، وثلاث طبقات بنائية لثلاثة جوامع أقيمت فوق جامع الحجاج بعد خرابه. وعُثِرَ بين أنقاض الجامع على أسطوانة من الحجر مكتوبة، جاء فيها «عملوها الواسطيين» (كذا) واكتُشِفَ على ضفتي النهر بقايا الجسر الذي كان يربط جانبي واسط. وعُثِرَ في مكانٍ آخر على مئاتٍ من دمي الطين ترقى إلى العصر الإيلخاني.

وفي الجانب الشرقي من واسط كشفت عن بقايا جامع ما زال بابه وأحدى منارتيه وبعض جدرانها قائمة حتى اليوم. وعُثِرَ في مواضع منه على قبور فيها شواهد مؤرّخة بسنوات من المئة السابعة للهجرة راجع: نشرة حفريات «واسط» لمديرية الآثار القديمة العامة في العراق، بقلم

وعلى ما ذكّرَ ياقوت، كان دجلة أسفل من واسط، إذا انفصل عنها، انقسم إلى خمسة أنهرٍ عظام تحمل السفن، ذكرها بأسمائها<sup>(١)</sup>. ثم تصب في البطائح. وهذا القول يوافق ما ذكره المصنّفون الأولون. فقد ذكر ابن سراييون، جملةً مُدن على دجلة أسفل من واسط وفوق القطر، وهي فم البطيحة في المئة الرابعة (العاشرة). وأولى هذه المدن: الرصافة في الجانب الأيسر على عشرة فراسخ من واسط. وبالقرب منها نهر يحمل من دجلة شرقاً ويصب في البطيحة، يُقال له نهر بان. وفي مصبه بلدة بهذا الاسم. ويُلفظ أيضاً نهر أبان. وأسفله: الفاروث، فدير العمال. وهذه المواضع في الجانب الشرقي، وبازائها ثلاثة أنهرٍ تجري غرباً وتصب في البطائح، هي أولاً نهر قريش وعليه قرية كبيرة بهذا الاسم، فنهر السيب وعليه بلدتا الجوامد والعقر، فنهر بردودي أوله عند قرية الشديدية. وكلُّها كانت مُدناً ذات شأن في البطيحة حول الجامدة وقربها، ويُقال لها أيضاً «الجوامد» (بصيغة الجمع). وإلى ذلك فقد وصف المُقدّسي مدينة كبيرة في هذه البقعة تُعرّف بالصليق على بحيرةٍ حولها ضياع ومزارع حَسَنَة. وكان تجاه هذه الأمكنة على الجانب الشرقي من دجلة: الحوانيت<sup>(٢)</sup> وبها المأصر يشدُّ جانبي دجلة كالمأصر

فؤاد سفر (طبع المعهد الفرنسي بالقاهرة سنة ١٩٥٢). (م).

(١) أسماء هذه الأنهار، على ما في معجم البلدان (٢: ٥٥٣)، هي «نهر ساسي، ونهر العَرَّاف، ونهر دَقْلَة، ونهر جعفر، ونهر ميسان» (م).

(٢) تُرى بقايا مدينة الرصافة على نحو ٣٠ كيلومتراً من شرق قلعة سكر على نهر الدُجيلة المُندرس. وتُعرّف بالرصافة. وترى بقايا مدينة الحوانيت على ٢٥ كيلومتراً من جنوب شرقي الشطرة وتُعرّف بالحوانيت أيضاً. أنظر موضعيهما في «خارطة العراق الأثرية» لمديرية الآثار العراقية.

[ ٢٤ ] نص كي لسترنج في كتابه (بلدان الخلافة الشرقية) ..... ٣٩٣

الذي قد وصفناه في دير العاقول (ص ٥٤). وكان هذا المأصر عند القطر على إثني عشر فرسخاً أسفل الرصافة حيث كان دجلة في المئة الثالثة (التاسعة)، على ما ذكر ابن رسته، يَتَشَعَّبُ ثلاث شعب وينصب مأوّه في البطائح (١).

والبطائح جمع البطيحة وقد وصفناها في صفحة ٤٣. والرُقعة التي تَبَطَّحت فيها هذه البطائح، تنتشر فيها المدن والقُرى، وكُلُّ واحدة منها تَتَوَسَّدُ نهرها. ومع أنّ هواءها وخمٌّ، فإنَّ تربتها كانت حين تجف غاية في الخصب. فابن رسته، وقد كَتَبَ في نهاية المئة الثالثة (التاسعة) وصف البطائح بقوله ينبت فيها القصب، ويخرُج من هذه البطائح أنهار منها سمكهم من الطري والمالح، كان يُجَمَلُ إلى النواحي المجاورة. أما مياه دجلة فالظاهر أنها من قطر فشرقاً - ولعلَّها كانت تتبع مجرى الفرات الحالي بوجه التقريب - تَشُقُّ طريقها بين أهوار مُتَّصِلة إلى نهر أبي الأسد، وتنصب مياه البطائح من هذا النهر إلى فيض البصرة. والبطائح إنَّ خلت من القصب، سَمَّاهَا العرب الهور أو الهول. ويصل فيما بينها أزقة تسير فيها الزواريق. أما السُفن النهرية الكبيرة فإنها تجنح أسفل القطر على ما جاء بها رسته (ويحمل بعض ما فيها من الزواريق فتمر في شبه أزقة قصب تصل ما بين الأهوار، وبين هذه الأزقة، مواضع - مُتَّخِذة من قصب - أشباه الدكاكين - عليها أكواخ من قصب يكتنون بها من البق)، وفيها مسالِح يعمل رجالها

---

(١) ابن سراييون ٩ و٢٠؛ قدامة ١٩٤؛ ابن رسته ١٨٤ و١٨٥؛ المقدسي ١٩٩؛ ياقوت ٢: ١٠ و٥٥٣؛ ٣: ٢٠٩ و٤١٥ و٨٤٠؛ ٤: ٢١٧ و٧٥٨.

قُلْنَا: وعن المأصر، راجع: «المأصر في بلاد الروم والإسلام» لميخائيل عواد (بغداد ١٩٤٨).

٣٩٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

على تطهير المجرى وحماية الملاحين، لأنَّ في البطائح مكامن طبيعية يختبئ فيها اللصوص (١).

وقد سرّد ابن سراييون أسماء أربعة من هذه الأهوار التي تحمل الماء إلى البصرة: الأول هور بحصى، والثاني هور بكمصى، والثالث هور بصرياثا، والهور الرابع المُحمّدية وهو أعظم الأهوار، وفيه كانت المنارة المُسمّاة منارة حسان. وإنّا عرفت بذلك نسبة إلى حسان النبطي الذي كان في خدمة الحجاج عامل بني أمية، فأعاد بعض تلك الأرضين إلى عمارة. ويلى الهور الأخير زقاق قصب وهو مادّ إلى نهر أبي الأسد، ويمر النهر بالحالة وقرية الكوانين، وهو يحمل ماء البطيحة إلى رأس فيض دجلة. وأبو الأسد هذا، ونهره يتفق هو ومجرى الفرات الحالي فوق القرنة، كان من موالي الخليفة المنصور. وحين كان قائداً للجيش في البصرة، حفَرَ بها النهر على ما ذكّر ياقوت، وقيل إنَّ السفن لم تدخله لضيقه، فوسَّعه حتى دخلته فنُسبَ إليه. وكان على ما ذكر ياقوت، محفوراً قبله منذ أيام الساسانيين. أما القرنة، وهي حيث يقترن اليوم الفرات بدجلة،

---

(١) لعلَّ خير ما كتبتَ عن منطقة البطائح (أي الأهوار) في المراجع الحديثة، مقالات الشيخ علي الشرقي، في مجلة «لغة العرب» للأب انستانس الكرملي ٤: [١٩٢٦] ٣٧٥ و ٤٧٤ و ٥٢٦ و ٥٧٥؛ [١٩٢٧] ٥٤٣ و ٥٣٥ و ٦: [١٩٢٨] ٢٧٥. وكتاب Haji Rikkan Marsh Arab, by Fulanain (London, 1927). و«فلانين» اسم مستعار اتخذهُ Hetchcoch وكان من الموظفين الإنكليز الذين اشتغلوا في لواء العمارة (م).

[ ٢٤ ] نص كي لسترنج في كتابه (بلدان الخلافة الشرقية) ..... ٣٩٥

فلم يذكرها أحد من البلدانين العرب (١). وأول إشارة إلى قلعة القرنة، وَرَدَتْ في جهان نما التركية في مطلع المئة الحادية عشرة (السابعة عشرة).

وكان القسم الأسفل من مجرى دجلة الشرقي -وهو دجلة الزمن الساساني وزمننا أيضاً- في العصور الوسطى، على ما قد ذكرنا، تَصَعَدَ إليه المياه المُرتَدَّة وقد سُكَّرَ في نهايته الشمالية. وكانت هذه المياه المُرتَدَّة تُسَمَّى نهر المذار. وكان طوله ستة فراسخ ويؤدي إلى مدينتي عبدسى (أو عبداسى) والمذار اللتين لا يُعرف موضعهما الصحيح. وكان ما يحف بجانبيه من أراضٍ -أعني بإمتداد عقيق دجلة الشرقي حينذاك- يعرف بجوخى، وهي تمتد إلى الشمال الغربي حتى كَسَكَّر، كورة واسط. وكانت المذار في أيام الفتح الإسلامي بلدة جليلة، وهي قسبة ميسان وعرفت أيضاً بدستميسان. وبين البصرة أربعة أيام، وبها مشهد عامر عظيم فيه ضريح عبد الله بن علي أبي طالب. أما مدينة عبدسى، القريبة منها فأنها على ما ذَكَرَ ياقوت، فارسية الأصل، واسمها تعريب أفداسهى اسمها القديم، وكانت مصنعة في كورة كسكر قبل الفتح. وكانت كسكر وميسان كورتى القسم الشرقي من البطائح. وعلى ما ذكر القزويني، كان يجلب من كسكر الرُز الجيد، وتُرَبَّى في مراعيها الجواميس والبقر والجداء. وتكثر في أهوار القصب: البطوط والفراريج التي تُصَاد بالشباك وتُحْمَل إلى أسواق المدن المجاورة. وكان يُصَاد في أنهارها كثير من الشبوط فَيَمْلَح ويُحْمَل إلى غيرها. وفي ميسان مشهد

---

(١) راجع ما كتبه عن القرنة في مجلة «سومر» ٨: [١٩٥٢] ص (٢٧١-٢٧٢) (م).

٣٩٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

العزير النبي (١) ويُسمّى عزرا. وقد ذكر القزويني إنه «معمورٌ يقوم بخدمته اليهود، وعليه وقوف وتأتيه الندور» فقد كان مشهوراً في تلك الأنحاء إنّ الصلاة فيه مقبولة مُستجابة (٢).

والفيض العريض المتكوّن من اقتران مياه دجلة والفرات، يبلغ مئة ميل طولاً، وهو يبدأ من فم نهر أبي الأسد ويصبُّ في خليج فارس عند عبّادان. وقد عُرفَ هذا الفيض أيضاً بدجلة العوراء وبيفيض البصرة. وسَمَّاهُ الفُرسُ بهمن شير وهو يُعرف اليوم بشط العرب. ويدركه المد والجزر من خليج فارس حتى رأسه عند المذار وعبدسى شمالاً. ويدرك المدّ أنهار البصرة العديدة وأنهار الري في شرق الفيض وفي غرْبِهِ ثم يجزر منها. وتقع البصرة، ثغر العراق التجاري الكبير، على طَفِّ البادية على بُعد قليل من غرب الفيض. وكانت السُفن تبلغه من البصرة بنهرين. وفي شمال البصرة وجنوبها أنهار كثيرةٌ تحمل مياه البطائح السُفلى إلى دجلة العوراء. وكان يصب في الجانب الشرقي من الفيض أنهار أخرى كثيرة. هذا إلى نهر محفور يُقال له نهر بيان على نحو ثلاثين ميلاً فوق عبّادان، يصل فيض دجلة بفيض دجيل (نهر كارون)،

---

(١) ما زال مشهد الإمام عبد الله بن علي، قائماً في هذه البقعة. وهو يُزار. وبالقرب منه تلول يُقال لها (البجة) ترقى آثارها إلى العصرين الساساني والإسلامي ويُظن أنها تمثّل مدينة (المذار) القديمة. أما قبر العزير فما زال قائماً في موضعه القديم (م).

(٢) ابن رسته ٩٤ و١٨٥؛ ابن سراييون ٢٨؛ قدامة ٢٤٠؛ البلاذري ٢٩٣ و٣٤٣؛ القزويني ٢: ٢٩٩ و٣١٠؛ ياقوت ١: ٦٦٩؛ ٣: ٦٠٣؛ ٤: ٤٦٨ و٨٣٠؛ جهان نأ ٤٥٥.

[ ٢٤ ] نص كي لسترنج في كتابه (بلدان الخلافة الشرقية) ..... ٣٩٧

وُدْجِيل ينحدر من أقليم خوزستان ويصب في خليج فارس عند سليمانان (١).  
والبصرة - وقد اشتق اسمها من الحِجارة السود (٢) - أُنشِئت في أيام عمر في سنة  
١٧ هـ (٦٣٨ م)، وأقطع سوادها القبائل العربية التي نَزَلَتْ فيها بعد تقويض الدولة  
الساسانية. وسرعان ما اتسعت هذه المدينة فإذا هي والكوفة تصبحان عواصم العراق  
الجديدة. وفي سنة ٣٦ هـ (٦٥٦ م)، جَرَتْ قُرْب البصرة وقعةُ الجمل المشهورة ومع  
أنَّ الإمام علياً قد تَغَلَّب على مَنْ سبب موت الخليفة عثمان، فذلك لم يؤثر في مجرى  
الأمر. وفي هذه الواقعة قُتِلَ طلحة والزبير الصحابيَّان المشهوران. والبصرة، على نحو  
إثني عشر ميلاً من فيض دجلة في خطٍ مستقيم. وقد شَقَّ إليها من دجلة نهران: نهر  
معقل (٣) من الشمال الشرقي وتأتيه السُّفن النازلة من بغداد، ونهر الأبله وتسير فيه

---

(١) ابن سريون ٢٨. تُطلَق لفظة «العوراء» على الأنهار التي يَطْمُرُها الغرين، وعلى الطُّرق التي لا  
تتفد. ويبدو ان اسم دجلة العوراء أُطلِقَ أولاً على نهر عبدسى ولم تعم أسفل النهر إلا في زمن  
متأخر. المسعودي: التنبيه ٥٢؛ ياقوت ١: ٧٧٠؛ جهان نما ٤٥٤. وقد ذكر المرجع الأخير فيض  
دجلة باسم شط العرب.

(٢) راجع في أصل اسم البصرة: المقدسي ص ١١٨؛ وياقوت ١: ٦٣٦؛ وسومر ٤: [١٩٤٨] (ص  
١٣٦-١٤١) (م).

(٣) قامت في عصرنا في تلك الجهة مبانٍ واسعة كالمطار الجوي والميناء ومحطة القطار ودور الموظفين  
والعمال القائمين بشؤون هذه المصالح. وقد حرَّف الإنكليز اسم «المعقل» حين احتلالهم  
البصرة في أول الحرب العالمية الأولى فنطقوا به «ماركيل» وجاراهم في ذلك مَنْ كان يشغل  
عندهم، فشاعت هذه التسمية المغلوط فيها وقتاً ما. ثم رَجَعَ القوم اليوم إلى استعمال الاسم  
الصحيح أي «المعقل» (م).

السفن من البصرة نحو الجنوب الشرقي فتخرج إلى خليج فارس عند عبّادان. ويتألّف مما توسّط بين هذه النهرين وبين مياه الفيض في الشرق، الجزيرة الكبرى، على ما كانت تُسمّى به. وبلدة الأبلّة في الزاوية الجنوبية الشرقية لهذه الجزيرة، فوق مصب نهر الأبلّة في الفيض. وكانت البصرة تقوم على إمتداد النهر الموصّل بين نهري معقل والأبلّة. وكانت دورها من ناحية البر غرباً تطيف بها البادية بشكل قوس. وللبصرة في هذه الجهة باب يُقال له بابُّ البادية. وفي المئة الرابعة (العاشرة) كان إمتدادها من النهر إلى هذا الباب نحو ثلاثة أميال. أما طولها فيزيد على ذلك بكثير. وأكثر دورها بالأجر. وحول أسوارها أرض خصبة تسقيها أنهار صغارٌ كثيرةٌ. ويليها بساتين النخيل الواسعة. وذكر المقدّسي أن بالبصرة ثلاثة جوامع: أحدها على الباب الغربي في وجه البادية وهو القديم، وجامعٌ ثانٍ في الأسواق «بهي جليل عامر أهل ليس بالعراق مثله، على أساطين مبيّضة». وجامعٌ ثالث «على طرف البلدة». وفي البصرة ثلاثة أسواق فيها الدكاكين والخانات، وهذه الأسواق كأسواق بغداد سعةٌ. وكان المربد من أشهر محالها في الباب الغربي، وفيه تحطُّ القوافل الآتية من البادية. وهو أكثر أقسام المدينة اكتظاظاً<sup>(١)</sup> وبها قبر طلحة والزبير. وكان كثير من محال البصرة حين كتب المقدّسي قد

(١) كان المربد قبل أن تُحطّط البصرة، بل كان قبل الإسلام. وأخباره في الجاهلية منقطعة أو معدومة مما يدلُّ على قلة أهميته إذ ذاك. إنما كانت له أهمية بعد فتح العرب العراق وسكنوه وخطّطوا البصرة. فقد أنشئت فيه المساكن بعد أن كان مربداً للإبل فقط، لأن المربد في اللغة كل شيء حبست فيه الإبل والغنم. واتصلت العمارة بينه وبين البصرة. وصار المربد في الإسلام صورة مُعدّلة لعكاظ. كان سوقاً للتجارة وكان سوقاً للدعوات السياسية وكان سوقاً للأدب. فكان



[ ٢٤ ] نص كي لسترنج في كتابه (بلدان الخلافة الشرقية) ..... ٣٩٩

آل إلى الخراب (١). وذكر المُقدَّسي فيما ذكر من دور العلم: دار كتب كانت في المئة الرابعة (العاشرة)، أنشأها ابن سوار ووقفها. وأنشأ أيضاً دار كتب مثلها في مدينة رامهرمز بخوزستان. «وأجرى في الدارين على مَنْ قصدهما ولزم القراءة والنسخ». وكانت دار الكتب في البصرة حافلة بجمهرة كبيرة من الأسفار.

وقد عانت البصرة كثيراً من جرّاء الحروب والفتن المذكورة في تأريخ الدولة العباسية. ففي سنة ٢٥٧ هـ (٨٧١ م) حين كانت ثورة الزنج على أشدها، خرّب صاحب الزنج - وكان يدعي أنه من سلالة الإمام علي - البصرة وأحرق معظم أقسامها. وكان الجامع مما خرّب. وانتهب جنده المدينة ثلاثة أيام (٢). وفي سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م) نهّب زعيم القرامطة مدينة البصرة، ودام النهب في هذه المرة سبعة عشر يوماً. ولكن المدينة استرجعت بعض رخائها السابق. فلما زارها الرحالة الفارسي ناصر خسرو في سنة ٤٤٣ هـ (١٠٥٣ م) قال: بها خلق كثير ولها سورٌ عظيم يحيط بها، وكان معظم البصرة خراباً. وكان بيت الخليفة علي، قرب المسجد الجامع. وكان فيها

---

مجتمع العرب من الأقطار، يتناشدون فيه الأشعار ويبيعون ويشترون. راجع: فيض الخاطر لأحمد أمين (٤ / ٢٧٨-٢٨٧) (م).

(١) تعيّن قبر الزبير الآن، الخرائب المعروفة بهذا الاسم، وهي في موضع البصرة القديمة. أما البصرة الحديثة فتقوم على فيض دجلة (أي شط العرب) وهي في موضع الأبلّة عند نهر الأبلّة. قلنا: والزبير اليوم، بلدة صغيرة عامرة ولها جامع فيه قبر الزبير. تقوم على جزءٍ صغير من خرائب البصرة القديمة (م).

(٢) من أحدث المراجع في هذا الموضوع، كتاب «ثورة الزنج» للدكتور فيصل السامر (م).

٤٠٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

ثلاثة عشر مزاراً تشير إلى الأحداث المختلفة التي جرت حين مقام علي فيها. وسردَ ناصر خسرو أيضاً أسماء العشرين ناحية المحيطة بالمدينة.

وفي سنة ٥١٧ هـ (١) (١١٢٣ م) استحدثَ القاضي عبد السلام سوراً للمدينة كان يمتد نصف فرسخ في داخل حدودها القديمة. وكانت البصرة في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) حين زارها ابن بطوطة بعد الفتح المغولي، مدينةً أهلة. وقد تكلم ابن بطوطة على مسجد علي بن أبي طالب فقال: إنه «بناء عالٍ مثل الحصن وله سبعُ صوامع وهم يُصلُّون الجمعة فيه فلا يأتونه إلا في الجمعة». وبينه الآن وبين أحيائها العامرة ميلان وحوله الخرائب، وكذلك بينه (أي بين الجامع) وبين السور الأول ميلان. وبالقرب من السور قبر طلحة (٢) وقبر الزبير. أما البلدة نفسها فلم يبقَ فيها غير ثلاثة أحياء أهلة. وسردَ المستوفي، وقد كتَبَ في ذلك الزمن نفسه، أخباراً طويلة عن البصرة، فذكرَ أن جامعها لم يجده إلا الخليفة علي، وكان أعظم جامع في الإسلام—ولم يُبنَ جامع أوسع منه—وعينَ علي قبلة هذا الجامع في اتجاهها الصحيح. وكان فيه منارة تتحرك أو تبقى ساكنة وفقاً للقسم الذي يحلف به في وجهها إن كان صدقاً أو

---

(١) في كتاب صورة الأرض لابن حوقل (١: ٢٣٧ طبعة كريمز) أن القاضي عبد السلام الجيلي سَوَّر ما بقي من البصرة سنة ٥١٦ هـ.

وهذا الكلام ليس لابن حوقل بل للمعلِّق المجهول على ابن حوقل، وكان من أهل المئة السادسة (م).

(٢) يرى قبرُ طلحة في خرائب البصرة القديمة في جنوب شرقي المنارة الأثرية. عليه قبةٌ معقودة مُربَّعة الشكل. وهو يُزار (م).

[ ٢٤ ] نص كي لسترنج في كتابه (بلدان الخلافة الشرقية) ..... ٤٠١

كذباً وهي كرامة تُعزى إلى الإمام علي بن أبي طالب وكان رافعها. وللمستوفي كلامٌ آخر في مشاهد البصرة. وأطرى بساتينها الغنّ ونخيلها الذي يَحْفُ بالمدينة حتى أنه لِإلتفافِ أشجارها لا يكاد يُرى الرائي أبعد من مئة خطوة. وتمرّها من أجود التمور وتجارته رابحة في الهند والصين.

واشتهرت البصرة في كُلِّ الأزمنة بأنهارها. وقد عُدَّت، على ما ذكر ابن حوقل في المئة الرابعة (العاشرة)، فزادت على مئة ألف نهر تجري في أكثرها الزواريق. ونهر معقل، وقد بيَّنّا أنه هو النهر الكبير الآتي من جهة بغداد، حَفَرَهُ معقل بن يسار الصحابي في أيام عمر. وهذا النهر ونهر الأبلّة، وهما يمتدان من البصرة نحو الجنوب الشرقي، كان طولُ كُلِّ منهما أربعة فراسخ. وكانت بساتين نهر الأبلّة بإمتداد الجانب الجنوبي للجزيرة الكبرى، إحدى جِنان الدنيا الأربع (١).

والأبْلَّة، وهي تعريب اسمها اليوناني (Apologos)، يرجع تاريخاً إلى العهد

---

(١) والجِنان الثلاث الأخرى المشهورة هي: غوطة دمشق، وشعب بوان في فارس، ووادي الصغد بين سمرقند وبُخارى.

الأصطخري ٨٠؛ ابن حوقل ١٥٩ و ١٦٠ والحاشية ٥؛ المقدسي ١١٧ و ١٣٠ و ٤١٣؛ ناصر خسرو ٨٥-٨٩؛ ياقوت ١: ٦٣٦؛ ٤: ٨٤٥؛ ابن بطوطة ٢: ٨ و ١٣ و ١٤؛ المستوفي ٣٧. قلنا: وراجع مما كُتِبَ حديثاً عن البصرة: خطط البصرة للدكتور صالح أحمد العلي (سومر ٨ [١٩٥٢] ص ٧٢-٨٣) وكتابه «التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول للهجرة» (بغداد ١٩٥٣) (م).

٤٠٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

الساساني بل إلى أقدم من ذلك <sup>(١)</sup>. وهي على الفيض، ذات هواء حار. ولما ابنتى المسلمون البصرة مدينتهم الجديدة، جعلوها في الداخل عند طف البادية. وكانت الأبلّة على ما بيّنا، عند فم نهر الأبلّة من قبل الشمال في الجزيرة الكبرى وبازائها من نحو الجنوب البلدة المسماة شق عثمان (ويقال إن عثمان هذا حفيد سميّه الخليفة الثالث)، وكانت فوق فم نهر الأبلّة وتجاهه في الجانب الشرقي من الفيض، مرحلة ينزل فيها مَنْ يعبر دجلة ويريد خوزستان. وكان قال لهذا الموضع عسكر أبي جعفر، أي عسكر الخليفة المنصور. وكانت الأبلّة في المئة الرابعة (العاشرة) بلدةً كبيرة ذات مسجد جامع. وكان شقُّ عثمان مثل ذلك. وهما على ما روى المقدّسي عامرتان. وذكر ناصر خسرو، وقد زارها بعد ذلك بنصف قرن، أن قصور هاتين المدينتين وأسواقهما وجامعيتها في حالٍ حسنّة. لكن المغول بعد ذلك بقرنين خرّبوا هذه الجهات. ولما كتب القزويني في المئة السابعة (الثالثة عشرة) قال إن هذه المواضع قد آلت إلى الخراب. وبقي شقُّ عثمان مشهوراً بسدرته العظيمة. وبعد ذلك بقرن وصف ابن بطوطة الأبلّة فقال: هي الآن قريةٌ. وقد نهضت في العصر الحديث من حالتها هذه التي ألمّت بها حين

---

(١) كان اسم الأبلّة باسمها اليوناني Apologos معروفاً في المئة الرابعة قبل الميلاد. فقد ذكره نيارخس Nearchus البحار الإقريطشي وقد كان قائداً لإسطول الإسكندر الكبير. واشتهر برحلته البحرية التي طالت خمسة أشهر. وقال فيها إن هذه المدينة مستودع تجارات خليج فارس. واسم هذه المدينة ظهر في الخارطة الثانية المرفقة برحلته المقابلة لصفحة ٢٥٨ منها. وعنوان الرحلة في طبعها الإنكليزية: The Voyage of Nearchus from the Indus to the Euphrates (ed. W. Vincent; London 1797).

[ ٢٤ ] نص كي لسترنج في كتابه (بلدان الخلافة الشرقية) ..... ٤٠٣

قامت البصرة الحديثة في موضعها القديم (١).

«وكان على ركن الأبله في دجلة بين يدي نهرها، خورٌ عظيم الخطر جسيم الضرر، وكانت أكثر السفن تغرق فيه». وعلى ما جاء في ابن حوقل «احتالت له بعض نساء بني العباس -ذكر بعضهم أنها زبيدة- بمراكب أوسقتها بالحجارة العظام وبلّعتها ذلك المكان فابتلعها، وقد توافت على مقدار فانسد المكان وزال الضرر». وذكر ابن سراييون الأنهار التسعة وكلّها يصب إلى فيض البصرة في جانبه الغربي وهي: نهر معقل وثلاثة فوقه وأربعة جنوب البصرة بين نهر الأبله وفم الفيض (٢) على أنّ أهم هذه الأنهار هو نهر أبي الخصيب -وإنما سُميَ بذلك نسبةً إلى مولى من موالى الخليفة المنصور- فقد بُني عليه في أواسط المئة الثالثة (التاسعة)، حصنٌ عظيمٌ للثوار من الزنج. وهذه المدينة التي سَمّاها الزُنج «المختارة» كانت حصينةً مكينةً فامتنت زمنًا طويلًا على جيوش الخليفة العباسي التي جرّدها عليها ولم يقض بعد ذلك على فتنة الزنج القضاء النهائي إلا بعد حروبٍ دامت خمس عشرة سنة (٣).

---

(١) خُرِبَتْ بلدة الأبله ولم يصل التحقيق إلى إثبات أنها البصرة الحديثة ومنها العُشار. وأنظر سومر ٩ [١٩٥٣] (ص ١٦٢-١٦٦) (الدكتور مصطفى جواد).

(٢) هذه الأنهار التسعة، على ما في ابن سراييون (ص ٢٩)، هي: (١) نهر المرأة (٢) نهر اللدير (٣) بئق شيرين (٤) نهر معقل (٥) نهر الأبله (٦) نهر اليهودي (٧) نهر أبي الخصيب (٨) نهر الأمير (٩) نهر القندل (م).

(٣) الأضطخري ٨١؛ البلاذري ٣٦٢، ابن حوقل ١٦٠ و ١٦١؛ المقدسي ١١٨ و ١٣٥؛ ابن سراييون ٢٩ و ٣٠؛ ناصر خسرو ٨٩؛ القزويني ٢: ١٩٠؛ ياقوت ٣: ٦٧٥؛ ابن بطوطة ٢:

٤٠٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

وكانت أهم الأنهار في شرقي فيض دجلة، على ما ذكّر ابن سراييون، نهر الرّيّان وعليه أو على مقرّية منه مدينتا المفتح والديسكرة ولا يُعلّم موضعها الصحيح، وإن كانت الأولى ذات شأن بحيث غلب أسمها على الفيض فسَمّي دجلة المفتح. وأسفل هذا النهر، نهر بيان وعند فمه بلدةُ بيان على خمسةِ فراسخٍ من الأبلّة بازائها على الفيض. وفي موضعها اليوم ميناءُ المحمّرة على نهر الحفّار وهذا النهر يصل أعالي فيض دجلة بفيض دجيل (كارون). قال المقدّسي: وقد كتّب بعد ابن سراييون بثلاثة أرباع القرن، أنّ هذا النهر، وطوله أربعة فراسخ، قد شقّه عضد الدولة البويهّي. وقبل ذلك بقرن ذكره قدامة باسم «النهر الجديد» وكانت تسير فيه السفن الآتية من البصرة إلى الأهواز وكانت السفن قبل أن يُشقّ النهر العضدي (على ما سمّاه المقدّسي) تذهب في النهر إلى البحر ثم تعود فتدخل من البحر إلى فيض دجلة مارة ببيان إلى الأبلّة (١).

والجزيرة الكبرى التي بين الفيضين (أي فيض دجلة ودجيل)، سمّاها ياقوت ميان روذان (وهو فارسي معناه وسط الأنهار) وقد وصفها المقدّسي بأنها سبّخةٌ في زاويةٍ منها على ساحل البحر مدينة عبّادان، وفي زاويةٍ أخرى عند فيض دجيل سليمانان. وما زالت عبّادان قائمة (٢) ولكنها الآن على فيض دجيل تبعد عن ساحل

---

١٧؛ الطبري ٣: ١٩٨٢.

(١) ابن سراييون ٣٠؛ ابن خرداذبه ١٢؛ قدامة ١٩٤؛ الأصبخري ٩٥؛ ابن حوقل ١٧١؛ المقدّسي؛ المسعودي: التنبيه ٥٢، ياقوت ٤: ٥٨٦.

(٢) اشتهرت عبّادان في العصر الحديث بكونها تنتهي فيها أنابيب النفط الإيراني الممتدة من مسجد

خليج فارس الحالي أكثر من عشرين ميلاً، إذ أن البحر قد انحسر إلى هذا المدى بفعل دلتا النهر العظيم. ومع ذلك فالمُقَدَّسي في المِئَة الرابعة (العاشرة) وصف عبَّادان بأنَّ ليس وراءها بلد ولا قرية غير البحر، فيها صنَّاع الحُصْر من الحلفاء التي تنبت في الجزيرة وحوها مسالْحٌ عظيمة لحراسة فم الفيض. وقال ناصر خسرو، وقد حلَّ فيها سنة ٤٣٨ (١٠٤٧)، أنَّ البحر في زمنه كان يتعد عنها أقل من فرسخين في أثناء الجزر. وقد أقاموا فيه ما عُرِفَ بالخشاب<sup>(١)</sup> وهو بمثابة منار «يَتَكَوَّن من أربعة أعمدة كبيرة من خشب الساج على هيئة المنجنيق وهو مُرَبَّع قاعدته مُتَّسِّعة وقمته صَيِّفة

---

سُليمان إليها مسافة ١٣٧ ميلاً. وبعد أن كانت عبَّادان قرية أصبحت بلدة أهلة بسبب مصافي النفط المنشأة فيها. وصارت ميناء كبيراً تَوَثَّمُه السفن ولا سيما حاملات النفط (م).

(١) إنَّ «الخشاب» تحريف «الخشب» فقد ذكرها المسعودي في المروج (١: ٨٧) من الطبعة المصرية الجديدة بصورة «الخشب» وقال «وخبر الموضع المعروف الحَدَّارة وهي دخلت من البحر إلى البر من نحو بلاد الأبله، وهذه الحَدَّارة اتخذت الأخشاب في فم البحر مما يلي الأبله وعبادان، عليها أناس يوقدون النار بالليل على «خشب» ثلاث كالكرسي في جوف الليل خوفاً على المراكب الواردة من عُمان وسيراف وغيرهما أن تقع في تلك الحَدَّارة فلا يكون لها خلاص». وقال ابن سعيد المغربي في جغرافيته «دار الكتب الوطنية بباريس ٢٢٣٤ ورقة ٧٥» في وصفها «الخشب» وهي علامات في البحر للمراكب وفي شرقي الخشب دجلة الأهواز». وقال ابن الوردي في جريدة العجائب «ومن عبَّادان إلى الخشب - وهي خشب منصوبة في قعر البحر بإحكام وهندسة وعليها ألواح مهندسة يجلس عليها أحراس البحر». وجاء في حوادث سنة ٦٤٤ من كتاب الحوادث الجامعة - ص ١٢ - «وفي هذه السنة وصَلَّت الطيور الحمام من عبَّادان وخشب». وهذه نصوص لا تدع شكاً في حدوث التصحيف فيما نقل منه المحقق لسترنج (الدكتور مصطفى جواد).

٤٠٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

ويرتفع عن سطح البحر أربعين ذراعاً وعلى قمته حجارة وقرميد مُقامة على عمدٍ من خشب كأنها سقف ومن فوقها أربعة عقود يقف بها الحُرّاس ... ففي الليل يشعلون سراجاً في زجاجةٍ بحيث لا تطفؤه الرياح وذلك حتى يراه الملاحون من بعيد فيحتاطون وينجون»<sup>(١)</sup>. وكانت عبّادان كثيرة الجوامع والرباطات ولكنها حين مرّ بها ابن بطوطة في المئة الثامنة كانت قد صارت قريةً كبيرةً بينها وبين الساحل ثلاثة أميال. ومع ذلك فإنّ المستوفي، معاصر ابن بطوطة، قال في عبّادان إنها ميناءٌ كبيرٌ وروى أنّ جبايتها بلغت أربعمئة وواحداً وأربعين ألف دينار بصرف زمنه تُدفع إلى بيت مال البصرة. وكانت ميناء سليمانان على بضعة فراسخ شرق عبّادان، وهي تعد في الغالب من أعمال خوزستان. وما نعرفه عنها أنّ مؤسسها رجل يُقال له سليمان بن جابر الملقّب بالزاهد<sup>(٢)</sup>.

(١) سفرنامه لناصر خسرو الترجمة العربية ليحيى الحشّاب ص ١٠٠ (م).

(٢) البلاذري ٣٦٤؛ الأصبغر ٩٠؛ ابن حوقل ١٧٣؛ المقدسي ١١٨؛ القزويني ٢: ٢٨٠؛ ناصر

خسرو ٨٩ و ٩٠؛ ياقوت ٤: ٧٠٨؛ ابن بطوطة ٢: ١٨؛ المُستوفي ١٣٧؛ المسعودي ١: ٢٣٠.

وأشار ياقوت (١: ٦٤٥) إلى أن من اصطلاح أهل البصرة أن يزيدوا في اسم الرجل الذي تُنسب إليه القرية ألفاً ونوناً، نحو قولهم طلحتان (نهرٌ يُنسب إلى طلحة). وهذا يفسّر صيغة اسم سليمانان وعبّادان وهذه الأخيرة تُنسب إلى عبّاد.

وقد ابتعد الساحل من فم فيض دجلة بمعدل نحو ٧٢ قدماً في السنة أو نحو ميل ونصف ميل في القرن، وهذا هو السبب في ابتعاد عبّادان الآن عن النهر.

قلنا: هناك نظرية جديدة في هذا الموضوع، قامت على نتائج التحريات الجيولوجية التي أجرتها شركات النفط في جنوبي العراق وخوزستان بايران ويحسن بالقارئ مراجعة ما كتبه N. L.



[ ٢٤ ] نص كي لسترنج في كتابه (بلدان الخلافة الشرقية) ..... ٤٠٧

---

Falcon, G. M. Lees في المجلة الجغرافية.

The Geographical Journal, Vol. 118. Part 1: March, 1952. Pp. 24. Ff. Geographical History of  
the Mesopotamian Plains. وعنوان البحث



## من كتاب (رحلة الحدود بين الدولة العثمانية وإيران)

### التعريف بإيالة البصرة

#### الحدود العامة للإيالة

يحدُّ إيالة البصرة (١) في ذلك الوقت (٢) من ناحية الشرق أراضي جُويزة (\*) وفلاحة الداخلتان ضمن إقليم خوزستان (٣) التابع لإيران، ويحدها جنوباً ساحل خليج البصرة، وغرباً صحراء شاسعة، وشمالاً بيوت عشيرتي الأقرع والعفج (٤)

---

(١) علمنا من المهندس المُرافق لنا أن مدينة البصرة تقع على خط طول ٣٠ درجة وعلى خط عرض ثلاثين دقيقة وتسع ثوانٍ؛ أي أنها بالنسبة لمدينة باريس عاصمة فرنسا من نصف الكرة الأرضية. نهاراً تقع على خط طول ٣٢ دقيقة و٥٢ ثانية وعلى دائرة عرض ٤٥ درجة.

(٢) أي وقت تصنيف الكتاب.

(\*) حويزة.

(٣) كلمة من شقين خوز وستان، وخوز مُحَرَّفة عن هوز بمعنى الطائفة أو الخليط أو الجماعة، وستان بمعنى اللواء أو البلد، ويُطلق على هذا الإقليم عربستان أو الأحواز أو الأهواز. انظر: على نعمة الحلو، بلاد الأحواز، الجزء الأول، القاهرة، بدون تاريخ، ص ١١-١٢.

(٤) لفظ العفج المذكور أحياناً يُكْتَب وينطق بين أهالي المنطقة هناك عفك.

٤١٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

التابعتان لبغداد رأساً ويقعان على ضفاف هور<sup>(١)</sup> العفج، المُشعَّب من الرافد المائي الكبير المعروف باسم (دَعَاة) المُتفرِّع من نهر الفرات في مكان يُدأني قصبه حلّة التابعة لبغداد، كما يجدها أيضاً وبطول عدة ساعات الضفة اليسرى لنهر شط الحي المُتفرِّع من نهر دجلة ويتحد مع نهر الفرات، ويجدها أيضاً الأراضي المعروفة باسم [عمارة] الموجود بها بيوت عشيرة بني لام التابعة لبغداد.

وتضم إيالة البصرة مدينة البصرة نفسها، والمقاطعات التابعة لها، وعشائر مَنْتِفِك، وعدة سناجق تابعة لها وهي الزبير والكويت ولواء حفار ودوقان وقَبان، وتوابعها، وجزيرة الخضر والمحمّرة وسنجق نشوه ومركز شط العرب البحري.

### الأوصاف السابقة والحالية للبصرة

المشهور أن بناء مدينة البصرة كان عام (١٤هـ) في عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وعلى بالرغم من أن كتب التاريخ تذكر أنها كانت عامرة فيما مضى، فإن أركان عمرانها تزلزلت بسبب تعدي عشائر العُربان عليها منذ فترة، وكذا تفشي الوباء بها في أواخر حكم المرحوم داود باشا، وبخلاف تلك الأسباب المذكورة تحوّل ما تَبَقَّى بها من عمران إلى حال الاضطراب، من كثرة عدد الوفيات بسبب تلوث هوائها نتيجة

---

(١) يفيض نهر دجلة والفرات بالقرب من بغداد وفي المنطقة الممتدة بين بغداد والبصرة، وتغمر المياه كافة الصحارى الموجودة هناك، وبعد أن تَمر المياه من الأحراش والمستنقعات الموجودة هناك يُصب باقى المياه في المجرى الطبيعي للنهرين المذكورين، وقد أوضحنا أنه يُطلَق على الأماكن التي تجرى فيها المياه وتسير بين الأحراش (هور).

[ ٢٥ ] من كتاب (رحلة الحدود بين الدولة العثمانية وإيران) ..... ٤١١

للمياه الراكدة التي سنوضحها فيما بعد. وعلى هذا يمكن أن يصل عدد المنازل بها (٢٠٠٠) منزل فقط، منها خمسمائة أو ستائة منزل تقريباً على هيئته وحالته القديمة، وهي المباني التي بُنيت بالحجارة أو الطوب، أما باقى المنازل فهي عبارة عن أكواخ مصنوعة من الخوص والغاب، في أراضي حدائق النخيل، يُطلق على الواحدة منها لفظ (صريفة) (١). وبجوار المنازل القديمة المبنية بالحجارة، يُوجد سوق جميل، تمّ بناء المحلات فيه على خط مستقيم. وهو سوق مُغطى بقبة، طوله ستائة خطوة تقريباً، بجواره جامع ومدرسة من آثار مُتسلّم البصرة الأسبق عزيز أغا الذي كان من مماليك داود باشا، والسوق والجامع المذكوران من أكبر أسواق وجوامع البصرة، وبخلاف تلك الأبنية يُوجد بالمدينة العديد من الجوامع والمدارس الأخرى، وتنتشر الأسواق الصغيرة في كل مكان بالمدينة وحول السوق المذكور سابقاً، حيث يُوجد بها حوانيت تجار الأقمشة والبقالين وبائعي السمك وبائعي القمصان وغيرهم، ومكان لصنع الحصير، وبالمدينة حَمَّامان، وعدد من النُّزل (\*)، وبساتين النخيل وحدائق الفاكهة.

### المحاصيل والتجارة والصناعات المحلية بالبصرة

لا يُوجد في البصرة قماش يليق بالذكر، إلا أنهم يقومون بنسج أقمشة تفيدهم في صنع العباءات والملابس وكلها لاستعمال الأهالي، معظم الأقمشة التي يبيعها التجار

---

(١) صريفة مفرد جمعها صرايف.

(\*) أي الفنادق.

٤١٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

هناك أقمشة الهند وحلب والشام وديار بكر، وأفضلها قماش الهند. وأكثر الأشياء مبيعاً في الحوانيت الأخرى الأسماك، أما التمر فهو أكثر المحاصيل إنتاجاً هناك، ولأنّ باقي المحاصيل الأخرى لا تفي بالإحتياجات المحلية، لذا يُجلب معظمها من بغداد وتوابعها، ومن الأماكن الخاضعة لسيطرة عشيرة منتفك ثم تُباع بالبصرة، كما يتم إرسال كمية من محصول تمر البصرة إلى إيران عبر نهر كارون ليُباع هناك، وقليلٌ منه يُنقل إلى نواحي الهند عن طريق خليج البصرة وشط العرب (١).

ويقوم الأهالي بتغذية دوابهم بالبرسيم الذي يزرعون، كما يُغذّون منه الدواب التي يشتريها منهم لاعبو السيرك، وذلك حتى يقوموا ببيعها في بلاد الهند، والبرسيم نباتٌ مفيد جداً للحيوانات، وبالبصرة نوع من الفاكهة يُسمّى الليمون والتورنج والموز، ولأنّ الموز من الفاكهة الخاصّة ببلاد المناطق الحارة؛ فإنه لا يُوجد في استانبول الناضج منه، ويمكن تعريفه على أنه نوعٌ من الغاب يحتاج إلى مياه كثيرة، وفي حين يبلغ طول شجرة الموز باعاً ونصفاً، نجد أوراقها عجيبية الشكل على شكل ورق القصب، يبلغ طولها باع، وعرضها مقدار شبر، ويقولون إنه بالرغم من أن الموز يُزرع في أي موسم بخلاف الشتاء القارص الذي لا يُوجد فيه موز، فإن شجرة الموز تثمر في ختام السنة التي تُزرع فيها، ويقولون لو تم تناول فاكهة الموز بنية فاكهة أخرى تُعطي مذاقها، ويعرفونها على هذا الشكل نظراً لأنها فاكهة لا أصل لها، ومذاقها لا يشبه

---

(١) يُطلق على نهري دجلة والفرات بعد اتحادهما وحتى خليج البصرة اسم شط العرب.

مذاقاً آخر.

### معلومات إضافية في موضوع التجارة

كانت عشائر منتفك المجاورة للبصرة وسائر عشائر العُربان الأخرى لا تُعطي أهمية لأي عملة سوى العملة فئة الأربعين، التي سُكَّت في عهد السلطان عبد الحميد طاب ثراه، والمتداول بسعر ثمانية قروش لكل عملة منها يُطلق عليه (شامية) وهي معروفة باسم جرش التي تعني قرش، والمتداول بسعر عشرة قروش منها يُطلق عليه (فوارى) (١). ولعدم وجود عملات سوى العملات الأجنبية مع التجار الذين كانوا يفدون من الهند لشراء التمر الذي يُعد من المحاصيل المحلية للبصرة، فإنهم كانوا يضطرون إلى تغيير العملة التي في أيديهم وهي العملة الأجنبية إلى العملة المحلية وذلك بترغيب أصحاب التمر في العملات الأجنبية.

وعلى هذا الحال تشكَّلت تجارة مختلفة كما سيوضح لاحقاً من تبديل تلك العملات بين البائعين والمشتريين. وكانت طائفة اليهود والأشخاص الذين هم على دراية بأمور التجارة تقوم بتجميع كمية من الأموال المحلية المذكورة آنفاً التي تُسمَّى (شامية) وهي العملة المتداولة والرائجة بين العشائر المقيمة هناك، لتبديلها بتلك النقود الأجنبية الموجودة في يد التجار، وبمرور الوقت يستبدلون العملات الشامية بتلك العملات الأجنبية بعد أن تنخفض أسعار العملات الأجنبية إلى سعرٍ أقل من

---

(١) ربما تكون تحريفاً لكلمة "فلوري".

٤١٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةٍ أجنبيةً

خمسة أو ستة أو ثمانية قروش في المائة، ثم بعد ذلك يبيعون تلك العملات الأجنبية التي حصلوا عليها بسعرها كاملاً إلى التجار المختلفين، كما يبيعونها بسعر أعلى من سعرها الرائج في أوقات غلاء الذهب إلى التجار والحجاج وإلى صندوق المال إذا تطلّب الأمر، وقد كونوا ثروة هائلة من هذا، ومما لا شك فيه أن العربان والعشائر بتلك الحرفة الشيطانية قد منعوا الأهالي من التعرف على سائر العملات الأجنبية الأخرى، حتى إن العملة التي كانت متداولة بين الناس فئة المائة ذهب الخالصة العيار المعروفة، باسم المجيدية التي سُكّت في دار الضرب المصونة من الغش بالسلطنة في عهد ولي نعمتنا صاحب الشوكة السلطان عبد المجيد حفظه الله من كل الآلام، كانت تُبدّل بالعملة الشامية فئة الثمانين وتسعين قرشاً.

### معلومات إضافية

نظراً لأنّ العملة الشامية المذكورة كانت تُستخدم بشكلٍ دائمٍ في بغداد، وفي المنطقة الممتدة بين بغداد والبصرة، فإن كميةً كبيرةً منها تُلفت منذ سكها وحتى الآن، ولصدور الفرمانات السنّية بشكلٍ دائمٍ بتغيير تلك العملات، فإن معظمها قد أُلقي استبدالاً، كما أن الكثير منها تم تحويله إلى عملة بغداد، حيث كان يُسك بها العملة قديماً. ونظراً لكثرة تداول تلك العملة، وعدم اعتراف العرب بأي عملة سوى تلك العملة الشامية، فإن أرباب الصرافة فطنوا إلى أنهم لن يتركوا تلك العملة الشامية.

### الفوائد الناتجة من تأثير المد والجزر

عندما يحدث المد والجزر في المحيط تُرى آثاره في خليج البصرة، ونهر شط العرب



[ ٢٥ ] من كتاب (رحلة الحدود بين الدولة العثمانية وإيران) ..... ٤١٥

الذي يصب فيه، وتسير المياه من خلال النهر المذكور إلى مدينة البصرة، ومدينة القورنة الواقعة أعلى مدينة البصرة بثمان ساعات، وتصل المياه حتى محلة النبي عزيز الواقعة على نهر دجلة أعلى مدينة القورنة، كما يشعر المقيمون بمنطقة سوق الشيوخ (١) وما حولها من الأراضي الواقعة على نهر الفرات بارتفاع منسوب المياه الذي يحدث في النهر بواسطة المد والجزر.

هذا ويحدث المد والجزر مرتين خلال [الأربعة] والعشرين ساعة (٢)، فمن بداية وقت المد وحتى مرور ست ساعات يكون البحر في تمامه، ثم يبدأ الجزر بعد ذلك؛ أي تنسحب المياه شيئاً فشيئاً، وفي خلال ست ساعات يكون الجزر في تمامه أيضاً. وتقام المد لا يكون بنسبة واحدة، بل يكون بنسبٍ متفاوتة، فيكون المد زائداً في بدايات وأواسط وأواخر الشهور العربية، أي عندما يكون القمر بدرًا ومُحاقاً، وعادة ما تزيد المياه في البصرة وما حولها في شهر مايو عن بقية فصول السنة، ونتيجة للتجارب التي قُمنّا بها وما سمعناه من أهل العلم والخبرة بأمور البحرية توصلنا إلى أن منسوب المياه في البصرة وما حولها في الأوقات العادية يصل إلى ثمانية أقدام، يرتفع هذا المنسوب إلى

---

٩ مقاطعة سوق الشيوخ هي مقاطعة تبعد عن البصرة برأ بمقدار ٣٠ ساعة في الناحية الشمالية الغربية منها وتقع تحت إدارة شيخ مشايخ منتفك.

(٢) هذا هو ما ذكر في رحلة ناصر خسرو عن المد والجزر بالبصرة، فقد ذكر أنه يحدث عادة مرتين كل أربع وعشرين ساعة، فيرتفع الماء عشرة أذرع، وحين يبلغ الارتفاع أقصى مداه يبدأ الجزر بالتدرج، فينخفض الماء عشراً أو إثني عشرة ذراعاً. انظر: ناصر خسرو علوي سفرنامه، ترجمة: يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٩٣، ص ١٦٣.

إثني عشر أو خمسة عشر قدماً في بداية ووسط الشهر، كما أن حدوث المد لا يكون دائماً في وقتٍ واحد بل يتغيّر مواعده طَبَقاً لِإختلاف أوقات ظهور وزوال القمر.

على سبيل المثال لو حدث المد في يوم ما الساعة العاشرة يكون في اليوم التالي له الساعة العاشرة وثمان وأربعون دقيقة، ويستمر على هذا ليلاً ونهاراً. وبالرغم من أن الدخول إلى مدينة البصرة كان يتم عن طريق السير لعدة دقائق من الضفة اليمنى للنهر الكبير المُسمّى شط العرب الناتج من اتحاد نهري دجلة والفرات، ومن نهري سوب وكارون اللذين يصبان فيهما، فإنه في الأزمنة الماضية تم حفر رافد مائي<sup>(١)</sup> يمتد من نهر شط العرب إلى وسط المدينة، أي لمسافة ثلاثة أرباع ساعة، وذلك لتسهيل نقل البضائع التجارية والإحتياجات الضرورية إلى المدينة، فعند حدوث المد يمتلئ الرافد المذكور بالمياه، الأمر الذي يجعله يستطيع حمل السفن التي تزن ثلاثة أو أربعة آلاف كيلة، ثم تُسحب السفن بالحبال لمسافة عشرين دقيقة بطول الرافد حتى تصل إلى داخل مدينة البصرة، ثم تُنقل البضائع بالقوارب الصغيرة<sup>(٢)</sup> الراسية على ضفتي الرافد إلى داخل المدينة لمسافة نصف ساعة، وعلى ذلك يصلون بحمولاتهم إلى موانئ السوق، وإلى أبواب النزل المُطلّة على هذا الرافد، وإلى سائر المحال الأخرى المطلوبة.

وفي وقت الجزر يتم إرساء تلك القوارب على الرمال، ويتم إنزالها مرةً أخرى عندما يحدث المد، وهناك نوعان من القوارب يُطلَق على أحدهما اسم (مشحوف)

(١) يُطلق على الرافد المذكور نهر عشار، وعلى مضيقه مضيق عشار.

(٢) يعبر عن تلك الزوارق باسم مردي.

[ ٢٥ ] من كتاب (رحلة الحدود بين الدولة العثمانية وإيران) ..... ٤١٧

والأخر(بَلَم) تسيّر تلك القوارب حتى نهاية هذا الرافد المذكور، كما تبحر أيضاً في الأفرع المائية الصغيرة والكبيرة المُتفرّعة منه التي تصل إلى الحدائق والمَحلات الأخرى، ومن هنا يتضح لنا الفائدة العظيمة للمد والجزر التي تُمكن في تسهيل دخول السُفن والقوارب إلى داخل المدينة وقت المد، والعمل على تسهيل خروجها إلى الخارج عند حدوث الجزر وتراجع المياه كما أن هناك فائدة أخرى للمد والجزر بخلاف تسهيل إدخال وإخراج المراكب والسُفن وهي ري الأراضي الزراعية والبساتين الواقعة في البصرة، والأماكن المُلحقة بها وكذا الأراضي الواقعة في مقاطعة القورنة، وكل الأراضي الواقعة على ضفتي نهر شط العرب بدءاً من مدينة البصرة وحتى خليج البصرة.

وكذا ري الأراضي الواقعة على نهر الكارون لمسافة ثلاث أو خمس ساعات وكل الأراضي والبساتين والحقول الواقعة على نهر بهمشير<sup>(١)</sup>، وقد كانت هناك مَشقة في استخدام تلك المياه للري بالوجه المطلوب عندما كان هناك رافد مائي واحد فقط، إلا أن الأمر اختلف بعد حفر عدة أفرع مائية أخرى، وأصبح الأمر سهلاً في فتح وإغلاق مضائق تلك الروافد واستخدامها سواء في ري النخيل أو ري سائر المحاصيل الأخرى.

---

(١) نهر بهمشير هو نهر يتفرّع من نهر الكارون، يمر من الجانب الشرقي لمدينة الخضر حتى يصب في خليج البصرة.

## أنواع السفن والزوارق "القوارب"

السفن التجارية في البصرة ثلاثة أنواع، يُطلق عليها بَغلة، وبوت، وشويعي، النوع الأول منها وهو المعروف ببغلة يستطيع حَمَل من خمس عشرة ألف كيلة، كما يستطيع أن يصل إلى الأماكن الواقعة على نهر شط العرب وخليج البصرة والمحيط الهندي مثل القورنة، والكويت، والبحرين، والإحساء، وبومباي ويستطيع النوعان الآخران، وهما بوت وشويعي أن يصلا إلى الأماكن الواقعة على نهر شط العرب، وإلى بغداد وسوق الشيوخ والحلّة عن طريق نهري الفرات ودجلة، ويصلا أيضاً إلى شوشتر وذفول من الممالك الإيرانية عن طريق نهر كارون، كما يتم أيضاً نقل البضائع والمسافرين على حسب نوع الزوارق عن طرق الأنهار المذكورة والأهوار بواسطة زوارق اصغر حجماً من تلك السفن، ويستخدم الأهالي في تنقلهم من البصرة وحتى سوق الشيوخ والمحمّرة وجزيرة الخضر وشوشتر وذفول وكل الأماكن الواقعة في ناحية الجزيرة (١) القوارب الصغيرة التي يُطلق عليها لفظ (بلم)، وذلك لسببين: الأول خوفهم من العربان الموجودين في الطرق الصحراوية، والثاني عدم وجود مأكّل أو مشرب في تلك الطرق الصحراوية.

وقد كان للدولة العلية قبل ذلك أسطول دائم التواجد في البصرة. إلا أنه وبمرور الأيام قلّ عدد سفنه، حتى أنه لا يُوجد هناك اليوم من السفن التي يمكننا أن نطلق

---

(١) الجزيرة اسم أطلق على القطعة الواقعة بين نهري دجلة والفرات بدءاً من إلتقائها في منطقة القورنة وحتى مدينة بغداد [هذه المعلومة غير صحيحة].

[ ٢٥ ] من كتاب (رحلة الحدود بين الدولة العثمانية وإيران) ..... ٤١٩

عليها سفن كبرى سوى خمسة أو ستة سفن، وبالرغم من أنها في حالة شبه متهالكة فإنَّ السلطنة السَّنية عَيَّنت عليها في إدارة البصرة القديمة موظفين كبار يُطلق عليهم القبطان باشا، كما كانت تُوجد ترسانة عامرة خاصَّة في مكان يُسمَّى مناوي، كانت أحشائها تُجلب من نواحي الهند تصنع فيها السُّفن المناسبة للاستعمال في تلك الأماكن، ظلت تلك الترسانة مُعطلَّة لفترةٍ طويلة مما تسبب في عدم انتظام العمل بها، حتى أن الدولة العلية قامت قبل أربع سنوات بتعيين مجموعة من المراقبين والضباط والأمراء البحريين تحت رئاسة قبطان بحري عليهم، وعلى الرغم من أن شؤون تلك الترسانة خلال الفترة التي كُنَّا موجودين فيها هناك فلا تزال أمورها غير مستقرة، إلا أنه باتخاذ الدولة تلك الإجراءات المناسبة، فمما لا شك فيه أن أسطول البصرة سيعود أحسن حالاً مما كان عليه، ولا داعي هنا لذكر الفوائد والمنافع التي ستعمُّ من ذلك.

### أسباب سوء الأحوال في البصرة عاماً بعد عام

تقع السدود المعروفة باسم سدود الجزائر (١) في أماكن قريبة من قصبه سوق الشيوخ، وقد لوحظ أن أماكن كثيرة من تلك السدود تَهَدَّمت، لأنَّ يد التعمير لم تمتد إليها منذ فترة طويلة، وبخلاف تلك الأماكن المُتهَدَّمة نتيجة لعدم عمل ترميمات بها، كانت أعمال التخريب التي كانت تقوم بها العربان تُلحق الضرر بتلك السدود كما

---

(١) يطلق اسم سدود الجزائر على السدود التي أنشئت أمام مقاطعات الجزائر التابعة لعشيرة منتفك، في المنطقة الممتدة بين سوق الشيوخ ومدينة البصرة على يمين نهر الفرات.

٤٢٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

سيأتي تفصيله فيما بعد، وعند حدوث الفيضان بنهر الفرات كانت المياه تصل إلى قسبة الزبير، وإلى حائط القلعة بالبصرة، وإلى مقاطعة الدواسر الواقعة على نهر شط العرب في مكان يدنو من البصرة بخمس أو ست ساعات، أي أن المياه كانت تغمر الصحاري الممتدة لمسافة ثلاثين أو أربعين ساعة. وتُحدِّث تلك المياه ما يعرف بالأهوار التي يستخدم الأهالي المسير فيه في فصل الشتاء القوارب الصغيرة والزوارق الأكبر نسبياً.

وعندما ينقضي موسم الفيضان، تظل المياه راكدة في تلك الأهوار بين المستنقعات والأحراش ولوجود بقايا الحيوانات والنباتات المتحللة بين تلك الأحراش والمستنقعات يحدث تلوثاً في الجو والهواء الأمر الذي يعمل على ظهور أمراض كثيرة أهمها الحمى والسقمة ويتوفى كل عام أناس كثيرون نتيجة لذلك.

### الضرر الذي لحق بمياه البصرة ونتائجه

تقع مدينة البصرة بالقرب من نهر شط العرب، كما ذكر سابقاً، ولا تُوجد مياه صالحة للشرب هناك سوى مياه هذا النهر المذكور، ولأن نهر شط العرب تكون عن اتحاد نهرى دجلة والفرات- ومياههما [عذبة] مُستساغة ونهري السويب وكاروان اللذين يصبان في شط العرب ومياههما أيضاً عذبة مستساغة، فقد كان من الطبيعي أن تكون مياه نهر شط العرب أيضاً عذبة مستساغة نظراً لأنَّ الأنهار التي يتكوّن منها كذلك. إلا أن الواقع؛ أن مياه نهر شط العرب غير سائغة للشرب وذلك بسبب كثره

[ ٢٥ ] من كتاب (رحلة الحدود بين الدولة العثمانية وإيران) ..... ٤٢١

الأفرع المائية التي تتفرع من يمين ويسار نهر دجلة أسفل منطقة كوت (١) العمارة، وكذا الأفرع التي تتفرع من يمين ويسار نهر الفرات أسفل منطقة الحلة وتنتشر في الصحارى وفي المنطقة المعروفة بالجزيرة، وهو ما يجعل المنطقة هناك تبدو وكأنها بحيرة، ونظراً لكثرة الأحراش والمستنقعات الموجودة على تلك الأفرع المائية فإن المياه تمر بها والمتبقي منها يصب بعد ذلك في النهر هذا بالإضافة إلى اختلاط مياه نهر شط العرب بمياه البحر عند حدوث المد، وهو ما يجعل المياه بها غير صالحة للشرب. ويقوم الأثرياء هناك بأخذ المياه من نهر شط العرب ويرشحوها وذلك بوضعها في أوانٍ كبيرة ثم يقومون بوضع أكواب تحت تلك الأواني، ويشربون المياه التي تترشح من الأواني الكبيرة وهذه المياه مستساغة للشرب إلى حد ما، أما الفقراء هناك فيشربون من مياه شط العرب على الرغم من طعمها السيئ لأنهم لا يملكون وقتاً لاستخلاصها.

ولأن نهر شط العرب ينبع من خارج مدينة البصرة فإن أهالي المدينة لا يستطيعون الحصول على مياهه، ولكنهم يحصلون على المياه من الرافد المُسمّى (خرق عشار) المار الذكر. ومن الأفرع المائية النابعة من الرافد المذكور، ولأن الأهالي يلقون بالمخلفات في خرق عشار المذكور، فإن مياهه تُعد أسوأ حالاً من مياه شط العرب، لذلك لا داعي للتعجب من تلك الحالة السيئة التي آلت إليها مدينة البصرة. وقد يسأل سائل متعجباً كيف يعيش الأهالي هناك على تلك الحالة المذكورة؟ والجواب على ذلك طبقاً لإحدى

---

(١) لفظ كوت على وزن حوت أصله هندي ويعني الحصار أو القلعة وتُطلق كلمة كوت على القلاع المبنية بالأجر في منطقة العراق.

٤٢٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

الروايات التي سمعناها أن خرق عشار المذكور، كان قديماً بمثابة مضيق لشط العرب. وكان ينبع من ناحية أخرى. ومياهه متجددة دائماً، وأخيراً فسد هذا المضيق. وثم رواية أخرى تقول أن مياهه كانت فرعاً من أفرع خرق عشار وأنه طوال مدة الفيضان كانت المياه تصب فيه من مضيق عشار، وقد تزامن وقت إصلاح مياه الرافد المذكور، على الصورتين المذكورتين مع وقت انتشار الطاعون في أواخر عهد داود باشا، لذا لم يُلتفت إليه وأُغلق على حالته، ولأنّ بعض أعيان البصرة كانوا يزرعون النخيل على طول مجرى الأفرع المائية للرافد المذكور، فأنهم تقدموا بمذكرة لفتحه من جديد على يد المتسلمين إلا أننا سمعنا أن هذا الطلب رُفض لإحساسهم بأنّ في هذا الأمر منفعة شخصية لأصحاب بساتين النخيل.

### أحوال ضفة قرية كُردلان

تقع قرية كردلان على الضفة اليسرى لنهر شط العرب، في الناحية المواجهة تماماً للبصرة، والماء والهواء بها أفضل من البصرة، لذا يذهب الأهالي من البصرة إلى كردلان لتغيير الجو وللاستجمام، وعلى الرغم من أن مياه شط العرب في ناحية القرية المذكورة أفضل منها في البصرة بسبب قلة الأهوار واتحاد مجراه هناك بنهر دجلة، فإنّ مياه قرية كردلان تُعد أكثر ملوحة من مياه البصرة بسبب تأثرها بحركة المد. وقد أقمنا على ساحل شط العرب بالقرب من قرية كردلان لمدة ثلاثة أو أربعة أيام في شهر مايو وشعرنا برطوبة يُطلق عليها الرطوبة الآشورية [الشرجية]. وقد كانت تلك الرطوبة عالية لدرجة جعلت رؤوسنا تتصبب عرقاً، وكذا المفروشات التي كُنّا نجلس عليها؛



[ ٢٥ ] من كتاب (رحلة الحدود بين الدولة العثمانية وإيران) ..... ٤٢٣

كانت تَبْتَل من العرق، وتنخفض تلك الرطوبة في أوقات الليل وتقل تماماً مع شروق يومٍ جديد، وبداية من اليوم الثامن عشر من شهر مايو تهب رياح يطلقون عليها رياح (بارح الكبرى) إذا استمرَّت ستين يوماً، أما إذا كانت عشرين يوماً فيُطلق عليها (بارح الصغرى)، ولتصادف وجودنا في هذا المكان مع بدء هذا الموسم رأينا تلك الرياح تهب من وقت الضُحى وحتى المساء فتجعل الصحارى هناك كُلهَا غُبار كثيف، يغطي وجه السماء وكأن السحب الكثيفة تجمَّعت في أيام الشتاء القارصة، كان هذا الغبار يغطي رؤوسنا ووجوهنا مثلما يغطي الدقيق وجوه ورؤوس عمال الطواحين، وعندما يدخل هذا الغبار إلى عيون أي شخص يُدمعها، وتكون الدموع مختلطة بهذا الغبار فيبدو الشخص كأنه يبكي طيناً.

### سكان البصرة وملابسهم وعاداتهم

انقرض أهل البصرة الأصليون، ومعظم ساكنيها الحاليين من العربان والأغراب الذين وفدوا إليها من أماكن أخرى مجاوره واستقروا بها، وقد كان بالبصرة قديماً أغنياءً وتجار وعلماء كثيرون، أما الآن فلم يَبْقَ منهم إلا القليل. ومعظم أهالي البصرة من المسلمين، كما تُوجد بعض الطوائف اليهودية والكلدانية، وعلى الرغم من أن قسماً من مسلمي البصرة على المذهب الشافعي، والمالكي، والحنبلي، فإنَّ الأغلبية منهم سلكت المذهب الشيعي. ولغة أهل البصرة الأساسية هي اللغة العربية، ومنهم مَنْ يتحدث اللغة الفارسية والتركية، ولأنَّ مدينة البصرة من البلدان الحارة؛ فإنَّ أهلها في فصل الصيف يجلسون في مكان يُطلق عليه السرداب (يقع تحت الأرض)، وذلك من

٤٢٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

وقت العصر، وحتى الساعة التاسعة أو العاشرة، وفي المساء يجلسون في الأماكن المفتوحة فوق الأسطح بل ينامون فوقها أيضاً.

أما ملابسهم فيرتدي أهل البصرة (السروال) ونوعاً من القمصان له أذرع طويلة على شكل المثلث، وجبّة، وعباءة، وفي فصل الصيف يرتدون مُشَلحاً أسوداً أو بعض الأثواب المُفصّلة على شكل المُشَلح من الصوف، ويضعون على رؤوسهم الشال، والعقال أو عمامة بيضاء، وأغلب الأهالي يُخَضّبون شعورهم ولحاهم بالحِنَّاء وغيرها، كما أن بعضهم يرتدي سروالاً وقميصاً عليه جلاباب طويل، ويلفون رؤوسهم بمنديلٍ على شكل مثلث لونه أحمر أو أصفر مصنوع من الحرير؛ فيكون هذا المنديل بمثابة العمامة عندهم ويصنعون أيضاً رباطاً من وبر الهجن يلفون بعضه على بعض ثم يربطونه بالحرير الأحمر ويطلقون عليه لفظ (عقال). كان هذا العقال خاصّاً بالبدو الأعراب، ثم بدأ الأهالي الأصليون يستخدمونه مثلهم وذلك لأنّ البدو كانوا دائمي الهجوم على الأهالي، ولأنّ المغلوب دائماً ما يُقلّد الغالب؛ فقد بدأ الأهالي أيضاً يقلدون البدو في لبس العقال، وبعضهم يضع على رأسه الكوفية فوق هذا العقال عندما يخرجون إلى المقابر، ويتفخرون بالخيول التي يمتلكونها وبخاصّة الأنواع الجيدة منها، كما يقوم بعض الأهالي باصطياد بعض أنواع الطيور الجارحة أما من أعشاشها وهي صغيرة، وإما بواسطة الفخاخ الهوائية التي يُطلق عليها (طور)، ويقومون بتعليم تلك الطيور الصيد، ويصطادون بها الضباء، والأرانب، والبط، والدراج، والحباري، والغربان، والإوز، ويقوم الأهالي بهذا الصيد على سبيل اللهو والتسلية، وأكثر مَنْ يميل إلى تلك الهواية الوجهاء والأغنياء حتى إنهم يهدونها بعضهم إلى بعض، وللطيور

[ ٢٥ ] من كتاب (رحلة الحدود بين الدولة العثمانية وإيران) ..... ٤٢٥

الجارحة مُعلّمون متخصصون يقومون بتعليمها، إما النساء فيرتدين عند خروجهن إلى الشارع ملاءات مربعة إما عن لون أبيض وأسود وإما عن لون أبيض وأحمر، وإما أبيض وأصفر ويغطين وجوههن بنقابٍ أسود، وعلى الرغم من أن منظر هذا النقاب ليس جميلاً فإنه شيءٌ حسن لما فيه من التستر والوقار. وتترزين النساء بتعليق الكردان على رؤوسهن والحلي على صدورهن، وتعليق حَلَق على الأنف، وخاتم في الأصبع، وخلخال في القدم، وأكثر أطعمة أهل البصرة اللحوم والأرز، والبُرغل، أما الخضروات فيستخدمونها قليلاً جداً.

### المقاطعات التابعة للبصرة وتوابعها

سجّل بعدد السكان والمناول وأسماء المقاطعات التي تمكّنها من التحقق منها وهي المقاطعات التي كانت تتبع البصرة في الأصل، ومنها ما يقع تحت إدارة البصرة، وما يقع تحت إدارة مشايخ منتفك والكويت، وما يقع تحت إدارة المُحمّرة منذ أن أصبحت تحت حكم إيران.

### المقاطعات التي تتبع إدارة البصرة حالياً من المقاطعات المذكورة

مقاطعة سراجي	وتقع بالجانب الأيمن لشط العرب، وبها ١٢٠٠ نسمة.
مقاطعة يهودي	وتقع بالجانب الأيمن لشط العرب، وبها ٢٠٠ نسمة.
مقاطعة سيحان	وتقع بالجانب الأيمن لشط العرب، وهي خالية من

السكان.

٤٢٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

مقاطعة كردلان بالجانب الأيسر لشط العرب، عدد السكان بها مجهول.

مقاطعة دعيجي بالجانب الأيسر لشط العرب، عدد السكان بها مجهول.

مقاطعة جزيرة البوارين بالجانب الأيسر لشط العرب، عدد السكان بها

مجهول.

مقاطعة جزيرة اللّافية وتقع وسط مياه شط العرب، وبها ٥٠ نسمة.

مقاطعة حمدان وتقع بالجانب الأيمن لشط العرب، وبها ٤٠٠ نسمة.

مقاطعة زين وتقع بالجانب الأيمن لشط العرب، وبها ٧٠ نسمة.

مقاطعة دواسر وتقع بالجانب الأيمن لشط العرب، وبها ٤٠٠ نسمة.

مقاطعة شط العرب بالجانب الأيسر لشط العرب، عدد السكان بها مجهول.

مقاطعة بور [بوارين] بالجانب الأيسر لشط العرب، وعدد السكان بها

مجهول.

مقاطعة جزيرة العين وتقع وسط المياه، وبها ١٥٠ نسمة.

مقاطعة جزيرة المصطفاغية وتقع وسط المياه، وبها ١٠٠ نسمة.

المقاطعات التي تتبع عشيرة منتفك وتقع داخل إيالة البصرة

مقاطعة كوت فرنكي (١) بالجانب الأيمن لشط العرب، وبها ٢٠ نسمة

---

(١) تقع مقاطعة كوت فرنكي بين حدائق النخيل التابعة لشيخ منتفك على الضفة اليمنى لنهر شط

[ ٢٥ ] من كتاب (رحلة الحدود بين الدولة العثمانية وإيران) ..... ٤٢٧

- مقاطعة ديره [الدير] بالجانب الأيمن لشط العرب، وبها ١٥٠ نسمة
- مقاطعة هارثة بالجانب الأيمن لشط العرب، وبها ٥٠٠ نسمة
- مقاطعة مهيقران [مهيجران] بالجانب الأيمن لشط العرب، وبها ٢٠ نسمة
- مقاطعة يوسفان بالجانب الأيمن لشط العرب، وبها ٢٥٠ نسمة
- مقاطعة أبو الخصيب بالجانب الأيمن لشط العرب، وبها ١٢٠٠ نسمة
- مقاطعة الفياضة [الفياضية] بالجانب الأيمن لشط العرب، وبها ٤٠ نسمة
- مقاطعة مطوعة بالجانب الأيمن لشط العرب، وبها ٢٠ نسمة
- مقاطعة كتيبان بالجانب الأيسر لشط العرب، عدد السكان مجهول
- مقاطعة أبو مغيرة ونهر خوز بالجانب الأيمن لشط العرب، وبها ٦٠٠ نسمة
- مقاطعة العامية بالجانب الأيمن لشط العرب، وبها ٤٠ نسمة
- مقاطعة بلجان بالجانب الأيمن لشط العرب، وبها ٣٠ نسمة
- جزء من مقاطعة دعيجي بالجانب الأيسر لشط العرب، عدد السكان

مجهول

مقاطعة معامر بالجانب الأيمن لشط العرب، وتتبع هذه المقاطعة قسبة

---

العرب أعلى مدينة البصرة لساعتين تخميناً، وهي عبارة عن محل به ميناء على شط العرب به مخازن متعددة محاط بأربعة حوائط، قامت القنصلية الإنجليزية ببناؤه، وهناك ترسو السفينة الإنجليزية.

٤٢٨ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

الكويت التابع لإيالة البصرة، وعدد السكان بها ٢٥٠ نسمة.

المقاطعات التي كانت تتبع البصرة قبل ذلك، وتتبع إدارة المحمّرة منذ أن  
دخلت المحمّرة تحت سيطرة إيران

مقاطعة تياركري وخميسة      وتقع على الجانب الأيسر لشط العرب

مقاطعة أبو جُذيع      وتقع على الجانب الأيسر لشط العرب

مقاطعة شاخورة      وتقع على الجانب الأيسر لشط العرب

مقاطعة خيين      وتقع على الجانب الأيسر لشط العرب

مقاطعة دربند      وتقع على الجانب الأيسر لشط العرب

مقاطعة المعموري      وتقع على يمين مضيق نهر كارون

مقاطعة حيزان      وتقع على يمين نهر كارون

مقاطعة آسياب      وتقع على يمين نهر الكارون

مقاطعة صدر الحفّار      وتقع على يمين نهر الكارون

مقاطعة أم التلول      وتقع على يمين نهر الكارون

مقاطعة قصبه امنيعات      وتقع على يمين نهر كارون

مقاطعة كوت قمنه      وتقع على يسار نهر كارون

مقاطعة مصلاوي      وتقع على يسار نهر كارون

مقاطعة مندوان      وتقع على يسار نهر كارون

- مقاطعة العربصن      وتقع على يسار نهر كارون  
مقاطعة علي باشا      وتقع على يسار نهر كارون  
مقاطعة البوعبرته      وتقع على يسار نهر كارون  
مقاطعة الحديد      وتقع على يسار شط العرب  
مقاطعة سرحانية      وتقع على يسار شط العرب  
مقاطعة المحمولة      وتقع على يسار شط العرب  
مقاطعة المفتية      وتقع على يسار شط العرب  
مقاطعة كوت النواصر      وتقع على يسار شط العرب  
مقاطعة نهر يوسف      وتقع على يسار شط العرب  
وبذلك يكون مجموع محاصيل مقاطعات المحمّرة:

التمر ٣٦٣٩ غرارة / ١٤٧٦٨٠٠ رومي / ٢٩٥٣ كيسة و ٣٠٠ كسور.

المقاطعات التي كانت تتبع في الأصل، ثم انتقلت إلى إدارة إيران منذ أن أصبحت جزيرة الخضر تحت تصرف إيران

مقاطعة جزيرة المحلة وهي جزيرة تقع في مياه شط العرب

مقاطعة منيوجي في جزيرة الخضر / مقاطعة النصار في جزيرة الخضر / مقاطعة

بويرة في جزيرة الخضر / مقاطعة شطيظ في جزيرة الخضر / مقاطعة بريم / مقاطعة

حوش العامرة / مقاطعة هرته / مقاطعة الحدة / مقاطعة أم الجريدية / مقاطعة

٤٣٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةٍ أجنبيّة

المحرزي / مقاطعة الصوينخ، وهم جميعاً في جزيرة الخضر / مقاطعة سليك وتقع على يسار نهر بهمشير / مقاطعة مصفا على يسار نهر الكارون.

وبذلك يكون محصول مقاطعات جزيرة الخضر:

تمر ٤٧١٠ جوالاً / ١٨٨٨٤٠٠٠ - ٣٧٦١ كيسة رومي.

ويعد التمر هو المحصول الرئيسي لتلك المقاطعات المذكورة، ومع أنهم يزرعون الحبوب بقلّة فإنها تعد بمثابة القوت اليومي للفلاحين، ولا يأخذ أصحاب الأملاك ولا الحكومة حصة من تلك الحبوب، لذا لم ندرجها هنا لأنها تؤوّل إلى الفلاحين فقط. ويتفرع من أنهار شط العرب وبهمشير وكارون الموجودة في أراضي تلك المقاطعات رافد أو رافدان رئيسيان يتفرع من كل منها عدة روافد صغيرة، وفي معظم تلك المقاطعات، قلعة يطلقون عليها (كوت)، أحيطت بسور من الآجر، وتلك القلاع المذكورة منازل لسكان تلك المقاطعات وبعض الفلاحين، منها ما بُني بالآجر، ومنها ما بُني بالخرص ويطلق عليها صريفة، وبخلاف تلك المنازل الموجودة في القلاع، تُوجد منازل أخرى وصريفات بين مزارع النخيل.

## أحوال الفلاحين

يُوجد عند أعيان الفلاحين الخبز والأرز، وإذا حل ضيف عندهم فأنهم يذبحون الأغنام والدجاج، أما باقي الفلاحين فالخبز عندهم قليل، وأكثر طعامهم التمر ويمشي كبيرهم وصغيرهم حافي القدمين، ويسرون دائماً بالسلاح، ويرتدي أغنياء الفلاحين قميصاً وجلباباً طويلاً من قماش حلب أو الشام أو ديار بكر، ويرتدون في



[ ٢٥ ] من كتاب (رحلة الحدود بين الدولة العثمانية وإيران) ..... ٤٣١

الصيف والشتاء مسلحاً أبيضاً أو أسوداً، ويرتدي الرجل هناك كوفية تحتها شال أبيض يَمني وفوق هذا الشال أما أن يرتدي العقال وأما أي شي آخر يلفه على رأسه.

ويضع الشباب على خصورهم جراباً للخنجر ويطلقون عليه جَنبِيَّة، ويضعون به خنجر أو أي سلاح آخر، والمترجلون منهم دائماً يحملون السيف ونادراً ما يحمل بعضهم البندقية، ومعظم الأهالي هناك مترجلون، ونادراً ما يركب الأهالي الخيول وفي فصل الصيف يرتدي الأهالي قميصاً حتى ركبته، أما في فصل الشتاء فيرتدون لباساً ثقيلًا من الصوف، على هذا القميص وعلى الرغم من أن هؤلاء الفلاحين يبدون كأنهم قرويون شرفاء فأنهم يشتغلون باللصوصية كلما تحين لهم الفرصة، ولا يتجولون إلا ومعهم العصا ذات الدبوس التي يُطلق عليها مطرق.

ويربطون خصور الخيول برباط منسوج يشبه الشعر، يطلقون على هذا الرباط سبته، ويحتمل أن يكون معظم الأهالي هناك شيعه، ولأنّ أحوال الفلاحين عشائر متنفك وسائر العشائر الأخرى تشبه الحد كبير أحوال هؤلاء الفلاحين فلن يتم ذكرهم منعاً للتكرار.

### كمية المحاصيل وقيمتها بالنسبة لمساحة الأراضي

تُقاس بساتين النخيل في البصرة بمقياس يُسمى (الجريب)، أما نحن فنقيس الحقول والحدائق بالدونم، والذراع عند أهل البصرة هو ما بين الرسغ ونهاية أصابع اليد، والستة أذرع يطلقون عليها (العصا)، وقطعة الأرض التي تبلغ أربعة مائة عصا مربعة أي طولها عشرون عصاً وعرضها عشرون عصا، يُطلق عليها (الجريب).

٤٣٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

والجريب الواحد يمكن أن يُغرس بها من ثمانين حتى مائة فسيلة نخيل، ولأنّ هذا الكم من الفسائل التي ستزرع أكبر من مساحة الأرض فستكون المساحات بين الشجر وبعضه ضيقة، فضلاً عن إنها ستدر محصولاً قليلاً، وتدر الجريب المتوسطة محصولاً من التمر يقدر بخمس غرارات صغيرة، الغرارة الواحدة عبارة عن عشرين بطمان بصري<sup>(١)</sup>، ويتم بيع الغرارة الواحدة من التمر بمبلغ يتراوح بين الثلاثين إلى مائة وثلاثين عملة شاميةً ولو فرضنا أن السعر المعتدل للغرارة الواحدة يقدر بخمسين شاميةً فان غرارة التمر ستبلغ بأربعمائة قرش وكل الأسعار والمقاييس المذكورة في المحرّرة وجزيرة الخضر تسير على هذا الأساس.

### بعض معاملات المقاطعات المذكورة

لو كان فلاحو تلك المقاطعات من أصحاب الأرض أو من الفلاحين الأصليين فإنهم يتقاسمون المحاصيل مناصفة مع الملاك الأصليين، أي نصف للفلاح ونصف لصاحب الملك وذلك نظير فلاحته للأرض، وفي بعض الأحيان كان المحصول يقسم للفلاح والباقي لصاحب الأرض، وعادة ما يكون هذا في الأراضي الأميرية التابعة للحكومة، وفي بعض المقاطعات تكون الأملاك تحت يد وتصرف الفلاحين، وذلك بتخصيص ملتزمين على كل جريب نخيل نظراً لسعة كل مقاطعة ويقوم هذا الملتزم

---

(١) البطمان البصري؛ يساوي خمسين أوقية استانبولية، وعلى ذلك فغرارة التمر تساوي ألف أوقية استانبولية، وقد أوضحنا أنهم هناك يطلقون على الغرارة التي ضعف تلك الكمية "غرارة كبرى".

[ ٢٥ ] من كتاب (رحلة الحدود بين الدولة العثمانية وإيران) ..... ٤٣٣

بإدارة بساتين النخيل ويكون ربع المحصول للفلاحين، والباقي للملتزم وهي مقاطعات:

الدواسر (بدل ٦٠٠٠ شامية / ٧٠٠ غرارة) ومقاطعة نهر الجاسم (بدل ١٧٠٠ شامية / ٢٦٠ غرارة تمر) ومقاطعة بور (بدل ٧٠٠ شامية / ١٣٠ غرارة). وهناك مقاطعات تكون الأرض فيها ملكاً للفلاحين وعند جنبي المحاصيل تُخصّص الحكومة موظفاً لكل جريب، ويقوم هذا المحصل بتحصيل البدل منها وهي مقاطعة السراجي وبهاج ريب واحدة وبدلها ٨ عملات شامية، ومقاطعة اليهودي وبدل الجريب بها ٩ عملات شامية، ومقاطعة حمدان بدل الجريب بها عملة شامية.

### أوصاف قرية المحمّرة

قرية المحمّرة قرية مُحاطة بسورٍ مربع الشكل يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه ستمائة خطوة تقريباً، تقع تلك القرية على الضفة اليمنى لنهر كارون داخل الوادي الواقع عند المضيق الذي يصب فيه نهر كارون بنهر شط العرب، على مسافة ثمان ساعات براً من قرية كردلان المواجهة للبصرة. وبقية المحمّرة ما يقرب بمائة وخمسين منزلاً مبنية بالطوب الأحمر، وما يقرب بخمسة وأربعين منزلاً مبنية بالخرص، وهي التي يُطلق عليها لفظ صريفة، وبذلك يكون مجموعهم التقريبي مائتي منزل، كما يُوجد بها حوانيت للتجارة والحرف تبلغ ثمانين أو تسعين حانوتاً منها البقالون وتجار الأقمشة والعطارون وبائعو الأسماك والسكر.

كما يُوجد بها محل لمستلزمات الطلاء، وخانان كبيران يستعملان كُنزُل، ومقهيان،

٤٣٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

وعدد من الميادين التي تحيط بها محلات لبيع الأسلحة والذخيرة يُطلق على كل محل منها (سيف)، وسكان تلك القرى الأصليون من عشيرة كعب، كما يُوجد بها رجال وفدوا من البلدان المجاورة مثل البصرة وبغداد وإيران للتجارة واستقروا بها، واللغة الأساسية لأهل المُحمّرة هي اللغة العربية، ويُوجد بينهم مَنْ يتحدث الفارسية نظراً لاختلاطهم بالتجار الإيرانيين كثيراً، ولا تُعد قرية المُحمّرة من القرى القديمة فقد اكتسبت الهيئة التي عليها منذ ثلاثين أو خمس وثلاثين سنة فقط، حيث كانت تُوجد قديماً قرية أخرى بجوار القرية الحالية بها منازل وأكواخ صغيرة للفلاحين كانت تلك القرية القديمة تقع على الضفة اليمنى لنهر كارون عند نهاية المضيق تماماً، وبالرغم من أن تلك القرية القديمة مازالت موجودة فإنها ليست أهلة بالسكان، وقد ذكرنا بالجداول السابقة المقاطعات التابعة للمحمرة ومحاصيلها.

تقع بعض المقاطعات التابعة لقرية المُحمّرة حالياً على يسار نهر كارون، على إمتداد ساعتين حتى المضيق الذي يصب فيه نهر كارون بشط العرب، وبعضها يقع على يمين نهر كارون على إمتداد اربع ساعات من المضيق المذكور حتى مكان يُسمّى سابلّة، وقد حررنا في الجداول السابقة المحصول السنوي للتمر لكل المقاطعات التابعة للمحمرة، وعلى افتراض أن السعر الطبيعي لكل غرارة من التمر يبلغ خمسين عملة شامية، فستكون قيمة تلك المحاصيل مليون وأربعة أحمال، تبلغ ستة وسبعين ألف قرش وكسور، يُحصّل منه الثلث للفلاحين والثلثين للحكومة تطبيقاً لقواعد التعامل التي يسرون عليها هناك، وعلى هذا يدخل خزينة الدولة ألفان ومائتا كيس من العملات التركية، وذلك لأنّ عشيرة كعب التي كانت تسكن في المُحمّرة وما حولها لم

[ ٢٥ ] من كتاب (رحلة الحدود بين الدولة العثمانية وإيران) ..... ٤٣٥

يكونوا من أصحاب الأرض الأصليين، بل وضعوا أيديهم عليها بالقوة وقسموها فيما بينهم، والآن تقسم محاصيل تلك المقاطعات بالمنصفة بين الفلاحين وبين عشيرة كعب، وقد كانت طائفة المحيسن هي الطائفة الوحيدة من عشيرة كعب التي تعد صاحبة أملاك.

وحالياً يتم تقسيم تلك المحاصيل منصفةً بين الفلاحين وبين الحاج جابر شيخ طائفة المحيسن الذي يقيم في المحمّرة ويتبع عشيرة كعب، وهو بمثابة صاحب الأرض كما أوضحنا، أو يقسمونها منصفة بينهم وبين عشيرة بادية وشيخ مشايخ عشيرة كعب الذي يقيم في فلاحية، وبطائفة المحيسن التي يتزعمها الحاج جابر ستة آلاف نسمة مسلحين (١) يقيم ألفان منهم في المحمّرة وتوابعها وبعض المقاطعات التابعة للبصرة، والأربعة آلاف الباقية تقيم في نواحي فلاحية، ولو افترضنا أن لكل شخص منهم منزلاً سيكون عدد منازل طائفة المحيسن بذلك ستة آلاف منزل.

### عدد سكان جزيرة الخضر وتوابعها وحجم محاصيلها

جزيرة الخضر عبارة عن جزيرة محاطة بالمياه من جميع الجهات، حيث يحدها خليج البصرة من ناحية، وشط العرب من ناحية، ونهر بهمشير من ناحية، ونهر كارون من ناحية، يبلغ طولها ثماني ساعات، وعرضها ساعة أو ساعتين أو ثلاث ساعات، على حسب عرض المكان ولكن عرضها لا يزيد على ثلاث ساعات، وقد سُميت تلك

---

(١) أوردنا هنا أنهم مسلحون بالبنادق، وهذا ما سمعناه، ولكننا حقيقة لم نر هناك بنادق.

٤٣٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

الجزيرة بجزيرة الخضر، لأنَّ الخضر عليه السلام (١) مدفون بها، وتقع قرية عبّادان التي يُضرب بها المثل (ما وراء عبّادان قرية) على تلك الجزيرة، كانت الجزيرة كلّها قديماً عامرة، إلاّ أنها هجرت قبل خمسين عاماً، ولم يتبق منها من الأماكن العامرة سوى الأماكن المواجهة للمحمرة والأماكن التي تمتد بطول نهري شط العرب وبهمشير بطول ثلاث ساعات لكل منها وعرض ساعة أو نصف ساعة، وقصبة النصار التي تقع بالقرب من المكان الذي يصب فيه نهر كارون بخليج البصرة، وهذه الأماكن المذكورة فقط هي الأماكن الآهلة في ذلك الوقت من الجزيرة، وباقيها مهجور.

وتُوجد قرية بجزيرة الخضر تقابل قرية المحمّرة، يُطلق عليها كوت فارس أو كوت كعب، وهي قرية محاطة بسور وقلعة من الآجر، وبالرغم أن تلك القرية توازي قرية المحمّرة فإنه لا يُوجد بها أسواق مثلها، ولا يُوجد بها سوى بعض المنازل المبنية بالآجر والغاب يمكن أن تصل إلى مائة منزل، وما عدا ذلك تُوجد منازل بين بساتين النخيل، يقيم بها الفلاحون وهي إما مبنية بالآجر أو الغاب، مثلها مثل ناحية المحمّرة، كما يسكن في جزيرة الخضر طائفتان هما الإدريس والنصار من عشيرة كعب، وكل بساتين النخيل التي يبلغ طول كل واحد منها ثلاث ونصف أو أربع ساعات تقريباً وعرضها يتراوح تقريباً ما بين نصف وربع ساعة والتي تقع في الجزيرة المسماة جزيرة المحلة الآتية الذكر والكائنة على نهر شط العرب، في الجانب الغربي لجزيرة الخضر

---

(١) الخضر عليه السلام، هو عبد صالح من عباد الله، آتاه الله الحكمة، وفصل الخطاب، وقد وَرَدَتْ له قصة مشهورة في القرآن الكريم في سورة الكهف مع سيّدنا موسى عليه السلام.

[ ٢٥ ] من كتاب (رحلة الحدود بين الدولة العثمانية وإيران) ..... ٤٣٧

وتقع أيضاً في الجهة لیسرى لنهر بهمشير، وفي المكان الممتد من الضفة الیسرى لنهر كارون وحتى مكان يُسمّى سابلة، كل تلك البساتين المذكورة تؤول للطائفتين المذكورتين.

وأكثر الأماكن التي يمتلكها طائفتا النصار والإدریس عمراناً هي قسبة النصار وجزيرة المحلة، وقد ذكرنا قبل ذلك في جدول المقاطعات أن ثمن غرارة التمر في تلك النواحي يصل إلى أربعائة قرش، ويبلغ إنتاج تلك المقاطعات سنوياً تمراً يُقدر بمليون وثمانية أمال يصل ثمنها إلى أربعة وثمانين ألف قرش. وكان يحصل للحكومة منها الثلثان وللأهل الثلث أي يدخل خزينة الدولة ما يزيد على ألفين وخمسمائة كيس منها العملات التركية، ولكن بعد أن وضعت تلك الطائفتان وهما الإدریس والنصار أيديهما على تلك المقاطعات وقُسمت بمعرفتهما؛ أصبح المحصول يوزع بالمناصفة بين الفلاحين وبين حكام هاتين الطائفتين وشيوخ مشايخ طوائف كعب الموجودين في فلاحية، ولأن هاتين الطائفتين تعدان بمثابة القبيلة الواحدة فان سكانهم يعادل عدد سكان طائفة المحيسن، يسكن منهم ألفان في جزيرة الخضر وتوابعها. والأربعة ألف نسمة الباقية تسكن في نواحي فلاحية، ويتم نقل محصول تمر جزيرة الخضر والمحمرة إلى البلدان الإيرانية عن طريق شوشتر ودزقول عبر نهر كارون، وإلى بومباي وسائر نواحي الهند عن طريق شط العرب وخليج البصرة وبياع هنالك.

## جزيرة المحلة

جزيرة المحلة السابق ذكرها هي جزيرة تقع في مياه شط العرب بمحاذاة الجانب

٤٣٨ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

الغربي لجزيرة الخضر، ويفصل بين جزيرة الخضر وجزيرة المحلة رافد مائي يتفرع من شط العرب.

يبلغ طولها مابين ساعتين أو ثلاث ساعات، وبالرغم من صغر مساحتها فإنها كُلهَا معمورة وبالرغم أيضاً من إنها تقع بالقرب من جزيرة الخضر ويحكمها الآن طوائف الادريس والنصار، فإنها ليست من الأماكن المتنازع عليها بين الدولة العثمانية وإيران.

### الأحوال السابقة لمقاطعة المحمّرة وما حولها

طبقاً لما سمعناه وشاهدناه، كانتا الجزيرة الخضر وجزيرة المحمّرة وما حولهما من الأماكن الأهلة بالسكان فيما مضى، والسبب في ذلك أن نهر كارون الذي يصب حالياً في نهر شط العرب لم يكن يصب فيه قبل مائة سنة، بل كان يسير في مجراه الحالي إلى محله سابلة السالفة الذكر، ومن هناك حتى المضيق الذي سيصب منه في النهر. وهناك روايتان بخصوص هذا المجرى الحالي، إحدى تلك الروايات تقول أن قسماً من المجرى الحالي لنهر كارون أسفل محلة سابلة كان عبارة عن أرض يابسة، ومن شط العرب حتى مضيق بهمنشير تشكل خليجاً من مياه شط العرب التي تعمقت إلى الداخل، وأطلق على الأراضي الواقعة على هذا الخليج اسم مقاطعات الحفّار.

أما الرواية الثانية فتقول أن ثمة وجود سد على نهر كارون بالقرب من قرية سابلة هذا السد كان يحول دون جريان المياه لأسفل، وكانت المياه تتجمع وترتفع في ذلك المكان. وعلى كلا التقديرين لم يكن نهر كارون يسير في مجراه الحالي، وكانت مياهه



[ ٢٥ ] من كتاب (رحلة الحدود بين الدولة العثمانية وإيران) ..... ٤٣٩

ترتفع بالقرب من سابلة، وقد تفرعت من ضفته اليسرى عدة روافد مائة كانت تتجه إلى القبان الشمالي والجنوبي وأم الحمر وأم العظام ودورقستان، كما تفرع من ضفته اليمنى بالقرب من كوت الهُمَيْلي وكوت العبد رافد مائي كبير يُسمّى هميلي، وهو الآن يمر من بين المحال المعروفة باسم قصر البصرة وقصر جويزه الموجودين في الصحارى الخالية، حتى يصب في شط العرب من محلة كوت ريان أعلى مدينة كردلان التابعة للبصرة التي تبعد عنها بساعتين.

وقد نتج عن تلك الروافد والأفرع المائية التي تفرعت من يمين ويسار نهر كارون أن أصبحت كل الأراضي التي تمتد من سابلة حتى خليج البصرة، ومن سابلة وكوت العبد حتى قصر البصرة وقصر جويزه بمحيط خمس عشرة أو عشرين ساعة طولاً وثلاث إلى خمس ساعات أو ثمان إلى عشر ساعات عرضاً، أصبحت كل تلك الأراضي معمورة ولكنها الآن خاوية.

كانت تلك الأراضي تتبع إيالة البصرة، ويسكنها عشيرة كعب، ولأن هؤلاء العربان يميلون بطبيعتهم إلى حياة البدو فقد كانوا يرفعون راية العصيان بين الحين والآخر على وادي البصرة ومساعديه، ثم يلجئون إلى أراضي خوزستان التابعة للأراضي الإيرانية أيام حكم كريم خان، وقد ازدادوا قوة ونفوذاً هناك، الأمر الذي جعلهم يعرضون أهالي تلك المنطقة للظلم والبغي.

لذا قام كريم خان بسوق الجنود إلى عشيرة كعب، وبعد أن شتت شملهم أفسد السد المائي الموجود على نهر كارون بالقرب من قرية سابلة، وهو الشريان الوحيد

٤٤٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

للحياة وال عمران هناك وقيل إنه شق الأراضي هناك لتجفيف الروافد المائية، وبالتالي قلّت المياه، وبما أن الحياة لا تقوم بلا مياه، فقد هُجرت تلك الأماكن كلية ولم يعد بها أثر للحياة. ولم تكن المحاصيل في تلك المقاطعات التي خربت تقتصر على التمر فقط، بل كانوا يزرعون الأرز وسائر أنواع الحبوب، ولو أسس بسد بجوار قرية سابلة مثلما كان فيما مضى ستكتسب المنطقة عمراناً بنفس الحال التي كانت عليه قبل ذلك.

### أسباب تردد عشيرة كعب على الإيرانيين

عندما كانت تلك المحال المذكورة أهلة كانت عشيرة كعب تتبع الدولة العثمانية في كافة أمورها وكانت تحت سيطرة والي البصرة، وكانت مقاطعة بنينة بمثابة حاضرة تلك المقاطعات، وعندما قام حاكم إيران كريم خان بالهجوم على تلك الطوائف خرب أماكن كثيرة وبذلك انقسمت عشيرة كعب إلى قسمين؛ القسم الأول ظل بالمحمّرة وجزيرة الخضر وما حولها إي في موطنهم القديم، أما القسم الآخر فقد انتقل إلى مدينة فلاحية الإيرانية مع شيخ مشايخ عشيرة كعب، ومن العادات المرعية عند العشائر العربية عادة تنصيب شيخ للعشيرة، يكون من كبار العائلات المعروفة يعترف به كل أفراد العشيرة وينقادون له ويطيعونه.

وعلى الرغم من انقسام عشيرة كعب إلى قسمين كما ذكرنا، فإن العشائر التي ظلت في المحمّرة وجزيرة الخضر كانتا تحت تصرف وإدارة شيخ المشايخ الذي انتقل إلى فلاحية، وإذا ما اقتضى الأمر بالنسبة للحكومة عمل أي إجراء يخصهم، كان متصرفو البصرة ينظرون في إجراءاته بمعرفة شيخ المشايخ، وكانت إدارة البصرة تفوض

[ ٢٥ ] من كتاب (رحلة الحدود بين الدولة العثمانية وإيران) ..... ٤٤١

إدارة تلك العشائر إلى شيخ المشايخ، ولأن شيخ المشايخ كان يقيم في البلاد الإيرانية، كانت إدارة البصرة ترسل في بداية كل عام الهدايا والعطايا لهذا الشيخ، كما كانت إدارة إيران تقوم بنفس الشيء وكان الشيخ يتبادل الهدايا مع الإيرانيين في مقابل ذلك، وبمرور الوقت أصبحت تلك العشائر تقوم بالمظالم والجور والتعدي على نواحي البصرة؛ فأرسل إليهم علي باشا (١) وإلى بغداد الجنود لتأديبهم، ولكنهم مع الأسف كانوا تحت سيطرة الإيرانيين وكانوا يستندون إليهم، وظل الوضع هكذا حتى خرجت طوائف عشيرة بني كعب الموجودة في نواحي المحمّرة وجزيرة الخضر من تبعيتها للدولة العثمانية.

وبخلاف طوائف المحيسن والادريس والنصار، تُوجد بعض الطوائف التي انتقلت أيضاً إلى فلاحية مع شيخ المشايخ ويبلغ عدد الذكور بهم (٤٠٠٠)، وعلى هذا يكون مجموع سكان عشيرة كعب كُلهَا (١٦٠٠٠) نسمة من الرجال والنساء والأطفال والشيوخ.

### الأموال التي كانت تؤديها عشيرة كعب

اعتاد مشايخ عشيرة كعب الذين انتقلوا إلى ناحية فلاحية واستقروا بها قبل ذلك، على دفع ضرائب يعبون عنها بلفظ جائزة كهدايا للإيرانيين ومؤخراً انقطع

---

(١) قام المرحوم علي باشا والي بغداد وهو من أسلاف المرحوم عمر باشا بإرسال الجنود إلى عشيرة كعب لتأديبهم وكان ذلك عام ١١٧٥ هـ وقد دَوّن ذلك في ذيل الكتاب كلشن خلفا (حديقة الخلفاء) الذي طبع في عهد داود باشا وهو تأريخ يختص بتاريخ بغداد.

٤٤٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

هؤلاء المشايخ عن دفع تلك الضرائب، الأمر الذي جعل الإيرانيين يستفيدون من الخلاف الذي نشب بين طوائف عشيرة كعب على منصب المشيخة، فقاموا بمضاعفة المبلغ الذي تدفعه عشيرة كعب، وكان هذا المبلغ يدفع للجانب الإيراني سنوياً من عشيرة كعب يُقدَّر بمائة وخمسين ألف قرش أي ما يعادل ثلاثين ألف قران<sup>(١)</sup> إيراني، وذلك حتى قيام المرحوم علي باشا بسوق الجنود إلى عشيرة كعب لتأديبهم.

قامت إيران بعد ذلك بإرسال قوة بقيادة معتمد الدولة، استولت تلك القوة على الأجزاء الآهلة من المحمّرة، وضمّتها إلى مشيخة كعب وبذلك استطاعوا أن يضيفوا مائة ألف قران إلى المبلغ الذي سيجمع من الطوائف المذكورة، وبذلك بلغت الأموال الأميرية التي تحصل عليها سنوياً من طوائف عشيرة كعب ستمائة وخمسين ألف قرش.

### معلومة إضافية

تستوفي واردات شيخ مشايخ عشيرة كعب من الرسوم التي تقدر بالعرش من محاصيل بساتين النخيل، وسائر المحاصيل الأخرى الموجودة في المحمّرة وجزيرة الخضر وتوابعها وفي فلاحية، كما تستوفي أيضاً من دخل الجمرك الآتي الذكر والأموال الخاصّة بالمشيخة.

---

(١) القران هو العملة القاجارية الفضية التي كانت تُستخدم في إيران، وهي تساوي الريال حديثاً، والعشرة قيران تساوي ١ تومان. انظر: ابراهيم الدسوقي شتا، المعجم الفارسي الكبير، ج ٢، ص ٢٠٨٤. وانظر أيضاً: Ferid develi oglu, osmanlica- Turkce Ansikiopedik lugat, Ankra 1962, s617 (المترجم).

### الرسوم الجمركية للمحمرة وما جاورها

لا تحصل أي رسوم جمركية من الأشخاص الموجودين في المحمّرة، إلا أن التجار القادمين بالبضائع والتجارة أو أي محاصيل أخرى من شط العرب وجزيرة الخضر والمحمّرة إلى شوشتر أو دزقول عبر نهر كارون، أو المتجهين بالبضائع من هناك حتى البلدان الإيرانية، وكذا شيخ عشيرة كعب يدفعون عملة شامية عن كل رأس مُحمّلة بالبضائع في مكان يُسمّى رهوالي يقع على نهر كارون، كما يتم تحصيل عملتين شاميتين كرسوم جمركية عن كل رأس مُحمّلة بالبضائع من مشايخ العشيرة المعروفة باسم باوية التي كانت تتبع بغداد في الأصل، ثم دخلت في عداد العشائر التابعة لإيران منذ فترة، ويقومون بتحصيل تلك الرسوم في مكان يُسمّى إسماعيلية يقع أسفل حي رهوالي على نهر كارون.

وقد كانت تلك البضائع تنقل عبر نهر كارون بواسطة السفن، وقد حدنا هنا الرسوم الجمركية بالحمل، نظراً لأنّ تلك البضائع يتم نقلها إلى شوشتر ودزقول بالقوارب ثم تحمل على الدواب من هناك، وقبل تحميلها على السفن تحسب بالحمل.

### عمق غاطس المحمّرة وحجم السفن التي يتحملها

يقع غاطس المحمّرة بين جزيرة المحمّرة وجزيرة الخضر وهو عبارة عن عمق المياه في نهر كارون في ذلك المكان، ويبلغ عمق غاطس المحمّرة في حالة الجزر واحداً وعشرين قدماً أي ثلاثة أذرع ونصف، أما في حالة المد فيزيد ارتفاعه بمقدار خمسة عشر قدماً فيصبح ستة وثلاثين قدماً وهذا ما شاهدناه بالتجربة، وأكثر الأوقات التي

٤٤٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

يزيد فيها المد، حينما يكون القمر بدرًا أي اعتباراً من اليوم الرابع عشر إلى اليوم الثامن عشر من الشهر الهجري، وقد سمعنا من أمراء البحرية أن عمق المياه في المضيق الذي يصب فيه نهر شط العرب بخليج البصرة في الأوقات العادية ثلاثة عشر قدماً، يرتفع هذا المنسوب في وقت المد بمقدار، لأننا شاهدناه بأنفسنا، ولا يستبعد أن يكون عمق المياه في المضيق (المصب) وقت الجزر ثلاثة عشر قدماً وذلك لعمق معظم مياه المصببات نتيجة لاختلاط مياه النهر بهاء البحر وبالطبع لا يمكن مساواة هذا الوضع بالمد، ما دامت المياه التي تضاف إلى مياه المضيق كُلهَا من البحر، على أي حال يبلغ غاطس المحمّرة من العمق ما يسمح للسفن بالمسير فيه، أما نهر بهمشير الذي يصب في خليج البصرة فلا تستطيع السفن الكبرى مثل السفن التي يُطلَق عليها بغلة وماشوه وبوت الإبحار فيه على الرغم من كبر حجمه، لأنّه ليس بالعمق الكافي لسير السفن فيه، بل تسير فيه القوارب التي يُطلَق عليها شويعي أو القوارب الأكبر منها قليلاً، ويوجد نوع من السمك يُسمّى كوسج يأتي إلى مياه شط العرب من خليج البصرة، إذا ما وجد هذا السمك أي إنسان في المياه يقوم بقتله ونهش لحمه، حتى إننا عندما كُنّا نسير في مياه شط العرب سقط جندي من الجنود المرافقين لنا في المياه فقتله هذا السمك، ويصل هذا السمك إلى بغداد عبر نهر دجلة وإلى مدينة الحِلَّة عبر نهر الفرات، وقد علمنا أن بعض الرجال في بغداد لقوا حتفهم بسببه.

## أقسام عشيرة كعب وأحوال وأطوار وأصول كل قسم

تنقسم عشيرة كعب إلى قسمين؛ القسم الأول منهم فلاحون وهؤلاء أهل

[ ٢٥ ] من كتاب (رحلة الحدود بين الدولة العثمانية وإيران) ..... ٤٤٥

الزراعة والحراث، أما القسم الثاني فهم أولاد حمولة يعني أصحاب الحسب والنسب، وهم يرأسون الطوائف والفرق، ويعمل القسم الأول منهم بالزراعة والحراث، أما القسم الثاني فلا يعملون وهم أناس مُتكبرون، وكلا القسمين مخادعون، كما أن بهم رجلاً يتصفون بالكذب والخداع، لغتهم الأساسية العربية، أما المقيمون منهم في فلاحية فيتحدثون الفارسية أيضاً نظراً لعلاقتهم مع العجم.

وبالرغم من أن مذهبهم الأصلي الشافعي أو الحنبلي فان معظمهم أصبح على المذهب الشيعي مؤخراً، ولكن تشيعهم لم يكن مثل تشيع الإيرانيين، بل كانوا قريبين من المذهب السني، ويميل الأهالي هناك إلى البغي، والنهب، والسلب، وبالرغم من أن أحوال هؤلاء العشائر وأحوال كافة عشائر العربان غير منتظمة، فإنهم - وعلى حسب زعمهم - يمتازون بقواعد العدل والحق التي يسرون عليها، فعندهم الغضب والسرقة من الخارج في منزله الكسب الحلال، وبمقتضى العرف السائد بينهم يجب أن يأذن كبارؤهم لأي شخص أو أشخاص سيقومون بأعمال السلب واللصوصية أو قطع للطريق، وإذا لم يأذنوا له في ذلك فعليه رد المال الذي أخذه، وإذا ما كان هناك قتل أو جرح، فيؤخذ فيه الدية والقصاص، وفي حالة قيام الشخص بتلك الأفعال بدون إذن من الشيخ، يتحدثون عليه ويأخذونه بما قام من أفعال قبيحة. وإذا ما قام أحد أفراد العشيرة بقتل أو جرح شخص من أفراد عشيرته أو عشيرة أخرى، لا يقوم صاحب الثأر بأخذ ثأره بنفسه، بل تنظر إلى العشيرة هذا الأمر، وفي حالة إقناع الخصم بقبول الدية، فإنها توزع على العشيرة، وإذا لم ترض العشيرة المدعية بالدية، فإنهم يتحاربون مع عشيرة هذا الجاني، وحينئذ يصدق عليهم المثل القائل: "سلط الله الكلب

على الخنازير".

### استطراد

يطلق على المال الذي يوزع على العشيرة نتيجة القتل أو الجرح لفظ الدية أي (بدل الدم). كما أنه إذا ما أراد رجل أو عدة رجال من عشيرة ما الانضمام إلى عشيرة أخرى، فإنه يلزم عليهم دفع تلك الدية للعشيرة التي سينضمون إليها، حتى ولو كان الشخص الدافع للدية من مكان والعشيرة التي سيدفع لها الدية من مكان آخر ولم ينتقل إليها، فإنه يلزم على تلك العشيرة حمايته، مادام قد دفع الدية.

### بعض طبائع وعادات العشائر المذكورة

اعتاد عربان تلك المناطق على تتبع الأخبار ومعرفتها وتبليغها، بل يمكننا القول إنهم مضطرون لذلك، وقد رأينا الكبار والصغار هناك يعتنون بذلك وأنه ليس محل استغراب عندهم، فحالمهم يقتضي ذلك، فهم يعيشون على مبدأ القوى معين والضعيف مهين، لذا اقتضى الأمر أن يكونوا دائماً متيقظين لمعرفة الأخبار وترصدها، كما إنهم يشتهرون بالجد والعمل، فيقوم العربان الساكنون في مقاطعة المحمّرة وما حولها بدءاً من شهر مارس وحتى آخر مايو بحرث مزارع النخيل. كما يقومون بتنظيف وتوسيع المجارى المائية، ثم يزرعون المحاصيل التي سيتم زرعها في ذلك الموسم، ويلقحون أشجار النخيل، ولأنّ بعضهم يزرع في مناطق فلاحية، واسماعيلي، والأهواز، وشوشتر، ودزقول، فإنهم يقومون بحصاد زراعتهم بأنفسهم في موسم الحصاد في شهر يونيو، أما الذين لا يملكون أراضي زراعية؛ فيذهبون إلى تلك



[ ٢٥ ] من كتاب (رحلة الحدود بين الدولة العثمانية وإيران) ..... ٤٤٧

الأماكن في أواخر شهر مايو، ليعملوا بالأجر عند من يمتلكون أراضي زراعية ولا يعملون بأيديهم، ويشتغلون في نقل وتخزين الحبوب حتى موسم جني التمر، وبعد أن ينتهوا من أعمالهم، يأتون مرة أخرى مع نضج التمر، ويظلون هناك حتى شهر نوفمبر. ومن لم يشتغل منهم بمزارع النخيل يشتغل بمهنة صنع القوارب، ويقوم الزارعون ببذر البذور في شهر نوفمبر، ثم ينتظرون حتى شهر مارس، وخلال تلك الفترة منهم من يشتغل بمهنة صنع القوارب، ومنهم من يشتغل في أي عملٍ آخر، ويقولون أن تمر عشيرة كعب من أجود أنواع التمور في العالم، حتى أنه أثناء تواجدهنا هناك سأل أحد الأعراب المترجم المرافق لأحد الموظفين الإنجليز، هل يُوجد عندكم في انجلترا التي تمدحونها تمر كهذا؟ وعندما أجاب المترجم بالنفي، قال له: يا هذا كيف تعيشون؟! مظهراً له تعجبه من ذلك.

وأثناء الحفلات أو اللعب، ينظمون المواكب ويلعبون فيها الألعاب التي تشبه المعارك، وينظمون أبيات شعرية تثير الحماس والشجاعة عندهم مثل: (نزىل أهل الدار ونزل واسمع شتقول أفطيم وشديت أحزام الشر بيدي) حيث يقوم واحد منهم بإنشاد تلك الأبيات ثم يرد عليه الباقيون بصوت مرتفع، وذلك من العادات المرعية عندهم التي تثير الحماسة، وله تأثير عليهم، وعند تلك العشائر لا تُوجد أهمية أو اعتبار للمرأة حتى أنهم يطلقون عليها أنها مثل الحذاء القديم بالنسبة لزوجها، وبالرغم من ذلك فلو ضبط رجلاً يزني مع زوجته أو ابنته أو أخته فإنه يقتله في الحال، أما الذي يريد حفظ حياته فيعد نكاحاً شرعياً ويدفع المهر المؤجل والمُعجل، ويبدأ من خمسة

قروش ويصل حتى ألف قرش وعندهم أيضاً الولد أحق بابنة عمه أكثر من أي شخص آخر، ولو قام شخص بطلب يد ابنة عمه للزواج ورفض وليها أن يزوجه لها، تحدث مخاصمة بينهم حينئذ، حتى لو قام شخص غريب بالتزوج بفتاة ليست ابنة عمه، ويقوم الأعمام بتزويج فتيات بعضهم أبناء بعض، أي يكون التزويج عندهم بالتبادل ويقوم بهذا العمل عندهم من هو بمثابة القاضي، والمهر الشرعي عندهم خمسة عشر قرشاً، ومن عادات العربان أنهم لا يكتفون بزوجة واحدة، حيث يتزوج الشخص منهم أربعة نساء على حسب الشرع، وفي حفلات الختان والولائم يقرأ الصوفية منهم المولد<sup>(١)</sup> ويقدمون للحاضرين التمر أو يطعمونهم على حسب حالاتهم أما غير المهتمين بالإنشاد الصوفي، فلهم ذوق خاص بالاحتفال حيث يحتفلون بالضرب على الطبول وآلة الدنبك. ولو كان صاحب الحفل من الأثرياء، فإنه يقوم بإحضار دف في حجم الغريال ولكنه أعمق منه قليلاً، ويبدأ في الطرق عليه، والعربان المذكورة ليست عندهم معرفة بصنوف الطعام، حيث يطهون الكزبرة حتى يصبح لونها أصفرًا، ويوضع بداخلها العنب والتين واللوز، ونوع من اللحوم يُطلق عليه (يخني) ويطهون عليه الأرز، ويضعون الأرز في الأطباق يميناً ويساراً، ثم يضعون اليخني في صحن أو صحنين، ويوضع بين تلك الصحنون سلطة البادي أو الشربات،

(١) بمعنى موكب المولد، والمراد بالمولد مولد النبي ﷺ، ويُطلق على ما يُقام من مراسم بمناسبة المولد، وكان يُتلى فيها منظومة المولد الشريف. انظر: حسين مجيب المصري، مرجع سابق، ص

وستغاضى عن ذكر وصف أكلهم لأنّه ليس بالشيء المهم.

### ملابس وزينة النساء

لا ترتدي نساء العشائر المذكورة السروال، ومتوسطات الحال منهن يسترن أجسامهن بملاءة عبارة عن قميص طويل أزرق اللون، أما الثريات منهن فيرتدين ملاءة تُسمّى دائرية فوق هذا القميص، وهي عبارة عن قماش من الصوف الأحمر أو المربعات، ويعلقن على رؤوسهن وصدورهن الحلي من الذهب والفضة، كما يتحلون بالختام، وتقوم بعض النساء بثقب الأنف ويعلقن به شيئاً من الذهب أو الفضة يُسمونه القرنفلة لأنّه يشبه القرنفل، أو يعلقن به حلقة<sup>(١)</sup>، ومنهم من يعلق حلقة تشبه الهلال على الشفة السفلى، ويرتدين الخلخال على كعوب أقدامهن، ويربطن نطاقاً على خصورهن، ويرسمن الوشم على أذرعهن وعادة ما يكون هذا الوشم على صورة النيشان الذي يكون على أذرع الإنكشارية، كما يرسمن نقوشاً مختلفة من الوشم على وجوههن وجباههن، وأنوفهن وصدورهن، وتقوم النساء أيضاً بوشم شفاههن التي تشبه الورْد الأحمر باللون الأزرق الغامق، ويقومون بوشم الأطفال برسومات تشبه النقط الكثيرة على وجناتهم، وكل تلك الملابس، وأدوات الحلي، ونقوش الوشم التي ذكرت، تستخدم أيضاً عند نساء العشائر العربية وبعض العشائر الكردية، كما أنها تستخدم أيضاً المدن، وعلى الرغم من أن نساء تلك المناطق يتميزن بالجمال فان

---

(١) يُطلق النساء على تلك الحلقة لفظ عراق.

٤٥٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةٍ أجنبيّة

معظمهن بشرتهن سمراء والقليل جداً منهن بيض البشرة.

## الحرارة في منطقة المحمّرة وما حولها

نظراً لأننا تواجدنا في منطقة المحمّرة وما حولها من بداية شهر أبريل وحتى أواخر شهر مايو، فقد قمنا بقياس درجة الحرارة بجهاز الترمومتر الستيمتر، فوجدنا درجة الحرارة داخل الخيمة نهاراً في أواخر شهر مايو تقدر بست وخمسين درجة مئوية، وعلى الرغم من أن درجة الحرارة تنخفض ليلاً في الشتاء لدرجة تجعل المياه تتجمّد، فإن الحرارة تصل إلى ثنائي عشرة أو عشرين درجة، ومن النواذر التي تعجب لها الأهالي هطول الثلوج في السنة التي قدم فيها معشوق باشا متصرفاً على البصرة، وبداية من فصل الربيع وحتى نهاية فصل الصيف تكثر العقارب والحيات ومعظمها من النوع القاتل، كما تكثر أيضاً الحشرات الطائرة بعد شهر أبريل وأنواعها كثيرة للغاية، ومع بداية الليل يغلق الأهالي كل أطراف الخيام ما عدا أبوابها، ويوقدون البخور<sup>(\*)</sup> لدفع الحشرات والذباب عنها، ثم يغلقون أبواب الخيام. ولكل شخص منهم ناموسية من القماش يجلس بها حتى وقت النوم، لتحميّه من تلك الحشرات الطائرة، ويطلقون على تلك الناموسية هناك (كله)، وبالمحمّرة نوع من الفئران له رائحة المسك، رائحته غاية في النفاذ.

---

(\*) ليس البخور بل الدخان.

## قصة الزبير التابعة للبصرة

تقع قصة الزبير في الجانب الغربي للبصرة على مسافة ساعتين ونصف أو ثلاث ساعات منها، وقد رُوِيَ إنها قصة مُحاطة بسورٍ به المياه العذبة، وألفا منزل تقريباً، وعدد من الخانات والأسواق، وجامعان، وكان يتفرع من خليج البصرة إلى قصة الزبير فرعان للمياه، أحدهما يمتد لمسافة ساعة، ويُطلق عليه خور عبد الله والآخر لمسافة خمس وأربعون دقيقة، ويُطلق عليه الخوير، فقد كان التجار يقدون بسفنهم المحملة بالبضائع من قصة الكويت الواقعة على خليج البصرة، أو من أي مكان آخر، ويبحرون بسفنهم في تلك الأخوار حتى نهايتها، ثم يقومون بنقل بضائعهم إلى قصة الزبير بواسطة الدواب وذلك لأنهم كانوا لا يدفعون الرسوم الجمركية المخصصة للسفن التجارية، ثم يقوم التجار بنقل بضائعهم من قصة الزبير، إلى أماكن تواجد الأعراب وبقية الأماكن الأخرى، ويفد التجار من الشام وحلب، وأحياناً من مصر إلى قصة الزبير للبيع والشراء. يقع ضريح الصحابي الجليل الزبير ابن العوام أحد العشرة المبشرين بالجنة، في فناء مسجد الزبير بتلك القصة، لذا سميت القصة باسمه، وللضريح خادم وحارس، كما يقع ضريح الصحابي الجليل طلحة أحد العشرة المبشرين بالجنة، وضريح الحسن البصري، وابن سيرين على مسافة عشر دقائق من تلك القصة، بتلك المقاطعة أيضاً كما يقع ضريح الصحابي الجليل أنس ابن مالك (رضي الله عنه) يقع في مكان صحراوي يبعد عن تلك القصة وعن مدينة البصرة بمقدار ساعتين ونصف أو ثلاث ساعات، وتقول الروايات أن كل الأضرحة

٤٥٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

المذكورة كانت تقع قديماً داخل حدود مدينة البصرة القديمة، ولكنها اليوم تقع في صحراء واسعة بالقرب من المدينة ماعدا ضريح الزبير فيقع داخل القصبة نفسها. وبمقاطعة الزبير مسجدٌ آخر غير مسجد الزبير، يُطلق عليه مسجد نجادة والسبب في تسميته بهذا الاسم أن شخصاً من نجد وفد إلى مقاطعة الزبير واستقر بها وبني هذا المسجد فسُمِّيَ على اسم نجد، وتشتهر مقاطعة الزبير بخيولها الجيدة الأصيلة حيث يتراوح ثمن الواحد منها من ألف إلى ألفي قرش.

### مقاطعة الكويت التابعة للبصرة

على الرغم من أننا لم نصل إلى مقاطعة الكويت، فإن الروايات تذكر إنها قصبة محاطة بسور من الحجارة، ذات موقع متميز على ساحل خليج البصرة، تبعد عن مدينة البصرة بمقدار أربع وعشرين ساعة براً، بها ما يقرب من ألفي منزل، وهي مكان تجاري من الدرجة الأولى به متاجر عديدة وميناء منتظم، إلا أن معظم أهلها يشربون مياه الآبار المالحة وذلك لعدم وجود مياه عذبة صالحة للشرب هناك، ويقوم بعض الأهالي المقتدرون بجلب المياه من شط العرب ويشربون منها، ولأن أهالي مقاطعة الكويت من الأثرياء فإنهم يقومون بجلب المياه من شط العرب ويشربون منها، بها ما يقرب من خمسين أو ستين ترسانة لصنع السفن التجارية وصنع الآلات الحربية، لغتهم العربية، يُطلق على تلك المقاطعة في الخرائط الإفرنجية اسم (غرانة - جرانة).

## قصة القورنة التابعة للبصرة

تقع تلك القصة شمال مدينة البصرة على مسافة ثمان ساعات منها. وهي عبارة عن قرية تقع في مكان يشبه الزاوية على يسار (١) نهر الفرات وعلى يمين نهر دجلة في المكان الذي يلتقى فيه نهر دجلة بنهر الفرات، ومن ثم فهي تقع بين النهرين وتعد بمثابة بداية القطعة الكبرى التي يُطلق عليها اسم الجزيرة، ومذكور في كتاب جهاننا وسائر الكتب التاريخية الأخرى أن قلعة القورنة كانت موجودة في تلك القرية، وعلى الرغم من وجود بعض أطلال تلك القلعة في الوقت الحالي، فإنه لا يُوجد ما يمكن أن يُطلق عليه قلعة، وبالقرية جامع يعد من الآثار القديمة، وعدد من الأبنية التي بنيت بالطوب الأحمر مؤخراً عبارة عن أكواخ أسقفها مصنوعة من الخوص والغاب.

ويذهب موظفون من البصرة إلى قصة القورنة لاستيفاء الرسوم الجمركية. ودائماً ما تُوجد سفينة من أسطول البصرة تقف هناك لضمان عدم هروب التجار من دفع الرسوم الجمركية، وبقرية القورنة بساتين للنخيل كثيرة جداً منها ما يتبع البصرة، ومنها ما يتبع عشيرة منتفك التابعة للبصرة، ومن الأشياء الجديرة بالذكر في تلك المقاطعة نوع من الجبن يقومون بتشكيله مثل الصاج.

---

(١) الجانبان الأيمن والأيسر لنهرى دجلة والفرات المذكوران في تلك الرحلة مطابقان للقواعد الجغرافية، بمعنى انه لو قام شخص بإعطاء ظهره لناحية منبع المياه ووجهه في ناحية سير المياه، فسيكون الواقع على الناحية اليمنى هو الساحل الأيمن، والواقع على الناحية اليسرى له هو الساحل الأيسر.

ساكنوها من العربان، وثمة وجود نهر ينبع من لورستان (١) كان يمر قديماً بأراضي مقاطعة جويزه، يعرف هذا النهر بين عرب خوزستان والإيرانيين باسم نهر كرخه، ويُعرّف عند رعايا الدولة العثمانية باسم نهر سويب، يصب هذا النهر في مياه شط العرب جنوب قسبة القورنة على مسافة نصف ساعة منها، ومذكور في كتاب جهاننا وسائر كتب التاريخ الأخرى إنه لم يبق أثر لمدينة أُبله، التي كانت مجاورة للقورنة، كما لم يبق أي أثر للقلاع التي كانت موجودة هناك، ولم يتبقَ فقط سوى مزارع النخيل الواقعة على ضفتي الأنهار التي يتم ريّها من بعض الأفرع المتفرّعة منها.

### عشائر منتفك التابعة للبصرة

تنقسم عشيرة منتفك التابعة للبصرة إلى قسمين رئيسيين هما عشيرة منتفك، الأصلية وهي تتكون من عدة بطون، كل فرقة منها تنقسم إلى أقسام متعددة، وبالرغم من إننا لم نقابل شخصاً يعرف معرفة صحيحة بكنه وأصل وتفرعات تلك العشائر، فإننا استطعنا خلال تلك السنة حصر العشائر والقبائل الموجودة ضمن عشائر منتفك، وتنقسم عشيرة منتفك الأصلية إلى ثلاث عشائر كبرى هي، طائفة بني مالك (٢)، الأجد، بني سعيد، وبكل عشيرة منها عدد من الطوائف سنبدأ في ذكرها الآن.

(١) لورستان هي عبارة عن الأماكن المجاورة لمدينة خرم آباد التابعة لإيران ويسكنها عشيرة لور، وخوزستان أيضاً مدينة تحم البصرة وهي من البلدان الإيرانية.

(٢) أوضحنا أن طوائف عشيرة بني مالك من حيث السكن ينقسمون إلى قسمين



[ ٢٥ ] من كتاب (رحلة الحدود بين الدولة العثمانية وإيران) ..... ٤٥٥

### طوائف عشيرة بن مالك

بنو تميم - الأحمودي - بنو أسكين - الغزلي - الاغزيوي - السليمانى - العيايشة  
- الفضيلة - بنو فهد - الهت - عبيد الحمام - عبيد الرحمة - السمامرة - الزوابعة -  
البراجعة - المراعة - ويبلغ عددهم ١٦ طائفة.  
الأخليوي - الروميض - الخواف - النهار - السفاضة - الشملة - الأغيوات -  
الشديد - العيان - السعيد - الثويمر - العكارشة النجار - الماجد - الحكام - الزبيد  
- بنو عقبة - الصريفين - العبودة - العميرات. وعددهم ٢٠ طائفة. عدد السكان  
الذكور في القسمين ألفان وخمسمائة.

### طوائف عشيرة الأجود

البدور - بنو ركاب - خفاجة - عبود - طوينات - زهيرية - صريفين - الطوقية  
- السويلات - الأحجة - الخويلة - السلايط - الشرهان - الجوارين - العثمانية -  
المارد - الأحصوم. ويكون عددهم ١٧ طائفة عدد السكان بهم ألف نسمة.

### طوائف عشيرة بنى سعيد

المعيوف - الشمسي - العيس - البزون - المريان - البراغيث - البو طويل -  
الفهد - الدريرع - الغشيم - الابهيج - الجميلة - الوبران - وعددهم ١٣ طائفة. عدد  
السكان ١٨٠٠.

وبخلاف تلك الأقسام الرئيسية الثلاثة المذكورة التابعة لمتنك، تُوجد أيضاً  
طوائف تعيش على يمين ويسار نهر الفرات من العشائر التي تعتبر في حكم الرعايا

٤٥٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

التابعين لمتنك وهي:

الطوائف الموجودة على يمين نهر الفرات في المكان الممتد من القورنة وحتى  
سوق الشيوخ

الطوائف الموجودة بمقاطعة الشرش:

طائفة بني منصور بجوار مقاطعة الشرش

عدد السكان تخميناً ١٠٠٠ نسمةٍ عدد السكان بها ٦٠٠ نسمةٍ.

طائفة صيامر - طائفة أهل الفارسية - طائفة أهل السورة - طائفة الدخيل

بها ٤٠٠٠ نسمةٍ بها ٤٠٠ نسمةٍ بها ٢٠٠ نسمةٍ بها ٢٠٠ نسمةٍ.

طائفة البخاترة والحجاج طوائف بني أسد والحدادين طوائف الغريق والخاطر

بها ٣٠٠٠ نسمةٍ بها ٣٠٠٠ نسمةٍ بها ١٠٠٠ نسمةٍ.

طائفة الشيخ راضي وإتباعها طائفة عبد العون طائفة الجوير

وطائفة بني معيوف وبها ٦٠٠ نسمةٍ بها ٢٠٠ نسمةٍ.

طائفة البوشامة طائفة الحسيني طائفة المشرف طائفة العباد

بها ٣٠٠ نسمةٍ بها ٢٠٠ نسمةٍ بها ٤٠٠ نسمةٍ بها ٦٠٠ نسمةٍ.

طائفة السماعيلين طائفة النصار طوائف الحسن وبني خيكان فرقة من بني سعد

بها ٢٠٠ نسمةٍ بها ٢٠٠ نسمةٍ بها ١٠٠٠ نسمةٍ بها ٥٠٠ نسمةٍ.

طائفة الحكام طائفة الحساوية طوائف النجادة والقضمان بسوق الشيوخ

[ ٢٥ ] من كتاب (رحلة الحدود بين الدولة العثمانية وإيران) ..... ٤٥٧

بها ٥٠٠ نسمة ٨٠٠ نسمة بها ٨٠٠ نسمة.

ويكون عدد السكان جميعاً: ١٧١٠٠ نسمة.

الطوائف الموجودة في الجزيرة على يسار نهر الفرات بدأ من القورنة وحتى  
سوق الشيوخ

طائفة السادة طائفة السعدون طائفة العطوان طائفة القرطوس

٦٠ نسمة ٣٠٠ نسمة ٤٠٠ نسمة ١٠٠ نسمة

طوائف النوامش طائفة العيس طائفة ابو صالح طائفة الجويبر طائفة الحول

٢٠٠ نسمة ٨٠٠ نسمة ١٠٠٠ نسمة ٢٠٠ نسمة ٢٠٠ نسمة

طائفة العمايرة طائفة بني ضيكان طائفة السواري طائفة الشامي

٢٠٠ نسمة ٣٠٠ نسمة ٢٠٠ نسمة ٦٠ نسمة

فرقة من بني سعيد طائفة الحكام طائفة النواشي الأخرى

٥٠٠ نسمة ٥٠٠ نسمة ٢٠٠ نسمة

وبذلك يكون عدد السكان بها ٥٣٢٠.

الطوائف التي تسكن على ضفتي نهر الفرات في المكان الممتد من سوق  
الشيوخ وحتى السماوة الطوائف التي تسكن في لناحية الشامية أي على يمين  
نهر الفرات

طائفة الأمطيرات - طائفة الحربية - طائفة البو شعيرة - طائفة الشالوشة

٤٥٨ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةٍ أجنبيّة

٤٠٠ نسمة ٥٠٠ نسمة ٣٠٠ نسمة ١٥٠ نسمة

الفلاحون الساكنون في قلعة كوت معمر طائفة أهل شبرون طائفة الفريجي

٢٠٠ نسمة ١٠٠ نسمة ٦٠٠ نسمة

الفلاحون الساكنون في قلعة العين عشيرة بني حكيم ساكني قرية سماوة

٥٠٠ نسمة ١٠٠٠ نسمة ٦٠٠ نسمة

وبذلك يكون عدد السكان ٤٣٥٠.

الطوائف التي تسكن يسار نهر الفرات أي في ناحية الجزيرة

طائفة الهامة الثامرية العليات القمر العصفورية

٢٠٠ نسمة ٦٠٠ نسمة ٤٠٠ نسمة ٣٠٠ نسمة ٥٠٠ نسمة

طائفة البوسوف طائفة الحسينات فلاحو قرية العرجة فلاحو قرية سيد ثامر

٤٠٠ نسمة \_\_\_ ٢٠٠ نسمة ٣٠٠ نسمة

فلاحو قرية البوطبر المحسن فلاحو قلعة الخضر بني حكيم في حي ديرة

٣٠٠ نسمة ٤٠٠ نسمة ٤٠٠ نسمة ٢٠٠ نسمة

طوائف عديدة تسكن قرية طلبة طوائف عديدة تسكن قرية الغليظة

٨٠٠ نسمة ٢٠٠ نسمة

طوائف متعددة تسكن قرية البوغراب ٣٠٠ نسمة

وبذلك يكون عدد السكان بها ٦٢٠٠ نسمة

## فهرس المحتويات

٣	[ ١٣ ] رحلات الأب بارثيلمى كاريه .....
٣	في العراق والخليج العربي وبادية الشام (١٦٦٩-١٦٧٤) .....
٣	الفصل الثالث: رحلة في خليج فارس إلى البصرة سنة (١٦٦٩) .....
٥	الدخول إلى شط العرب .....
٧	عرب البصرة يطلبون المساعدة من سفينة حربية فرنسية ضد الأتراك .....
١١	العرب يعذبون الأتراك .....
١٢	الرحالة ينقذ ستة أتراك .....
١٣	محاصرة العرب للقرنة وهروب يحيى باشا .....
١٧	تأثيرات الخوف المفزعة .....
١٨	قلعة الحفّار .....
٢٠	الحزن يخيّم على أهالي البصرة .....
٢٢	التزول عند جزيرة خرج .....
٢٥	صيد اللؤلؤ .....
٢٨	وصول الجيش التركي إلى البصرة سنة (١٦٦٩) .....
٣٢	ثورة البصرة .....
٣٧	تنصيب يحيى باشا بدلاً من حسين باشا .....
٣٨	الأتراك يفكرون بالتخلص من يحيى باشا .....
٤٠	العودة إلى البصرة .....
٤٢	واردات البصرة .....
٤٤	العودة إلى الخليج الفارسي والبصرة (١٦٧٠) .....

٤٦٠ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

٤٨..... الوصول إلى البصرة (١٦٧٠)

٤٩..... السياسة الدنيئة للأتراك في ابتزاز الأموال الطائلة من السكان

٥٥..... عقيدة الفُرس وعقيدة الأتراك

٦٠..... الرحالة ينقذ كنيسة الكراملة في البصرة

٦٤..... الوصول إلى القرنة

٦٦..... في البصرة

٦٩..... الآباء الكراملة في البصرة

٧٠..... محادثات مع مبعوث من بلاد فارس

٧٢..... سماع أخبار عن أسطول برتغالي في ميناء كنج

٧٣..... اتخاذ القرار بالذهاب عن طريق البحر إلى ميناء كنج

٧٥..... مغادرة البصرة في قارب صغير

٧٧..... ثانياً: طريق الإياب سنة (١٦٧٤)

٧٧..... الوصول إلى البصرة

٧٩..... اتخاذ القرار بالتوجه عبر النهر إلى بغداد

٨٠..... استئجار دائق الرحلة

٨١..... الرحلة من البصرة إلى حلب

٨٤..... التغلب على المُشكلة في القرنة

٨٥..... مغادرة القرنة إلى شط الحي

٨٩..... [ ١٤ ] رحلة كارستن نيبور سنة ١٧٦٥ م

٨٩..... الرحلة من الخرج إلى البصرة

٩٢..... ملاحظات حول بوصلة الشرقيين

٩٦..... ملاحظات حول البصرة

١٠٦..... موقع مدينة البصرة القديمة

٤٦١	فهرس المحتويات
١١٤	حربٌ بين أهل البصرة والعرب
١٢٠	الطرق المؤدية من البصرة إلى حلب عبر الصحراء
١٢٥	الرحلة من البصرة إلى مللوم ومشهد علي، ومشهد الحسين، والحلة، وبغداد
١٣٧	[ ١٥ ] رحلة أبراهام بارسونز ١٧٧٥
١٣٧	القرنة
١٤٠	الوصول إلى البصرة
	وصف مدينة البصرة؛ الضرائب التي تُدفع هناك؛ التجارة المُستوردة إليها
١٤١	والمُصدرة منها
١٤١	موقع البصرة
١٤٥	المساجد والبيوت
١٤٦	الطقس في البصرة
١٤٦	الوكالة التجارية الإنكليزية في البصرة
١٤٧	المؤون والأغذية في البصرة
١٤٩	الميدان والسراي
١٥١	الزير
	الحصار الفارسي للبصرة؛ ظاهرة طبيعية لافتة للإنتباه؛ الصفقات في البصرة؛ تقدم
١٥٢	الجيش الفارسي؛ تقدم الحصار؛ مغادرة البصرة
١٥٤	غيمة سوداء كبيرة تغطي البصرة
١٥٥	طلبة الجيش الفارسي تصل إلى مصب شط الحويزة
١٥٦	مُتسلّم البصرة يسمح للجيش الفارسي بالتسلل دون اعتراض
١٥٨	تواطؤ بني كعب مع الفرس
١٦٤	الشيخ طعمة يُصمّم على مقاومة الهجوم الفارسي
١٦٧	بداية الأعمال العدائية بين الفرس والأترك

٤٦٢ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

- ١٦٨..... عدد سكان البصرة قبل الطاعون وبعده
- ١٧٠..... الهجوم الفارسي على البصرة
- ١٧٣..... مُتسلّم البصرة الشيخ عبد الله يلوذ بالفرار
- ١٧٤..... موقف الأهالي الأرمن واليهود والآباء الكراملة من الهجوم الفارسي
- ١٧٥..... جزيرة چلبی
- ١٧٨..... الهارثة
- ١٧٩..... مغادرة البصرة ودخول الخليج العربي. القرين
- ١٨٢..... جزيرة خرج
- ١٨٣..... مدينة بوشهر
- ١٨٣..... طاعون بغداد يحتاج البصرة
- ١٨٤..... تدهور العلاقة بين كريم خان الزند والإنكليز
- ١٨٥..... معاملة موظفي الوكالة التجارية الإنكليزية في شیراز
- ١٨٦..... الوكالة التجارية الإنكليزية في بوشهر
- ١٨٩ [ ١٦ ] رحلة صموئيل ايفرز من البصرة إلى البحر الأبيض المتوسط سنة ١٧٧٩. ١٨٩
- ١٨٩..... من البصرة إلى القرنة
- ١٩١..... الوصول إلى القرنة
- ١٩٣ [ ١٧ ] رحلة الأب دومينيكو سيسيني
- ١٩٣..... الإحتفال بالوصول إلى القرنة
- ١٩٣..... شط العرب ونهرا دجلة والفرات
- ١٩٤..... الوصول إلى البصرة والإقامة فيها
- ١٩٥..... الإقامة في بيت السيد لاتوش
- ١٩٨..... سُفن القراصنة الفرنسية تجوب سواحل الخليج



فهرس المحتويات ..... ٤٦٣

- ١٩٨..... الحُمى الثلاثية تَسبَّب في موت الكثير من الإنكليز في البصرة
- ١٩٩..... وصول هانجهان إلى البصرة قادماً من مَسقط، ومغادرة سوليخان
- ١٩٩..... الإقامة عند المُبشَّرين.....
- ٢٠٠..... دير المُبشَّرين في البصرة
- ٢٠٠..... حال البصرة بعد تدميرها على يد الفُرس
- ٢٠١..... تأريخ نشوء البصرة
- ٢٠٢..... موقع البصرة وتنازع العرب والأترك عليها
- ٢٠٢..... إمام قُلي خان يُحاصر البصرة
- ٢٠٣..... مدينة البصرة أم المدن والطاعون
- ٢٠٤..... وكالة الشركة الهندية البريطانية.....
- ٢٠٥..... منزل السيد لاتوش
- ٢٠٥..... سفن الشحن والبريد الموجودة في البصرة
- ٢٠٧..... الدور الوطني لخواجة يعقوب في أثناء الحِصار الفارسي
- ٢٠٨..... الأرضة في البصرة
- ٢٠٨..... البصرة القديمة.....
- ٢٠٩..... مدينة الزبير
- ٢١٠..... الطقس في البصرة
- ٢١١..... الحياة في الريف
- ٢١٢..... الأطعمة والأشربة والفواكه والمالح في البصرة
- ٢١٣..... أنواع الأسماك
- ٢١٤..... الفُرس يُبيدون الأرانب في البصرة
- ٢١٤..... النخيل في البصرة
- ٢١٥..... الحرب المُستعرة بين زعماء بلاد فارس
- ٢١٦..... كلمة موجزة عن التجارة الإنكليزية في البصرة

٤٦٤ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

رحلة العَودة من البصرة إلى القسطنطينية عبر الفرات بغداد - حلب - قبرص -

الإسكندرية ..... ٢٢٠

مغادرة البصرة والوصول إلى الحِلَّة عبر الفُرات ..... ٢٢١

[ ١٨ ] رحلة تايلر (١٧٨٩ - ١٧٩٠) ..... ٢٢٩

الزير ..... ٢٢٩

البصرة ..... ٢٣٢

البناء في البصرة ..... ٢٣٥

فواكه البصرة ..... ٢٣٥

تجارة البصرة ..... ٢٣٧

الطاعون ..... ٢٣٨

القباب البصرية ..... ٢٣٩

انطباعات عامّة عن العرب ..... ٢٣٩

مغادرة العراق ..... ٢٤٤

نصائح عملية للرحالين ..... ٢٤٥

[ ١٩ ] رحلة الفرنسي أوليفيه سنة ١٧٩٤ ..... ٢٤٩

حصار البصرة: ..... ٢٤٩

في أيام ولاية عمر حاصر كريم خان البصرة سنة ١٧٧٥ ..... ٢٤٩

سليمان باشا وأحمد أغا: ..... ٢٥٦

استبداد أحمد أغا ..... ٢٥٧

[ ٢٠ ] رحلة أبي طالب خان سنة ١٨٠٤ م ..... ٢٦٣

القرنة ..... ٢٦٣

معقل «الكوت الفرنجي» ..... ٢٦٣

٤٦٥	فهرس المحتويات
٢٦٤	أبو طالب بالبصرة
٢٦٨	المرأة الأرمنية وقضيتها
٢٧١	أبو طالب يغادر البصرة إلى بومباي
٢٧٣	[ ٢١ ] رحلة دُوبريه
٢٧٦	النشاط التجاري
٢٧٧	الشركات
٢٧٨	جدول بالبضائع المُودَّعة في بغداد:
٢٨٧	[ ٢٢ ] مذكرات فيلبي
٢٨٧	في البصرة
٢٨٩	مطامع السيد طالب النقيب
٢٩٠	تشكيل الحكومة المؤقتة
٣٠١	[ ٢٣ ] أرض النخيل
٣٠١	عائق جرف البصرة
٣٠٤	شط العرب
٣١٠	أرض التمور
٣١٣	زراعة التمور
٣١٩	الإقتراب من المُحمَّرة
٣٢٤	المُحمَّرة ونهر كارون
٣٢٧	مدينة المُحمَّرة
٣٣٢	الإقتراب من البصرة
٣٣٥	مدينة البصرة

٤٦٦ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

- وصف البصرة ..... ٣٣٨
- العشار ..... ٣٤٢
- مدينة العشار ..... ٣٤٦
- الواجهة النهرية في البصرة ..... ٣٥٣
- الحكم العسكري البريطاني في البصرة ..... ٣٥٨
- يوم إجازة في العشار ..... ٣٦٤
- الحياة على ضفاف شط العرب ..... ٣٧٣
- آراء واستنتاجات ..... ٣٧٨
- [ ٢٤ ] نص كي لسترنج في كتابه (بلدان الخلافة الشرقية) ..... ٣٨٩
- العراق ..... ٣٨٩
- [ ٢٥ ] من كتاب (رحلة الحدود بين الدولة العثمانية وإيران) ..... ٤٠٩
- التعريف بإيالة البصرة ..... ٤٠٩
- الحدود العامة للإيالة ..... ٤٠٩
- الأوصاف السابقة والحالية للبصرة ..... ٤١٠
- المحاصيل والتجارة والصناعات المحلية بالبصرة ..... ٤١١
- معلومات إضافية في موضوع التجارة ..... ٤١٣
- معلومات إضافية ..... ٤١٤
- الفوائد الناتجة من تأثير المد والجزر ..... ٤١٤
- أنواع السفن والزوارق "القوارب" ..... ٤١٨
- أسباب سوء الأحوال في البصرة عاماً بعد عام ..... ٤١٩
- الضرر الذي لحق بمياه البصرة ونتائجه ..... ٤٢٠
- أحوال ضفة قرية كُردلان ..... ٤٢٢
- سكان البصرة وملابسهم وعاداتهم ..... ٤٢٣

٤٦٧	فهرس المحتويات
٤٢٥	المقاطعات التابعة للبصرة وتوابعها
٤٢٥	المقاطعات التي تتبع إدارة البصرة حالياً من المقاطعات المذكورة
٤٢٦	المقاطعات التي تتبع عشيرة منتفك وتقع داخل إيالة البصرة
	المقاطعات التي كانت تتبع البصرة قبل ذلك، وتتبع إدارة المحمّرة منذ أن دخلت المحمّرة
٤٢٨	تحت سيطرة إيران
	المقاطعات التي كانت تتبع في الأصل، ثم انتقلت إلى إدارة إيران منذ أن أصبحت جزيرة
٤٢٩	الخنزر تحت تصرف إيران
٤٣٠	أحوال الفلاحين
٤٣١	كمية المحاصيل وقيمتها بالنسبة لمساحة الأراضي
٤٣٢	بعض معاملات المقاطعات المذكورة
٤٣٣	أوصاف قرية المحمّرة
٤٣٥	عدد سكان جزيرة الخنزر وتوابعها وحجم محاصيلها
٤٣٧	جزيرة المحلة
٤٣٨	الأحوال السابقة لمقاطعة المحمّرة وما حولها
٤٤٠	أسباب تردد عشيرة كعب على الإيرانيين
٤٤١	الأموال التي كانت تؤديها عشيرة كعب
٤٤٢	معلومة إضافية
٤٤٣	الرسوم الجمركية للمحمرة وما جاورها
٤٤٣	عمق غاطس المحمّرة وحجم السفن التي يتحملها
٤٤٤	أقسام عشيرة كعب وأحوال وأطوار وأصول كل قسم
٤٤٦	استطراد
٤٤٦	بعض طبائع وعادات العشائر المذكورة
٤٤٩	ملابس وزينة النساء

٤٦٨ ..... البصرة في خمسٍ وعشرين رحلةً أجنبيّة

الحرارة في منطقة المحمّرة وما حولها ..... ٤٥٠

قصبّة الزبير التابعة للبصرة ..... ٤٥١

مقاطعة الكويت التابعة للبصرة ..... ٤٥٢

قصبّة القورنة التابعة للبصرة ..... ٤٥٣

عشائر متفك التابعة للبصرة ..... ٤٥٤

طوائف عشيرة بن مالك ..... ٤٥٥

طوائف عشيرة الأجدود ..... ٤٥٥

طوائف عشيرة بنى سعيد ..... ٤٥٥

الطوائف الموجودة على يمين نهر الفرات في المكان الممتد من القورنة وحتى سوق الشيوخ

..... ٤٥٦

الطوائف الموجودة في الجزيرة على يسار نهر الفرات بدأ من القورنة وحتى سوق الشيوخ

..... ٤٥٧

الطوائف التي تسكن على ضفتي نهر الفرات في المكان الممتد من سوق الشيوخ وحتى

الساواة الطوائف التي تسكن في لناحية الشامية أي على يمين نهر الفرات ..... ٤٥٧

الطوائف التي تسكن يسار نهر الفرات أي في لناحية الجزيرة ..... ٤٥٨